

مُفَكِّرُوا الْإِسْلَامَ

- ١ -

تأليف

البارون كار دوقو

نقله الى العربية

عادل زعيتر

القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٧٩

جميع حقوق الطباعة والنشر
محفوظة

لدار المتحدة للنشر
للطباعة والنشر والتوزيع

٩٢ شارع البطريركية - بيروت - لبنان
ص.ب ٩٠٥٩ - ت ٢٣٩١٩٤ - ٢٥٩٥٢٠

مُفَكِّرُو الْإِسْلَامِ ١

العاقلون والمؤرخون
والفلسفة السياسية



مقدمة المؤلف

يلتفت الجمهور الأكبر إلى الشرق في الوقت الحاضر مقداراً
فمقداراً وتَصِيرُ عُرَى الصَّلَاتِ بين الأمم الأوربية وأمم الإسلام
في ميادين القتال أيام الحرب الأخيرة أوثقَ مما كانت عليه شيئاً
فشيئاً.

والآن تَمْلِكُ فرنسا إمبراطوريةً إسلامية واسعة، فيجب أن
تكون تامة العِرْفان بالأمم التي تمارس سلطانها عليها أو نفوذها
فيها، ويجب أن تُدْرِكَ روحَ هذه الأمم وماضيها وعقائدها وعمق
غرائزها وما كان لها من مَجْدٍ سابق.

وكان للاستشراق القائم على البحث الشامل نشاطٌ كبير في
السنين الأخيرة من جهةٍ أخرى، وهذا إلى ما نَعْلَمُ من أمر المكان
اللائق الذي يَشْغَلُهُ بلدنا في هذا النوع من الدراسات منذ أكثر
من ثلاثة قرون. وقد أدَّت جهودُ المستشرقين إلى إطلاعنا على
آدابٍ واسعة غنية دقيقة مُنَوَّعة إلى الغاية زاخرة بالتفصيلات
والوقائع والأفكار. وقد طَبَعَ الشرقيون أنفسهم كثيراً من كتبهم
القديمة، فما تشتمل عليه الآدابُ الإسلامية العظيمة الثلاثة.

العربية والتركية والفارسية، من عتاد منشور في الوقت الحاضر ضخماً، دَعَّ الفروع القابعة، ويصيرُ صعباً بالتدرّج على من ليس عنده تجربةٌ طويلة أن يتوجَّه في هذه الأنواع من « البحار » كما يقول العرب، ولذا غَدَت الكتبُ الجامعة الشاملة لإشاراتٍ واتجاهاتٍ عامةٍ في الموضوع أمراً ضرورياً في أيامنا.

ولم نقصد أن نضع هنا جدولاً، بل اختياراً، ولم نرد أن نقول كلَّ شيء، بل إبرازَ أهمِّ الوجوه والتعريفَ بأهمَّات الكتب والإشعارَ ببعض الأفكار الجوهرية والدلالة على بعض الذرَى، وليس ما نعرضُ على القارئ أسماءً أو عناوينَ كتبٍ فقط، بل شيءٌ ذو حيوية، وأشخاصٌ وأمثلةٌ وأفكارٌ وطبائع.

وجميعُ هذا الأدبِ مُشبعٌ من الفكر، ويصدُرُ عن جميع الآثار تقريباً شعورٌ تلقائيٌّ في الفقه والأخلاق والتصوف، وتهيمن على حياة أفضحِ فاتحِ أذواقٍ ذهنية صادقة، وذلك بضربٍ من الفرائز العالية في حُسْنِ الإدارة وفي العقل والحكمة.

وينطوي تصميمُ هذا المؤلف على خمسة مجلِّدات، فوقفَ المجلد الأول على العاهلين والمؤرخين والفلسفة السياسية، - وجعلَ المجلدُ الثاني وقفاً على « الجغرافية والعلوم »، وقد عُرِفَ جغرافيو العرب في اربعة منذ زمنٍ طويل، واشتهر علماء الأمة العربية من فلّكيين وجبّريين وكيماويين وأطباء منذ القرون الوسطى، وسنذكرُ في هذا الكتاب مع التلخيص ما قدّم هؤلاء العلماء من خِدمٍ للعلم.

وستتناول « التفسيرَ والفقه » بالبحث في المجلد الثالث، وقد

كان تاريخُ مصادر الإسلام موضعَ بحثٍ بالغِ الدقة من قِبَل كثير من المستشرقين الأفاضل المنتسبين إلى أمم كثيرة فيكاد يُؤلَّفُ الآن فرعاً مستقلاً في عِلْمِ الشرق، وستكلم عنه بشيءٍ من التفصيل.

وسيكون عنوان المجلد الرابع «الفلسفة الكلاسيكية وعلم اللاهوتية وعلم الكلام والتصوف»، وقد بحثنا في هذا الموضوع سابقاً، وأما المجلد الخامس فتُدْرَسُ «المِلَلُ والنحلُ والمذهبُ الليبرالي الحديث» فيه.

البارون كاراً دُو قُو



الفصل الأول

العاهلون

- الخلفاء العباسيون العظام :
- المنصور والرشيد والمأمون ، الحركة العلمية في عهد المأمون
- صلاح الدين
- هادم الخلافة العباسية: هُلاكو

مكتبة الرشد للاستشارات التربوية

الخلفاء العباسيون العظام: المنصور والرشيد والمأمون، الحركة العلمية في عهد المأمون

كان المنصور، الذي هو ثاني خلفاء الدولة العباسية^(١) أميراً عظيماً جداً، فهو الذي أقام بغدادَ لِيَجْعَلَهَا عاصمةَ الإمبراطورية بعد أن كانت دمشقُ عاصمةَ الدولة في عهد الأمويين، وأقام المنصورُ فوق رُبُوعِ مُشْرِفَةِ على الفرات قلعةَ الرَّافِقَةِ في مقابل الرَّقَّةِ، وعَزَّزَ وسائلَ الدفاع عن الكوفة والبصرة، وكان للأذواق الفارسية حُظُوةً في عهده، وأكَبَّ الناسَ في خلافته على الآداب والطبِّ، ولا سيما علمَ الفلكِ، لأنه كان مُنْجِباً، وَسَطَعَ في هذا العصر، نجمُ الفقيهين العظيمين، أبي حنيفةَ ومالكِ بنِ أنسٍ، وقَسَا المنصورُ في حكمه على أسلافه، ومن ذلك ما رُوِيَ من خَبَرَ مجلسِ العلماء الذي عُقِدَ في منزله فدار الحديث فيه حَوْلَ خلفاء بني أمية وحَوْلَ سياستهم وأسباب سقوطهم، فتناول بالنقد كثيراً منهم، وأثنى على هشام بن عبد الملك، وقال مُضِيئاً: «وكان رجل القوم هشام، ولم تزل بنو أمية ضابطين

(١) نذكر حَوْلَ تاريخ هؤلاء الخلفاء على سبيل المثال: كتاب الخلافة ونشوتها وانحطاطها وسقوطها لموير، الطبعة الثانية، لندن، ١٨٩٢، وكتاب مروج الذهب للمعمودي، طبعة بر بيه دومينار وبافه دو كورتني، باريس، سنة ١٨٦١ وما بعدها.

لِمَا مَهَّدَ لَهُمُ مِنَ السُّلْطَانِ يَحُوطُونَهُ وَيَحْفَظُونَهُ وَيَصْرِفُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ كَسْبِهِمْ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ أَدَانِيهَا حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى أَبْنَائِهِمُ الْمُتَرَفِّينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ جَهْلًا مِنْهُمْ بِاسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْنًا مِنْهُمْ لِمَكْرِهِ مَعَ اطِّرَاحِهِمْ صِيَانَةَ الْخِلَافَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّيَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ، وَأَلْبَسَهُمُ الذُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمْ النِّعْمَةَ».

وقد اختار المنصورُ موضعَ بغدادَ لِمَا رَأَى مِنْ سَهُولَةِ الدِّفَاعِ عَنْهُ وَعَدْوِ^(٢) جَوِّهِ، وَكَانَ الْمَوْضِعُ مَحْمِيًّا بِالْفِرَاتِ وَبِقَنْوَاتٍ مُتَفَرِّعَةٍ مِنْ هَذَا النَّهْرِ، وَلَمَّا بَحِثَ عَنْهُ الْخَلِيفَةُ وَجَدَ مِنَ الرَّهْبَانِ مَنْ أَتَوْا عَلَى هَوَائِهِ وَمِيَاهِهِ وَجَوِّهِ، فَأَمَرَ بِحَفْرِ خُطُوطِ أَسْوَارِهِ وَمِيَادِينِهِ الْمَهْمَةَ وَوَضَعَ الْحِجْرَ الْأَوَّلَ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ نَافِذَةٍ إِلَى أَرْبَعَةِ شَوَارِعَ رِئِيسِيَّةٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَبْوَابُ مُقَبَّبَةً عَلَى شَكْلِ الْأَقْوَاسِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَتْ تَعْلُوهَا طَبَقَاتٌ ذَاتُ فِتْحَاتٍ عَلَى شَكْلِ الْأَقْوَاسِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا فَيَمْتَدُّ الْبَصْرُ مِنْهَا إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ الْمَحِيطَةِ، فَكَانَ يُهَيِّمُنُ عَلَى وَادِي دِجْلَةَ مِنْ بَابِ خِرَاسَانَ الْمَشْرِفِ عَلَى الشَّرْقِ، وَكَانَ هَذَا الْبَابُ يُسَمَّى بِبَابِ الْفَلَاحِ لِأَنَّ سَعَادَةَ الْعَبَّاسِيِّينَ بَدَأَتْ فِي خِرَاسَانَ، وَكَانَتْ الْأَبْوَابُ الْأُخْرَى تُشْرِفُ عَلَى الشَّامِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةَ بِاسْمِ مُؤَلِّفِهَا فِدْعِيَّتُ «مَدِينَةُ الْمَنْصُورِ».

(٢) عذا المكان: كان بعيداً من الوخم.

وكان هارون الرشيد حفيداً للمنصور، وكان ابناً لأمةٍ من أصلِ
يَمَانِيٍّ اسْمُهَا الْحَيْزُرَان. وقد خَلَفَ أخاه الهادي حينما كان هذا
يَسْتَعِدُّ لإهلاك أخيه. ومن المحتمل أن تكون أمُّ الرشيد قد سَمَّته،
وقد صَلَّى هارون على جُثمان أخيه، ونُوْدِيَ به خليفةً سنة ١٧٠ بعد
الهجرة، فلما حَلَّت السنةُ التاسعة والسنة العاشرة من عهده تَرَكَ
بغدادَ التي لم يُحِبَّها واستقرَّ بالرَّقَّة، وهكذا كان يَسْهَلُ عليه أن
يَزْجَرَ الشَّامَ وأن يَرْقُبَ تُغُورَ الروم. ومع أن الرشيد لم يَكُنْ فاتحاً
ضَبْطاً فقد أَظْهَرَ في جميعِ خلافته نشاطاً عسكرياً عظيماً، وذلك أنه
كان عليه أن يُطْفِئَ فِتْنَةً مستمرة في مختلف أقسام دولته، وهو لم
ينقطع عن مقاتلة الروم بين كَرٍّ وَفَرٍّ. وكانت أملاكُ الإسلام من
الاتساع بحيث يجاوز نِطاقَ علم الإدارة في ذلك الحين؛ وكان الخليفةُ
غير قادر على حفظ أملاكه الواسعة متحدةً هادئةً من جميع الجهات؛
وكانت الأندلس قد انفصلت في عهد المنصور، فانفصلت إفريقية في
خلافة الرشيد فعلاً.

وَوَجَدَ الرشيدُ في نَقْفُورَ من ناحية الروم عدواً كِفِيّاً، وذلك أن
الرشيد اغتم فرصة وقوع فِتْنٍ في القسطنطينية سنة ١٨١ فساق
قُوَّاتٍ مهمةً إلى آسية الصغرى ونال نصراً بالقرب من أنقرة، وقد تمَّ
تبادلُ الأسرى بعد ذلك، ودَفَعَتْ رِينِي جزيَّةً وفازت بهدنة لأربع
سنين. فلما مرَّ بعضُ الزمن أرسل نَقْفُورُ إلى الخليفة كتاباً مُهيناً،
وإليك نَصَّه: «من نَقْفُورَ ملكِ الروم إلى هارونَ ملكِ العرب، أما
بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُحِّ وأقامت نفسها
مقام البيذق فحَمَلَتْ اليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً بجَمَلِ أضعافها
إليها، لكنَّ ذلك لضعفِ النساءِ وحقهن، فإذا قرأتَ كتابي هذا فارُدُّ

ما حَصَلَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِهَا وَافْتَدِ نَفْسَكَ، وَالْأَفَالِيفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ» .
 وَاسْمَعْ جَوَابَ هَارُونَ: « مِنْ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَقْفُورِ
 كَلْبِ الرُّومِ، قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ يَا ابْنَ الْكَافِرَةِ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ، لَا
 مَا تَسْمَعُهُ»، أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ هَذَا الْكِتَابَ الْمُخْتَالَ، وَخَاضَ غِمَارَ
 الْحَرْبِ وَخَرَّبَ بِلَادَ الرُّومِ فِي آسِيَةِ الصَّغْرَى حَتَّى هِرْقَلَةَ، فَاضْطُرَّ
 الْقَيْصَرُ، الَّذِي كَانَ لَدَيْهِ مَا يَشْغُلُهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، إِلَى دَفْعِ الْجَزِيَةِ،
 وَلَمَّا دَنَا آخِرُ عَهْدِ هَارُونَ زَحَفَ بِنَفْسِهِ سَنَةَ ١٩٠ عَلَى رَأْسِ
 ١٣٥،٠٠٠ رَجُلٍ ضِدَّ الْقَيْصَرِ مُجَدِّدًا وَحَاصِرَ هِرْقَلَةَ، فَأَجَادَتْ هَذِهِ
 الْمَدِينَةُ الدِّفَاعَ، وَكَادَ الْخَلِيفَةُ يَرْتَدُّ لَوْلَا أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ قَصْدِهِ عَمَلًا
 بِقَوْلِ شَيْخٍ نَصَحَهُ بِأَنْ يَجْمَعَ حِجَارَةً وَيَقِيمَ مَدِينَةً مُوَاجِهَةً لِلْمَكَانِ
 الْحَصِينِ، وَيَرَى الْأَهْلُونَ هَذِهِ الْأَهَبَ فَيَتَسَلَّلُونَ لَيْلًا مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ
 وَيُفْلِتُونَ مُسْتَعِينِينَ بِجِبَالٍ. وَمَا يُرَوَى، أَيْضًا، أَنَّ الْأَلَاتِ هِيَ الَّتِي
 قَرَّرَتْ أَمْرَ النِّجَاحِ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّشِيدَ قَالَ لِقَوَّادِهِ أَنْ يُضَيِّفُوا مَوَادَّ
 مَلْتَهَبَةً إِلَى الْحِجَارَةِ الَّتِي تَرْمِيهَا الْمَجَانِيقُ، وَهَذَا هُوَ نِظَامُ النَّارِ
 الرُّومِيَةِ الَّذِي اسْتُعْمِلَ حِيَالَ الرُّومِ مِنْ قَبْلِ أَعْدَائِهِمْ، وَقَدْ احْتَرَقَتْ
 الْمَدِينَةُ وَسَلَّمَتْ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمَكِّيُّ الشَّاعِرُ^(٣):

هَوَتْ هِرْقَلَةُ لَمَّا أَنْ رَأَتْ عَجْبًا خَوَاتِمًا تَرْمِي بِالنَّفْطِ وَالنَّارِ
 كَأَنَّ نِيرَانَنَا فِي جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ مَصْبَغَاتٍ عَلَى أَرْسَانِ قِصَّارِ
 وَبَعْدَ هَذَا الْفَتْحِ أَمْرَ الرَّشِيدِ بِهَدْمِ كِنَائِسِ النَّصَارَى فِي الْبِلَادِ

(٣) هكذا في ياقوت: معجم البلدان، ج٤ (ط. وستنفلد) ص ٩٦١. أما المؤلف

فقد نسبها لأبي نواس.

الواقعة على الحدود، ويشدد بتطبيق النظم التي تُلزم النصارى بوضع علامات فارقة على أزيائهم.

وفي هذا العهد تأخذ البحرية الإسلامية في الظهور، فتغزى جزيرتي أقريطش وقُبرس ويؤسر أمير البحر الرومي على رواية مؤرخي بزنطة، - وتعنُّ للرشيد خطة وصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر بقناة.

ولم تُنمَّ خِطته على حفر قناة السويس، فقد كان يحول دونها خطأ جغرافيًا، وذلك أنه كان يُعتقد أن مستوى البحر الأحمر مرتفع عن مستوى البحر المتوسط بعض الارتفاع، فيخشى أن يُبقى أحدهما على الآخر، وإنما كانت الخطة تقوم على تحويل من النيل إلى البحر الأحمر، فعلى هذا النهر تسيّر السفن الآتية من البحر المتوسط ثم تدخل البحر الأحمر سائرة وتلك القناة فتبلغ جُدّة، وفضلاً عن ذلك فإن هذه هي الطريق التي كان يسلكها الحجاج الآتون من الإسكندرية، وقد تركت تلك الخطة لمواقع فنية، فاستبدلت بها خطة لا تقوم على انحراف من النيل في مصر العليا، بل في الدلتا نحو ببلوزة (الفرما أو الطينة) وبحيرة تنسيق، فاعترض الوزير البرمكي يحيى بن خالد على ذلك محتجاً بأن من الممكن أن يستولي الروم على ذلك فيأتوا بسفنهم حتى ميناء مكة، وكانت تساور فاتح مصر، عمرو بن العاص، عين الخطة فعدّل عنها لمثل هذه الأسباب، وليس هناك ما هو أقل من قصد حميد، وما ينطبق عليه قول المسعودي تقريباً: «وآثار الحفر بين هذين البحرين... [بينه] على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلباً لعمارة الأرض، وخصب البلاد، وعيش الناس بالأقوات، وأن يحمل إلى كل بلد ما ليس فيه من

الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق والله تعالى أعلم.

وإذا عَدَوْتُ مَغَازِي الرِّشِيدِ وَجَدْتَهُ قَدْ قَامَ بِعِدَّةِ رِحَلَاتِ نَشَاتٍ
عَنِ الْحَجِّ، وَقَدْ حَجَّ بِأَبْتِهِ ثَمَانِي مَرَاتٍ، مُوزَّعاً كَثِيراً مِنَ الْعَطَايَا بَيْنَ
الرَّعِيَةِ، مَتَّبِعاً بِجَمْعٍ مِنَ فُقَرَاءِ الْحَجِيجِ مَصْحُوباً بِفَرِيقٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَالْحُكَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ زُبَيْدَةُ تُعْنَى بِأَمْرِ الْحُجَّاجِ أَيْضاً،
فَشَادَتْ فِي الْبَلَدِ الْمُقَدَّسِ مَنَازِلَ كَثِيرَةً لِلْقَوَافِلِ، وَأَنْشَأَتْ صَهَارِيحَ
وَأَبَاراً فِي مَكَّةَ وَعَلَى طُولِ طَرِيقِ الْحَجِيجِ، وَبَنَتْ، كَذَلِكَ، فَنَادِقَ
كَثِيرَةً لِلْمَسَافِرِينَ عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، وَأَسَّسَتْ فِي فَارَسَ مَدِينَةَ تَبْرِيزَ
وَمَدِينَةَ قَاشَانَ، وَكَانَتْ زُبَيْدَةُ حَفِيدَةً لِلْمَنْصُورِ وَأَمِيرَةً عَزُوماً.

وما أظهره الرشيد من كرمٍ وبهاءٍ ظلَّ شهوراً، وما يُرَوَى أَنَّ
الشاعرَ مَرْوَانَ^(٤) نَظَّمَ قَصِيدَةً مَجَّدَ بِهَا الرِّشِيدَ فَكَافَأَهُ هَذَا الْخَلِيفَةَ
عَلَيْهَا بِخَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَخِلْعَةٍ سَنِيَّةٍ وَبِعَشْرَةِ مِائَةِ رَقِيقٍ مِنَ الرُّومِ
وَبِرْدَوْنٍ مِنْ خَاصِّ مَرَآكِبِهِ وَبَقِيَ عَلَيْنَا أَنَّ نَعْلَمَ هَلْ الْخِزَانَةُ الَّتِي
تَكْفِي لِمِثْلِ هَذِهِ الْهَبَّاتِ كَانَتْ تُغْذِي بِوَسَائِلِ قَاسِيَةٍ أَحْيَاناً، وَكَانَ
سَنَاءُ هَذَا الْعَهْدِ يُلْقِي أَشْعَتَهُ حَتَّى أَقَاصِي الْعَالَمِ، وَيَرْوِي كُتَّابُ
الْأَجَانِبِ أَنَّ الرِّشِيدَ اسْتَقْبَلَ وَفدَاءً مِنْ عَاهِلِ الصِّينِ وَوَفدَاءً آخَرَ مِنْ
شَرْلَمَانَ، فَعَادَ سَفْرَاءُ هَذَا الْعَاهِلِ الْغَرِيبِ الْعَظِيمِ، حَامِلِينَ هَدَايَا رَائِعَةً
تَشْتَمِلُ، فِيهَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، عَلَى فِئَلَةٍ وَسَاعَةٍ مَائِيَّةٍ كَمَا رَوَى الْمُؤَرِّخُ
اينهارد Eginhard ، وَكَانَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ مَصْنُوعَةٌ مِنْ نَحَاسٍ وَقَلْزٍ^(٥)

(٤) هو الشاعر مروان بن أبي حفصة (٧٢١ - ٧٩٨م)

(٥) القلز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

مُكَمِّتٍ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَكَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الْوَقْتِ بِفِرْسَانٍ يَفْتَحُونَ
الْأَبْوَابَ وَيُغْلِقُونَهَا عَلَى عِدَدِ السَّاعَاتِ فَتَدُقُّ بِإِيقَاعِ كُرَاتٍ عَلَى
تَاقُوسٍ^(٦)، وَكَانَ الرَّشِيدُ أَوْلَ خَلِيفَةِ عَبَّاسِيٍّ لَعِبَ بِالشُّطْرَنْجِ
وَالنَّرْدِ، فَيَجْرِي رَوَاتِبَ عَلَى أَمْرِ اللَّاعِبِينَ، وَكَذَلِكَ أَمْرٌ بِإِقَامَةِ أَلْعَابِ
الصَّوْلَجَانِ وَالْكُرَّةِ وَرَمِيِّ النَّشَابِ، وَشَجَّعَ الرَّعِيَةَ عَلَى مِمَارَسَةِ ذَلِكَ
مُعِينًا جَوَائِزَ لِذَلِكَ.

وَتَجَدُّ فِي أَخْلَاقِ هَذَا الْخَلِيفَةِ طَابِعًا يُشَوِّهُ هَذَا الْوَجْهَ السَّاطِعَ،
وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَاسِيًا، وَتَعَرَّضَهُ رِوَايَةٌ «أَلْفَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ»، الَّتِي
انطوتْ عَلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ عَنْهُ، وَالَّتِي يُرَى فِي كَثِيرٍ مِنْهَا طَابِعُ
تَارِيخِيٍّ، سَائِرًا مُتَنَكِّرًا وَمَعَهُ صَدِيقُهُ جَعْفَرُ الْبِرْمَكِيِّ وَسَيَّافُهُ الْوَفِيُّ
أَوْ جَلَّادُهُ، مَسْرُورٌ، وَبَيْنَمَا كَانَ الرَّشِيدُ عَلَى حَافَةِ الْمَوْتِ فِي أَثْنَاءِ
إِحْدَى الْغَزَوَاتِ أَمْرٌ بِإِحْضَارِ أَخِي لِرَيْسِ ثَائِرٍ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَهُ،
فَلَامَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ إِزَامَةِ هَذِهِ السَّفَرَةِ الَّتِي أَصِيبَ فِيهَا بِالْمَرَضِ
الَّذِي يَمُوتُ مِنْهُ، وَأَمْرٌ بِتَقْطِيعِهِ إِزْبًا إِزْبًا عَلَى مَرَأَى مِنْهُ.

يَبْدُو أَنَّ أَعْظَمَ شَائِبَةٍ يُظَلِّمُ بِهَا هَذَا الْعَهْدَ هُوَ قَتْلُ جَعْفَرِ
وَالْقَضَاءُ عَلَى الْبِرَامِكَةِ، وَقَدْ بَقِيَ هُوَلاءِ الْآلِ الْمَشْهُورِينَ الَّذِينَ كَانَ
لَهُمْ نَصِيبٌ فِي إِعْلَاءِ عَهْدِي الرَّشِيدِ وَالْمَنْصُورِ، مِثْلًا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى
صُرُوفِ الدَّهْرِ وَسُلْطَانِ الْقَدَرِ، وَمَا يُزَعَمُ أَنَّ جَعْفَرَ أَبْرَمَ ضَرْبًا مِنْ
الزَّوْجِ الْإِسْمِيِّ بِأَخْتِ الْخَلِيفَةِ، الْعَبَّاسَةِ، كَمَا يَتِمَكَّنُ الرَّشِيدُ، الَّذِي

(٦) انظر إلى الرسالة المصورة Magasin pittoresque ، ١٨٥٢ ، ص ٢٥٦

و ٣٢٩ ، و ١٨٣٤ ، ص ٧٩ .

كان كثير الكلف بأخته وبصحبة جعفر، من التلهي بهما معاً، ولكن بما أن الغرام نشأ بين العباسة وهذا الذي كان زوجاً شرعياً لها فقد نسي الميثاق وصارت الأميرة حُبلى، فاشتاط الرشيدُ غيظاً وأمر الجلادَ أن يأتيه برأس صديقه، ويُلقي أبو جعفر الذي كان شيخاً وأخوه الفضلُ في السجن ويعاملان بشدة، ويموتان فيه قبيل وفاة هارون، وتصادرُ أموالُ الآل في جميع الدولة، ويضعُ الرشيدُ، الذي كان شاعراً، شعراً عن هذا الحادث في الليلة التي عَقبت التنفيذ، ويذعو العالمَ اللغويَّ الأصمعيَّ لِيُسمِعَهُ إياها:

لأن جعفر هاب أسباب الردى لنجا بمهجته طير منجم^(٧)
ولكان من حذر المنون بحيث لا يسمو إليه به العقاب القشع^(٨)
لكنه لما تقارب وقته لم يدفع الحدثان عنه منجم^(٩)
وأمر الرشيد بعد ذلك بعرض شطري جثة القتيل التي قسمت
إلى جزأين، على طرفي جسر بغداد.

وعلى الرغم مما اتفق للرشيد من تجربة فإنه نظم وضع الدولة بعده على وجه لا يمكن أن يكون جالباً لغير النوائب، وذلك أنه تردد في اختيار ولي عهد له بين المأمون وولده الأكبر: محمد الأمين، فأما من ناحيته فكان يفضل المأمون لأنه اقدر على الحكم على ما يرى، وقال: «إني لأتعرّف فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادي».

(٧) الطمر: الفرس الجواد، وقيل المستعد للوثوب والعدو،

(٨) القشع: الضخم،

(٩) الحدثان: الغرائب

ولكن المأمون يُؤلّد من غير أمة فارسية اسمها مَرَاجِل، على حين كان الأمينُ ابناً لَزُبَيْدَةَ، وَيُضَغَطُ الرشيدُ من قِبَل هذه الأميرة ومن قِبَل الهاشمين فيأتي قراره لمصلحة الأمين، ومع ذلك فإنه يُضَيّفُ في قراره أمرَ انتقال السلطة إلى المأمون بعد الأمين وأن يكون الحُكْمُ للمأمون في القسم الشرقيّ من الدولة، أي خراسان، في أثناء حياة الأمين، وَيُكْتَبُ عهدٌ في ذلك بين الأخوين ويُوَضَعُ في كعبة مكة، ومن شأن هذا النظام أن يُضَعِفَ الدولة لقيامه على نوع من التقسيم وأن يُعَرِّضَها لجميع المشاكل التي يُمكن أن تنشأ عن الانابة.

ولسُرْعان ما ظهر الخلاف بين أخلاق الأخوين بعد وفاة أبيهما، وذلك أن الأمين كان يَقْضِي في بغدادَ حياةَ تَرَفٍ وفُجُورٍ، وأن المأمون كان يُحِبُّ نفسه وَيُقِيمُ أدلةً على الحكمة بالحُكْم في خراسان، قال الطبري: «[قال الفضل بن سهل للمأمون] قد قرأت القرآن وسمعت الأحاديث، وتفقّمت في الدين، فالرأي أن تبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وتقعّد على اللبود وترد المظالم، ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء، وأكرمنا القواد وأبناء الملوك... وحططنا عن خراسان ربع الخراج، فحسن موقع ذلك منهم، وسروا به.... ولما أفضت الخلافة إلى محمد... أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالة واللعب.»

ولم يلبث هذا الوزير أن نَصَحَ الأمين بأن يَتَخَلَّص من أخيه، وكان للأمين ابنٌ، فَذَكَرَ الفضلُ له أن الرشيد أساء تنظيم الخلافة، وذلك أنه لاحقاً للأخ فيها بوجود الابن، وَيُذَعِنُ الأمين بعد لأيٍ،

وعلى ما كان من دُونِيَّةِ جنود الأُمِينِ في السلاح فقد صَبَرُوا على الحِصَارِ شهوراً كثيرةً، ثم حاول الخليفةُ المعتزُ في قصره أن يُلَوِّذَ بالفرار عندما كادت وسائله وأمواله تنفد، فأخبرَ طاهرٌ بعزمه من قبل عيونه الذين بَثَّمِ حَوْلَهُ، فأوجب قَلْبَ الزورق الذي رَكِبَهُ الأُمِينُ لِيَعْبُرَ النهرَ، وذلك بمَلَّاحِينَ أرسلهم لهذا الغَرَضِ، فَجَاءَ الخليفةُ سَبْحاً، ولكنه لم يَنْشَبْ أن عُرِفَ من رائحةِ المِسْكِ التي كانت تَنْطَعُ من صدره، فَطَعِنَ وَذُبِحَ، وَأُرْسِلَ إلى المأمون رأسُهُ الذي فُصِّلَ عن جِسْمِهِ وَطُلِيَ.

ولم يشترك هذا الأُميرُ في القتال شخصياً، فقد بَقِيَ في خراسان، وإِنَّمَا ارتعش وَبَكَى عندما رأى رأسَ أخيه، ومع ذلك فقد أمر بِنَصْبِ الرَّأْسِ في صحنِ قصره على خشبية، وأعطى الجُنْدَ، وَأَمَرَ كُلَّ من قَبَضَ رزقه أن يَلْعَفَهُ.

ولما عَلِمَت زبيدةُ خَبَرَ قَتْلِ ابْنِهَا أَمْسَكَتْ عن طلبِ الثَّارِ بالدمِ المِسْفُوكِ، وإِنَّمَا حَدَّتْ وَكَبَسَتْ مِسْحاً من شَعْرِ، ثم أَحْضَرَتْ مِخْبَرَةً وقرطاساً وكتبت أبياتاً مؤثرةً خاطبت بها المأمون، فبكى المأمون وألقى على طاهرٍ مسؤوليةَ قَتْلِ أخيه، وكان الأُمِينُ قد تَاهَلَ في أثناء الحِصَارِ وَتَزَوَّجَ فتاةً من البرامكة شاعرةً رائعةَ الجمال نابغةً في البيان، فَرَثَّتْهُ كثيراً بعد موته.

وَعُدَّتْ هذه الحربُ مَعْبَرَةً عما بين عنصري الفُرسِ والعربِ من تنافسٍ في دولة الخلفاء^(١٣)؛ فكان المأمون الذي هو ابن لفارسية،

(١٣) انظر إلى جرجي زيدان على الخصوص، الأمويون والعباسيون، ترجمة مرغليوث، ص ٢٠٣.

وَيَطْلُبُ مِنَ الْمَأْمُونِ أَنْ يَعْدِلَ عَنِ الْحُكْمِ فِي الرَّيِّ وَقَوْمِسَ
 وَطَهْرِسْتَانَ وَأَنْ يَكُونَ لِلْأَمِينِ عِنْدَهُ صَاحِبٌ بَرِيدٍ يُكَاتِبُهُ بِالْأَخْبَارِ
 يَوْمِيًّا عَنِ حُكُومَةِ خِرَاسَانَ، وَذَلِكَ لِكَيْلَا تُفْلَتَ هَذِهِ الْوَلَايَةُ مِنْ
 سُلْطَانِهِ، وَيَرْفِضُ الْمَأْمُونُ ذَلِكَ، وَيَنْهَى الْأَمِينَ عَنِ ذِكْرِ اسْمِهِ فِي
 الْمَنَابِرِ، وَيَأْمُرُ الْأَمِينَ وَزَيْرَهُ بِأَنْ يُعْلَنَ سَقُوطُهُ.
 وَلَكِنِ الْمَأْمُونُ كَانَ مُسْتَعْدًّا، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ الْمُدْرَبِ
 الْحَسَنِ الْعُدَّةَ قَائِدًا مَاهِرًا اسْمُهُ طَاهِرٌ، وَيَهْزِمُ هَذَا الْجَيْشُ بِالْقَرَبِ مِنْ
 الرَّيِّ جَيْشَ الْخَلِيفَةِ السَّيِّئِ التَّنْظِيمِ بِلَا عَنَاءٍ، وَيَأْتِي لِمَحَاصِرَةِ بَغْدَادَ،
 وَيَكُونُ هَذَا الْحِصَارُ طَوِيلًا هَائِلًا، وَتُبْدِي كِتَابُ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ
 تَضَادًا نَادِرًا، وَذَلِكَ أَنَّ جُنْدَ الْمَأْمُونِ كَانُوا مُجَهَّزِينَ بِأَتَمِّ مَا يَقْتَضِيهِ
 عِلْمُ الْحَرْبِ مِنْ عَتَادٍ فِي ذَلِكَ الْحِينِ، فَيَرْكَبُونَ جِيَادَ الْخَيْلِ،
 وَيُزَوِّدُونَ بِدُرُوعٍ وَزُرُودٍ وَأَدْوَاتٍ وَقَائِيَةٍ كَامِلَةٍ مَعَ سَوَاعِدٍ^(١٠)، الْخِ
 وَيَحْمِلُونَ حِرَابًا وَتُرُوسًا ثُبْتِيَّةً، وَكَانَ هَذَا الْجَيْشُ حَازِرًا لِأَلَاتِ
 الْحِصَارِ، وَعَلَى الْعَكْسِ كَانَ جُنُودُ الْأَمِينِ يَقَاتِلُونَ عُرَاةً تَقْرِيبًا، فَلَمْ
 يَكُنْ حَوْلَ كُلَّاهُمْ غَيْرُ سِرْوَالٍ صَغِيرٍ وَزُنَّارٍ، وَقَدْ صَنَعُوا
 لِأَنْفُسِهِمْ ضَرْبًا مِنَ الْخُوذِ الْوَرَقِيَّةِ وَالْمَجَانِ^(١١) الْأَسْلِيَّةِ^(١٢) الْمَطْلِيَّةِ
 بِالْقَطْرَانِ وَالْمَخْشُوعَةِ بِالْحَصْبَاءِ، فَيَحَارِبُونَ بِمَا يَحْمِلُونَ فِي أَكْيَاسِهِمْ
 مِنْ حِجَارَةٍ وَأَجْرٍّ، وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ مِرْقًا مِنَ النَّسِيجِ رَايَاتٍ لَهُمْ،
 وَيَنْفُخُونَ فِي أُنَابِيْبِ الْقَصَبِ وَقُرُونِ الْبَقْرِ، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ اسْمُ
 «جَيْشِ الْعُرَاةِ».

(١٠) السواعد: جمع ساعدة، وهي ما يلبس على الساعد من حديد أو نحاس أو ذهب.

(١١) المجان: جمع الهنة وهي الترس.

(١٢) الأسل: نبات دقيق الأغصان طويلها.

والذي نُشِئَ وَفَقَ الذَّوْقَ الفَارِسِيَّ من قِبَلِ البرمكيِّ جعفر، يُمَثَّلُ العنصرَ الأول، وكان العنصرُ الثاني يَتَجَسَّدُ في الأمين الذي كان مؤيِّداً من قِبَلِ أمه الأميرة العربية وفريق الهاشمين، فتمتع بحسن المنزلة في جميع عهد المأمون أهلُ فارسَ وأنصارهم الذين يُدْعَوْنَ بالشُعوبية، وكان هذا الأمير وهو في الشوارع يَسْمَعُ من العرب من يَقُولون له: «يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان!»، وكان للشعوبية منزلةٌ في المجالس حيث يَجْهَرُونَ بالحلمة على العرب، وكان أحدهم، سَهْلُ بنُ هارونَ مديراً للمكتبة العامة، وآلَفَ علماء هذا الحزب كتباً عن عيوب العرب مُفَنِّدِينَ هؤلاء الذين يَجْعَلُونَ أنفسهم فوق الشعوب الأخرى، واتَّفَقَ للعرب ظهورُ مَنْ يدافعون عنهم، وكان ابنُ قُتَيْبَةَ أشهرهم.

ويَغْدُو المأمونُ خليفةً، ولا يُريدُ الإقامةَ ببغدادَ في بدء الأمر، ويُفَضِّلُ الاستقرارَ بِمَرْوَ على الرغم من إلهاف الفضل بن سهل الذي أظهر له مشاكلَ إدارة الدولة ومصاعبَ استيعابِ جميع ولاياته من غير أن يَسْكُنَ العاصمة. واستمر هو والفضل في الانهماك في التنجيم. ويذكر المسعودي أن المأمون قلد عادات ملوك الفرس الساسانيين وأنه كان مشغولاً بالعلوم القديمة وقد نجح في فهمها والتبحر فيها^(١٤).

وفي تلك الأثناء تشتعل فتنة خطيرة في العراق وبغداد نفسها كما كان قد أبصره وزيره، فعزم المأمون على الذهاب إلى بغداد، وسابقاً

(١٤) اورد المؤلف اقتباساً عن المسعودي لم نجده في «مروج الذهب» ولا في «التنبيه والإشراف».

قد تَخَلَّى عن الفضل الذي كان يَكْرَهُهُ القَوَاد، فأرسل إليه مَنْ اغتاله في الحَمَام، وتَجَدُّ في طَبَع هذا الخليفة شيئاً من المداهنة، وذلك لأن المؤرخين يَزُوون مع التوكيد أنه هو الذي أمر بقتل الفضل، وأنه، مع كَوْنه أراد قَتَلَ الأمين، بكاه وأمر بإهلاك قاتليه، وكذلك الرشيدُ أَهْلَكَ قاتلي جعفر، وأمر المأمون، أيضاً، بقتل أعظم قَوَّاده بعد طاهرٍ، هَرَثَمَةَ، الذي أعان على فَتْح بغداد وأخمدَ فِتْن السَّوَاد.

ولما دَخَلَ المأمونُ بغدادَ سنة ٢٠٤ حَيَّاه أفراد الأسرة المالكة والقَوَاد، وكان طاهرٌ أهمَّ هؤلاء، فاستُدْعِيَ من الرِّقَّة، وقُلِّدَ ولايةَ بغدادَ في بدء الأمر، ثم صار الخليفة يَنْتَمُ منه لِمَا كان حضوره يُذَكِّرُه بقتل أخيه، على ما رُوِيَ، فأرسله نائباً عنه إلى خراسان، وقد وُجِدَ مَيِّتاً على فراشه بعد أن قضى عامين هناك. وكان طاهرٌ ذا قيمة ذهنية عالية، وكان يَشْمَل العلماء والشعراء برعايته، ويُعَدُّ كتابه الذي وَجَّهه إلى ابنه حينما نُصِب والياً على ما بين النهرين نموذجاً للفلسفة السياسية، وقد رواه المؤرخ ابن الأثير بأسره في مؤلفه، وقد أمر المأمون بنقله وإرسال نُسخٍ منه إلى عُمَّال دولته، وقد احتفظ ابنُ طاهرٍ وذريته من بعده بنبابة الشرق حيث أَلْفُوا أسرةً مالكة.

وَاتَّفَقَ للمأمون في آخر عهده مِثْلَمَا اتفق للرشيد من نشاطٍ حربيٍّ، ومن ذلك ما كان من سَفَرِهِ سنة ٢١٧ إلى مصر المضطربة دائماً وقَتْلِهِ الطاغية عَبْدُوس، ومن ذلك ما كان من قيادته بنفسه في سنة ٢١٥ وسنة ٢١٨ حَمَلَاتٍ على القيصر تُوْفِيل، فوفقَ فيها، وذلك أنه استولى على كثير من المواضع وأن عدداً كبيراً من الروم رَضُوا

يأعطاء الجزية. وقد أمر الخليفة بإقامة قلعة قوية على الحدود في طوانة، ويُرَوَى أنه هو الذي وَضَعَ تصاميمها وتُوَفِّي المأمون حين عودته من غزوته الثانية لبلاد الروم.

وكان هذا العهدُ بالغَ الازدهار تَرَفًا وثِقَافَةً، ومن ذلك ما أُلْعِ إليه المسعوديُّ حَوْلَ زواج الخليفة بابتة الوزير حسن بن سَهْلٍ فدلَّ على شيءٍ من طابع الأُبْهَةِ في بِلَاطِ ذلك العصر، وذلك أنه نَثَرَ على أعضاء الأُسْرَةِ المالكة وعلى القُوَّادِ والكَتَّابِ بِنَادِقِ مِسْكِ فِيهَا رِقَاعٌ بأَسْمَاءِ ضِيَاعٍ وَأَسْمَاءِ جَوَارٍ وَصِفَاتِ دَوَابِّ، ثم نَثَرَ على سائر الناسِ الدنانيرَ والدراهمَ ونَوَافِحَ^(١٥) المِسْكِ وَبَيْضَ العنبرِ، وقد ترك الخليفة لوزيره، كَيْمًا يَقُومُ هذا الوزيرُ بهذا الإسرافِ في العطاء، خَرَاجَ ولايتي فارس والأهوازِ لسنةٍ واحدةٍ.

وفي هذا العهد كانت الفلسفةُ والجَدَلُ أمرين دارجين، وتكاد تَجِدُ في هذا الزمن أصلَ المذاهبِ الرئيسيةِ التي يَنْقَسِمُ الفكرُ الإسلاميُّ بينها، وتَظْهَرُ المعتزلةُ، ويمتاز المعتزلةُ في المجالسِ التي تُعقدُ بحضرة الخليفة حيث كانوا يُمَثِّلُونَ باثنين من أهمِّ علمائهم، وهما: أبو الهذيل وإبراهيمُ النَّظَّامِ. وكذلك أخذَ الصوفيةُ يُظْهِرونَ أنفسهم، وقد واجَهَ أحدهم المأمون فحادثه بكلِّ حرية ورآه غيرَ ضارٍ. وفي هذا العهد تَأَلَّقَ نجمُ الفقيهِ المؤسسِ للمذهبِ الشافعي كما تَأَلَّقَ في العهدِ التالي نجمُ الكِنْدِيِّ الذي هو أولُ من تَخَرَّجَ على الثقافةِ اليونانيةِ من أكابرِ الفلاسفةِ، وكان المأمونُ يأمرُ بالبحثِ عن الكتبِ

(١٥) النوافج: جمع النافجة، وهي وعاء المسك، أو الجلدة التي يجتمع فيها المسك.

القديمة وَيُشَجِّعُ المترجمين، وكان لديه مكتبٌ للترجمة، وبفضل المأمون أُوغِّلَتِ الآدابُ والعلومُ اليونانية في الإسلام مباشرةً أو بواسطة شيوخ من الفرس أو السريان، وكان للموسيقا الشرقية أيام المأمون بعضُ مُمَثِّلِيهَا المشهورين، ومن هؤلاء نَذَكُرُ أَحَدَ أفرادِ الأُسْرَةِ المالكة، إبراهيمَ بن الخليفة المهديّ الذي نازعه السلطانَ ذاتَ حين، وكان الفلكُ، ولا سيما الجِغرافِيَّةُ، موضعَ رعاية الخليفة، فيَجْعَلُ من بطانته بعضَ الفلكيين، ويأمر برسمِ أزياجِ فَلَكيَّة، ويوجبُ قياسَ درجةِ أرضية، ويضع مقياساً رسمياً جديداً اسمه الذُّراعُ الأسود، وحاصلُ القول أنك لا تجِدُ فصلًا في تاريخ الفنِّ والفكر الشرقيِّ من غير ذكرٍ لاسم هذا العاهل ومن غير أن تُشْعُرُ بنفوذه.

وقام المأمون بالحُكْمِ بنفسه في آخر قسمٍ من عهده، وعاد لا يدَعُ لقبَ الوزير لكتّابه، وكان إداريًّا ماهراً مُطَّلِعاً على كلِّ ما يَقَعُ في أقصى أقسامِ إمبراطوريته وكان يَمِيلُ إلى الرحمة بطبعه، ومع ذلك فقد كان يَبْلُغُ من الغَضَبِ أحياناً ما يُسْرِعُ معه في العقاب، وكان رفيعَ الدين عطوفاً على مناحي المعتزلة الحرة، وتُرَوَّى عنه أقوالٌ رائعةٌ يُعبِّرُ فيها عن الإحساس الدينيِّ والفلسفيِّ في التسليم بالقدر، وكانت وفاته وفاةً حكيمةً وأميرٍ عظيم.

مكتبة المأمون في دارالعلوم الإسلامية في القاهرة

صَلاح الدين

تتضمن مصرُ على آثارٍ فنيةٍ مشهورةٍ تُعدُّ مَدِينَةَ بِها للفاطميين والمماليك خاصةً، وكان يُمثَلُ الفاطميين في إبان عَظَمَتِهِم فَرْدٌ شادٌ وأميرٌ فيلسوفٌ وعالمٌ في الكلام والنفس غريبُ الأطوار، كان يُمثَلُهُم مؤسسُ الدروز، الخليفة الحاكم، الذي سنتكلم عنه عندما نتناول الفرقَ بالبحث، وعلى العكس كان يُوجدُ على رأس الأيوبيين الذين خَلَفُوا الفاطميين أميرٌ حكيمٌ سنيٌّ وبطلٌ إسلاميٌّ صِرَفٌ بَقِيَ قائماً في ذاكرةِ الأُمم على أنه أبهى تَقَمُّصٍ لِفُرُوسَةِ الشَّرْقِ، وأَعْنِي بذلك صلاحَ الدين الشهرير.

وكان هذا الفاتح ذا مزية عظيمة، وما كانت الظروف لتظهر له كثيرة الملاءمة، وكان متوسط النسب، فغادرَ الكردِيَّ البسيطُ أبوه جبالَ كُرْدِسْتان ليقوم بخدمته أمراءَ صِغارٍ فيما بين النهرين، وكان اسمُه أُيُوبَ، فانتحلت الدولة هذا الاسمَ لنفسها، وولَدَ صلاحُ الدين^(١٦)، الذي كان اسمُه يوسفَ، في تَكَرُّبِ الواقعةِ على دِجَلَةَ سنة

(١٦) انظر الى صلاح الدين في لحة عنه كتبها رينو في المجلة الآسيوية Journal Asiatique، جزءه، وفي سيرته لبهاء الدين في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، باريس، أو في ذخيرة الترجمة الشرقية: حياة صلاح الدين، ١١٣٧-١١٩٣ لندن، ١٨٩٧

السُّلْم على قافلةٍ إسلامية، وقد عدَّ صلاح الدين هذه الإهانة فرصةً فعاد إلى قتال النصارى، وكسَّرهم بالقرب من طبرية، وذلك في معركةٍ يسميها النصارى معركة طبرية ويسميها المسلمون معركة حِطِّين، وقد أحرَق في أثناء المعركة ما كان يَكْسُو الأرض من الخَنْج^(١٨) والعشب اليابس، وقد أسَرَ ملك القدس وكبير الهيكليين وأرناط الشايثوني وسنيورات آخرين، فأما الأسرى العاديون فقد قيِّدوا ثلاثين ثلاثين أو أربعين أربعين وبيعوا في الأسواق المجاورة، وأما الأسرى السُّرأة فقد عوملوا بكرَمٍ عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بيده انتقاماً لما ألحقَ بالإسلام من إهانات، وكذلك فقد أمرَ بقتل الهيكليين والمنحارين^(١٩) الذين كانوا أشدَّ الناس عداوةً لدين النبي، وقد حُسِبَ قتلُ هؤلاء عملاً صالحاً، فعهدَ في تنفيذه إلى علماء جيشه وأتقيائه.

وتسقط فلسطينُ نتيجةً لهذه المعركة، وتعود القدس إلى الإسلام، ويرى المؤمنون أن هذا الفتح الأخيرَ أعظمُ مجدٍ ناله صلاح الدين، وتُطهَّرُ مساجدُ المِصرِ المقدسِ، التي كانت قد حوّلت إلى كنائس، بماء الورد وتُرَدُّ إلى الدين الإسلامي، وتُحترَمُ كنيسةُ القيامة، ويُعتَبَرُ جميعُ النصارى الذين هم على المذهب اللاتيني أسارى، ولكنهم تُركوا يخرجون مع تزويد من أدوا جزيةً بأرزاقٍ وخُفراء.

(١٨) الخنج: نبات كالطرفاء.

(١٩) المنحار: الكثير النحر.

٥٣٢، ودَخَلَ في جيش أتابك نور الدين، واشتهر في معركة البابين ضدَّ الفرنج، وهزَم الجيشُ الشاميُّ الذي كان ينتسب إليه، والذي كان بقيادة شيركوه، ملكَ القدس، أموري، الذي كانت تساعده كتائبُ مصرية، وفي حَمَلَةٍ أُخرى يزحفُ الجيشُ الفرنجِيُّ إلى القاهرة فيأتي شيركوهُ وصلاحُ الدين لنصرِ المصريين، ثم يأمرُ شيركوهُ بقتل الوزيرِ المصريِّ شاور ويقبِضُ على منْصِبِهِ، ويمُوتُ شيركوهُ بعدَ قليلٍ زمنٍ تاركاً لصلاح الدين اقتطاف ثمره هذا الفوز، ومن ثمَّ تَرَى ان صلاح الدين وَجَدَ نَفْسَهُ سيداً لمصرَ، ومع ذلك فإنَّ الوضْعَ بَقِيَ دقيقاً معقداً. فمن جهةٍ كان قد سار نائباً عن نور الدين وباسم الخليفة العباسيِّ ببغداد، ومن جهةٍ أُخرى صار وزيراً للخليفة الفاطميِّ الشيعيِّ بالقاهرة، وقد عَرَفَ أن يستخلص نصيبه الخاصَّ من هذه العوامل ببراعة إن لم يَكُنْ بتردُّد. وكان أولَ ما صنَعَ أن ظلَّ على اتفاقٍ مع نور الدين فَظَهَرَ سُنِّيًّا غيُوراً، ومن المحتمل أن كان مخلصاً، فامتنع عن شرب الخمر، وتكَلَّفَ سبيلَ التقشف، ثم تواطأ مع نور الدين على إلغاء خلافة القاهرة، وقد أُعِدَّ هذا الانقلابُ بدروسٍ ومواظبٍ في المدارس العليا، وعود الأهلون على المذاهب السُنِّيَّة، وزال مُلكُ الفاطميين من غير سَفْكَ دَمٍ، ومات الخليفة الساقط في الوقت المناسب، وهذا ما أدَّى إلى اتهام بعض المؤرخين صلاح الدين بقتله، ولما نُفِّدَ هذا العملُ تَفَاسَدَ سيدُ مصرَ الجديدُ ونور الدين، وما مازجَ نور الدين من غَمٍّ بسبب ارتقاء نائبه القويِّ البالغِ القوةِ حَمَلَهُ على قَصْدِ مصرَ بجيشٍ كما يَدْخُلُهَا لولا أنه مات، وَيَقْتَنِمُ صلاحُ الدينُ هذا الظرفَ فيتخذُ وَضْعَ المدافع عن الدِّينِ المهانِ بانتصاراتِ نالها الفرنجُ وَيَبْرُزُ منتقماً لهذا

الدين، وَيَنْزِعُ دِمَشقَ من ابن نور الدين، وَيَفُوزُ بِلِقَبِ سُلطانِ مِصرَ
والشامِ من خَلِيفَةِ بَغدادِ.

وَيُوجِّهُ صِلاحُ الدينِ جَمِيعَ نِشاطِهِ ضِدَّ الفَرَنجِ منذَ هَذا الحَينِ،
وَيَظْهَرُ كَثِيرَ الحِماسَةِ، ويَكتَـبُ إلى الأَمراءِ قَبيلَ ذلكَ قائِلاً يَنكُرُ ما
تَمَ من الصلحِ بَينَـهُمِ وِبينَ الفَرَنجِ «وكتـبَ إلى ابنِ ابي عِـصرونَ: وردَ
الخبرُ بصلحِ بَينَ الفَرَنجِ والدمشقيينَ وبقيَّةِ بِلادِ المُسلمينَ ما دَخَلتْ
في العَقدِ ولا انتَظمتْ في سَنكِ هَذا القِصدِ والعدو لهما واحِدَ،
وصرفَ مالِ اللهِ الذي أَعَدَ لِمُغَمِّ الطاعَةِ ومُصلِحَةِ الجَماعَةِ في هَذهِ
المِـعصيةِ المُغضِبَةِ لِلهِ ولرسولِهِ ولِصالحِي الأُمَّةِ....»^(١٧)

ويستولي صلاحُ الدين على حلبَ والموصِلَ في السنتين ٥٧٩
٥٨١ هـ، وبما أن النصارى قاموا بغارة على جزيرة العرب فإن
صلاح الدين حادَّ عن اعتداله المعتاد وأمر بقتل كلِّ من يُمكنُ
الوصولُ إليه، وقد كتب في هذه المناسبة يقول لأخيه [العاذل] الذي
كان يقوم بالحُكْمِ في مِصرَ: «وهؤلاء الأَسارى فقد ظهروا على
عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بِلادِ القِبلةِ وتطوفوها... ولا بد
من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود
منهم مخبرٌ»، وقد ذَبَحَ عِدداً منهم في وادي مِنيَ بالقرب من مَكَّةَ،
أي المِكانَ الذي جَرَّتْ العادَةُ على التَضحيةِ فيه بالشاءِ والخِزافِ
أيامَ الحِجِّ من كلِّ سَنَةٍ.

وبما حَدَّثَ سَنَةَ ٥٨٣ أن استولى أرناطُ الشاتِيونِيُّ في سِواءِ

(١٧) هذا الكتاب مختصر في الترجمة الفرنسية.

وَيَعُودُ النصارى إلى الاعتداء، فيأتون لَفَرَضِ الحِصَارِ أَمَامِ عَكَا، وَيَحْمِلُ عَلَيْهِمُ صَلَاحُ الدِّينِ فِي أَثْنَاءِ مَوَاصِلَتِهِمُ أَعْمَالِ الحِصَارِ، وَيَشْتَدُّ القِتَالُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ جِهَادُ المُسْلِمِينَ سَهْلًا بِاطِّرَادِ، فَكَتَبَ صَلَاحُ الدِّينِ يَقُولُ لِلنَّخْلِيْفَةِ ذَاتَ يَوْمٍ: «وَإِنَّمَا هُوَ [أَيِ العَدُوِّ] كُلِّ مَا وَرَاءَ البَحْرِ وَجَمِيعٍ مِنْ فِي دِيَارِ الكُفْرِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَدِينَةٌ وَلَا بَلَدٌ وَلَا جَزِيرَةٌ...! إِيَّاهُ جَهَّزْتُ مَرَاقِبَهَا... وَحَمَلْتُ ذَخَائِرَهَا... وَاسْتَخْرَجْتُ دَفَائِنَ نَفَائِسِهَا... وَنَادَوْا فِي نَوَادِيهِمْ بِأَنَّ البِلَادَ هِيَ بِلَادِهِمْ... وَأَنَّهُ مِنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا لِحَرْبِ الإِسْلَامِ وَهَبَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَذَهَبَتْ عَنْهُ عِيُوبُهُ.»^(٢٠)

وَلَكِنَّ الصَّحَّةَ كَانَتْ تَغْدِرُ بِصَلَاحِ الدِّينِ أَحْيَانًا، وَهُوَ، إِذْ وَقَعَ مَرِيضًا، بَكَى لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ الإِشْتِرَاكَ فِي العَمَلِ، وَتَسَقُّطِ عَكَا فِي أَيْدِي الفَرَنْجِ أَخِيرًا، وَتَدَبُّ الجَسَارَةِ فِيهِمْ بِسَبَبِ هَذَا النِّجَاحِ، فَيُرِيدُونَ مَحَاوِلَةَ اسْتِرْدَادِ القُدْسِ بِقِيَادَةِ قَلْبِ الأَسَدِ الشَّهِيرِ: رِكْرُدُسَ وَيَغْلِبُونَ صَلَاحَ الدِّينِ فِي أَرْسُوفَ، وَيَشْعُرُ هَذَا البَطْلُ المُسْلِمُ بِعَجْزِهِ عَنِ المَقَاوِمَةِ فِيهِدِمُ الأَمَاكِنَ الَّتِي يُمَكِّنُ سَقُوطَهَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ يُخَرَّبُ حِصُونَ عَسَقْلَانَ، وَبَلِغَ مَا أَحْسَسَ مِنْ أَلْمٍ بِسَبَبِ ذَلِكَ غَايَتَهُ. فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي بِأَسْرِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهْدِمَ مِنْهَا حِجْرًا وَاحِدًا.»

وَيُوجِّهُ جَمِيعَ جِهَادِهِ إِلَى الدِّفَاعِ عَنِ القُدْسِ المُهَدَّدَةِ، فَيُصَلِّحُ

(٢٠) هذا هو الكتاب الوحيد الذي يورده أبو شام في الروضتين والعماد في الفتح وفي الترجمة الفرنسية تعرف.

قلاعها، ويُخربُ الحقولَ المجاورة، ويُركنُ جيشه فوق المرتفعات القريبة، ويدنو رِكَرْدُسُ، ويتشاور صلاح الدين والأمراء، ويرى في أشد ما يكون من هيجان، ولم تكذْ تَكُونُ له قدرةٌ على الكلام في بدءِ الأمر، ومع ذلك فإنه يستردُّ شجاعته، ويُلهبُ حماسةَ الأمراء ويحرضُهم على الدفاع عن القدس لكيلا تقعَ في أيدي الكفار مرةً أخرى، ويعدُّه الرؤساء بالمساعدة، غير أن الجيش يتذمر، ويتمرد تقريباً، وذلك أنه يريد تجربةَ الحظِّ في خوض آخر معركة، لا معاناةَ حصارٍ شاقٍ غير مُجدٍ. ويئنُّ صلاح الدين من هذا النقص في الإيمان، ولكن الغد لم يكذْ يَظْهَرُ، وذلك حينما صار يَنتَظِرُ الانكسار، حتى أبصر الجيشَ النصرانيَّ يحارب متقهراً.

والواقعُ أن النصارى كانوا منقسمين، وأن رِكَرْدُسُ كان مُغتَمّاً بآبناء إنكلترة مفكراً في الرجوع إليها، ويُشرعُ في مفاوضات. كان صلاح الدين يُطيلُها، وكان كلُّ من الأميرين يجاملُ الآخر كثيراً في أثنائها، ويمرض رِكَرْدُسُ، ويُزِيلُ صلاح الدين إليه فاكهةً وثلجاً وكلَّ ما يساعِدُ على شفائه، ويظهرُ المسلمون أكثرَ نصَباً من النصارى، فيمضي صلاح الدين هُدنةً لثلاث سنين مع أسفه الشديد.

ويمنحُ صلاح الدين النصارى حقَّ زيارة القدس، ولكن بلا سلاح، ويخضُرُ حجَّهم بنفسه، ويسهر على سلامتهم، ويدعو رؤساءهم إلى مائدته، وأخيراً يغادر رِكَرْدُسُ فلسطين، ويذهبُ صلاح الدين التَّعبُ إلى دمشق للاستراحة، ويُرَوِّى أن سفراء من النصارى طلبوا مقابلته فوجدوه مُلاعِباً لأصغر أبنائه، ويأخذ هذا الصبيُّ في البكاء خائفاً من زيِّ الفرنج الغريب، فيوجلُّ صلاح

الدين مقابلته لهم إلى وقت آخر، وَيَقْضِي صلاح الدين بعضَ الوقتِ صائداً في الضواحي أيضاً، بَيِّنُ أن بَطْلَ الإسلامِ هذا يَشْعُرُ، بعد هذه الفَتْرَةَ من الراحة، بِمَيْلٍ فيه إلى جليل الأعمال، فَيَعِينُ له فَتْحُ آسية الصغرى وأرمينية الكبرى، ويستعدُّ لَغَزْوِ هذين الإقليمين حيناً فاجأه الأَجَلُ.

وكان هذا الأميرُ محلَّ إعجابٍ من قِبَلِ أعدائه وأصدقائه على السواء، وأثنى عليه مؤلِّفو النصارى، ولا سيما مؤلِّفو الطليان، وحرَّابِ سلاحِ الغربِ وحضارته حَرْباً متاثلاً، وظَهَرَتْ بوادرُ التوقيرِ، والصدقةِ تقريباً، بينه وبين رؤساءِ الفَرَنْجِ، ووضَعَ حِمالةَ حَرِيَّةِ بأكابر الأبطال في الفروسية النصرانية، وتَرَكَ لأعدائه هذه المُتَعَةَ العليا في قتالِ عدوٍ يُمَكِّنُ احترامَهُ.

وعلى العموم كان صلاحُ الدين متسامحاً معتدلاً حين الانتصار، وتساهل صلاحُ الدين حِيَالَ أقباطِ مصرَ فاحترم امتيازاتهم وقَبِلَ كثيراً منهم في خِدْمَتِهِ، ولما عُوِّبَ على ما أظهر من كَرَمٍ نحو النصارى بعد أن تم له إستعادة القدس. رد بأنه يفضل أن يراهم راضين.

وقد حَبَّأ ابنه قُبَيْلَ وفاته بهذه النصيحة الغالية، وهي: «أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأسُ كلِّ خيرٍ، وأمرك بما أمرك به الله فإنه سببُ نجاتك، واحذَرُ من الدماءِ والدخولِ فيها والتقلُّدِ بها، فإن الدم لا ينام.»

وكان صلاحُ الدين شديد المحافظة على تعاليم الدين، وكان حازماً في الإدارة، وكان يَقْضِي بالعدل بنفسه ما أمكَنَ ذلك، أو

كان يَرْقُب حُسْنَ القضاء، وكان بالغَ الكَرَم، فيُفوز رجال الأدب
بجُوده غالباً، وكان يُحِبُّ اجْتِمَاعَهُمْ حَوْلَهُ، ولا سيما حينَ وجوده في
دمشق، وقيامهم بمسامرات أدبية، وكانت لُعبةَ الشطرنج تسليةً
المفضلة، ويُرَوَى أنه كان كثيرَ الازدراء للمال، مع أنه لا معنى لهذه
الكلمة عند عاهلٍ، قال كاتب سيرته: « سمعته يقول: يمكن أن
يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب. »
ويضيف مترجمه: « وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في
خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ومن الذهب
إلا جرم واحد صوري ما علمت وزنه. »



هَادِمُ الْخَلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ:

هَلَاكُو

تَمَّ إِسْقَاطُ دَوْلَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ، بَعْدَ أَنْ دَامَتْ خَمْسَةَ قُرُونٍ، مِنْ قَبْلِ فَاتِحِ يَغْرِضِهِ خِيَالُ الْغَرِيبِينَ بَالِغَ الْوَحْشِيَّةِ وَذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِ صَاحِبًا لِحَقِّ إِطْلَاقِ لِقَبِ حَامِي الْعُلُومِ عَلَيْهِ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ حَفِيدَ جَنْكِيْزِ خَانَ، هَلَاكُو، كَانَ أَحَدَ زَعَمَاءِ الْمُغُولِ الَّذِينَ أَمْتَدَّ هَوْلُ طُوفَانِهِمْ نَحْوَ الْغَرْبِ إِلَى أَوْرِبَةِ، وَلَمْ يَكُنْ هَلَاكُو مُسْلِمًا، وَلَكِنْ خَلْفَاءَهُ أَسْلَمُوا، وَمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ تَأْثِيرٍ فِي مَصَائِرِ الْإِسْلَامِ يُوضِحُ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، سَبَبَ كَلَامِنَا عَنْهُ هُنَا^(٢١).

وَكَانَ أَبُو هَلَاكُو يُسَمَّى طُلُوخَانَ بْنَ جَنْكِيْزِ خَانَ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَمِيرَةً مُغُولِيَّةً ذَاتَ قِيَمَةٍ ذَهْنِيَّةٍ رَاقِيَّةٍ، وَلَمَّا مَاتَ طُلُوخَانَ، حِينَمَا كَانَ الْمُغُولُ يَقُومُونَ بِفَتْحِ الصِّينِ، عُمِدَ فِي إِدَارَةِ الْجَيْشِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّ، وَكَانَ لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْنَاءَ نَذَكُرُ مِنْهُمْ مُنْغُوخَانَ وَهَلَاكُو، وَقَدْ أَجَادَتْ تَرْبِيَّتَهُمْ، وَعَرَفَتْ كَيْفَ تَضَعُ الضَّبَاطَ ضِمْنَ دَائِرَةِ

(٢١) انظر، عن تاريخ هلاكو، إلى تاريخ مغول فارس لرشيد الدين، طبعة كاترمير وترجمته، باريس، ١٨٣٦، وإلى تاريخ الدول لأبي الفرج [ابن المعري]، وهذا الكتاب هو باللغة العربية، طبعة الصالحاني، بيروت، ١٨٩٠.

الواجب، وكانت هذه الأميرة نصرانية، ويروي أبو الفرج أنها كانت تُكْرِمُ الأساقفة والرهبان، وتتعلم دعواتهم وبركاتهم، فينطبق عليها قول الشاعر:

فلو كان النساء كمن رأينا لفضلت النساء على الرجال

وفي سنة ٦٤٩ يجتمع أفراد أسرة جنكيز خان وكبراء القوم ضمن مجلس، ويسلمون السلطة إلى منغوخان الذي هو أخو هلاكو الأكبر، «وفي سنة تسع وأربعين وستائة في وقت الربيع حضر أكثر الاولاد... وفي اليوم التاسع من ربيع الآخر كشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على اكتافهم ورفعوا مونككا على سرير الملكة ومونككا فان سموه وجثوا على ركبهم تسع مرات. «ويعين منغوخان إخوته، الذين كانوا سبعة، حكماً في مختلف أقسام إمبراطوريته، ويجعل الغرب نصيب هلاكو، ويعهد إليه في مواصلة الفتح المغولي من هذه الناحية.

وفي سنة ٦٥١ يتوجه هلاكو من حدود قره قورم جالبا معه قسماً من الجيش المغولي، وقد أعطي رجلين من عشرة، وقاتل الإسماعيلية الذين كانوا أقوياء جداً في فارس في ذلك الحين، وحاصر حصونهم، وطلب العون من خليفة بغداد، بيد أن الوزراء رفضوا ذلك قائلين إنه رجل لا دين له، وأنه لا يبحث عن غير تجريد العاصمة من الكتائب كما يستولي عليها بسهولة فيما بعد، ولما غداً صباحاً لحصون الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة وفداً آخر ليلومه على سابق رفضه، ويخاف الوزير غضبه، ويفكر في تسكينه بالهدايا الثمينة، ولكن قال ناصح: إن الوزير لا يبحث عن غير

نَيْلِ الحُظْوَةِ لَدَى هَلَاكِهِ لِنَفْسِهِ وَأَنْ يُدَبَّرَ المسْئَلَةُ مَعَهُ عَلَى حَسَابِ الخَلِيفَةِ، وَلِذَا فَإِنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَى الفَاتِحِ فِي ذَلِكَ الحِينِ سِوَى أَشْيَاءَ لَا قِيمَةَ لَهَا، وَيُؤَدِّي هَذَا الأَمْرُ شعورَهُ وَيَزْحَفُ إِلَى بَغدَادِ.

وكانت بغدادُ في ذلك الحين فريسةً اضطراباتٍ دائمةً أدَّى إليها تنافسُ الشيعة والسُّنِّيَّةِ وكان الشيعةُ مُضْطَّهَدِينَ، وَيُرَوَّى أَنَّ الخَلِيفَةَ كان من التهور بحيث أهدر دماءهم وأباح للسُّنِّيَّةِ أَنْ يَنْهَبُوا ممتلكاتهم وَيَهْدِمُوا بيوتهم وَيَسْبُوا نساءهم وَيَأْسِرُوا أولادهم، وَلِذَا فَإِنَّ الوَظِيرَ العَلْقَمِيَّ العَطُوفَ عَلَى الشيعة استدعى هلاكو، وَيَهْزِمُ الزعيمُ المَغُولِيُّ جيشَ بغدادِ بلا عَنَاءٍ، وَيَأْتِي لِفَرَضِ الحِصَارِ أَمَامَ بَغدَادِ، وَتَتِمُّ الأَعْمَالُ بِهَمَّةٍ، وَيُقِيمُ المَغُولُ سِوْرًا عَالِيًا شَرْقَ بَغدَادِ فِي نَهَارٍ وَلَيْلَةٍ، وَمِثْلُ هَذَا مَا صَنَعُوا فِي نَاحِيَةِ الغَرْبِ، وَقَدْ حَفَرُوا خَنْدَقًا عَمِيقًا دَاخِلَ هَذِهِ الأَسْوَارِ، ثُمَّ نَصَبُوا الآلَاتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَأَعَدُّوا المِجَانِيقَ والأَدْوَاتِ لِقَذْفِ النُّفُطِ، وَكانَ المَغُولُ مَاهِرِينَ جِدًّا فِي فنِّ الحِصَارِ حَائِزِينَ لِعِتَادِ حَرْبِيٍّ عَظِيمٍ، وَيَرَوِي أَبُو الفَرَجِ أَنَّهُ كانَ لِلْمَغُولِ أَلْفُ دارٍ فِي نَاحِيَةِ الصِّينِ لِلعَمالِ المِيكانيكِينَ وَصانعي الأجهزة الحربية، وَيُسَنُّ المَهِجُومُ مِنْ نِقاطٍ كَثيرةٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَيَأْمُرُ هَلَاكِهِ بِإِطْلَاقِ رِمَاحٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا أَنْ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَقَاتِلًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَنالَ الأمانَ لِنَفْسِهِ وَآلِهِ وَأَمْوالِهِ، وَكانَ بُرْجُ العِجْمِيِّ أَوَّلَ ما وَقَعَ الاستيلاءُ عَلَيْهِ، فَأرسل الأهلون وفوداً إلى المَغُولِ، ثُمَّ اسْتَسَلَّ الخَلِيفَةُ، وَأَباحَ هَلَاكِهِ لجنوده سَبِيَّ بَغدَادِ وَسَلْبَها، وَكانَ دِخُولُهُ بَغدَادَ مِنْ بابِ كَلِوادي فِي المَهِرِمْ سَنَةِ ٦٥٦ (١٢٥٨ م)، وَيَذْهَبُ إِلَى القَصْرِ، وَيَأْمُرُ بِاحْضارِ الخَلِيفَةِ، وَيَقْبِضُ عَلَى جِواهِرِهِ وَآلَتِهِ وَقَلائِدِهِ، وَيُوزَعُها بَيْنَ أَمْرائِهِ، وَيَفْصِلُ فِي المِساءِ نِساءَ

الخليفة اللائي كان عددُهن سبعمئة، ويجلبهن بجراسة ثلاثئة خصي،
ويُدوم السَّبي والنهبُ سبعةَ أيام، ويُقتلُ الأهلون بعد ذلك
بالسيوف، ويغادر هُلاكُو بغدادَ جالباً معه الخليفة، ويأمر بقتله ليلاً
عند أول مرحلة، ويُذبح ابنه الثاني معه، ويُذبح ابنه الأكبر عند
باب كلوازي.

ويواصلُ هُلاكُو فُتْحَه في العراق ومن ناحية الشام، ويبدو
جافياً تارةً ورؤُفاً تارةً أخرى، وذلك وَفْقَ ما يَقَعُ من مقاومته أو
الانحناء أمامه، وكان يُوجدُ في الموصلِ أميرٌ مُسِنٌّ، فجاء ليلقى
هُلاكُو في هَمْدانَ ويُقدِّمُ إليه خضوعه، فاستقبله هُلاكُو بما تقتضيه
سِنُّه من الإجلال، وأجلسه على العرش بجانبه وسمَحَ له بأن يُشَنَّفَ
أذنيه بمخلقتين مُرَصَّعتين بدررٍ ثمينه جدّاً، ويعودُ هذا السَّريُّ إلى
مِصرِه مُعْجَباً بحكمة الفاتح وشهامته.

وفي سنة ٦٥٨ دَخَلَ هُلاكُو بلادَ الشامَ على رأسِ أربعمئة ألف
رجل، فاتخذت المُدنُ أوضاعاً مختلفة، ومن ذلك أن حرَّانَ والرُّها
استسلمتا، وأن سُرُوجَ أُنْذَت بعضَ المقاومة فقتلَ أهلُوها على بَكْرَةِ
أبيهم، وألقتُ المِغُولُ ثلاثةَ أَجْسُرٍ على الفرات، أَحَدُها بالقربَ من
مَلْاطية، والثاني عند قلعة الروم، والثالثُ في قرقيسيا، وعَبَرَ
الجيشُ نهرَ الفرات على هذه الأَجْسُرِ الثلاثة، ووقَّعتْ معركةً عظيمةً
في مَنبِجَ، وقَسَمَ هُلاكُو الغالبُ كتابه بين المُدنِ والقصور،
واستسلمت حماةٌ وحِمصُ، وصنَّعتْ دمشقُ مِثْلَ هذا فلم يُمسَّ
الأهلون بأذى، ولكن حلبَ قاومت، وكان هُلاكُو قد أرسلَ كتاباً
إلى والي حلبَ يُبَصِّرُ فيه مِثْلُ ما كان يُرى من شعور في أتيلاً الذي
هو ضربةٌ من الله والذي لا يَفْعَلُ غيرَ إقامة عدل الله، فقد جاء فيه:

« ولا شك أننا نحن جند الله في أرضه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه ».

ويأتي هلاكو بنفسه لإدارة حصار حلب، ويُقام أمام هذه المدينة سورٌ، وتُنصب الآلات، ويلاحظ هلاكو نقطة ضعيفة في الأسوار من ناحية باب العراق فيوجهُ كلَّ الجُهدِ إلى هذه الجهة، وتَسْقُط حلبُ في أيام قليلة، ويدخلها المغول في ٢٣ من كانون الثاني سنة ٦٥٨، ويكون التقتيل على نطاقٍ أوسع مما كان في بغداد، وتُعاني مَيَّافارقين حصاراً منظماً أيضاً، ولكن الآلات كانت عاجزةً حيالها، فأخذها المغول بالمجاعة، وقتلوا من بقي فيها من أهلين قليلين ما دام أكثرهم قد مات جوعاً، وأتى برئيسهم إلى هلاكو فقتله غير ناظرٍ إلى ما أظهر من شجاعة، وكذلك دافعت قلعة حارم القريبة من أنطاكية دفاعاً مجيداً، فأمر هلاكو بقتل جميع من فيها غير مُستثنى النساء والأولاد.

ومات هلاكو في مراغة سنة ٦٦٤ (١٢٦٥ م)، وتبَّع عادة قومه الشرعية الوحشية فتوضعُ جُثته ضمنَ معبدٍ ضريحٍ حيث حُبسَ معها أربعون فتاةً مُزيَّياتٍ بأحسن زينة مُزوداتٍ بقوتٍ لثلاثة أيامٍ فقط^(٢٢)

وعلى ما اتصف به هذا الفاتحُ من طبعٍ وحشيٍّ فقد كان مُحبباً للعلوم ذا أذواقٍ أدبية، وكان الفلك والتنجيم والسيماء أخص ما عُنيَ به، فأنشأ في مراغة مرصداً جمَعَ فيه، بإدارة نصير الدين

(٢٢) مسيو دوسون، وصف عام للدولة العثمانية، باريس، ١٧٨٨، جزء ١، ١٢٠.

الطوسي الشهير، فريقاً من العلماء ليقوموا له بأعمال مهمة، وقد جمع هنالك، أيضاً، كتباً جيءَ بها من مكتبات المدن التي فتحتها، ويرى أبو الفرج أنه كان «حكياً حليماً ذا فهم ومعرفة يجب الحكماء والعلماء.»

ولا يعرف هل كان له معتقدٌ دينيٌّ، وإنما يتلوح أنه ذو ميلٍ إلى النصرانية، وقد كانت إمرأته نصرانيةً على جانب كبير من الفضل، فيروى أنها كانت تحمِل على دقِّ النواقيس في المعسكر، وأنها أوجبت إقامة كَنائسَ جميلةٍ وأديارٍ كبيرةٍ في ولاياتِ بعلها، وكان أولُ أميرٍ من آل هُلاكو اعتنق الإسلام هو غازان خان، وحدث إسلامه هذا سنة ٦٩٤، واعتنق الإسلام مثله أخوه خدابنده وجميعُ أمراء البَلَّاطِ وثمانون ألفاً من التتر المغول، وقد ترك هذا الأميرُ، الذي كانت عاصمته تبريز الواقعة في أذربيجان، ذكراً جميلاً حتى لدى النصارى، كما اشتهر بمعارفه الأدبية.



الفصل الثاني

العاهلون

- السلطانان العثمانيان العظيمان :
- محمد الثاني، فتح القسطنطينية ، (
- الإشتراع ، سليمان .
- تيمورلنك ، مذكراته
- ملوك الهند : محمود الغزنوي ، بابر
- ومذكراته ، فتح الهند ، العاهل الفيلسوف :
- أكبر ، أراؤه في الدين وإدارته ، مذكرات
- جهانكير .
- شاه الفرس : عباس الكبير ، الشاه
- نادر .



السلطانان العثمانيان العظيمان:

محمد الثاني، فتح القسطنطينية، الاشتراع، سليمان

يؤلف عاهلو الترك العثمانيين آل مجدي من الناحية الثقافية، وكان لعثمان، الذي حفظ هؤلاء الآل اسمه، ابنان، وهما: علاء الدين وأورخان، فأما الأول، وهو الأكبر، فقد كان ولوعاً بالعلوم فرَفَضَ القَبْضَ على السلطة كما يَنْقَطِعُ إليها، ثم صار وزيراً لأخيه الأصغر: أورخان، وهو مشرعٌ ومُديرٌ مِفْضَالٌ، وهو أولُ من ضَرَبَ النقود العثمانية ذات الطُغْرَاءَ مع الدُّعَاءِ، وقد وَضَعَ قوانينَ ماليةً وأحدث مُنْظَمَةَ الأَنْكِشَارِيَّةِ التي تَنْتَفِعُ بِأَسْرَى النصارى، وفتح أورخان مدرسةً في بَيْفِيَّةِ (إزنيق). واجتذب العلماء والشعراء إلى بُورْسَةِ، وتَفَدُّو بُورْسَةَ مركزاً ثقافياً، وتحافظ على هذا الطابع حتى بعد أن عادت لا تكون عاصمةً، وترى قبورَ الأُساتذة والمؤلفين والفقهاء مضافةً إلى قبور السلاطين حول مساجدها المزيّنة بالميناء والمزخرفة بالورديّات.

ويواصلُ مُراد الأولَ عملَ تنظيم الجيش ويُنظِّمُ أمرَ الإقطاعات العسكرية، ويَحْضُ عَمْدَ الأول على الآداب ويشتهر في عهد مراد الثاني سِنَانُ شَيْخِي وَجَمَالِي، وكان سِنَانٌ طَبِيباً وأديباً فَنَقَلَ إلى التركية منظومةَ «خُسْرُو وَشِيرِين» الفارسية، ويتمُّ ابن

أخيه جمالي عمله فيصع منظومة « خورشيد وفرّوخ شاد »، ويظهر، في الوقت نفسه، فقهاءً ومتكلمون ممتازون نذكر منهم بدر الدين الذي كان جريئاً مبتدعاً فتمثّل ضرباً من التوفيق بين النصرانية والإسلام، وأثار فتنة أدّت إلى إعدامه شنقاً.

يُعَدُّ محمد الثاني أهلاً، بقيمته الذاتية، للمقام الرفيع الذي هيّأه له القدر، وذلك أنه، وقد وُلِدَ سنة ١٤٣٠، تَمَرَّنَ على السلطة منذ صِبَاه، وأنه كان في الثالثة عشرة من سِنِيهِ حينما تَخَلَّى أبوه مراد الثاني، عن العرش، ولكن هذا السلطان عاد إلى مركزه إذ أبصر المَجْرَ يُهدِّدون الدولة، وَيَشْهَدُ المراهقُ محمد ما وَقَعَ من قِتَالِ حِيَالِ هُونِيَاد وإسكندر بك كما شَهِدَ معركة قَوْضَوَة سنة ١٤٤٨، وَيَغْدُو سلطاناً نهائياً عند وفاة أبيه سنة ١٤٥١، وكان في الثاني والعشرين من عُمره حين جلوسه على كرسي السلطنة، ثم فُتِحَت القسطنطينية بعد عامين من هذا التاريخ.

ولم يَكُنْ هذا الفتحُ، قطُّ، أثر المصادفة أو نتيجة ضعفِ بَرَنْطَة فقط، بل أعدّه السلطان الشابُّ بكلِّ دقة، مستعيناً بأعمالِ شاقَّةٍ، منتفعاً بكلِّ ما انتهى إليه علمُ زمنه، وكانت المِذْفَعِيَّةُ حديثة الاختراع في ذلك الحين، فحاول إتمامها وإكمال استعمالها، وأقام على الشاطيء الأوربي من البُسْفُور قلعةً مواجهةً للقلعة التي كان جدُّه قد بناها، وجَهَّزَهَا بمدافع كثيرة، وأحضر مهندساً مَجْرِيَّاً، فصبَّ له هذا المهندس مِذْفَعاً عظيماً يَقْدِفُ قُنْبَلَةَ الستمئة رَطْلٍ إلى مسافةٍ تَزِيدُ على ميل، ويُرْوَى أن هذا المِذْفَعُ كان يحتاج إلى خِدمَةِ سبعمئة رجل وإلى ساعتين لحشوه، وَيَقْصِفُ هذا المِذْفَعُ، وَيَبْدَأُ محمد

الثاني بالحصار، في ٢ من أبريل سنة ١٤٥٣، قائداً لجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف رجل، ومشملي على جنود من جميع الأمم، ومؤيد مدفعية هائلة وبأسطول مركب من ١٢٠ سفينة، ويظهر أن محمداً الثاني تصور بنفسه أن ينقل إلى القرن الذهبي سبعين مركباً برّاً على ألواح صنوبرية مشحمة، ويأتي الجنويون مع جُستينيانى جالين إلى ذلك المكان مدداً بجرأ، فتفرق قنبلة من المدفعية التركية إحدى سفنهم، وتمرّ على الحصار خمسون يوماً فتدك مدفعية المحاصرين أربعة أبراج وتفتح ثغرة كبيرة في باب سان رومان، ويقود محمد الهجوم بشخصه بعد أن أمر بصوم عام والقيام بغسل شامل، ويذحف على رأس الجيش حاملاً قضيباً بيده، ويدخل قصر القيصر، ويتلو البيت الشعري الفارسي القائل: «سَيَسْجُ العنكبوتُ خيوطه في قصرِ قيصر، وسينعقُ البومُ في أطم^(١) أفراسياب»، وأمر في أيّا صوفية باحترام هذا الأثر، ولم يرذ نزع الفسيفساء التي تفرّض صور الإنسان، وإنما أمر أن تكسى بالكلس، ومع ذلك فإنه لم يُغن بحفظ المكتبات فأحرق معظمها.

وكان محمد الثاني يُحبُّ التصوير، ومن المعلوم أنه أحضر من إيطالية جنتيل بليني البندقي الذي رسم صورته، وفي صورة لهذا المتفنن^(٢) أظهر السلطان جالساً على الطريقة التركية، واضعاً يديه على ركبتيه، متقلداً على جنبه سيفاً وقوساً وجعبة لابساً قلنسوة

(١) الأطم: الحصن

(٢) الرسالة المصورة (Magasin pittoresque) جزء ٢، ص ٢٨٩، - توفان،

جنتيل بليني والسلطان محمد الثاني، تعليقات حول إقامة المصور البندقي بالقسطنطينية (١٤٧٩ - ١٤٨٠)، باريس، ١٨٨٨.

عالية هابطة الرأس، ويبدو قويّ البنية مُدَوَّرَ الهامة عَزُومَهَا ذا شارب كثيفٍ بعض الشيء، وعينين صغيرتين ثاقبتين محاطتين بِتَجَعَّدَاتٍ.

وكانت الموسيقى والتنجيم والنقاشة والزراعة من الفنون المُحِبَّةَ إلى محمد الثاني، وكان يَعْرِفُ لغاتٍ كثيرةً، أي كان يَعْرِفُ العربيةَ والفارسيةَ واليونانيةَ والفَرَنْجِيَّةَ، وكان يقوم بيده الخاصة بمراعاة الأُمراءِ وفُضَلَاءِ مختلف البلدان، وكان مُتَقَلِّبَ الخُلُقِ عَنِيفاً جافياً، وليس الجفاءُ صفةً انفرد بها، فلما وَصَلَ أمام أسوارِ بُخَارِسْتَ بعد معاركٍ حاميةٍ شاهد في الأرياف عشرين ألفَ مسلمٍ فوق الخوازيق، ويُدْهَشُ، على رواية أحد المؤرخين، من أمر ذاك القائد الصقليّ «الذي صنع أموراً كبيرة كهذه»، وقد رَفَصَ كُنْتُ طَمِشُورًا، وهو من قُوَادِ مَتْيَاسِ كُرُورِينَ، مُمَسِكَاً جُثَّةً بين أسنانه بعد النَّصْرِ فِي كِنَجِرِ مِزِيرِ، وأقام أهراماً من القَتْلِ...

ولم يكن محمد الثاني صادقاً دائماً، فقد كان يَنْقُضُ الوعود، ومن ذلك أنه أمر بقتل حامية قُرُوباً بعد أن قَطَعَ لهم عهداً بحفظ حياتهم.

وإذا كان محمد الثاني قاسياً جداً في الحرب فإنه كَرِيمٌ في إدارة إمبراطوريته وتنظيمها، وكانت جيوشه ودواوينه زاخرةً بالنصارى ومن أسلموا حديثاً، وكان فريقٌ كبيرٌ من الوزراء والقُوَادِ من أصلٍ نصرانيّ، وكان الإداريون والكَتَبَةُ والجُبَاةُ من الصقالبة والروم، وقد نَصَبَ بِطَرِيكاً جديداً بعد فَتْحِ القسطنطينية، وخاطبه بقوله: «كُنْ بِطَرِيكاً، وَلِيَكُنْ اللهُ حَارِساً لَكَ، واعتمد على كَرَمِي، وَتَمَتَّعْ بجميع امتيازات أسلافك»، وصار

البطركُ رئيساً للشعب الرومِيّ الذي أَلَفَ جماعةً ممتازةً في الدولة، وحاز مرتبة وزير، وأُعطيَ حَرساً من الأنكشارية، وصودرتْ أراضي الأسرِ الرومية الكبيرة، وحوّلت إلى تيمارات^(٣)، وتُرك للرعايا أرصوها مع جعلها خراجيةً فقط، وأظهرَ السلطانُ مثلَ هذا الكرم نحو الصّرب، ومن ذلك أن ملك الصرب أرسل إليه مَنْ يسأله: «ما تصنعُ بديننا إذا ما كنت غالباً؟»، فاسمع جوابه: «تقامُ بجانب كلِّ مسجدٍ كنيسةٌ يستطيع بنو قومك أن يعبدوا اللهَ فيها».

ويشهدُ أثره مثلَ مشروعٍ ومنظّمٍ للدولة على روحِ سِكلَسيّةٍ مع شيءٍ من التدقيق، ويُذكرُ هذا الأثرُ بعادات الصين السياسية، فهو يُنظّمُ المدارس التي يخرُج منها الأساتذة والمتكلمون والقضاة والإداريون، وفي هذه المدارس يُعلّمُ النحوُ والصّرفُ والمنطقُ والبيان وما وراء الطبيعة والهندسةُ والفلكُ والفقه والكلام، وتودّي الامتحانات إلى الانتقال من درجةٍ إلى أخرى وبلوغِ مختلف الوظائف، والدرجاتُ كثيرةٌ جدّاً، فيوجدُ ستّةُ أصنافٍ للملأ^(٤)، وخمسُ طبقاتٍ للحكام، وعشرُ درجاتٍ لصنف المدرسين وحده، وقد أبصرت جميعُ المناصب وأخصّيت، وكان لقاضي القسطنطينية مثلاً حقُّ رقابة التجارة والحرف والمصانع والأطعمة في العاصمة، وكان له نائبٌ للإشراف على الغلّات، وآخرُ على الزيت

(٣) التيارات هي الاقطاعات التي كان يأخذها من تحب عليهم الخدمة العسكرية فعلاً على أن يقدموا عدداً من الأفراد إلى الجيش متناسباً مع الربع.

(٤) الملأ مشتقة من كلمة «مولانا» العربية، وتحية بمعنى القاضي والعالم.

والزُّبَدَات، وثالثٌ على الأوزان والعيارات وأثمان المأكولات، وكان يُوجَدُ في السَّرَايِ مناصبٌ للمؤدِّبِ وللطبيبِ الأولِ ورئيسِ النُجَمِينِ والواعظِ، ويتألَّفُ من مجموعِ الموظفينِ المدنيينِ هيئةٌ ليست أقلَّ تَعَقُّدًا وتسلسلاً من الجيشِ، وكلُّ شيءٍ في الدولة يَظْهَرُ مُقَدَّرًا مُرتَّبًا قائمًا في محلِّه، ويؤدي تعاقبُ المناصبِ من علٍّ إلى السلطانِ الذي يُنْسِكُ بيده جميعَ خيوطِ هذه الآلةِ الضخمةِ فيَنضِخُ الحياةَ والصولةَ والفكرَ في هذا الكيانِ الرِّكِنِ الثقيلِ بعضَ الثَّقَلِ.

ونذُكُرُ بين سُرَاةِ الأدبِ في هذا العهدِ ابنَ السلطانِ، جَمَ، الذي نَعَرَفُ مغامراتِهِ الشَّجِيَّةَ وخاتمتَهُ الفاجعةَ في نابُولِي، فقد كان شاعراً مُجِيداً، ونظَمَ قصائدَ في الغَزَلِ، وترَجَمَ المنظومةَ الفارسيةَ: «خُورْشِيدُ وَجَمْشِيدُ»، وكذلك نَذُكُرُ الشاعرةَ البُورْسيةَ، زَيْنَبَ، بين ذوي المواهبِ الذين حَبَّاهمُ مُحَمَّدُ الثاني بحمايته.

ويُعِيدُ عهدُ سُلَيْمَانَ المَجِيدِ قسماً من ذلك العهدِ، فيه يُرَى ذاتُ الشرفِ العسكريِّ وذاتُ الفُتُوحِ السريعةِ في عهدِ أميرِ شابِ، وذاتُ البراعةِ في الوزراءِ وذاتُ روحِ الكرمِ والجُودِ الذي لا يَنْفِي الجُورَ، وتَسُوقُ اتفاقاتِ السياسةِ كُلاًّ من السلطانينِ إلى معاينةِ ابنِ، وَيَمِيلُ كُلُّ منهما إلى الآدابِ والشعرِ والتاريخِ، وَيَبْحَثُ كُلُّ من هذينِ المُشَبَّعَيْنِ من المجدِ الحربيِّ عن المجدِ الاِشْتِراعيِّ مُخْلِفينِ أنظمتَهُ يُعْجَبُ بها شعبُهُم، ومع ذلك يُوجَدُ شيءٌ من اللباقةِ في خَلْقِ سُلَيْمَانَ العامِّ، فكان تَفَتُّحُ المواهبِ الأدبيةِ في عهده أبعَدَ مَدَى، وكانت الفنونُ أَكْثَرَ إزدهاراً، وكان من أنضرِ وجوهِ عصره الذي سُمِّيَ العاهلون الآخرون فيه فرنسوا الأولَ وشارلِكنَ وليونَ العاشرَ

ولسليمانَ صُورَ رَسَمَها مُصَوِّرونَ مِنَ البندقيّةِ، وقد وَضَعَه
 فيرُونزُ في لوحته المشهورة: أعراس قانا، ويَعْرِضُه في أولِ عهده
 كاتِبُ تركيٍّ لاويّاً رأسَه من ثِقَلِ عمامته الضخمة، وكان عريضَ
 الجبين كأنه منفوخٌ في قِمَّتِه، وكان ثخينَ الجفنينِ أسودَ العينينِ
 مُظَلَّلَهما بأهدابٍ طويلة، وكان وَزِينَ الفمِ أَقْبَى الأنفِ مع محافظة
 الخدين على أسلِ المراهقة، وَيَكُونُ سليمانُ في السادسة والعشرين أو
 السابعة والعشرين من سِنِيه، ويأتي للجلوس على العرش، وَيَنْطَلِقُ
 إلى العمل من فورِه، فلما كانت السنة التالية وَهَبَ ببلغرادَ لأُمته، ثم
 وَهَبَ لها رُودُسَ في السنة التي بعدها، وقد كَلَّفَه فتح رُودُسَ غالباً
 جِدّاً، وذلك أَنه كان يُحِيطُ بهذه المدينة، التي تدافع عنها منظمَةٌ
 من الأبطال، حُصُونٌ هائلة تُعدُّ عُنواناً لكلِّ ما وَصَلَ إليه فَنُ
 الهندسة حتى ذلك الزمن، فاتخذ سليمانُ في الهجوم فَنّاً ليس أقلَّ
 براعةً، ومُجَلَّبُ جيشُه اللّجِبُ بسرعةٍ بالغة وَيُنْقَلُ أمامَ المكانِ من
 المَضِيقِ الفاصلِ بين الجزيرة والبرِّ، وكانت المِدفِعيّةُ قويّةً جِدّاً،
 وكانت مؤلِّفَةٌ من مئةِ مِدْفِعِ حصارٍ واثني عشر هيكلاً برونزياً
 ضخماً كانت قد فتحت بها الثُّغرةُ في أسوارِ إستانبولَ سابقاً،
 ويستعمل سليمانُ المِدفِعيّةَ بحشود كبيرة كما اضْطُرَّ إليه نابليون بعد زمنٍ
 طويل، أي أَنه رَكَمَ في بطاريةِ مِدفِعيّةٍ واحدةٍ أربعين من أعظم
 مدافعه صاباً على نقطةٍ واحدةٍ سيلاً من الحجارة والرصاص.

وقد اضْطُرَّ في حملته على بلغرادَ أَن يَنْصِبَ جِسراً فوق نهر
 ساقا، وَيُذَكِّرُ بِناءِ هذا الجسرِ بالجُسورِ التي وَضَعَهَا نابليونُ على نهر
 الدانوب في غزوة سنة ١٨٠٩، وقد أشرف سليمانُ على ذلك بنفسه،
 وأنجزَ العملَ، الذي نُفِّذَ من قِبَلِ فلاحين من الأرمن والبلغار، في

عشرة أيام، وكان على السلطان في غزوة أخرى أن يَنْصِبَ جِسْرَ
أوفن في پشتَ على الدانوب، فتمَّ إنشاء هذا الجسر بسرعة أيضاً،
وما انفكَّ فنُّ الهندسة يكون نافعاً لدى العثمانيين، وفي عهد سليم
الثاني، الذي خَلَفَ سليمانَ الأكبر، تَمَخَّضَتْ في ذهن الوزير
صُوقُولِي فكرةٌ وَصَلَ الدُّونِ بِالْقُلْفَا بِقَنَاةٍ وَفكرةٌ حَفِرَ قَنَاةَ
السويس، وكان سلاطين الترك على عِلْمٍ مستمرٍ بتقدم فن المدفعية
مع فترات إهمال، ولذلك طلبوا مُدَرِّبين من دول أوربة يُرى
بينهم، في القرن الثامن عشر، سفيرُ السويد: البارون دو توت،
والفرنسيان دُوبُونَّفال ودو پَنِيلون، وكان هذا الأخير في عهد
ثورتنا.

وَبَلَغَتْ البحرية التركية التي أوجدها سليمُ الأولُ درجةً عاليةً
من القوة والمجدِ في [عهد] سليمان، ومع ذلك فإن هذه البحرية كانت
تَشْعُرُ بذات الصعوبة التي تعانيها في الوقت الحاضر، وذلك لأن
الترك ليسوا بحريين طبيعةً، فلا يقاتلون بأنفسهم بحراً كما يقاتلون
بَرّاً، فيُضْطَرُّون إلى الاستعانة بِخِدْمَةِ أُمَّمٍ أُخْرَى، ولِذَا فإن الغيرة
وروح التضحية يَكُونان في هذه الأحوال ناقصين بحكم الضرورة،
وكانت المراكبُ تُدَارُ من قِبَلِ الروم في زمن سليمان، ووَفَّقَتْ
البحرية العثمانية في سنة ١٥٣٩ مع ذلك، أي بعد انكسار دُورِيا،
لفتح البحر والسيطرة عليه، وَعَرَفَ السلطان أن يَكُون له، مع
ذلك أمراءُ بحرٍ ممتازين، وأَقْصِدُ بهؤلاء بارباروس خير الدين الشهير
الذي جَعَلَ منه بعض المؤرخين مُرْتَدّاً بِرُوقُنْسِيّاً، والذي يُرَجَّحُ أنه
من أصلٍ يونانيٍّ، كما أَقْصِدُ القرصانَ طُورْغُورَ الذي كان ابناً لِفلاح
نصرانيٍّ، وبيآله الكُرَوَاتِيٍّ، وَيُعْهَدُ إلى بارباروس في إنشاء أسطولٍ

للبحر المتوسط وتسليحه، وكان على والي مصر أن يبني ثمانين سفينة ويجهزها ضماناً لسيطرة العثمانيين على بحر العرب والمحيط الهندي، وفرض على كثير من البلدان أن تقدم، كأتاوة، ما تقتضيه البحرية من لوازم الإنشاء، فتزود نيقوميديّة (إزميد) بخشب البتوط والصنوبر، وقوّة بالحديد، ونغروبون بالقطران، وتجهز مصانع الدردنيل بالنسائج، وكانت غليبولي وسانليك وإستانبول تشتمل على مسابك للمدافع ومصاهر للمراسي ومعامل للبارود.

ويبلغ سليمان في الحياة الأوربية مثل دبلمي^(٥)، ويخالف فرنسة ضدّ النمسة، وأمضى مع فرنسوا الأول «امتيازات» حول وضع الأجانب في دولته روعيت فيها جميع مبادئ الفقه الدولي ضمن المعنى الذي نستطيع أن نذكرها به، ويتفادى كل من العاهلين من جعل أسرى حربهما موالى مبادلة، ويعقد مع البندقية معاهدة سلام وتجارة بالغة الحكمة يضمن فيها حماية سفن الأجانب وسلبهم وأموالهم ودينهم في جميع مرافئ إمبراطوريته وأملاكها، وينمّ مذهبه الحرّ وروح تسامحه على نفسيهما في مناسبات كثيرة، وفي كتاب أرسله إلى فرنسوا الأول يرفض مطالبة هذا الأخير بكنيسة القيامة مستنداً في رفضه إلى الشريعة الإسلامية، ولكن مع منحه كلّ ضمان في سبيل سلامة النصارى، فقد قال: «لقد أجزيت لهم، متمتعين براحة تامة تحت جناح حمايتي السلطانية، أن يقوموا بطقوس دينهم وشعائره، والآن، إذ يُقيمون بكلّ أمن في بيوت عبادتهم وفي أحيائهم، يُعدّ من المستحيل إصابتهم بأذى والجور

عليهم في أيِّ أمرٍ كان» .

وأظهرَ سليمانُ مثلَ روحِ التسامحِ هذا في جميعِ غزواته، ومن ذلك أنه أذنَ للبلغار، بعد أن قهرهم، في الذهابِ « بأوثانهم»، أي الذخائرَ المقدسة والآنية المباركة وصورةً للعذراءِ أُعجُوبيةً، ويصُونَ، بعد الاستيلاء على أوفينَ، حياةَ الأهلين وأموالهم ودينهم حِيالَ الجنود، وهذا ما صنَّع في غزوةِ فارسَ سنة ١٥٣٤ أيضاً، فضَمِنَ حياةَ المغلوبين وأموالهم على الرغم من قرارِ المفتين الذين أباحوا قتلَ الشيعة ونهبَ أموالهم .

وقد أتى سليمانُ القانونيُّ ببعضِ تخفيفاتٍ في قوانينِ العقوبات^(٦)، وقَلَّلَ عَدَدَ الأحوالِ التي تُطبَّقُ عليها عقوبةُ القتلِ وقطعِ اليدِ، وألغى مبدأَ الثأرِ، ومع ذلك فإنَّ قوانينه عن الأسرةِ ليست سَخِيَّةً كثيراً، فقد جُعِلَ الزواجُ إلزامياً، ولا يستطيع الزوجُ أن يَسْكُنَ عند إحدى نساته من غيرِ موافقةِ الأخرى، وهو إذا ما سافر، ولم يستطع أن يأتيَ بغيرِ إحدى أزواجه، أخذها معه بالقرعة، ويُعدُّ اللُّقْطَاءُ قاصري الدولة، وهذا أقربُ إلى الطبيعةِ .

وإذا ما نُظِرَ إلى سلسلةِ الوظائفِ وُجِدَ أن سليمانَ اقتبسَ عملَ محمد الثاني، ومع ذلك فإنَّ نظامه أكثرُ دقَّةً، وهو يؤدي إلى زيادةِ امتيازاتِ الهيئةِ العلميةِ وتوسيعِ سلطةِ شيخ الإسلام .

وأعزَّزَ المعماريُّ والشعريُّ في عهدِ سليمان، فأقيمتْ عِدَّةُ مساجدٍ في

(٦) ترجم بيتيس دولاكروا من التركية قانون سليمان المعروض على السلطان مراد الرابع لتعليمه، أو الحال السياسية والعسكرية، مجلد واحد، باريس، ١٧٢٥ .

الآستانة، وُبَيِّتَ جُورٌ وَقَنَوَاتٌ فِي الْوَلَايَاتِ، وَمِنْ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ
وَاحِدَةٌ كَانَتْ تُوصِلُ الْمَاءَ إِلَى آسْتَانِبُولَ فَتَزُوذُ أَرْبَعِينَ عَيْنًا، وَتَزَيِّنُ
الْعَاصِمَةَ بِتَائِيلَ قَدِيمَةٍ أُتِيَ بِهَا مِنْ أَوْفِنَ.

وَكَانَ سَلِيحَانُ شَاعِرًا، وَقَدْ سَلَكَ كَثِيرٌ مِنْ أَمْرَاءِ آلِ الْمُلْكِ هَذَا
السَّبِيلَ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ سَلِيمُ الْأَوَّلُ الَّذِي تَرَكَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَصَائِدِ
الْفَارْسِيَّةِ وَالْتُرْكِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَرَادُ الثَّلَاثُ الَّذِي كَتَبَ بِاسْمِ
مَرَادِيِّ الْمُسْتَعَارِ، وَكَانَ مُجَيَّبِي اسْمِ سَلِيحَانَ الْمُسْتَعَارِ، وَكَتَبَ ابْنُهُ
التَّعْسُ مِصْطَفَى أَشْعَارًا وَكَتَبَ تَفَاسِيرَ تَحْتِ اسْمِ مُخْلِصِ، وَأَشْرَفْنَا
إِلَى وُجُودِ مِثْلِ هَذَا النَّبُوغِ عِنْدَ جَمٍّ، وَكَانَ الشَّعْرُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ
وَسِيلَةً تَسْلِيَّةٍ وَعِنْدَ الْآخَرِينَ عِوَضًا مِنَ الْقِسْوَةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْفَتْحُ
وَالسُّنْطَةُ.



تيمورلنك ، مذكراته

انتهى إلينا أثران من تيمورلنك وهما: «النظم السياسية والعسكرية» المكملة لكتب جنكيزخان و «المذكرات»^(٧) التي حدث فيها عن القسم الأول من سلطته حتى سنة ٧٧٧ (١٣٧٥ م)، وكلا الكتابين كُتِبَ من قبله بتركية المشرق (الجغتائية)، وتُرجم إلى الفارسية من قبل أبي طالب الحسيني، ويُسَمَّ بصحتها على العموم، ويقول الميجر ديفي الذي قدّم في القرن الثامن عشر ترجمة إنكليزية لتلك النظم: «إن بساطة الأسلوب الأصيل وما يلزم جميع رسالة نظم تيمور وتاريخه من أثره خالصة خالية من الزخرف هو من السمات الدالة على صحتها وعلى قدمها معاً»، ويغدو أسلوب مؤرخي الفرس والترک منذ ذاك الزمن أقلّ بساطة وأكثر ازدهاراً، وبما أن الفصل الأول من المذكرات يشتمل على حكم

(٧) نظم تيمور Institutes de Timûr ، طبعة وايت، ترجمة وليم ديفي، أكسفورد، ١٧٨٣، - نظم تيمورلنك السياسية والعسكرية، ترجمة فرنسية قام بها لنفليس، ١٧٨٧، ملحوظات تيموري، أو مذكرات العاهل المغولي تيمور بقلمه، ترجمة إنكليزية نشرتها لجنة الترجمة الشرقية، ١٨٣٠.

إجماليّ عن عهد تيمور فإنه يُعبّر عن حسّ الزّهو والتّصلّب، قال تيمورلنك: « بما أنني أمسكتُ ميزانَ العدلِ فإنني لم أنقص حصّةَ إنسانٍ ولم أزد عليها، وإنما وزنتُ كلَّ شيءٍ مساوياً، وقد أقيمتُ العدلَ بين الناسِ بدقّةٍ جاداً في التمييزِ بين الحقِّ والباطل، وقد أطعتُ أوامرَ الله وراعيتُ شريعته الطاهرة وأكرمتُ مَنْ أكرّم، وقد فضّلتُ أمورَ الدينِ على أمورِ الدنيا، وقد رجحتُ الناسَ ونشرتُ الحُسنِيّاتِ بين الناسِ، فبهذه الصفاتِ نلتُ محبّةَ خلقِ الله»، وقد يندو مبدأ « الرحمة » من لدن هذا الفاتح، الذي هو من أكثر مَنْ عرّف العالمُ سَفْكَاً للدماء، مُثِيراً للسُّخْرِيّة، ومع ذلك فإنّ المُعْجَبِينَ بتيمورلنك التمسوا له العُذْرَ في إهلاكه خلقاً كثيراً، وإزهاقه ما لا يُحصَى من أرواح المسلمين، بأن عَدُّوا ما صنَعَ للدينِ من خيرٍ أعظمَ مما صنَعَ له من شرِّ بمراحِل؛ وقد أضاف إلى ذلك قولَه: « لقد نشرتُ دينَ الإسلامِ في جميعِ ممتلكاتي، وذلك لأنني أدركتُ أن الدينَ والدولةَ توءمان، وأن كلَّ ولاية لا تستند إلى دينٍ لم تلبث أن تَفْقَدَ سلطانها»، وهذا هو عَيْنُ المبدأ المَلَكِيّ القديم الذي وُجِدَ في أوربة أيضاً والقائلُ إن الكنيسة والدولة زوجان متعاونان لبيسط سلطانهما على الأمم.

وفي « المذكرات » تَعْقُب ذلك فصولٌ يَصْنَعُ التسلُّمَ بصحتها تماماً، وذلك أن تيمورلنك رَوَى فيها أمرَ إشاراتِ أنبأته في صِبَاهِ بقادم عظمته، وهذه الإشاراتُ هي مَنَاماتٌ ومصادفاتٌ وأقوالٌ وقُؤُولٌ يَصْنَعُ علينا أن نصدّق قِيَدَه وجمَعَه لها بنفسه، ومع ذلك فإن من المعلوم كَوْنُ الخُرَافَةِ صِفَةً خُلُقِيَّةً مُشْرَكَةً بين كثيرٍ من العاهلين والفاحين الشرقيين.

وهنالكَ يَقْصُ تيمورلنكُ خبرَ حياتِه سنَّةَ بعد سنَّة سائراً مع تقدم عُمرِه، وتُعَيِّنُ الوقائِعُ بدقَّة وتكتسِبُ القِصَّةُ سِمَةَ الصدقِ مقبِداراً فمقِداراً، ولما بَلَغَ السادسةَ عِشْرَةَ من سِنِيهِ تَلَقَّى نِصائِحَ من أبيه الذي خاطبَه بلسانِ التقوى وَلَحَّصَ له تاريخَ آلِه، ويُذَكِّرُ أن تيمورلنكَ يَنتسبُ إلى أُسرَةٍ من كُبرَاءِ ضباطِ التتَرِ، وأن أفرادَ الأُسرةِ المالِكَةِ الذين هم من ذريةِ جنكيزخانِ وأكابرِ الضباطِ أَقْطَعُوا في الانقسامِ الذي عَقِبَ فَتْحَ جنكيزخانِ، ممتلكاتِ صاروا مستقلين فيها تقريباً، وقد أعاد تيمورلنكُ وحدةَ قِسمٍ من الإمبراطورية التتريَّة الواسعة، ومن المُمتِعِ تاريخُ الأسلوبِ الذي قاتَلَ به الرؤساءُ المجاورين في أوائلِ سِنِ كِه وزاد به ممتلكاتِه الخاصَّةَ شيئاً فشيئاً، فهذا التاريخُ يدلُّ دلالةً واضحةً على سَدادِ خُلُقِه وثباتِ طبعِه كما يدلُّ على ما يَغرُو إلى العنايةِ الرَّبَّانيةِ أو الطالعِ من أثرٍ في ارتقائِه.

ومما قال: «في ذلك الحين، أي في سنة ٧٦٢، أتاني السادة والأئمة والعلماء وجميع ذوي الوجاهة في بلاد ما وراء النهر وطلبوا مني أن أسمح بأن تُقرأ الخطبة باسمي، ولكنني رأيت الانتظار حيناً آخر أيضاً، وذلك لأنني أبصرتُ أن من الضروريِّ، قَبْلَ كلِّ شيءٍ، أن أَطَهِّرَ البَلَدَ من اللصوص وقطاع الطرق وأن أضعَ جميعَ القبائل البدوية ضِمْنَ نِطاقِ من الطاعة التامَّة، فبعد ذلك يَسهُلُ أن تُقرأَ الخطبة، وأن تُضربَ النقودُ باسمي.

«وقد تَلَقِيتُ في الوقتِ نفسه كتاباً من القائد الوزير خِزِرِ يوزوري يُخبرُني فيه أنه آتٍ هو وجميعُ عشيرته ليكونوا من رعيتي، وأسرُّ بِخضوعه لسُلْطاني طَوْعاً على هذا الوجه، ويساورني

اعتقادُ بأن علم سيادتي يرتفع كل يومٍ أكثر من قبل.

« ولما بَلَّغْتُ في تلك السنة سِنَّ السادسة والعشرين طَلَبَ العَوْنُ مني حفيدُ الأمير قُرْغان، الأميرُ حسين الذي كنتُ قد شَجَعْتُهُ على غَزْوِ بادَخْشان، فهجم على قلعة شادمان التابعة لميان سِنْدُووز، وأوافق على المساعدة نظراً إلى ما بيننا من صلوات القرابة، وأُرْسِلُ فرقةً من كتائي بقيادة خِصِرِ يُوْزُوْري كَيْما تَنْضَمُ إليه، وتَمْضِي أيامٌ قليلة فأزحف مع فرقتي الخاصة، فيُخَبِّرُ سِنْدُووزُ بحركاتي، وَيَغْدُو من الضعْفِ بحيث لا يقاتل قوةً عظيمةً كهذه، وَيُخْلِي قلعةً شادمان وَيَفِرُّ داخلَ بادَخْشان.»

هنالك يستولي الأمير حسين على بادَخْشان، ويتركها تيمور له بناءً على طلبه قانماً بقلعة شادمان لنفسه، وتكون سوبزُ عاصمةً تيمورلنك في ذلك الزمن.

وفي سنة ٧٦٣ (١٣٦١ م) يستعدُّ لغزوِ خُوَارِزْمِ مستعيناً بالأمير حسين أيضاً، ومما يروى خبرُ معركةٍ وقعت في هذا البلد لقيَ فيها أخطاراً كبيرة لا يخلو خبرها من إمتاع، فقد قال: «مضى وقتٌ قصيرٌ فحرَّضُ زعيمُ الأعداءِ تُوكِلُ بهادرُ رجاله من جديد وهَجَمَ علينا، فوطَّنتُ أنا والأمير حسين ورفقاؤنا أنفسنا على الموت، ولما حاول الأعداءُ أن يقيضوا علينا، وقد بلغت من الدفاع عن نفسي ما صرَّعتُ به كثيراً من مقاتلتهم، وفي هذه الأثناء يصاب حصانُ الأمير حسين بسهم فيلقيه على الأرض، فتنزِلُ زوجته دِل شادُ أغا عن حصانها الخاص من فورها وتقدِّمه إليه، وأركبُ فوق الحصانِ عينه دِل شادُ أغا كما أركبُ زوجي وأختَ الأمير حسين، وهنالك

أخذنا في رمي سهامنا التي لم يُخطيء أيُّ منها غرضه حتى فرغت جعابنا، ولم يبق من كتيبتنا غير سبعة رُكبان، ولكن بما أن عدد أعدائنا قلَّ كثيراً أيضاً فقد تركوا القتال وترجّلوا في السهل، ويفتتم فريقنا الصغير هذه الفرصة ليستمرَّ على طريقه، أجل، لم يلبث عدونا أن تعقّبنا، ولكنه أخطأنا وتاه في الصحراء، ونسير طويلاً في سهول واسعة، ونصل إلى بئر، ونترجّل لشدة جوعنا وعطشنا، ومن حسن حظنا أن كان ماء هذه البئر عذباً».

وهناك يلتقى الفارون راعياً، فيعطيهم مِعْزاً يشوونها، ويقضون ليلتين مستريحين لاهين، ولكنهم لم يعتموا أن وقفوا من قبل التُّركمان، ويحبسُ تيمورُ «في مراحٍ بقرٍ حيث يُحجزُ هو وزوجه، فلا يجدان رفيقاً لهما غير الحشرات مدة ثلاثة وخمسين يوماً»، وفي ذلك الحين «ينذرُ على نفسه ألاَّ ينجزَ في السجن أو في القيود، لطويلِ زمنٍ، أيُّ إنسان بريء أو مذنب. وأخيراً بما أنه كان مؤمناً بحظه دائماً فإنه عزم على التخلص من هذا المكان الكريه أو على وضع حدٍّ لأيامه، ويقبضُ على سيف أحد الحُرَّاس، ويهجمُ على الحرس ويهرب».

وتمرُّ بضع سنين، ويُلقيه الأمير حسين في الظلِّ «فيظهرُ بلد طوران من دسائسه السيئة»، ويُهنيكه، ويجلسُ على عرش المملكة في مدينة بلخ سنة ٧٧١ (١٣٦٩ م).

وما تقدّم ترى أن فتوح تيمورلنك لم تكن سهلة دائماً، فهي أثر نبوغ وعزم وعناد كما أنها أثر حظ، ولم يكن على تيمورلنك أن يخوض أقلَّ من سبع معارك حتى يقهر الجيت، وقد خاض من

المعارك خَسَاءً ضِدَّ شَاهِ خَوَارِزْمٍ، وَقَدْ أُعِدَّتْ مَعْرَكَةٌ أَنْقَرَةَ الْمَشْهُورَةَ،
الَّتِي كَسَرَ الْجَيْشَ الْعُمَانِيَّ فِيهَا وَأَسَرَ السُّلْطَانَ بَايَزِيدَ (١٤٠٢ م)،
مُجْرِبًا سَبْعَ سِنِينَ عَلَى حُدُودِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ، وَكَانَ أَعْدَاؤُهُ فِي
ذَلِكَ الْيَوْمِ مَحَلًّا تَقْدِيرِهِ، فَلَمَّا رَأَى ارْتِدَادَ الصَّرْبِيِّينَ الَّذِينَ كَانَتْ
تَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ مَيْسَرَةُ الْجَيْشِ الْعُمَانِيِّ صَرَخَ قَائِلًا: «لَقَدْ قُهِرَ هَؤُلَاءِ
التُّعَسَاءُ كَالْأَسُودِ!».

وَكَانَ عِلْمُ تَيْمُورَلَنْكَ الْحَرْبِيُّ عَظِيمًا، وَهُوَ، كَمُنْظِمٍ لِلْجَيْشِ، قَامَ
بِاصْلَاحَاتٍ وَاصْتِرَاعَاتٍ مَهْمَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ تَرَكَ لِقَائِدِ كُلِّ فِرْقَةٍ
عِبَاءَ جَمْعِ رِجَالِهِ وَتَمْوِينِهِمْ، فَحَمَلَ مَجْلِسَ الشُّورَى (قُورُلْتَاي) عَلَى
اسْتِحْسَانِ ذَلِكَ، وَيُرَى أَنَّ ابْتِدَاعَ الزُّبِّيِّ الْعَسْكَرِيِّ الْمُوَحَّدِ مَدِينٍ لَهُ
أَوْ لِابْنِهِ السُّلْطَانَ مُحَمَّدٍ، وَيَعْرِضُ هَذَا الْأَمِيرُ أَمَامَ أَبِيهِ، قَبْلَ مُحَارَبَةِ
التُّرْكِ، مَا وَضِعَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ مِنْ كِتَابَتَيْ، فَوُجِدَ أَنَّهُ أَلْبَسَهُمْ ثِيَابًا
مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ وَفَقَّ طَبِيعَةَ الْأَسْلِحَةِ، أَيَّ جَعَلَ أَلْبَسَةَ الْفَرَسَانِ
حُمْرًا، وَمِنْهَا كِنَانَاتُهُمْ وَدُرُوعُهُمْ وَتُرُوسُهُمْ، وَجَعَلَ ثِيَابَ الْكُتَيْبَةِ
الْفَلَانِيَّةِ صُفْرًا وَثِيَابَ الْكُتَيْبَةِ الْعِلَانِيَّةِ بِيضًا، فَهَذَا تَيْمُورَلَنْكُ ابْنَهُ
عَلَى هَذَا الْاصْتِرَاعِ بِحِرَارَةٍ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ فَنُّ الْحِصَارِ فَقَدْ أُثْبِتَ تَيْمُورَلَنْكُ اتِّصَافَهُ بِبِرَاعَةِ
كَبِيرَةٍ وَنَبُوغٍ كَامِلٍ، وَنَذَكُرُ فِيهَا نَذَكُرُ حِصَارَ إِزْمِيرِ الْمَتَازِ إِلَى
الْغَايَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَقِيمَ مِتْرَاسٌ حَوْلَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، كَمَا أُقِيمَتْ أَمَامَ
هَذَا الْمِتْرَاسِ بُرُوجٌ يُمَكِّنُ كُلَّ مِنْهَا أَنْ يَشْتَمَلَ عَلَى مِثْقَلِ جُنْدِيٍّ،
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَبْرَاجُ قَائِمَةٌ عَلَى دَوَالِيْبٍ يُمَكِّنُ تَقْرِيْبَهَا إِلَى أَسْوَارِ
الْمَكَانِ تَسْهِيلًا لِلْهَجُومِ، وَتُدَكُّ الْحُصُونُ بِعَشْرَةِ آلَافِ حَقَّارٍ، ثُمَّ

أُحْرِقَت الروافد^(٨) التي اسْتُخْدِمَت لِدَعْمِ مجازات التجويف، وَيُغْلَقُ المرفأُ بِإِطَالَةِ الأَرْضِيفَةِ بِكُتْلٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الحِجَارَةِ، وَيَتِمُّ هَذَا العَمَلُ بِسُرْعَةٍ تُشِيرُ الحِيرَةَ، حَتَّى إِنَّهُ أُنْشِيَءَ فِي سَوَاءِ المِينَاءِ رَصِيفٌ مُسَنَّدٌ بِدَعَائِمٍ ضَخْمَةٍ، فَمَرَّ جُنُودُ التَّتَرِّ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ المَصْنُوعِ لِيَنْقَضُوا عَلَى تِلْكَ المَدِينَةِ الَّتِي كَانَ يَدَافِعُ عَنْهَا فِرْسَانُ رُودُسَ المَشْهُورَةِ مُنْظَمَتُهُم بِالْبُطُولَةِ، - وَقَدْ اسْتَعْمَلَ التَّتَرُّ، حِينَ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى قَلْعَةِ دِمَشْقَ، قَنَوَاتِ سِرِّيَّةٍ لِاسْتِنَافِ مِيَاهِ الحِنَادِقِ، وَحَفَرُوا تَجَاوِيفَ تَحْتَ الأَسْوَارِ - كَمَا صَنَعُوا فِي إِزْمِيرَ - وَأَحْرَقُوا خَشَبَ الدَّعْمِ، - وَفِي أَشْهُرِ الرَّاحَةِ القَلِيلَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا تيمورلنك قَبْلَ مَحَارِبَتِهِ العُثْمَانِيينَ أَصْلَحَ قَنَاةَ الرَّسِّ القَدِيمَةِ الَّتِي سَمَّاهَا بِرِلاسَ تَكْرِيمًا لِرَئِيسِ مِنْ أَفْضَلِ رُؤَسَاءِ عَشِيرَتِهِ .

وَكَانَ تيمورلنكُ يُحِبُّ الصَّيْدَ، فَصُورٌ، قَبْلَ الحِمْلَةِ عَلَى قَبْجَاقَ، وَهُوَ بِصِطَادِ الإِوَزِّ عَلَى المَنَاقِعِ المَجاوِرَةِ لِبُخَارَى، وَمِمَّا حَدَثَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنْ اسْتَقْبَلَ سَفَرَاءَ بَايَزِيدَ فِي مَعْسَكَرِهِ بِقَرَةِ بَاغٍ فَأَقَامَ لَهُمْ حَفْلَةً صَيْدٍ كَبِيرَةً فِي سَهْلِ الرَّسِّ وَحُوصِرَتِ الحَيَوَانَاتُ مِنْ قِبَلِ جُنُودِ صُفُوفًا عَلَى شَكْلِ دَائِرَةٍ وَاسِعَةٍ ...

وَعَلَى مَا يَتَصَفَّ هَذَا العَاهِلُ مِنْ رِصَانَةٍ طَبَعِ وَمِنْ وَرَعٍ فَقَدْ اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ جَزَّارٌ كَبِيرٌ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا العَاهِلُ أَكْثَرَ الفَاتِحِينَ سَفْكَاءَ لِدِمَاءِ البَشَرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الأُسْطُورَةَ ضَفَّتْ عَلَى التَّارِيخِ هُنَا بَعْضَ الشَّيْءِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا قُصَّ عَلَيْنَا مِثْلًا كَوْنُ تيمورلنكَ حَمَلًا

(٨) الروافد: جمع رافدة، وهي خشبة السقف التي فوق الجسر، والعامية تسميها الوصلة.

بايزيدَ على السَّفَرِ محبوساً في قَفَصٍ من حديد، وقد أتت هذه
 الأسطورة من المعنى المضاعف لكلمة «قفص» التي تدلُّ على
 محبَس الطير وعلى «المَحْمِلِ المُشَبَّكِ بالقُضبان»، وقد يَأْتِي فَتَدَّ المَوْرُخُ
 التركيُّ سعدُ الدين هذه القصة التي عَدَّها «اختلاقاً صِرْفاً، فَمَا أَن
 مَنْظَرَ التترِ الكريه كان يُشِيرُ غَيْظَ السُلْطَانِ فَقَدْ وَدَّ لو يُحْمَلُ على
 هَوْدَج، ومن يُرِيدُ أَن يَضَعَ نَفْسَهُ فِي مَكَانِهِ يُدْرِكُ أَنَّهُ فَضَّلَ السَّفَرَ
 على هذا النمط، وذلك أَن من يَنْظُرُ إلى طبعه الصائل يَجِدُ أَن من
 المتعذر عليه احتمالَ رؤيةِ أعدائه»، ومع ذلك فإن سعدَ الدين
 يَحْكُمُ على تيمورلنكَ بقسوة، فقد قال: «لقد مُحِيتِ الشَّفَقَةُ
 والرحمة من صفحةِ قَوادِهِ، فكان رجلاً فظاً غليظَ القلبِ يَعدُّ
 النهبَ وقتلَ الأولادِ من الأعمالِ الصالحة، وكان لديه ما لا حَدَّ له
 من الجرأة على السلب والتدمير، فَيُبَغِضُ في كلِّ مكانٍ يَضَعُ فيه
 قَدَمَ طغيانه، فهو كالوحش الضاري، ولا عَجَبَ، فجنودُهُ كانوا
 يَبْدُونَ كالفيلان، فينهبون البيوتَ ويخرَّبونها ويُهْلِكُونَ الزَّرْعَ
 والجذورَ والغصونَ وكلَّ ما أَنْعمَ به اللهُ».

وما يُروى أيضاً أن إحدى القَصَباتِ أَخْرَجَتْ صَبِيانَهَا للقاءِ
 التترِ ونيلِ حَنانِهِم، فأمر تيمورلنكُ بِسَحْقِهِمْ تحتِ سَنابِكِ الحَيْلِ،
 وتقول روايةٌ أخرى إن الأولادَ رَفَعُوا مصاحفَ القرآنِ بأيديهم،
 فكان أولُ ما أَمَرُوا به أن يَحْلُوا هذا الكتابَ المقدسَ ناحيةً ثم
 سَحَقُوا، ويدلُّ هذا النبأُ دلالةً واضحةً على ما في طَبَعِ الفاتحِ من
 تضادٍ بين احترامه الشريعةَ الدينيةَ واستخفافِهِ بالحياةِ البشرية،
 وهذا مع احتمالِ أسطورةٍ هذه القصةِ سواءً أَطَبَّقَتْ على أَصْبَهانَ أم
 على مدينةِ بجوارِ أفسوس.

وأما الأهرامُ التي صُنِعَت من جاجم الآدميين وإدراج رؤوسِ
الناس في بعض المباني فمما لا يُمكن إنكاره، ومع ذلك يُعدُّ نبأ ابن
عربشاه أمراً مُرتباً مبالغاً فيه^(٩).

ولم يَفِد تيمورلنكُ اكتراثه للحِرَف والفنون في أثناء النهب
والتقتيل، وهم لم يُوفَّرَ لدمشقَ غيرَ عددٍ قليلٍ من الناس، أي أن
المتفنين والعمال والعلماء هو الذين أرسلهم إلى سمرقند، وكان
يُوجدُ بين هؤلاء صنَّاعُ أسلحةٍ مُكفَّتةٍ وخزَّافون مُزخرفون بالمينا،
وهو لم يستطع أن يحوّل دون حريق قبة الجامع الأمويِّ الرصاصية
في تلك المدينة، ولكنه أقام بعد ذلك قِباباً رائعةً لأزواج النبيِّ،
وكذلك أرسل المتفنين والعلماء والعمال إلى «كيش» بعد استيلائه
على خوارزم سنة ٧٨١ هـ، وقد شاد في سمرقند مدرسةً وقصوراً
ومباني مشهورةً سوف نعود إلى الكلام عنها.

وكان رجلُ الحرب الكبيرُ هذا سياسياً ماهراً يَقْرُبُ من
الطريقة الإيطالية، فكان يَنْتَفِعُ بالزواجات لتوسيع نطاقه أو
للاقتراب من الأمراء الذين يُفكِّرُ في هلاكهم، وقد اجتذب في
أواخر حياته عواطفَ دولةِ الروم، وكان يُمكنه أن يجعل، بحِلْفِ
يَعْقِدُه مع قيصرِ بزنطة، قيامَ الدولة العثمانية ثانيةً أمراً مستحيلاً،

(٩) ولَدَ كاتب سيرة تيمورلنك، ابن عربشاه في دمشق، فأتى به هذا الفاتح إلى
سمرقند حين استيلائه على هذه المدينة، وقد ساح في آسية الصغرى،
وانتقل إلى خدمة السلطان محمد الأول، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٥٤ (١٤٥٠م)، تاريخ
تيمورلنك الكبير، ترجمة ب. فاتي، باريس، ١٦٥٨.

وذلك لولم يُدعَ من ناحية الصين، ثم يُوقَفَ بالموت سنة ١٤٠٥ م .
قال الشاعر عنه؛ « فقالوا في هذه تارة تمور واخرى تمرلك وهو
بالتركي الحديد بن ترغاي ...

الاعرج الدجال من قصم الجماجم والظهور
داح البلاد ودارها ونوايب الدنيا تدور (١٠)



(١٠) ابن عربشاه.

ملوك الهند : محمود الغزنوي ، بابر ومذكراته ، فتح الهند ، العاهل الفيلسوف : أكبر ، آراؤه في الدين وادارته ، مذكرات جهانكير

اتَّفَقَ للهند عاهلون كبار من العِرْق التتريِّ والمُغُوليِّ ،
- في اواخر القرن العاشر الميلادي - وقد اَقْتَطَعَ عتيق الب شكين
التتريُّ سُبكتيكنُ ، مملكةً لنفسه ذاهبةً من ضِفَّة نهر جيحُون اليسرى
الى سلسلة جبال سليمان بغرب السُّنْد ، وقام بملِكِه في غزنة ، ويُغَيِّرُ
عليه زعماءُ راجپوتَ بالصفة اليسرى من السند ، فيَهْزِمُهُم ، ويتقدم
في الهند وَيَنْهَبُ الْبَنْجَاب ، ويعتق الاسلامَ كثيرٌ من القبائل
الجبليَّة ، وَيَذِيْعُ صِيْت ابْنِه محمودِ الغزنويِّ ، وتُنسَجُ حَوْلَه اسطورةٌ
في تاريخ الشرق ، وبما انه سليلُ اَبِ تترِيٍّ وَاُمِ تاجيكية ، اي من
عِرْقِ غزَنَةَ المِهلِيَّ فانه اُضَاف الى غرائز العِرْقِ الاول في الاعتداء
والسلب اذواقَ العرقِ الثاني الرقيقة . وَيَغزُو الهندَ في اثناء عهده ،
الذي دام ثلاثين سنةً ، اثنتي عشرةَ مرةً ، وَيَقْتُلُ كُلَّ من يقاومه ،
وينتهك حرمةَ المعابد الهندوسية وَيُحَطِّمُ الاصنام ، وَيَجْلِبُ الى
عاصمته كنوزاً لا يَمِكنُ تقديرها بثمان ، وتُسْفِرُ غَيْرَتَهُ في إتلاف
التصاوير ، وَفَقَّ تعاليم الإسلام التي يُحَرِّفُها ، عن تلقيبه بِمُكْسِرِ
الاوْثان (بُتْ شِكان) ، وَيَنْهَبُ ، فيما يَنْهَبُ ، معبدَ سُمْنات المشهور ،
معبدَ هذا البلدِ الواقع في الجانب الجنوبيِّ من شبه جزيرة

الكُجرات، وكان هذا المعبدُ يَشتمَلُ على صنمِ شيفا المُبجَّلِ كثيراً لدى الهندوس والذي تَكَلَّمُ عنه كُتَّابُ المسلمين غالباً^(١١)، ويستولي محمودٌ على المعبد بعد هجومٍ دام ثلاثة ايام، ويُحطِّمُ تمثالَ الإلهِ الأكبرِ وَيَنزِعُ الابوابَ لِيزَيِّنَ بها الضريحَ الذي يَصنَعُهُ لنفسه في غزاة (١٠٢٥ م)، وفي سنة ١٨٤١ يَحْمِلُ اللوردُ إِنْبُورُو على نَقْلِ هذه الابواب من هذا الضريح الى دهلي، وَيَظْهَرُ، مع ذلك، انه لم يُسْتَطَعْ تطبيقُها على ابواب معبد سُنات.

وكان ذاك النَّهَابُ متفنناً كبيراً، فيشيدُ في عاصمته قصرًا فاخرًا ومسجدًا من الرُّخام، وكان يُحِبُّ الشعرَ فيُحيطُ نفسه بالادباء والعلماء، واحتفظ بشهرة أميرٍ مُثَقَّفٍ مع انه انتقدَ من قَبَلِ كُتَّابِ كثيرين، وارتبطَ اسمُهُ في اثنين من أعظمِ اسماء الاسلام الأدبي، وهما: الشاعر الفردوسيّ والعالم البيرونيّ، فعَدَلَهُ كُلُّ منهما، فأما الفردوسيُّ فأبصرَ انه لم يُجَزَلْ له العطاء عند إتمام منظومته فتركه مُوجَّهًا اليه هجواً شديداً، وهو يَصِفُهُ بالملك «الذي لا دينَ له ولا أدبِ والخالي من سُمُو الملوك... فلو كان أميراً جديراً مُجْسِنِ الذِّكْرِ لأكرمَ العِلْمَ»، ولم يَبْدُ البيرونيُّ أكثرَ ارتياحاً، فقد ذكر في كتابه عن الهند ان عهد محمود لم يكن مشجعاً للعلم وأنه يستحيل احراز تقدم في العلم والقيام بأبحاث جديدة في تلك الايام وأن ما بلغه العلم لم يعد ما توصل اليه القديما.

(١١) انظر إلى سعدى وصنم سُنات في «بوستان» سعدى، ترجمة برييه دومينار، باريس، ١٨٨٠، ص ٣٣٠.

وَيُفَضَّلُ هَذَا الْعَالَمَ عَلَيْهِ ابْنَهُ مَسْعُوداً تَفْضِيلاً كَلِيّاً مَعَ أَنَّهُ أَقْلٌ
مِنْ أَبِيهِ التَّمَاعِ فِي التَّارِيخِ بِمَرَاحِلٍ .

وَفِي زَمَنِ الشَّاعِرِ سَعْدِيِّ، أَي بَعْدَ مِئْتَيْ سَنَةٍ مِنْ زَمَنِ مَحْمُودٍ،
يَعْدُو اسْمُ هَذَا الْمَلِكِ اسْطُورِيّاً، وَذَلِكَ أَنَّ سَعْدِيّاً يَقْصُ أَنَّهُ رَأَى فِي
الْمَنَامِ وَهُوَ مُحَدِّقٌ عَابِسٌ، «فَهُوَ يَنْظُرُ الْآنَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِانْتِقَالِ
مَمْلَكَتِهِ إِلَى أَيْدِي سَادَةِ آخَرِينَ» .

وَكَانَ لِمَحْمُودٍ مُقَرَّبٌ إِلَيْهِ يُسَمَّى أَيَّازَ، وَكَانَ أَيَّازُ هَذَا حَامِياً
لِلْفَرْدُوسِيِّ حِيَالِ حُسَّادِهِ، وَقَدْ صَلَّحَتْ مَحَبَّةُ مَحْمُودٍ لِهَذَا الْخَادِمِ أَنَّ
تَكُونُ مَوْضِعاً لِقِصَائِدَ كَثِيرَةٍ عَنَوَانُهَا «مَحْمُودٌ وَأَيَّازُ»، فَحِيلَ هَذَا
الْمَوْضُوعُ عَلَى مَعْنَى رَمْزِيٍّ مِنْ قَبْلِ كُتَّابِ مَتَّصُوفَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ
مَحْمُوداً فِي حِكَايَةِ لِسَعْدِيِّ فِي الْبُوسْتَانِ رَمَزُ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ أَيَّازَ رَمَزُ إِلَى
النَّفْسِ الْبَاحِثَةِ عَنِ الْفَضْلِ الْأَعْلَى، وَإِلَيْكَ كَيْفَ رُتِبَتِ الْقِصَّةُ:

جَابَ مَحْمُودٌ وَمَوَكِّبُهُ مَضِيقَ جِبَالِ ذَاتِ يَوْمٍ، وَسَقَطَ أَحَدُ
الْجِبَالِ، فَانْكَسَرَ صُنْدُوقُ الدَّرِّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ، وَتَرَكَ
السُّلْطَانَ جَوَاهِرَهُ لِأَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ، وَتِيهَافَتِ الْجَمِيعُ لِالْتِقَاطِهَا تَارِكِينَ
السُّلْطَانَ يُوَاصِلُ سَيْرَهُ، وَيَدَاوِمُ خَادِمٌ وَاحِدٌ عَلَى السَّيْرِ وَرَاءَهُ،
وَهَذَا الْخَادِمُ هُوَ أَيَّازُ، وَيَرَاهُ مَحْمُودٌ وَيَقُولُ لَهُ: «وَهَلْ أَتَيْتَ بِحَصَّتِكَ
مِنَ الْغَنِيمَةِ أَيْضاً؟»، وَبِحَيْبُ أَيَّازُ: «كَلَّا، وَإِنَّمَا دَاوَمْتُ عَلَى اتِّبَاعِ
الْمَلِكِ»، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ مُسْتَنْتَجِياً: «وَأَنْتَ الَّذِي يَبْنِي الْحَيَاةَ فِي قَصْرِ
الْجَنَّةِ، نَرَجُو أَلَّا يَصْرِفَكَ حُطَامُ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنِ الْمَوْلَى!». .

وَكُتِبَتِ سِيرَةُ مَحْمُودِ الْغَزْنَويِّ بِالْعَرَبِيَّةِ سَجْعاً مِنْ قَبْلِ الْعُتْبِيِّ،

فصار كتابه كِلاسيًّا لدى الشرقيين^(١٢)، وأفرد العالم البَنَهَقِيُّ كتاباً مهماً بالفارسية لابنه السلطان مسعود.

ومؤسسُ دولةِ المُغُولِ الشهيرة في الهند هو السلطان بابر، ولم يَكُنْ هذا العاهلُ قائداً كبيراً ولا فاتحاً رؤوفاً ولا مدبِّراً محنكاً فقط، بل كان يُسمَّى رجلاً فاتناً أيضاً، وقد تَرَكَ لنا «مذكَراتٍ»^(١٣) تُعدُّ من أروع ما كُتِبَ في نوعها، ووضِعَ هذا الكتاب بالتركية الشرقية، وأُطلق عليها بِإِثْمِ دوكرتاي اسم «تفاسير قيصر الشرق»، وفي هذا الكتاب قصٌّ بابر عن أصحابه وتكلَّم عن البلاد التي طاف فيها مثل رجلٍ يتذوَّق الطبيعةَ ويُعنى بنواحي الحياة اللطيفة الظريفة.

وينتسب بابرُ الى جنكيزخان من جهة الاب والى تيمورلنك من جهة الام، ولما حَلَّتْ سنة ٨٩٩ (١٤٩٤ م) خلفَ اباہ في مملكة فرغانة، ويملكها خمسَ سنين، ثم يَطْرُدُه منها خانُ التتر الأذربكية: شائببِك فيرتدُّ الى غزنة، وتَشْتَعِلُ فتنٌ في الهند، ويدعى من قِبَلِ والى لاهور، ويغزو البنجاب التي كان يدَّعي بوجود حقوقٍ له فيها ناشئةً عن كَوْنِ هذه البقعة قسماً من ميراث تيمورلنك فيما مضى، وفي سنة ١٥٢٦ يَفْهَرُ، أولَ مرة، حِلْفاً من امراءَ هنديين ألفه رئيسُ باتان السلطان إبراهيم، وفي المرة الثانية يَلْقَى جيوشاً هندوسية مؤتلفة بقيادة الرئيس عينه فيُنصِرُ عليهم نصراً مؤزرًا،

(١٢) كتاب اليميني، ترجمة إنكليزية قام بها ج. رينولدز، لندن، ١٨٥٨.

(١٣) بابرنامه أو كتاب بابر، وقد كان هذا الكتاب موضوعاً لكثير من المؤلفات

وَيَمَازِجُ وَصَفَهُ لِهَذِهِ الْمَعْرَكَةِ تَنَوُّعٌ بِالْغِ وَحَيَوِيَّةٌ، وَيَجِيءُ أَمْرَاءُ الْهِنْدِ الَّذِينَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يِقَاتِلَهُمْ مَدْتَرِينَ بِأَسْلِحَةٍ وَقَائِيَّةٍ مَذْهَبَةٍ مَعَ مِئَةِ فَيْلٍ مَزْخَرَفَةٍ بِجَلَالٍ فَآخِرَةٍ، فَكَأَنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ بِيَارِقِهَا مَعْسَكُرُ نَسِيجٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَيُقَضَّى الْيَوْمُ السَّابِقُ لِلْقِتَالِ مِنْ قِبَلِ الْهِنْدُوسِ فِي الْأَلْعَابِ وَمَسَابِقَاتِ الْفِرْسَانِ وَفِي الْعَرَبِدَاتِ، وَيَرْتَعِشُ جُنُودُ بَابِرِ، النَّازِلِينَ مِنْ جِبَالِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَطَعُوا بَوَادِيَّ جَافَةً ذَاتَ رِيَاحٍ مُخْرِقَةٍ، أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَيَلُوحُ أَنَّهُمْ يَكَادُونَ يُؤْخِذُونَ ذَعْرَاءَ، بَيِّنَ أَنْ بَابِرَ لَا يَدْعُ لَهُمْ وَقْتًا يَسْتَحُوذُ الْفَرْعُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَيُنَظِّمُ جَيْشَهُ جَاعِلًا مَيْمَنَتَهُ تَسْتَنْدُ إِلَى اسْوَارِ بَانِي پَتِ، وَتُخَمِّي جِبْهَتَهُ بِمَدْفِئَةٍ كَثِيرَةٍ مَسْتَتِرَةٍ بِعَرَبَاتٍ وَحُزْمَاتِ حَطَبٍ، وَيَكُونُ حَمَلَةُ الْبِنَادِقِ فِي الْخَلْفِ، وَيَقَامُ فِي الْمَيْسِرَةِ مَثْرَاسُ تَرَابِيٍّ مَكْسُوفٍ بِحَطَامِ شَجَرِيٍّ، وَهَكَذَا يُقَضَّى الْيَوْمُ، وَتَكُونُ قِيَمَةُ الْعُدَدِ فِي الْمَعْسَكِرِينَ مُتَفَاوِتَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الْهِنُودَ لَمْ يَزَالُوا ذَوِي اسْلِحَةٍ مِنْ طِرَازِ عِتَادِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى، وَأَنَّ بُنْدُقِيَّيَ بَابِرِ مَجْهَزُونَ بِبِنَادِقِ ذَاتِ مَكَاوِ فِتِيلِيَّةٍ، وَأَنَّ مَدْفِئَتَهُ حَائِزَةٌ لِأَحْسَنِ النَّأْذِجِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، وَكَانَ عِنْدَ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ نَبَالَةٌ كَثِيرَةٌ.

وَيَقْذِفُ الْغُرَّ الْجَاهِلُ إِبْرَاهِيمُ كِتَابِيَّةَ الْمُبْرَقِشَةِ مَهَاجِمًا مَرَاكِزَ الْمُقُولِ، وَتَخْصِيْدُهُمْ مَدَافِعُ بَابِرِ الطَّوِيلَةِ وَالْقَصِيرَةِ وَالْيَدُويَّةِ عَلَى حِينِ كَانَ نَبَالَتُهُ، عِنْدَ قِيَامِهِمْ بِضَرْبِ نِطَاقِ حَوْلِ مَيْمَنَةِ الْهِنْدُوسِ، يُنْظِرُونَ عَلَى مُؤَخَّرَتِهِمْ وَأَبْلَاءَ مِنَ السَّهَامِ وَمُجُولُونَ دُونَ فِرَارِهِمْ، وَيُرْزَبُكَ جَيْشُ إِبْرَاهِيمِ حَتَّى بِكَثْرَتِهِ فَيَتَرَاكِمُ مُرْتَجِبًا أَمَامَ مَرَاكِزِ الْمُقُولِ، وَيَلْتَقَى رَأْسُهُ الْمَوْتَ بَيْنَ جَمْعِ جُنُودِهِ، وَيَسْقُطُ خَمْسَةُ آلَافٍ مِنْهُمْ فَوْقَ جِثَّتِهِ، وَيَسْفِرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَنِ فَوْزِ بَابِرِ بَدَهْلِي وَأَكْرَا،

وعن القضاء على سلطة الپاتان وعن بدء دولة المغول .
وهذا الرجل، الذي كان يَعْرِفُ ان يَكْسِبَ المعاركَ على ذلك
الوجه، يتكلم بروعةٍ وجدارةٍ عن الزراعة والصيد والصناعة
والمناجم، وهو يَصِفُ ملاطفاً بلدته فرغانة التي كان كثيرَ الحُبِّ لها
كما يُلُوح: وقد قال في بدء كتابه: « باسمك يا مَنْ تَبَارَكَ، اللهم إني
اشكرك على ما تَفَضَّلْتَ به عليّ من مددٍ مستشفعاً بالنبيِّ الطاهر،
إذ ملكتَ بلدَ فرغانة في الثانية عشرة من عُمرِي، وكان هذا يومَ
الأحد الموافق ٣ من رمضان سنة ٨٩٩ هـ، وكانت أُنْدِجان مَقَرَّه
المَلَكِيّ في ذلك الحين، وإليك كيف يُثْنِي عليها: « الأَطْعَمَةُ فيها
وافرة، وكذلك الفاكهة، ومن هذه الفواكه الشَّمَام والأَعْنَابُ فاخرة،
ولا نَجِدُ في أيِّ مكانٍ ما تَرَى لَشَمَامِ أُنْدِجانَ من حُسْنِ نَكْمَةٍ ...
وفي جوار هذا المدينة يُجَدُّ كثيرٌ من الكواسر التي تُضْرَى بالصيد،
ومنها نُسُورٌ بلغت من الضخامة بحيث لا يُشْبِعُها أربعة رجال ...
ويشاهد على ضفّتي نهر كِشٍّ من البساتين ما يُعَدُّ عَرْضاً شرقياً،
وللبنفسج فيها شذاً بالغ العذوبة، وتَرْوِيه جداولٌ صغيرةٌ فَتَجْعَلُهُ
في الربيع جميلاً جدّاً، وَيَفِيضُ فيها الوردُ والخُزَامَى، - وقال
أيضاً: « تَبْعُدُ مدينة مَرْجِنانَ من أُنْدِجانَ سبعة فراسخ (أعاش)،
وهذا مكانٌ جميل، ففيه رُمَانٌ ومشمشٌ لذيدُ الطعمِ زاخرٌ يُثِيرُ
العَجَبَ بكثرتِه، ومما يُوجَدُ هناك أيضاً نوعٌ كبيرٌ من الرُّمَانِ يُسَمَّى
« دَانَةُ كِيلان » اي ذُو الحَبِّ الضَّخْمِ وهو أَقْلُ طَعْماً وقت الإزهار،
ويُفَضَّلُ الياسمينُ في تلك البُقْعَةِ على كلِّ ما سِوَاهُ ... وهناك
يوجدُ، أيضاً، طيورٌ كثيرةٌ صالحةٌ للصيد . وأياثُلُ بِيضٌ في مناقِعِ
الجبالِ » .

وقد مات هذا الفاتح اللطيف سنة ٩٣٧ (١٥٣١ م) ابناً
للخمين من سِنِيهِ القَمَرِيَّةِ .

ويعُدُّ أكبرَ أعظمَ عاهلي المَغُولِ فَخْرًا ودامَ عهدُ أكبرَ من سنة
١٥٥٦ إلى سنة ١٦٠٥، وهو مفكِّرٌ حَقِيقِيٌّ، وَعَنَّتْ له مسأَلَةُ صَهْرِهِ
في حُكُومَةٍ واحدة، ودينٍ واحدٍ تقريباً، شعوبَ دولته ودياناتِها
الكثيرة الاختلاف، أي المسلمين والهندوس والشيعَة والسُّنِّيَّةِ
والراجپوت والأفغان، وكانت مصاعبُ هذا العمل عَظِيمَةً ويُمكن
أن تُقَدَّرَ من قِبَلِ من يَعْرِفون مقدار ما لِمُبْتَسِرَاتِ المَرُوقِ
والطوائف من سلطان على الهند، وكان الفَتَى اليافعُ « أكبرُ » أكثرَ
التفاتاً إلى الناحية الدينية من المُغْضِلَةِ، وذلك أنه تَصَوَّرَ،
كالصوفية ومُحَدِّثِي النصرانية، مَزْجاً بين الأديان، أو تَصَوَّرَ، على
الأقلِّ، اتحاداً يَقُومُ به مختلفُ المذاهب تحت مفهوم أكثر اتساعاً
وسُموّاً، فدعا إلى الاجتماع ضرباً من پَرلمان للأديان كَيْمًا يُوصَلُ إلى
هذا الغَرَضِ، وقد أتى إلى مَقَرِّه، « فَتَحَ پُورِ سِيكْرِي »، الزاخرِ
بروائع فنِّ البناء، بممثلين عن مختلف المِلَلِ والنَّحْلِ وحمَلَهُم على
النُّقَاشِ أمامه، حتى إنه استَدْعَى يسوعيين وأباح لهم فَتَحَ معبِدِ
صغير ليقوموا فيه بطقوسهم، ولا يزال يُرَى البَهُو مع رُكْنِ مركزيٍّ
وأروقةٍ مُشْرِقةٍ حيث كانت تُعقدُ الجلسات، فتُدعى « عِبَادَتُ
خَانَةِ »، أي بيتَ العبادة، وهناك يتكلم الخطباءُ بأعظم حرية،
فَيَغْدُو صاحبُ الجلالةِ مرتاباً كما لاحظ أحدُ كاتبي السِّيرِ، ولم يَكُنْ
أكبرُ لِيَقْنَعَ بهذه الاجتماعات الليلية، فَيَعْكُفُ في الصباح وحده على
تأملاتٍ طويلة تدوُرُ حَوْلَ مُغْضِلَةِ الحياة العامة، وحَوْلَ عمله
الخاصِّ مِثْلَ عاهلِ .

ولم يُكْتَبَ غيرُ توفيقٍ قليلٍ لمذهبه الدينيّ الذي هو نوعٌ انتخابيٌّ من وَحدة الوجود، فهو لم يَفْزُ بغيرِ اثني عشرَ تابعاً ضِمنَ أُسْرته الخاصة ولم يُوَلَّفَ فرقةً، ومع ذلك فإنه كان على الإسلام في الهند أن يتوجَّع من هذه المحاولة، وذلك أن كلمة الشهادة الإسلامية حُدِثَتْ من النقود والطقوس وعاد اسمُ النبيِّ لا يُطْلَقُ على الأولاد، وتُهَجَّرُ المساجد، ويحوَّلُ كثيرٌ منها إلى تُكُنَّات، ولم يُرَاعَ أكبرُ حُكْمِ الشرع الإسلاميّ الذي يُحرِّمُ صُورَ ذوي الحياة فَرَزِينَ قصرَه بمناظرٍ مُقتبسةٍ من الأساطير النصرانية والبُدْهيّة، وهو يشابه إسكندر سيْفِيرٍ بمجاورته في رِداهه صورةَ يسوعَ وصورةَ بُدْهَة.

وفي الحكومة المدنية يَكُونُ مبدأ التسامح والتوفيق أبعدَ أثراً، وقد جَهَرَ به، بجانب أكبر، وزيرُه وصديقه أبو الفضل الذي سنتكلم عنه بعدَ أمدٍ.

وتواصلُ إدارةُ أكبرَ عملَ عاهليٍّ سابقٍ غيرِ مُغوليٍّ، وهو شير شاه الذي ملكَ الهندَ بكثيرٍ من الحكمة قَبْلَ ذلك بزمن وإن كان عدواً للمغول، ويجدُّ في إقامةٍ كثيرٍ مساواةٍ في الضرائب بتوزيع الضريبة وَفَقَ دَخَلَ الأَرْضينَ وإلغاء المُكُوس، ولم تَغِبْ هذه الفكرة، قَطُّ، عن البال حتى عصرنا ويتنزَّلُ أكبرُ، بسبب تزوُّجه بنتَ أحدِ الرَّاجوات، عن مكسِنِ كانا يُوقِرَانِ الهِنْدُوسَ، فأما أحدهما فهو المَكْسُ المفروضُ على كلِّ من يَذْهَبُ حاجاً إلى المعابد البرهْمِيَّة، وأما الآخرُ فهو الجزية التي تجبى من الكافرين بحسب الشريعة الإسلامية، وكذلك يُعْنَى بمسئلة النقود، فيُلغى النقودَ المحليّة، ويحاول إدخالَ العُملة العادية وتثبيتَ قيمة العملة المتداولة، وأما من ناحية الأخلاق فقد حَظَرَ استعمال القسوة حيالَ

أَسْرَى الحرب، وَقَتَلَ بيده أخاه الذي أذنبَ في هذا الحَقْل، وحرَّم على الأيَّامَى إحراق أنفسهن في مواقد أزواجهن .

وكان لأكبرَ خادم كبيرٌ آخرُ اسمه تُودارمال، وكان هذا الخادم قائداً ماهراً وسياسياً بارعاً، فكان له نصيبٌ عظيمٌ في إدارة هذا العهد، وذلك أن هذا القائد، في أثناء الحملاتِ المستمرةِ الدائمةِ التوفيقِ ضد الرَّاَجواتِ الناقصي الخُضوع، اتَّخَذَ سلسلةً من التدابير الجبائيةِ الجديرةِ بأحسنِ الماليين، فوَضَعَ جدولاً صحيحاً عن الأملاك، وسَهَّلَ أمرَ الشُّكَايةِ من الإعْناَت، وقَرَّرَ الضريبةَ لتسعِ عشرةِ سنةً، وانتَبَهَ إلى عدمِ تفويضها إلى ملتزمين سارقين أو إقطاعيين محليين، وخَفَضَ إلى النصفِ عددَ صِغارِ الموظفين، وأعطى الزُّراعَ سُلُفاتٍ نقديةً وعينية، وفَرَضَ على جُباةِ الضرائبِ تقديمَ تقريرِ سنوياً، وتقديمِ حسابِ المالِ شهرياً، ووجبَ تقديمَ تقاريرِ خاصةٍ عند وقوعِ مصائبِ كالبردِ والفيضانات، وأمرَ بأن تُجَبَى الضرائبُ على أربعِ مراتٍ في كلِّ سنة، فهذه هي النُّقاطُ المهمةُ في هذا العملِ الذي يُلوحُ ان روحاً عصرياً أوْحَى به .

وإلى الإدارةِ الرشيدةِ يُضَافُ ازدهارُ الفنونِ في عهدِ أكبرَ، وذلك أن زُخْرَفَ شمالُ الهندِ ببدائعِ مِعماريَّةِ رائعةٍ مَدِينةٍ لنفوذِهِ، ومن آثارِهِ قلعةُ اغرا التي لا تزالُ ماثلةً، والحِرْفُ الفنيةُ مما عُنِيَ بِهِ أيضاً، فمن « آيِنِ أَكْبَرِي » يُرَى أَنَّهُ أَتَقَنَّ المِذْفعيةُ وتَصَوَّرَ نوعاً جديداً من العَرَباتِ وإطاراً لتنظيفِ المَدَافِعِ .

وتَرَكَ لنا السلطانُ جهانكيرُ، الذي كان ابناً لأكبرَ المَعِيّاً مثله،

مذكرات^(١٤) ذات أسلوبٍ جزيلٍ سهلٍ مُشرقٍ، وفي هذا الكتاب تَرَى عباراتٍ نافعةً لمعرفة أخلاقِ أكبرِ وأفكاره، ويقصُّ جهانكيرُ في بدء كتابه كيف جلس على عرش أبيه في أغرا، وقد أمر بضرب وسامٍ مشتمل على عبارة: «ضُربَ في أغرا من قِبَل حامي الأنام وهاء الإيمان وكِسرى الزمان: جهانكير بن العاهل أكبر»، وإلى هذا يُضيفُ قوله: «وإني بهذه المناسبة أتصرف في العرش الذي أعده أبي وجُمِّلَ بما لا مثيلَ له احتفالاً بعيد العام الجديد عند دخول الشمس في بُرج الآري».

والواقعُ أن أكبرَ أبدأ تاريخاً جديداً جعلَ اعتدالَ الربيع فيه أولَ السنة، وكان يعْبُد النارَ والشمسَ، قال أبو الفضل: «كان صاحبُ الجلالة يُعدُّ من الواجب الدينيِّ ومن الأعمال الحمودة عبادةَ النارِ والنور».

ويروي جهانكيرُ من الوقائع ما يُشعرُ فيه بروح التسامح لدى أكبرَ، ومما يقصُّه أنه كان قد أقيم معبداً في عهد أبيه من قِبَل الراجا مون سينغ كلفه نحو خمسةِ كرُورَاتٍ (٥٠ مليون روبية) وأربعين لآك روبية، وكان يُوجدُ على رأس الصنم المهمِّ تاجٌ مُرصعٌ بالجواهر تعدل قيمته جزءاً من اثني عشرَ جزءاً من ذلك المبلغ، وكانت تحيط به أصنامٌ أخرى مصنوعةٌ من ذهب ومزينةٌ بتيجان من جواهر، ويسأل جهانكيرُ أباه عن السبب في عدم منعه إقامة هذه

— (١٤) مذكرات الامبراطور جهانكير، وقد كتبها بنفسه، وترجمها الميجر دفيد برايس من الفارسية، لندن، ١٨٢٩، ونشرتها لجنة الترجمة الشرقية.

الأوکار الوثنية، فيجيبه أكبرُ بقوله: «أيُّ بُنيِّ العزيز، أَعْلَمُ أَنِّي مَلِكٌ قَوِيٌّ وَظَلُّ اللهُ فِي الأَرْضِ، وَإِنَّمَا رَأَيْتَهُ يَنْشُرُ بَرَكَاتِ عَنَايَتِهِ الرَّبَّانِيَّةَ عَلَى جَمِيعِ الخَلْقِ بِلا تَمييز، وَلِذَا فَإِنِّي أَكُونُ مُقَصِّراً فِي وَاجِبَاتِ مَقَامِي الرَّفِيعِ إِذَا مَا نَزَعْتُ حَنَانِي وَسَمَاجِي نَحْوَ أَيِّ وَاحِدٍ مِّنْ قَوْضِ أَمْرِهِمْ إِلَيَّ، وَإِنِّي فِي سَلامٍ مَعَ جَمِيعِ الجِنْسِ البَشَرِيِّ، أَي جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَسْمَحَ بِإِرْهَاقِ أَحَدٍ أَوْ الإِيقَاعِ بِهِ؟» .

وما قال جهانكبيرُ أيضاً أن أباه في شبابه كان ولوعاً ببلادِ الفمِّ، ولكنّه «كان يساورُهُ، مع ذلك، شعورٌ صادقٌ بالبعِّ التواضع نحو سلطان العناية الرَّبَّانِيَّةِ الأَعلى، فلا يَغْفُلُ فِي أَيِّ وَقْتٍ، وَهُوَ رَبُّ لَجِيوشِ هائلةٍ وصاحبٌ لِقَطَارٍ عَظِيمٍ مِّنْ فُيُولِ الحَرْبِ وَمالِكٌ لِحَزائِنَ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِها وَلِدَوْلَةٍ لَمْ تُسَبِّقْ فِي عَظَمَتِها قَطُّ، عَنِ المَوْجُودِ الأَزَلِيِّ الَّذِي كان يَعْبُدُهُ، فلا تَفارِقُ الكَلِماتُ الآتِيَّةَ شَفْتِيهِ مَطلقاً، وَهِيَ: كُنْ فِي سَلامٍ مَعَ كُلِّ إنسانٍ فِي كُلِّ مَكانٍ وَزَمانٍ، وَمِثْلَ بَعينِكَ وَقَلْبِكَ فِي كُلِّ حَالٍ نَحوِ حَبيبِكَ الأَبديِّ، - وَمِن صِفاتِهِ الخُلُقِيَّةِ البارِزَةِ أَنْ كانَ عَلى اتِّفاقٍ تامٍّ مَعَ كُلِّ دِينٍ، وَعَلى تَعاوُنٍ مَعَ ذَوِي الفِضائلِ والبِصائرِ مَن جَمِيعِ الطَبقاتِ عَندما تُلَوِّحُ الفُرْصَةُ» .

والحقُّ أن أكبرَ من آباءِ التَّيُوصُوفِيَّةِ^(١٥) الحَدِيثَةِ، فَقَد رُجِعَ إِلى وَضْعِهِ وَوَجْهَةِ نَظَرِهِ حَتى تَعايِيرِهِ، أَجَلٌ، شاطَرَ مَشاغِرَ مُختَلَفِ الأَدِيانِ ما بَدَتْ لَه صَافِيَّةٌ سَاميَّةٌ، غَيرَ أَنه كانَ ذا ارْتِبابٍ فِي

العقائد، فلا يَخْشَى الحَكْمَ على الظواهر وعلى ما يَجِدُهُ غليظاً جافياً، فذَمَّ الحِتَّانَ ونجاسة الكلاب في الإسلام كما ذَمَّ عادة إحراق الأيِّمِ نَفْسَهَا على موقِدِ زوجها المأتمِّيِّ لدى الهندوس، ولا مِرَاءَ في أنه أحدُ عظماء العبقريَّة الذين ظهروا في النظام الدينيِّ، وما أبدأه من مبادئ في الهند منذ ثلاثة قرون لا يزال عين المبادئ التي تَظْهَرُ أكثرَ ما تكونُ جِدَّةً في هذه الأيام بيننا.

وضريحُ أكبرَ في سِكنَدْرَا، وكان أكبرُ، على رواية جهانكبيرَ، رُبْعَةً بين الرجال، ذهبيُّ اللون، أدعج العينين، أسودَ الحاجبين، وكان له جسمُ «أسديِّ»، وصدرٌ عريضٌ، وكان طويلَ اليدين والذراعين، وكان قويِّ الصوت، وكان يُمَارِجُ أحاديثه وجميعَ أوضاعه طابعُ الرشاقة والشخصية، فَحَفِظَ أهلُ الهند ذكره، ويُقدَّرُ شِعْرُ الهندوسِ القوميِّ اتساعَ أثره ورسالته وأزِيحَتَه، وما حَبَّأ به عِرْقَهُم من حماية، فيُخَلِّدُهُ كأحد ذوي الشأن من أبطاله.



شاه الفرس :

عبّاس الكبير، الشاه نادر

ظَهَرَ الشاهُ عَبَّاسٌ، أو عباس الكبير، بعد أكبر بنحو جيلٍ واحدٍ، فكان أُمَجَّدَ عاهلٍ من الأسرة الصفوية المالكة بفارس، وقد وُلِدَ في أواسط القرن السادس عشر، وكان ابناً لمحمد خُدا بِنْدَه والشاه السادس من الأسرة الصفوية، ولكن من غير أن يَكُون الأسنُّ، وقد تَجَلَّى طموحُه ونُبوغُه منذ حَدَاثته التي كُدِّرَت، فقد ثار على أبيه ونادى بنفسه منكأً في مدينة هَرَاة وإخوته الكِبَارُ أحياءً، والقتلُ هو الذي خَلَّصَه منهم، ولم يَغْدُ سيدَ دولته الحقيقيِّ إلا سنة ١٥٨٩، وما حَدَثَ من حروبٍ مُوفِّقَه ومُدُنٍ مُقَامَةٍ ومَبَانٍ فَخْمَةٍ وعزيمَةٍ ثابتَةٍ وتأسيسِ علاقةٍ بين فارسٍ وأوربة وإشراكِ فارسٍ في علوم الغرب وتجاريتها جعلَ عهدَه من عُهُود التاريخ الناضرة. ونَقَلَ عاصمته من قَزوينَ إلى أَصْبَهانَ كَيْمَا يَكُونُ في مُتَنَاولِ ولاياته المجاورة للبحر الهندي، وعَظُمَتْ هذه المدينة وزُيِّنَتْ كثيراً^(١٦)، وظَلَّتْ بَعْدَه مَقَرّاً لِلأُسرة الصفوية وبلغَ عددُ أهلِها في

(١٦) انظر، مثلاً، إلى موجز موراي، آسية الصغرى، ما وراء القفقاس، فارس، لندن، ١٨٩٥، ص ٣٣٨ وما بعدها، - الرسالة المصورة، ١٨٣٨، ص ١٣٩، وبشتمل هذا العدد على لمحة جيدة عن حياة عباس الكبير مع صورة له.

عهدهم نحو مليون، ويستولي الأفغان عليها سنة ١٧٢٢، ولم تنهض من بليتها الكبيرة بعد هذا التاريخ، ويُعدُّ الميدان المركزي، المعروف بميدان الشاه، من أروع ميادين العالم، وهذا هو أثر الشاه عباس الخاص، وتُحيط بهذا الأثر أسواق ومساجد، وفي المركز من ناحية الجنوب يَقَعُ مسجدُ الشاه الذي شاده هذا الأمير في سنة ١٦١٢ وسنة ١٦١٣، وفي الغرب يَقَعُ البابُ العالي، وفوق ذلك تَقَعُ المقصورةُ التي كان يجلس فيها الشاهُ لاستقبال السفراء، أو ليُشاهد الأعيادَ العامة في الميدان، ومن هذه المقصورة كان يُمرُّ إلى القصر الملكي الذي هو مجموعة من قاعاتٍ وحدائقٍ ومبانٍ تُرى فيها غرفةُ العرش أو رَذَهُهُ العَمَدُ الأربعين التي بناها الشاهُ عَبَّاسُ، في غرفة العرش، كما في رَذَهُهُ أُخْرَى أَوْسَعَ منها بُنِيَتْ فيما بَعْدُ، زخارفُ وصورٌ تَرَجُّعُ إلى عهد هذا العاهل، وتَظْهَرُ في غَرْبِ نِطاقِ القصرِ حديقةٌ أُطْلِقَ عليها اسمُ الجَنَّاتِ الثَّانِي «هَشْتِ بِيَهْتِ» المشهورة، فتشتمل على جَوْسَقِي أنشأه الشاه سليمان حَوَالِي سنة ١٨٦٠، فمن هناك يُوَدِّي طريق جميلٌ إلى جِسْرِ جُلْفَا.

ويقول دليل: لا نَظِيرَ، على ما يحتمل، لهذا الجسر القائم على أحد روافده نهر أَصْبَهَانَ المسمَّى زِنْدَهُ رُودَ، وهو من إنشاء قائد الشاه عباس «علي وَرْدِي خان»، وهو يَحْمِلُ اسمَه أيضاً، وهذا جِسْرٌ ذو أَرْوَقَةٍ، ويَبْلُغُ طَوْلُهُ ٣٨٨ متراً، ويُوَجَدُ في أسفلهِ مَمَرٌ مُقَبَّبٌ، وفي وسطه طريقٌ مُبَلَّطٌ بين رُواقين جانبيين، وفي أعلاه مَمَرٌ آخَرٌ لِلسَّابِلَةِ، وكان هذا الجسرُ جامعاً بين طريقتين عظيمين ذاهبين من أَصْبَهَانَ إلى ضِفَّةِ «زِنْدَهُ رُودَ» الجنوبية حيث منازلُ الأُمراءِ والعُظماءِ.

وتُذَكَّرُ جُورًا أُخْرَى أُقِيمَتَا مِنْ قِبَلِ الشَّاهِ عَبَّاسٍ، وَمِنْهَا جَسْرٌ
حَجْرِيٌّ جَمِيلٌ عَلَى هِنْدِ مِندٍ، وَجَسْرٌ سُنُّنٌ عَلَى جِزْءٍ مِنْ نَهْرِ الرَّسِّ
يَجْرِي فِيهِ هَذَا النَّهْرُ هَادِتًا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْكُتْبَانِ، وَقَدْ شَادَ
أَيْضًا مَدَارِسَ وَمَشَافِي وَمَسَالِكَ قَنَوَاتٍ عَلَى قَنَاطِيرٍ مَرْتَفِعَةٍ.

وَأَصْلُهُ مِنْ مَارَزَنْدِيرَانَ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْوَلَايَةِ أَنْضَرَ
مَا فِي مَمْلَكَتِهِ، فَاجْتَذَبَ إِلَيْهَا أَجَانِبًا مِنْ أَيِّ دِينٍ كَانُوا لِيَعْمُرُوهَا،
وَمَا أَمَرَ بِإِقَامَتِهِ عَلَى بَحْرِ قَزْوِينَ مَدِينَةً فَرَّاهَ أَبَادَ التِّي عُدَّتْ فِي
أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ أَكْثَرَ مَدِينِ فَارَسَ سَكَانًا وَمِنْ أَعْظَمِ
أَمَاكِنِهَا مَنَعَةٌ، وَيَزْوِي مَوْرُخٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ أَنَّهُ يَتَعَدَّرُ اقْتِحَامُهَا
تَقْرِيبًا، فَهِيَ مَكْفُولَةٌ بِالْجِبَالِ مِنْ نَاحِيَةٍ، مَضْمُونَةٌ بِبَحْرِ قَزْوِينَ
الْقَلِيلِ الصَّلَاحِ لِلْمِلَاحَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَفِي سَنَةِ ١٦٢٢ يَسْتَوْلِي عَبَّاسٌ عَلَى جَزِيرَةِ هُرْمُزَ الْوَاقِعَةِ عِنْدَ
مَدْخَلِ الْخَلِيجِ الْفَارْسِيِّ وَالتِّي كَانَ يَمْلِكُهَا الْبُرْتِغَالِيُونَ مِنْذُ سَنَةِ
١٥٠٧، وَقَدْ اسْتَعَانَ فِي هَذِهِ الْحَمَلَةِ بِأَسْطُولِ إِنْكَلِيزِيٍّ، وَتُنَسَفُ
قَلْعَةُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَتُحَوَّلُ التِّجَارَةُ إِلَى مِينَاءِ بَنْدَرِ الْوَاقِعِ فِي الْجِهَةِ
الْمُقَابِلَةِ مِنَ الشَّاطِئِ الْفَارْسِيِّ، وَيُطْلَقُ عَلَى هَذَا الْمِينَاءِ، الَّذِي أُصْلِحَ
حُصْنًا، اسْمُ بَنْدَرِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَلِيلُ الْأَهْمِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَكَانَ
الْبُرْتِغَالِيُونَ يَهْرُمُزَ بِحَتِّكَرُونَ التِّجَارَةَ فِي الْخَلِيجِ الْفَارْسِيِّ فَسَاوَرَ
الْإِنْكَلِيزِيَّ أَمَلُ الْقِيَامِ مَقَامَهُمْ فِيهِ، بَيِّنَدَ أَنْ عَبَّاسًا مَنَحَ الْإِنْكَلِيزِيَّ
مَنَافِعَ ثَانَوِيَّةً وَقَسَمًا مِنَ الْأَسْلَابِ بَعْدَ أَنْ طَرَدَ الْبُرْتِغَالِيِينَ بِعَوْنِ
مِنْهُمْ، وَيُضِيكُ عَبَّاسٌ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ لِنَفْسِهِ كَمَا يَتَمَتَّعُ بِأَهْمِ ثَمَرَةٍ مِنْ
الْفَتْحِ الَّذِي قَامَ بِهِ «حَلْفَاؤُهُ النُّهْمَاءُ».

ويعُدُّ أثرُ عباسٍ في ترقية التجارة كبيرَ الأهمية، وذلك أن
الفرس كانوا قليلي الميل إلى التجارة في ذلك الحين، وكانوا لا
يتعاطونها طوعاً، فَبَحَثُ عباسٌ عن الأرمن، يَبْحَثُ عن هذا
العِرْقِ ذِي المواهب البارزة في هذا النوع من الأعمال، وَيَنْقُلُ عدداً
كبيراً من الأرمن في مدينة جُلْفا، الواقعة على نهر الرَّسِّ، إلى
أصْبَهَانَ حيث يقيمون حَيًّا باسم جُلْفا، وَيَسُنُّ في سبيلهم قوانينَ
ضامنةً لهم حِيَال تَحْرُثَات المسلمين، وَيَحْمِلُهُم على إنشاء منازل
عظيمةٍ للقوافل حيث يَحْفَظُونَ سِلْعَهُم، وَيُعْطِيهِم سُلْفَاتٍ كبيرةً
تسييراً لأعمالهم بسرعة، ولم يَلْبَثِ الأرمنُ أن أَيْسَرُوا، ولم يقتصروا،
حتى في زمن عباسٍ، على احتكار جميع تجارة الشرق، بل صار
لهم، أيضاً، نصيبٌ وافرٌ في تجارة مُدُن أوربة، وهكذا رُئِيَ، في
القرن الثامنَ عشرَ، أرمنٌ أتوا من صميم بلادِ الفُرسِ إلى لِيُقْرُنَ
ومَرْسِلِيَّة وهولَندة وإنكلترة وستكهُلم وأرْكَنْجِل.

وقام عباسٌ، في عهده، بصِلَاتٍ دِبْلَمِيَّة مع كثيرٍ من دول
أوربة، وحاول عباسٌ أن يستميل أمراءَ أوربة في قتاله حِيَال
الترك، فأرسل سفراءً إلى بلاطاتٍ كثيرة، وأتاه سفراءٌ من إنكلترة
وروسية والپرتغال وإسبانية وهولندة، وكان قد جاء دولته في
أوائل عهده وفدٌ إنكليزيٌّ بقيادة الأخوين روبرت وأنطوني شِرْلي،
وكان هذا الوفد تحت حماية حبيبِ المَلِكَةِ إِلِيْزَابِث «الكنت
إِسْكس»، وكان مؤلِّفاً من ثلاثين شريفاً وضابطاً وجغرافياً
ومتفنناً وتاجراً ومهندساً، وكان يُوجدُ بين هؤلاء صَهَّارٌ للمدافع،
وَيَتَقَبَّلُ الشاهُ الشابُّ هؤلاء الأَجانبَ بقبولٍ حسن، وَيُنْعِمُ عليهم
بعطايا فاخرة، وَيَفُوزُ الأخوةُ شِرْلي بصدقة القائد الأعلى للجيش

الفارسية ومحل ثقة الشاه: عليّ وزدي خان، ويصيرون مُدَرِّبين للكتائب فيدخلون النظام الأوربي والأساليب الأوربية إليها، ويقومون ببعثات دبلوماسية باسم ملك الفرس، وقد تركوا لنا عن هذا العهد مذكراتٍ بالغة الإمتاع^(١٧).

ولا نستطيع أن نتكلم هنا عن النشاط الحربي الذي أظهره الشاه عباس، فقد كان هذا النشاط عظيماً، وكُلِّلَ بالتوفيق، وذلك أنه حارب التتر الأذربكية في الشرق وحارب العثمانيين في الغرب فَحَصَلَ مِنْهُم على أرمينية ونقل سكانها إلى داخل فارس، وأنه انتزع قندهار من عاهل المغول، وأنه زحف لنزع بغداد من الترك فمات في أثناء ذلك سنة ١٦٢٨ ابناً للبعين من سنيه.

وما هو كثيرُ الشيوع بين عاهلي الشرق من عيبِ القسوة يَشِينُ خُلُقَهُ بعضَ الشيء، فقد كان جافياً عنيفاً إلى الغاية، وقد تناول بغلظته حتى أعضاء أسرته الخاصة.

وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر استولى المغامرُ التُّركماني الكبير «طهماسب قلي خان» على عرش فارس تحت اسم نادر شاه، وقاتل الأفغان والترك، واستولى على ولايات عاهل المغول، ونهب عاصمته دِهلي، ونحن نذكره هنا، عقبَ ذكرنا الشاه

(١٧) الإخوة الثلاثة، أو رحلات ومغامرات قام بها السير أنطوني والسير روبرت والسير توماس شرلي في فارس وروسية وتركية وإسبانية، إلخ.، لندن، ١٨٢٥، مع صور.

عَبَّاسًا، لأنه اتخذهُ قُدْوَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ^(١٨)، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَظْهَرَ
مُيُولًا حِرَّةً وَرَأَى تَأْسِيسَ صَلَاتِ الْغُرَبِيِّينَ، وَأَنَّهُ صَنَعَ كَمَا صَنَعَ
الشَّاهُ عَبَّاسٌ مِنْ حَيْثُ اجْتِنَابُ ضَبَاطِ وَمُهَنْدِسِينَ أَوْرَبِيِّينَ إِلَى
جِيُوشِهِ وَتَكْوِينُهُ كِتَابَ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الدِّينُ فَقَدْ
حَاولَ أَنْ يَقيمَ نَوْعًا مِنَ المَسَاوَاةِ بَيْنَ مَذْهَبِي الإِسْلَامِ الكَبِيرِينَ،
السُّنِّيِّ وَالشِّيعِيِّ، اللَّذِينَ مَا انفَكَا يَتَقَاتِلَانِ فِي مُدُنِ فَارَسَ، وَلَا سِوَا
أَصْبَهَانَ، وَقَدْ حَظَرَ عَلَى الشِّيعَةِ أَنْ يَصُبُّوا اللَّعْنَاتِ عَلَى عَمْرٍ، وَأَنْ
يَقُومُوا بِمَا مَرَّنَا عَلَيْهِ مِنَ التَّمثِيلِ الفَاجِعِ لِذِكْرِي مَوْتِ عَلِيٍّ
وَالْحُسَيْنِ، وَتَلَّقَى القِضَاةُ مِنْهُ أَمْرًا بِفِرْضِ عَقُوبَاتٍ شَدِيدَةٍ عَلَى مَنْ
يَتَشَاتَمُونَ وَيَتَنَازَعُونَ عَنِ سَبِّ دِينِي، وَكَانَ الشَّاهُ عَبَّاسٌ أَكْثَرَ
مَلَاءِمَةً لِلشِّيعَةِ، وَلِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِعَ مِنَ العَرَبِ مَنَافِعَ الحُجَّ إِلَى مَكَّةَ
وَالْمَدِينَةِ وَأَنْ يَمْنَعَ خُرُوجَ النِّقَدِ مِنَ فَارَسَ فَأَمَرَ بِأَنْ يُبْنَى مَسْجِدٌ
فَحْمٌ فَوْقَ قَبْرِ الإِمَامِ الثَّامِنِ، عَلِيِّ الرِّضَا، بِمَشْهَدٍ، وَقَامَ بِحُجَّ إِلَى هُنَاكَ
جَاذِبًا خَلْقًا كَثِيرًا إِلَى مَشْهَدٍ.

وَكَانَ الشَّاهُ نَادِرٌ كَثِيرَ الكَرَمِ نَحْوِ النِّصَارِيِّ، وَسَابِقًا كَانَ الشَّاهُ
عَبَّاسٌ قَدْ أَمَرَ بِإِنشَاءِ كَنِيسَةٍ لِلأَرْمَنِ فِي حَيِّ جُلْفَا، وَتَرَكَ نَادِرٌ
لِلنِّصَارِيِّ حُرِّيَّةَ الإِتِّصَالِ بِرُومَةَ أَوْ عَدَمَ الإِتِّصَالِ، وَأَعْفَى الكُرُجَ
مِنَ اعْتِنَاقِ الإِسْلَامِ وَصُولًا إِلَى الوِظَائِفِ الرِّسْمِيَّةِ، فَنَصَبَ أَمْرَاءَ
مِنَ الكُرُجِ كَانُوا نِصَارِيِّ، وَأَبَاحَ لِلْمُبَشِّرِينَ أَنْ يَقُومُوا بِالدَّعْوَةِ إِلَى

(١٨) تَارِيخُ مَلِكِ الفَرَسِ، طَهْمَاسَبِ قَلِي خَانَ، طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ، بَارِيْسَ، ١٧٤٣، غُفْلٌ
مِنَ اسْمِ المَوْئَلَفِ.

دينهم جهراً، وبتعميد من يُريد ذلك، وتناول منهم نسخة من التوراة المترجمة إلى الفارسية، حتى إنه عَيَّن من المبشرين مَنْ يقومون بترجمة جديدة للتوراة عن العبارات الأرمنية والعربية واليونانية واللاتينية، وأخيراً أجاز بَيْع الخمر علناً، وشَجَّع على زراعة الكَرْمَة سائراً على غرار الشاه عباس.



الفصل الثالث

مورّخو العرب

- مورّخو الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين
- عموميّات حول مورّخي العرب، ما وجّه إليهم من نقد .
 - الطبري وتاريخه ، المسعودي ومروج الذهب .
 - ابن مسكويه ، تاريخه ، كتاب مفاتيح العلوم ، مسلك وزير ، الفخري ، صفحات عن آخر الخلفاء العباسيين .
 - مؤرخ شرقي معاصر : زيدات .



عموميات حول مؤرّخي العرب، ما وجه اليهم من نقد

ظَلَّ مؤرخو الشرق الإسلاميّ زمناً طويلاً لا يتمتعون في الغرب بِمِثْلِ الشهرة الكبيرة التي تَمَتَّعَ بِهَا علماءهم وفلاسفتهم، وفضلاً عن ذلك فإنّ مما يَجْدُرُ ذكره كَوْنُ مؤرّخي العرب الأولين الذين عُرِفُوا بيننا ليسوا مسلمين، بل نصارى، وهؤلاء هم: المكين^(١) الذي نشره إرپنيوس وترجم كتابه « تاريخ المسلمين » Historia Saracenicā سنة ١٦٢٥، والشَّمَّاسُ القبطيُّ بطرسُ بن الراهب، الذي تَرَجَمَ إبراهيم الماروني تاريخه عن الشرق سنة ١٦٥١، وبطرك الإسكندرية المشهور، يوتبخوس، المؤلفُ لكتاب الحَوْلِيَّاتِ الذي ترجمه بوكوك سنة ١٦٥٨، و« مَضْرِيَانُ » الشرق اليعقوبيُّ، ابن العبريُّ، المعروف بأبي الفَرَجِ أيضاً، والمؤلفُ لتاريخ الدول الذي نشره بوكوك أيضاً سنة ١٦٦٣.

ولم يُدْرَسْ أكابر مؤرّخي العرب إلّا في أواخر القرن الثامن عَشْرَ، وسابقاً كان يُفَضَّلُ أمرُ البحثِ في الترك، وكان أبو الفداء

(١) هو جرجس بن العميد الملقب بالمكين [١٢٠٥ - ١٢٧٣م]

أول ما طُبِعَ في كُوبِنهاغ سنة ١٧٨٩، ولاح آخرون في أواسط القرن التاسع عشر، وهم: المقرئزي الذي ترجم كاترمير تاريخه عن الممالك سنة ١٨٣٧، ومؤرخ الموحدين، المرآكشي، الذي طبعه دوزي سنة ١٨٤٧، وابن الأثير الذي طبعه تورنبرغ سنة ١٨٥١، وأبو المحاسن الذي طبعه جونبول فيما بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٧، وقد بدأ دُوبو بترجمة الخلاصة الفارسية للطبري في الوقت نفسه.

وما فتىء هذا النشر يَقَعُ حتى أيامنا، ولم يُطَبِعِ المسعوديُّ ويُترجمَ إلى الفرنسية حتى زمن متأخر نسبياً، وأمس فقط أُتِمَّ طبعُ تاريخ الطبري الكبير، وفي الزمن الذي نكتبُ فيه لا تزال المؤلفات المهمة، ككتاب المؤرخ ابن مسكويه ومُعجم التراجم لياقوت، في طريق النشر.

وَيُمْكِنُ أن يقال إنه لم يُعْجَبُ بهؤلاء المؤلفين كثيراً مُذْ عُرِفُوا، وعلى ما يَقَعُ من تقدير جهودهم وضميرهم. فإنه وَجَّهَ إليهم لومان أساسيان، وهما الجُفُوفُ ونقصُ النقد^(٢)، ولا تُطَبَّقُ هذه الملامات عليهم كلهم بالتساوي، ومن السهل أن نُبَيِّنَ، ضِمْنَ النِّطاقِ الذي يُسَوِّغُونَ به، كَوْنَ هؤلاء المؤلفين ليسوا مسؤولين تماماً، وأن هذه الشوائب لا تخلو من نَفْعٍ.

(٢) من ذلك ما جاء في «مباحث في التاريخ الفارسي» لكرشاسپ، لندن، ١٩٠٥، ص ١٧، - وما جاء في «مذكرة حول انتشار الأرقام الهندية»، باريس، ١٨٦٣، ص ٤٣.

ويأتي الجفوف من اللغة على الخصوص، فالعبارة العربية قصيرة حادة وثابتة سيئة الموافقة للدورات الطويلة، وهي تُذكرُ بعبارة سنيكا في اللاتينية وعبارة فولتير عندنا، ولكن إذا لم يكن لهذه العبارة خاصيات خطابية غنائية على العموم فإن لها صفات الدقة والضبط، وتلك الخاصيات هي أثنى ما يكون للمؤرخ، ويُعدُّ المؤرخُ الفارسيُّ، ومثله التركيُّ، خطابياً اختياراً، وليس هذا أمرُ المؤرخ العربيِّ كما هو حاصلُ القول، فلغته تَحْمِلُهُ على جمع الجزئيات دُفِيعَةً دُفِيعَةً، وإن شئتَ فقلْ قَطْرَةً قَطْرَةً أو حَبَّةً حَبَّةً، ويُمكن أن يكون مُتَعَباً ضيقاً مبالغاً في التدقيق، ولا يُمكن أن يكون فارغاً فحَمَ الكلام على الإطلاق، وليست هذه شروطاً غير ملائمة للتاريخ الدقيق الصادق، ومع ذلك فإن في روح بعض المؤرخين فنوناً أو رخباً تظهرُ للبصائر على الرغم من مناحي اللغة المضادة، ومن هؤلاء المؤرخين، مثلاً، نرى أن المسعوديَّ يروي أحاديثاً أو أماليحَ مع كثيرِ كياسة، ومنهم نرى أن المقرئزيَّ يَقِفُ النظرَ بوصفِ الشيء، بجزئياتٍ تصويرية أو عِرْفانية فنعود لا نُفَكِّرُ معه بجفوفِ العبارة الاغرابيِّ.

وأما عَيْبُ نَقْصِ النَقْدِ فإن صحة أمره يختلف باختلاف المؤلفين، ومن هؤلاء من يَقُومُ قَصْدُهُم على الواقع والنقد، كابن مسكويه؛ ولم يُوقَفُوا في ذلك دائماً، وذلك لأنهم لم يَلْقُوا عَوْناً من الروح العامِّ، ولم تَكُنْ عندهم جميعُ الوسائل التي لا بُدَّ منها لحُسْنِ الحُكْمِ، وَيَذْكَرُ البيرونيُّ في مقدمة كتابه المشهور عن الهند^(٣) ستة

(٣) الهند، ترجمة سخاؤ، ص ٣ - ٤، مقدمة البيرونيِّ.

أسباب يُمكنُ أن تحمِلَ الناس على الكذب، فتلك نظريةٌ نفسيةٌ في الخطأ، ومن الحقُّ أن يقال إن هذا العالم كان ذا ذكاءٍ ثاقب ممتاز، وإنما نجدُ من الصواب أن يقال، على العموم، إن مؤرخي العرب لم يقوموا، أو إنهم قلَّما قاموا، بعمل النُّقاد، وإنهم ليسوا قضاةً، بل جُماع أخبار، وإن غرضهم المباشر ليس كَشَفَ الحقيقة، بل جمعُ الأحاديث، وإنهم يجمعون هذه الأحاديثَ ويضعون بعضها بجانب بعض تاركين للقارىء أن يحكُم فيها، فعلى القارىء أن يقوم بعمل الناقد إذا أراد ما دام المؤرخُ وكيلَ أنباء.

وقد لا يَكُون هذا الوجهُ في فهم التاريخ كثيرَ السوء، وذلك لأن هذا الوجه يُوَدِّي إلى نقل المؤلف من الوثائق ما هو أكثرُ بمراحل مما ينقل لو قابلَ بينها وحذَف منها ما يُلوح له بطلانه، ولأنه يُوَدِّي إلى النتيجة القائلة إن واجبَ المؤلف هو أن يردِّد الأحاديثَ كما تُروى له، لا أن يُفسِّرها أو يوضحها أو يُشوِّها كما يخلو له، والواقعُ أن مجموعاتِ رُواة العرب الكبرى لها اليومَ عندنا من القيمة النسبية ما هو أكثرُ من قيمة التواريخ الأدبية المشهورة التي أُلِّفَت في القرون القديمة، فالتاريخُ العربي ليس موحِّداً ولا مُركَّباً ولا «مُتممًا»، وإنما هو كُدس من الأخبار المُردِّدة بضمير، ولكن ما يُمكن أن تَكُون به خيراً من هذا؟

الطبري وتاريخه، المسعودي ومروج الذهب

كان عدد مؤرخي العرب كثيراً جداً، وَيَتَجَلَّى نشاطهم منذ زمن الأمويين. وَيُخَصِّي المسعودي، الذي ظَهَرَ في القرن الرابع من الهجرة، نحو ثمانين مؤرخاً مشهوراً من أسلافه في بدء كتابه «مروج الذهب»^(٤)، والمؤرخ الثاني الذي يذُكِرُه هو أبو مخنف المتوفى حوَالَى سنة ١٣٠ من الهجرة، ولدينا باسم هذا المؤلف كتابان يُعَدَّان، عند بعض العلماء، أقدم ما لدينا من آثار اللسان العربي^(٥) ولكن مع اعتبارهما من قِبَلِ بعض الباحثين مُفْتَعَلَيْن، والطبري الشهير هو أَكْثَرُ مَنْ أَتَى عليه المسعودي.

قال المسعودي: «وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب المصنَّفات، فقد جَمَعَ أنواعَ الأخبار، وحوَى فنونَ الآثار، واشتمل على صنوف العلم،

(٤) مروج الذهب ١ : ١٠ - ١٩ .

(٥) هذا هو رأي ناشر «كتاب الولاة وكتاب القضاة»، طبعة روثن جست، جب، مذكرة، ليدن - لندن، ١٩١٢، ص ٣٣ من المقدمة، وعلى غير هذا الرأي بروكلمن في تاريخ الآداب العربية، ١ : ٦٥ .

وهو كتابٌ تكثُرُ فائدتهُ، وتَنفَعُ عائدتهُ، وكيف لا يكون كذلك ومؤلّفه فقيهُ عصره وناسكُ دهره، إليه انتهت علومُ فقهاء الأمصار وحَمَلَةُ السُّنن والآثار.»

وُلِدَ الطبريُّ سنة ٨٣٨م، أو سنة ٨٣٩م، في أَمَلِ التي هي قاعدةُ طَبْرِستان، والقريبةُ من بحر قَزْوِين، وطاف في الحجاز والشام ومصرَ، وأخذَ كثيراً عن العلماء، وذَكَرَ مترجم الأحوال، السمعانيُّ، عشرةً منهم معروفين قليلاً. ويستقرُّ ببغدادَ عند رجوعه أستاذاً للفقهِ والحديث، ويقمُ بهذه المدينة حتى وفاته، وقد ألّف كتابين ممتازين، وهما: تاريخُه وتفسيرُه للقرآن، ويقول السمعانيُّ (٦) إن الطبريَّ كان عالماً من كِبَارِ الأثبات، جامعاً لمعارفٍ أكثرَ من أيِّ واحدٍ في عصره، حافظاً للقرآن بارعاً في فنِّ تلاوته وتفسيره، واسعَ الاطلاع على الحديث وَفوقَ دَرَجاته، ولم يَكُنْ وقوفه على التاريخ أقلَّ من ذلك، وكان نشاطه الأدبيُّ عظيماً، ويُرَوَى أنه اشتغل أربعين عاماً بلا انقطاع وهو يَكْتُبُ، فَبَلَغَ ما كَتَبَ أربعين ورقة في كلِّ يومٍ من هذه المدة، وإذا عَدَوْتَ ذَنِيكَ الكتابين المشهورين وَجَدْتَهُ قد ألّفَ كتباً كثيرةً في الفقه مشتملةً على آراءٍ شخصيةٍ له في بعض الحالات، وكان الطبريُّ شافعيَّ المذهب على العموم، فعانى اضطهاداً من الحنابلة.

وكانت وفاةُ الطبريِّ ببغدادَ سنة ٣١٠، فدُفِنَ في منزله، ويُرَوَى السمعانيُّ أن الطبريَّ كان أسمرَ اللون أسودَ العينين نحيف

(٦) كتاب الأنساب للسمعاني، صورة طَبْنِقِ الأَصْل، طبعة مرغليوث، مذكرة جب،

القائمة منشوق القَدَّ بليغاً جداً.

ويعُدُّ تاريخ الطبري من أهم آثار التاريخ العربي، وله قيمة منقطعة النظير في دراسة أوائل الإسلام، ففيه جُمع بكلِّ عناية عددٌ كبيرٌ من الاحاديث من غير تعديل او تفسير، ولكن مع وضع بعضها بجانب بعضٍ وسردٍ مُقدِّمٍ لرواتها، ومن شأن تاريخ هذا الجُمعِ وخلق مؤلفه أن يجعل منه مجموعة مصادر ذات قيمة بالغة، وإلى هذه المجموعة، على الخصوص، استند أحدثُ كُتب التفسير في الإسلام التي لا نريد دراستها في هذا الجزء، ويسير ذاك التاريخ حتى سنة ٣٠٢ من الهجرة.

ونشر مسيو دو غويه، مع فريقٍ من العلماء معظمهم من الهولنديين، هذا المؤلف الضخم ابتداءً من سنة ١٨٧٩^(٧)، وفي هذا التاريخ أيضاً، أي في سنة ١٨٧٩، استخلص منه مسيو نلدكه قطعاً خاصة بتاريخ الفرس قبل الإسلام، أي بال ساسان، ويتألف من ترجمة هذه النصوص، التي أكثر من التعليق عليها، مُجلدٌ بالغ الإمتاع.^(٨)

ولا يُنكر كون الطبري ذا جُفوفٍ أولٍ وهلةٍ على الأقل، فما ساوره من همٍّ في جمعِ الوقائع وتصنيفها سنوياً يؤذي الغرض ويدعُ مكاناً ضيقاً للتركيب وللأفكار العامة، ومن النادر أن تأتي

Annales auctore Abu Djafar M. b. Djarir at - tabori, cum aliis éd. (٧) de Gagje, Leyde, [1879 et suiv.

Th. Noeldeke, Geschichte der Perser und Arber zur Zeit der (٨) Sasaniden, aus der ar. Chronik des Tabari übersetzt, Leyden, 1879.

الفائدةُ المدينةُ لفنِّ المؤلِّفِ أو فكرِهِ لتُضَافَ إلى فائدةِ الوقائعِ جوهرًا وموضوعًا، ومع ذلك فإن الأخبارَ تُسَاقُ ببراعةٍ عادةً فتشتمل على ألفٍ من التفاصيلِ المُنَوَّعةِ الدائمةِ النفعِ للغةِ والطبائعِ والأخلاقِ، وإذا ما أُريدَ تَعَوُّدُ طريقةِ المؤلِّفِ ونفوذُ هذا التاريخِ المُركَّبِ عن صدرِ الإسلامِ شُعِرَ في نهايةِ الأمرِ باستخلاصِ كثيرٍ من الحركةِ والاهتزازِ من خلالِ هذه المَلَامِسِ الدقيقةِ كُلِّها، وفضلًا عن ذلك فإنه عند اقتضاءِ طبيعةِ الأمورِ، أو اقتباسِ المؤلِّفِ من سَلَفٍ له ذي خصائصَ أدبيةٍ، فإن أسلوبَ هذا المؤلِّفِ يَغْدُو قابلاً للانفراجِ ونَيْلِ مقدارٍ كبيرٍ من الجمالِ، وفي هذا المضمارِ يُمكننا أن نُوردَ عبارةَ حَوْلِ كِسْرَى أَنُو شِرْوانِ، حَوْلِ هذا الأميرِ الفارسيِّ الزَّرَادُشتيِّ الذي ظَلَّ في نظرِ المسلمينِ عُنْوَانِ العاهلِ العاقلِ العادلِ، ويلقَى مِثْلُ هذا الثناءِ عند مؤلفين آخرين، وهو يُسندُ إلى ابنِ المُقَفَّعِ كما يجب أن يقالِ.

قال الطبريُّ^(٩): «وكان كسرى أَنُو شِرْوانِ قد عَرَفَ الناسُ منه فضلًا في رأيه وعلمه وعقله وبأسه وحزمه مع رأفته ورحمته بهم، فلما عُقدَ التاجُ على رأسه دَخَلَ إليه العظماءُ والأشرافُ فاجتهدوا في الدعاءِ له، فلما قَضَوْا مقاتلتهم قام خطيباً فبدأ بِذِكْرِ نِعَمِ الله على خَلْقِهِ عند خَلْقِهِ إِياهم، وتَوَكَّلَهُ بتدبيرِ أمورِهِم، وتقديرِ الأوقاتِ والمعاشِ لهم، ولم يَدْعُ شيئاً إِلَّا ذَكَرَهُ في خُطْبَتِهِ، ثم أَعْلَمَ الناسَ ما ابْتُلُوا به من ضياعِ أمورِهِم وامْحَاءِ دينِهِم وفسادِ

(٩) نلده، الكتاب المذكور، ص ١٦٠.

حالهم في أولادهم ومعايشهم وأعلمهم أنه ناظرٌ فيما يُصلحُ ذلك
 ويخسِمه وحثَّ الناسَ على معاونته، ثم أمرَ برؤوس المزدكية فضرِبَتْ
 أعناقهم وقُسمتْ أموالهم في أهل الحاجة، وقتلَ جماعةً كثيرةً ممن
 كان دَخَلَ على الناس في أموالهم، وردَّ الأموال إلى أهلها، وأمرَ
 بكلِّ مولودٍ اختُلفَ فيه عنده أن يَلْحَقَ بمن هو منهم، إذا لم يُعرفَ
 أبوه، وأن يُعطى نصيباً من مال الرجل الذي يُسندُ إليه إذا قبله
 الرجلُ، وبكلِّ امرأةٍ غلبتْ على نفسها أن يُؤخذَ الغالبُ لها حتى
 يفرَمَ لها مهرها ويَرْضَى أهلها، ثم تُخَيَّرُ المرأةُ بين الإقامة عنده وبين
 تزويجٍ من غيره، إلا أن يكونَ كان لها زوجٌ أولٌ فتردُّ إليه، وأمرَ
 بكلِّ من كان أضرَ برجلٍ في ماله أو ركبَ أحدًا بمظلمةٍ أن يُؤخذَ
 منه الحقُّ ثم يعاقبُ الظالمُ بعد ذلك بقدر جُرْمِهِ، وأمرَ بعيال ذوي
 الأجساب الذين ماتَ قِيَمُهُم فكتَبُوا له فأنكحَ بناتهم الأكفاء
 وجعلَ جهازهم من بيت المال، وأنكحَ شبَّانهم من بيوتات
 الأشراف وساق عنهم وأغناهم وأمرهم بملازمة بابهِ لِيُسْتَعَانَ بهم في
 أعماله، وخيَّرَ نساء والده بين أن يُقمنَ مع نسائه فيوأسينَ ويصيرنَ
 في الأجر إلى أمثالهن أو يبتغيَ لهن أكفاءهن من البُعولة، وأمرَ
 بكرى^(١٠) الأنهارِ وحفرِ القنبيِّ وإسلاف أصحاب العمارات وتقويتهم
 وأمرَ بإعادة كلِّ جسرٍ قُطِعَ أو قنطرةٍ كُسِرَتْ أو قريةٍ ضربتْ أن
 يردَّ ذلك إلى أحسنِ ما كان عليه من الصلاحِ وتفقَدَ الأساورة^(١١)،

(١٠) كرى النهر كزياً: حفر فيه حفرة جديدة.

(١١) الأساورة: جمع الأسوار، وهو الثابت على ظهر الفرس، والأسوار عند الفرس

يأتي بمعنى القائد.

فمن لم يَكُنْ له منهم يَسَارٌ قَوَاهُ بالدَوَابِّ والعُدَّةِ وأجرى لهم ما يُقَوِّمُهُم، ووَكَّلَ ببيوت النيران، وسَهَّلَ سُبُلَ الناسِ، وبنَى في الطرقِ القصورَ والحُصُونِ، وتَخَيَّرَ الحكامَ والعمالَ والوَلَاةَ، وتَقَدَّمَ إلى من وُلِّيَ منهم أبلغَ التقدّمِ، وعمَدَ إلى سِيرِ أرذشيرِ وكتُبِهِ وقضاياهِ فاقتدى بها وحَمَلَ الناسَ عليها».

ثم أتى الطبريُّ بـجِلاصَةِ عن عهدِ هذا الملكِ الذي كان أولُ أمرٍ ذَكَرَ له بعد ذلك هو أن أنوشروانَ، بعد أن افتتح أنطاكية، أمرَ أن تُصوِّرَ له هذه المدينةُ بجميعِ جزئياتِها وأن يُبتَنَى له على صورتِها مدينةٌ إلى جنبِ المدائنِ، ثم حَمَلَ أهلَ أنطاكيةِ حتى أسكنهم إياها، فلما دَخَلُوا بابَ المدينةِ قَضَى أهلُ كلِّ بيتٍ منهم إلى ما يُشَبِّهُ منازلهم التي كانوا فيها بأنطاكية... وهكذا «لم يَزَلْ أنوشروانُ مُظَفَّرًا منصورًا تهابُهُ جميعُ الأممِ ويخضُرُ بابه من وفودهم عددٌ كثيرٌ من التركِ والصينِ والحَزَرِ ونُظَرائِهِم، وكان مُكْرِمًا للعلماءِ، ومَلَكَ ثمانياً وأربعين سنة».

ولُحِصَ تاريخُ الطبريِّ بالفارسيةِ حَوَالَى سنة ٣٥٢ من قِبَلِ البَلْعَمِيِّ الذي كان وزيراً للأمير الساماني: منصور بن نوح، وعلى العموم اختار هذا الملخِّصُ لكلَّ أمرٍ حديثاً واحداً من بين جميعِ الاحاديثِ التي يَرَوُها الطبريُّ مع حَذْفِ أسماءِ الرِوَاةِ، وذلك إلى أنه لم يُنقِّحْ شَكْلَ الأخبارِ وأسلوبِها إلا قليلاً، واتفقَ لهذا الملخِّصِ توفيقٌ كبيرٌ، فقد تُرجمَ إلى التركيةِ وإلى العربيةِ، حتى إنه كاد يُنسيَ الكتابَ الأصليَّ الذي كان طوله يجعلُ نَسْخَه أمراً صعباً، وكان دُوبُو قد بدأ بترجمةِ تلخيصِ البَلْعَمِيِّ إلى الفرنسيةِ، وتناول

زُوتنبرغُ عَمَلَهُ فَوَصَلَ بِهِ إِلَى أَحْسَنِ نَهَايَةٍ (١٢)، وَمِنَ الْحُسْرِ أَنْ يَكُونَ
الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ وَقِسْمٌ مِنَ الْمَجْلَدِ الثَّانِي مِنْ هَذَا التَّارِيخِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ
أَرْبَعَةِ مَجْلَدَاتٍ زَاخِرِينَ بِالْأَقَاصِيصِ، بَيْنَ أَنْ بَقِيَّتَهُ ذَاتُ فَائِدَةٍ
تَارِيخِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَبِمَا أَنَّ طِرَازَ كِتَابَتِهِ بِالْفَارِسِيَّةِ أَقْرَبُ إِلَى الْأَدَبِ
وَأَكْثَرُ زُخْرَفًا وَسَهولَةً مِنَ التَّارِيخِ الْأَصْلِيِّ لِلْمُؤَلَّفِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ
بِلَذَّةٍ.

والمسعوديُّ منافِسٌ مَجْدٍ للطبريِّ، وهو كثيرُ الاختلافِ عنه من
حيث تناولَ أَحَادِيثَ الْإِسْلَامِ وَالْفَقْهَ تَنَاوَلًا مَبْدَئِيًّا، فمَزَاجُ
المسعوديِّ دُونَ مَزَاجِهِ تَدِينًا وَيُفَوِّقُهُ الْمَسْعُودِيُّ رُوحًا عِلْمِيًّا، وَيُشْعِرُ
بِأَنَّ حُبَّ الْإِطْلَاعِ فِي الْمَسْعُودِيِّ أَكْثَرُ نُمُوًّا، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَسْعُودِيَّ
مَتَحَرِّكُ الذَّهْنِ دَائِمٌ الْإِتْبَاهُ سَرِيعُ الْإِدْرَاكِ مُنْعِنُ النَّظَرِ كَثِيرُ
السُّؤَالِ مَكْتَرِثٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، أَي شَدِيدُ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى مُخْتَلَفِ
الْأَدْيَانِ وَفِرَقِهَا وَإِلَى الْفَلَسَفَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَإِلَى الْحِكْمَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَإِلَى
الْجِدَالِ وَالشَّعْرِ وَالْمَسَائِلِ الْجُغْرَافِيَّةِ، وَإِلَى التَّجَارَةِ وَالْمِلاَحَةِ وَالتَّارِيخِ
الطَّبِيعِيِّ، وَيَمِيلُ فِكْرُ الْمَسْعُودِيِّ إِلَى الْقِيَامِ بِرِخْلَاتٍ كَثِيرَةٍ خَارِجَ
حُدُودِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ حَادَثَ النَّصَارَى وَاطَّلَعَ عَلَى كِتَابِهِمْ، وَهُوَ مَعَ
الْبَيْرُونِيِّ مِنَ الْمُؤَلَّفِي الْإِسْلَامِ خَيْرٌ مَنْ عَرَفَا آدَابَهُمْ، وَهُوَ ذُو بَاعٍ فِي
الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَلَهُ عِلْمٌ بِأُمُورِ الْهِنْدِ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنَ الْبَيْرُونِيِّ
فِي هَذَا الْمَضَامِرِ، وَلَهُ صِلَاتٌ شَخْصِيَّةٌ بِالْيَهُودِ وَالصَّابِئَةِ وَالْقَرَامِطَةِ،

(١٢) هـ. زوتنبرغ، تاريخ الطبري، ترجمه عن الترجمة الفارسية لأبي علي محمد
البلسمي، أربعة مجلدات، باريس، ١٨٦٧ - ١٨٧٤، وأنا كمثل على القطع الرائعة
في هذا التاريخ سنورد قصة موت الخليفة الأمين وقصة بهرام جور، الخ.

وَيُعَدُّ أَثْرُهُ، الْمُؤَلَّفُ بَعْدَ تَرْتِيبِ وَقَلِيلِ تَنَافُرٍ وَعَلَى عَجَلٍ كَمَا يُمَكِّنُ
 أَنْ يُعْتَقَدَ، مَجْمُوعَةٌ مِنَ الطَّرْفِ حَيْثُ تَظْهَرُ جَمِيعُ مَنَاحِجِ ذَلِكَ
 الزَّمَنِ، وَعِلْمُهُ، وَفَضْلًا عَنِ ذَلِكَ فَإِنَّ أَثْرَهُ مُزَيَّنٌ بِمُحَايَاتِ أَحْسَنِ
 اخْتِيَارِهَا فَتَلَطَّفُهُ، وَتُبْهَجُهُ أَيْضًا، فَتَجْعَلُ مَطَالَعَتَهُ جَذَابَةً جِدًّا .
 وُلِدَ الْمَسْعُودِيُّ بِبَغْدَادَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ مِنَ الْهَجْرَةِ،
 وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ رَغْبَةُ الْإِطْلَاعِ وَالْمَشَاهِدَةِ، فَقَضَى شَبَابَهُ فِي الرِّحَالِ،
 وَيُمَكِّنُ رَسْمَ مَرَاكِحِهِ رَسْمًا تَقْرِيبِيًّا بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ كِتَابُهُ مِنْ
 إِشَارَاتٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي سَنَةِ ٣٠٠ بِالسُّنْدِ وَزَارَ الْمُؤَلَّتَانِ وَمَدِينَةَ
 الْمَنْصُورَةِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فِي شَوَاطِئِ الْهِنْدِ سَنَةَ ٣٠٤ وَأَقَامَ بِكُمْبَاهِيهِ،
 وَرَبَّمَا بَلَغَ سِرَنْدِيبَ (سِيلَانَ)، وَكَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ قَدِ طَافَ فِي
 فَارِسٍ وَكِرْمَانَ، وَكَانَتْ سِوَا حُلِّ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مَأْلُوفَةً لَدَيْهِ، وَيَقُولُ
 إِنَّهُ سَاحَ عِدَّةَ مَرَاتٍ بَيْنَ عُثْمَانَ وَجَزِيرَةِ فِي بَحْرِ الزَّنْجِ (الْبَحْرِ الْوَاقِعِ
 شَرْقِيًا إِفْرِيقِيَّةً) تُسَمَّى قَنْبَلُو، وَوَقَعَ نِقَاشٌ حَوْلَ مَا قَصَدَ بِهِذِهِ
 الْجَزِيرَةَ، فَبَعْضُهُمْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا مَدَعَشْقَرُ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهَا
 الزَّنْجِبَارُ، وَيَضَعُهَا الْمَسْعُودِيُّ عَلَى مَسَافَةِ خَمْسَمِئَةِ مَيْلٍ مِنْ عُثْمَانَ،
 قَالَ الْمَسْعُودِيُّ: «وَأَخْرُ مَرَّةً رَكِبْتُ فِيهِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِمِئَةٍ مِنْ
 جَزِيرَةِ قَنْبَلُو إِلَى مَدِينَةِ عُثْمَانَ، وَذَلِكَ فِي مَرْكَبِ أَحْمَدَ وَعَبْدِ الصَّمَدِ
 أَخُوِي عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ جَعْفَرِ السِّيرَافِيِّ بِمَكَانٍ، وَفِيهِ غَرَقَا فِي مَرْكَبَيْهِمَا
 وَجَمِيعُ مَنْ كَانَ مَعَهُمَا... وَقَدْ رَكِبْتُ عِدَّةً مِنَ الْبَحَارِ كَبَحْرِ الصِّينِ
 وَالرُّومِ وَالْحَزَّرِ وَالْقُلْزَمِ وَالْيَمَنِ، وَأَصَابَنِي فِيهَا مِنَ الْأَهْوَالِ مَا لَا
 أَحْصِيهِ كَثْرَةً، فَلَمْ أَشَهِدْ أَهْوَالَ مِنْ بَحْرِ الزَّنْجِ الَّذِي قَدِمْنَا ذَكَرَهُ»،
 وَيُمَكِّنُ أَنْ يُسْأَلَ: أَلَمْ يَبَالِغِ الْمَسْعُودِيُّ بَعْضَ الشَّيْءِ فِي اتِّسَاعِ مَدَى
 هَذَا الْإِغْتِرَابِ؟ إِنْ مِنَ الْمَشْكُوكِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَاحَ بِجَرَأِ حَمِي

الصين، وأما قيامه غير مرة بالسياحة من جزيرة العرب إلى مدغشقر، أو الزنجبار، بالوسائل التي كانت في المتناول في ذلك الزمن فإنه أمرٌ مُستبعد نظراً إلى ما صنَّع في مواضع أخرى، ومهما يَكُن من أمرٍ فإنه لا يتكلم عن تلك البقاع بوضوح يأتيه من شاهدها، ولا يكاد عرّفانه بجنوب إفريقية، بما لدينا من فقرٍ آخر، يساوي عرّفان بطليموس.

وزار فلسطين، ولا سيما طبرية حيث أقام سنة ٣١٤، وفي السنة التالية غادر الشام إلى بغداد، فرأى اضطرابَ البلد بغزو القرامطة، وكان قد وقفَ في مدينة هيت الواقعة على الفرات عندما هوجِم من قبل هؤلاء المبتدعين، ويشتدُّ الأهلون في الدفاع، ويقاتلون المحاصرين من فوق الأسوار ويُحرقون كثيراً من آلاتهم، ويفكُّ القرامطة الحصارَ، ويقول المؤرخ: «وارتفعت من معسكره نار عظيمة عند السحرقبل رحيله فظننا أنه يريد معاودة الحرب، وإذا هو قد ضرب ثقلته بالنار لكثرة الذرية والثقله وقلة الظهر،»

ثم يقيم المسعوديُّ بأنطاكية، ثم بالبصرة، ويكُون في هذه المدينة سنة ٣٣٢، وهو التاريخ الذي عيَّنه لنشر «مروج الذهب»، ويقضي بقية عمره في الشام ومصر بعيداً من العراق التي كان يُحبُّها، ولا يُعرَف سببُ بُعده من العراق، قال المسعوديُّ: «ويعزز علينا بما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصر [بغداد] الذي به مولدنا وفيه منشؤنا فنأت الأيام بيننا وبينه وساحقت مسافاتنا عنه فبعدت الدار وتراخى المزار، لكنه الزمن الذي من شأنه التشثيت والدهر الذي من شأنه الإفاته... قال بعض الحكماء: إن من علامة وفاء المرء وحسن دوام عهده حنينه إلى إخوانه وشوقه إلى أوطانه

وإن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقفة .»

وتُوفِّيَ المسعوديُّ في القاهرة سنة ٣٤٥ أو سنة ٣٤٦، وعلى ما كان من كثرة رحلاته فقد أنتج إنتاجاً عظيماً، ويظهرُ أن كتاب « مروج الذهب » وكتاب « التنبيه والإشراف »^(١٣)، وهما الكتابان الوحيدان اللذان انتھيا إلينا منه، وهما كتابان على شيءٍ من التفصيل، خلاصة لأثرٍ تاريخيٍّ واسع كان قد ألّفه على شكلين آخرين، أي على أوسع شكلٍ، وهو كتاب « أخبار الزمان »، وعلى شكلٍ متوسط، وهو « الكتاب الأوسط »، ومن المؤسف أن ضاع الكتابان المذكوران الأكثرُ تفصيلاً، لِمَا أَدَّى إليه تفصيلهما من عدم تكثير نُسخِهما لا ريبَ.

وَعُرِفَ فَضْلُ المسعوديِّ منذ أواخر القرن الثامن عشر، ورسمت لجنةُ الترجمة بلندن، حَوَالِي منتصف القرن التاسع عشر، خِطَّةَ نشرِ ترجمَةٍ، مع تعليقٍ زاخر، لكتاب « مروج الذهب »، وعُهِدَ إلى الدكتور سيرنغر في القيام بذلك، فَظَهَرَ مُجَلَّدٌ واحدٌ سنة ١٨٤١، وتتناول الجمعيةُ الآسيوية بباريس تلك الخِطَّةَ لحسابها، فَتَنَشَرَّتْ « مروج الذهب » مع ترجمَةٍ فرنسيةٍ له بعناية مسيو بَرَبِيه دو مينار ومسيو پاڤه دو كُرتي، ثم أضافت تلك الجمعية إلى

(١٣) مروج الذهب، طبعة بربيه دو مينار وترجمته، المجلدات الثلاثة الأولى بمساعدة پاڤه دو كرتي، - كتاب الإشراف والتنبيه، نشرته الجمعية الآسيوية، وكان متن كتاب التنبيه قد نشر من قبل مسيو ج. دوغويه، كتاب التنبيه، في المكتبة الجغرافية العربية، ٨.

ذلك ترجمة لكتاب « التنبيه والإشراف » الذي نُشِرَ من قِبَل دُوغويه فيما مضى.

ونريد أن نُطَلِّعَ على الفُضول العلميِّ في المسعوديِّ ببعض الاستشهادات، وأن نُظهِرَ نبوغه في الملاحظة وقدرته على النقد، فإليك وصفه زلزلةً شاهدها وهو في مصرَ، قال المسعوديُّ: « وتهدم في شهر رمضان سنة ٣٤٤ نحو من ثلاثين ذراعاً من أعاليها [منارة اسكندرية] في ساعة واحدة على ما وردت به علينا الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر. وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية وذلك النصف من يوم السبت لثاني عشرة ليلة خلت من هذا الشهر. ولقد دخلنا أكثر المواضع المشهورة بكثرة الزلازل... فلم أر أعظم أمراً من هذه الزلزلة ولا أطول مُكثاً - وذلك أفي تبينت تحت الأرض كالشيء العظيم يحركها مارا تحتها وهازا ومحركا لها كأنه أعظم منها وكأنها هي النائبة - »

وَأَعْتَقَدُ أن الذين أَحَسُّوا الزلازلَ سَيَحْكُمُونَ بأنه لا يُمكن أن يُبَيِّنَ بأدقِّ من ذلك ما تُحَدِّثُ من الانطباع.

وَيَكُونُ المسعوديُّ على شاطئ البحر الميت فيبحث عن جميع خصائص هذه البحيرة الغربية وَيُسَبِّهُهَا ببحيرة أزميه، وَيَصِفُ مَرَارَةَ مياهاها وَحَمَازَتها وَخاصية هذه في تنظيف الثياب القذرة وعدم صلاحها للاشتال على موجودات حَيَّةٍ وَكثافتها العظيمة، « فإنها شديدة المرارة والملوحة وانه ان أخذ إنسان أو دابة فشد وثاقا وألقى فيها وجد طافيا على الماء لحفته عند غلظ الماء وثقله. »

وهو في هذه المناسبة يذُكر ملاحظة الملاحين القائلة أن المركب عينه يَفُوص بِعُمُقٍ في الماء العَذْبُ أَكْثَرَ مِمَّا فِي الْبَحْرِ، وَهُوَ يَسْتَشْهَدُ بِتَجْرِبَةٍ، مَسْتَخْرَجَةٌ مِنْ كِتَابِ «الآثَارِ الْعُلُويَّةِ» لِأَرْسَطُو، قَائِلَةٌ إِنْ الْبَيْضَةَ إِذَا مَا وُضِعَتْ فِي مَاءٍ عَذْبٍ غَطَّسَتْ، وَإِنَّ إِذَا مَا أَلْقِيَ مِلْحٌ فِي الْمَاءِ ارْتَفَعَتْ وَعَامَتْ فِي سَطْحِهِ.

ولما كان في عُمَانَ أَوْ فِي الْمَهْدِ حَاحِلٌ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ صِحَّةِ زَعْمِ سَلَفِهِ الْعَالَمِ الطَّبِيعِيِّ الْمَشْهُورِ، الْجَاحِظِ، الْقَائِلِ «إِنَّ الْكَرْكَدَنَّ يُحْمَلُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ رَأْسَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرْعَى ثُمَّ يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي بَطْنِهَا»، وَيَرْغَبُ مُؤَرِّخُنَا أَنْ يَسْأَلَ التَّجَارَ الَّذِينَ يَسْئَلُونَ مَمْلَكَةَ رَهْمِي الَّتِي شَاهَدَ الْكَرْكَدَنَّ فِيهَا، فَكُلُّ يَتَعَجَّبُ مِنْ سؤَالِهِ، وَقَدْ قَالَ: «وَيُخْبِرُونِي أَنْ حَمَلَهُ وَفِصَالَهُ كَالْبَقْرِ وَالْجَوَامِيسِ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ وَقَعَتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ لِلْجَاحِظِ: أَمِنْ كِتَابِ نَقْلَهَا أَوْ مَخْبَرٌ أَخْبَرَهُ بِهَا».

وَفِي الْمَنْصُورَةِ يُعْنَى الْمَسْعُودِيُّ بِأَمْرِ فَيْلَةَ الْمَلِكِ الْحَازِرِ ثَمَانِينَ فَيْلًا حَرْبِيًّا، وَيَقُولُ الْمَسْعُودِيُّ: «وَرَأَيْتَ لِهَذَا الْمَلِكِ فَيْلِينَ عَظِيمِينَ كَانَا مُوصُوفِينَ عِنْدَ مُلُوكِ السُّنْدِ وَالْمَهْدِ، لِمَا كَانَا عَلَيْهِ مِنَ الْبَاسِ وَالنَّجْدَةِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِ الْجِيُوشِ، كَانَا اسْمُ أَحَدِهِمَا مَنفَرَقْلَسَ وَالْآخَرُ حَيْدَرَةَ، وَمَنفَرَقْلَسَ هَذَا أَخْبَارٌ عَجِيبَةٌ وَأَفْعَالٌ حَسَنَةٌ، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَيْرِهَا، مِنْهَا أَنَّهُ مَاتَ بَعْضُ سُوَاسِهِ، فَمَكَتْ أَيَّامًا لَا يَطْعَمُ وَلَا يَشْرَبُ، يُبْدِي الْحَنِينَ، وَيُظْهِرُ الْأَنِينَ، كَالرَّجْلِ الْحَزِينِ، وَدَمُوعُهُ تَجْرِي مِنْ عَيْنَيْهِ لَا تَنْقَطِعُ»، وَيَعِدُّ الْمَسْعُودِيُّ بِأَنْ يَذْكَرَ فِيهَا بَعْدُ فَيْلَةَ الزُّنْجِ الْوَحْشِيَّةِ.

وقد فُكِّرْنَا أن مؤرخنا كان يُحِبُّ أن يحدث فلاسفةً مختلف المِلَلِ كما كان يحدث التجار والملاحين، وهكذا فإنه تعرّف، وهو في القاهرة، إلى بطرك الإسكندرية المشهور، يوتيوخوس، الذي كان مؤرخاً أيضاً فرأى كتابه عند النصارى الملكيين، وقد رأى عند العبادية كتاباً آخر في التاريخ، فقال إن هذه الرسالة أحسن ما ألف النصارى في نوعها وإن مؤلفها يُسمّى يعقوب بن زكريّا، وقد تعرّف في بغداد إلى النصرانيّ اليعقوبيّ، أبي زكريا دَنَقًا، فوقع نقاشٌ بينهما حول الثالوث والعقائد الأخرى سواءً أفي حيّ أم جعفر ببغداد أم في الكنيسة الخضراء بتكريت، وهكذا فإنه نال معارفَ على شيء من الاتساع عن معتقدات النصارى وآدابهم، وبلغ من الأمر، مثلاً، ما ذكّر معه قوانين كليمان الرومانيّ ملاحظاً إمكان الجدال في صحتها، ومن دواعي الأسف أن كان قد عالج هذه المسائل في كتبه السابقة وانما ذكره فيما لدينا من كتبه ليس سوى قسم قليل مما يُعلم عنها.

وليس اهتمامه باليهود أقلّ من اهتمامه بالنصارى، فقد اتفقت له في فلسطين وبلد الأردن مكالماتٌ كثيرةٌ مع أحدهم أبي كثير حول نسخ الشرائع والاختلاف بين الشريعة والآثار وغير ذلك من الموضوعات، وكانت له في الرقة مباحثاتٌ حول الفلسفة والطب مع ابن أبي الطّان الذي هو تلميذٌ للصّابيّ المشهور: ثابت بن قرّة وآخرين غيره، وبحثَ عن علماء اليهود ببغداد نفسها، وكان أهمُّهم في نظره إبراهيمُ التستري الذي قال عنه: «وكان أحذق من تأخر منهم في النظر وأحسنهم تصرفاً فيه».

ولما هَدَّد القرامطة بغدادَ لم يُعَوِّز المسعوديَّ أن يَكُونَ على بَيِّنَةٍ من أمرِ هذه الفرقة الغريبة، فيَعْرِفَ كَتَبَهُم التي تكلم عنها في مؤلَّفَاتِهِ المفقودة، وهو يَعْلَمُ مبادئهم وأغراضهم وأسرارهم، وهو ينتقد متكلمي المسلمين الكثيرين الذين حاولوا تفنيد القرامطة من غير أن تُحَدِّثَهُم نفسُهُم بدراسة مذهبهم في بدء الأمر.

ويَرَى المسعوديُّ أن الفيلسوف الشهير، الفارابيَّ، المتوفى قبل موته بأعوامٍ قليلة، أفضل من جميع العلماء المعاصرين له، فقد قال: «ولا أعلم في هذا الوقت أحداً يرجع إليه في ذلك إلا رجلاً واحداً من النصارى بمدينة السلام يعرف بأبي زكريا بن عدي. وكان مبدأ أمره ورأيه وطريقته في درس طريقة محمد بن زكريا الرازي وهو رأي الفوثاغوريين في الفلسفة الأولى على ما قدمنا».

وكذلك يَظْهَرُ أن هذا هو النَّهْج الذي يَعْطِفُ عليه مؤلَّفنا أكثر من غيره.

ومما نَزَعَبُ في الإشارة إليه عند المسعوديِّ وجود روحٍ علمي وروح فلسفيٍّ فيه، فمن يطالعون كتبه يَتَعَلَّمُونَ مع اللذة كيف يَعْرِفُونَ المؤرِّخَ ومؤلَّفَ القِصَصِ بِحَصْرِ المعنى.

ابن مسكويه

تاريخه، كتاب مفاتيح العلوم، مسلك وزير،

الفخري،

صفحات عن آخر الخلفاء العباسيين

يَعُدُّ ابْنُ مِسْكَوِيَه، الَّذِي لَا نَعْلَمُ غَيْرَ الْقَلِيلِ عَنْ حَيَاتِهِ، مُؤَلِّفًا مُبْدِعًا، وَيُعَدُّ ذُو الذَّهْنِ الْفَلْسَافِيِّ هَذَا مِنْ أَهْمِّ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَدْ تَرَكَ فِي الْأَخْلَاقِ أَثْرًا مَهْمًّا، وَهُوَ كِتَابُ «آدَابِ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ» الَّذِي أُدْرِجُ فِيهِ تَرْجَمَةٌ لِرِسَالَةِ يُونَانِيَّةٍ طَرِيفَةٌ اسْمُهَا «مَحَاوِرَاتُ قَابَس»، وَأَثْرُهُ مِثْلُ مُؤَرِّخٍ مَهْمٍّ أَيْضًا، وَعُنْوَانُ هَذَا الْأَثْرِ هُوَ «كِتَابُ تَجَارِبِ الْأُمَمِ»، وَيَشْتَمِلُ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى تَارِيخِ مَلُوكِ قَدَمَاءِ الْفُرْسِ وَمَلُوكِ الْعَرَبِ حَتَّى زَمَنِ الْمُوَلَّفِ (١٤)، وَكَانَ هَذَا الْمُوَلَّفُ خَازِنًا لِلسُّلْطَانِ الْبُوَيْهِيِّ، عَضُدِ الدَّوْلَةِ، وَتُوَفِّيَ مُتَقَدِّمًا فِي السَّنِّ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٤٢١ (١٠٣٠ م)، وَيَزْوِي يَاقُوتٌ أَنَّهُ مَجُوسِيًّا وَأَسْلَمَ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي اسْتَقَى مِنْهُ هَذَا الْخَبْرَ.

(١٤) تاريخ ابن مسكويه، طبعة مطابقة للأصل قام بها ليون كايثاني، principe di Teano، في مجموعة مذكرة جب، جزء ١، ١٩٠٩، جزء ٥ (سنة ٢٨٤ - ٣٢٦)، ١٩١٣، مع خلاصة إنكليزية.

وكانت تُمَارِجُ ابنِ مِسْكُونِه مِيُولُ ذَهْنِيَةً عَقْلِيَةً، وَيُرَى ذَلِكَ مِنْ أَزْدِرَائِهِ الَّذِي يُظْهِرُ إِزَاءَ الْأَسَاطِيرِ، وَيَبْلُغُ مِنَ السَّيْرِ بِحَيْثُ يَقُولُ إِنَّهُ لَا قِيَمَةَ تَارِيخِيَّةَ لِمُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ عَوَاطِفَهُ فَارِسِيَّةً، وَإِنْ تَارِيخَهُ تَارِيخُ فَارِسَ عَلَى الْأَخْصِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُفْصَلُ عَهْدُ مَلُوكِ هَذَا الْبَلَدِ وَيُغْفَلُ سِيرَةُ النَّبِيِّ، حَتَّى إِنَّهُ يَلَاحِظُ (جُزْءَ ١، ص ٨١) كَوْنَ حَرَكَةِ تَوَسُّعِ الْعَرَبِ قَدْ بَدَأَتْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ، وَأَسْلُوبُ ابْنِ مِسْكُونِه مُوجِزٌ جَدًّا، وَتَفِيضٌ حِكَايَتُهُ فِي الْجُزْئِيَّاتِ، وَلَكِنْ مَعَ نَفُوذِ رُوحِهِ الْفَلَسْفِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَمَعَ انْبِعَاثِ نَفْسِيَّةِ الرُّجَالَاتِ وَالْأَفْكَارِ الْعَامَةِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا كَمَا يَلُوحُ، وَكَذَلِكَ كَانَ ذَا مَيْلٍ كَبِيرٍ إِلَى الْفَلَسْفَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَإِلَى الْمَسَائِلِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَكَانَ يُعْنَى بِالْإِدَارَةِ وَالنُّظْمِ، فَيُكْتَبِرُ مِنَ الْكَلَامِ عَنْهُمَا، وَيَكُونُ كِتَابُهُ مَعْدِنًا ثَمِينًا لَوْ اجْتَهَدَ فِي إِصْلَاحِ قِصَّتِهِ.

وَيُظْهِرُ حَوَالِي ذَلِكَ التَّارِيخِ، أَي بَيْنَ سَنَتَيْ ٣٦٥ و ٣٨١ مِنْ الْهَجْرَةِ، مُؤَلَّفٌ آخَرٌ، وَلَكِنْ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، اسْمُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْخَوَارِزْمِيُّ، فَيُؤَلَّفُ كِتَابًا مِنَ الْاِصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ عُنْوَانُهُ «مِفَاتِيحُ الْعُلُومِ»^(١٥)، حَيْثُ تَجِدُ صَفَحَاتٍ نَافِعَةً عَنِ الْإِدَارَةِ وَهَذَا فَصْلٌ أُفْرِدَ لِلتَّعْرِيفَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي دَوَاوِينِ الدَّوْلَةِ، وَفِيهِ تَرَى إِحْصَاءً لِلوَزَارَاتِ أَوْ الدَّوَاوِينِ، وَقَدْ ذُكِرَ مِنْهَا سِتَّةٌ، وَهِيَ: دِيْوَانُ الْخِرَاجِ، وَدِيْوَانُ بَيْتِ الْمَالِ، وَدِيْوَانُ الْبَرِيدِ وَدِيْوَانُ الْجَيْشِ، وَدِيْوَانُ

(١٥) مِفَاتِيحُ الْعُلُومِ، قَانِ قَلُوتِن، لِيدِن، ١٨٩٥.

الدخل والخرج، وديوان الماء. وتُبصِرُ بين التعريفات الفنية الكثيرة (نحو ١٧٥ في جميع هذا الفصل) عدداً كبيراً من الفارسية، وهذا يدلُّ على أن هذه الإدارة العباسية كانت مقتبسةً من فارسَ على الخصوص، وهكذا فإن «البريد» تأتي، بحسب هذه الرسالة، من كلمة «بُرَيْدِه دُنْب»، أي الذَّنْب الأَبْتَر، والواقعُ أن بِغَالِ البريد كانت مقروضة الذنب، وتُطَبَّقُ كلمةُ «البريد» على الدابة، وعلى الرسول الذي يَرَكِبُهَا، وعلى طول فرسخين، أي المسافة المعتادة بين مَرَبِطَيْنِ، والتعبيراتُ التي اشتمل عليها هذا الكتابُ عن إدارة المياه ذاتُ قيمة، فديوانُ المياه كان يُسَمَّى «كستبازود»، وهذا حَدٌّ مُعَرَّبٌ مُؤَلَّفٌ من كلمتين فارسيتين، وهما «كَسْبَ أَفْزُود»، أي الأقل والأكثر، وكان هذا الديوانُ يَقُومُ بأمر الضرائب التي يُعْطِيهَا أصحاب المياه بحسب الكمية التي يَمْلِكُهَا كُلُّ واحدٍ وبحسب ما يشتريه منها وما يَبِيعُ، و«السائح» هو الماء يَجْرِي على وجه الأرض، والذي يُمَكِّنُ أن يُسْتَقَى من غير أن يُسْتَعَانَ بِآلاتٍ أو نَوَاعِيَرٍ أو غير ذلك، فهذه الآلاتُ تُسْتَخْدَمُ للأراضي المرتفعة... ولكن لِنَعُدْ إلى ابنِ مِسْكُويَه.

فَنُشِيرُ إلى كيفية قَصِّهِ^(١٦) تاريخَ الوزير الكبير، ابن الفرات، الذي يُمَكِّنُ أن يُعَدَّ مَسَلَكُهُ نموذجاً لكثير من أولياء الأمور في ذلك الدَّور، ويُعَيِّنُ ابن الفرات في عهد المقتدر، وَيَغْدُو ابنُ الفرات وزيراً للمرة الأولى سنة ٢٩٦، أي حين جلوس المقتدر على العرش

(١٦) تاريخ ابن مسكويه، جزء ٥، ص ٦٤ وما بعدها.

بعد انتصاره على المنافس له: ابن المعتز، وَيَبْدَأُ بالتخلُّص من بعض أعدائه، وَيَضَعُ الخليفةُ جميعَ الأمور بين يديه، وَيُحْسِنُ التصرف في الحكم، ومع ذلك فإن ما يُطْلَقُ ابنُ مِسْكَوِيه عليه اسمَ الحكومة الصالحة يَنْطَوِي على أعمال الغضبِ والسُّلبِ التي يَبْدُو عالمُ الأخلاق بالغِ الشَّدَّةِ حَيَالَهَا، ومما حَدَّثَ أن جاء ابن الفراتِ قاضٍ مُسِنَّ اشترك ابنه في إحدى الفتن فسأل الحياة له وهو ينيكي، فطلب الوزيرُ منه مئة ألف دينار، وسَجَنَه في بيت المال حتى يُوَدِّيَ هذا المَبْلَغَ، ومع ذلك فإنه عندما انتهى إلى دفع تسعين ألفَ دينارٍ أَجَلَ ابنُ الفرات عشرة آلاف الدينار الباقية وأعادَه إلى منزله أمراً إياه بالأُ يَخْرُجُ منه مطلقاً.

وَتَمْضِي ثلاثة أعوامٍ، فيخسر الوزيرُ منزلته، ويقبضُ عليه، وَيُهْتَكُ سِتْرُ حريمه، وَيُنْهَبُ بيته، وتُسَلَبُ كتبه وأمتعته، وَيَعْقَبُ هذا الاعتقالَ تحقيقُ حَوْلِ ادارته، ويدافع هذا المُهَانُ عن نفسه بشدَّة، وَيُعَذَّبُ حملًا له على الإقرار، ثم يُعْفَى عنه بعد أن أقسم أنه لم يَبْقَ له مالٌ ولا شيءٌ ثمين.

وفي تلك الأثناء يَصُبُّ العُمَلَةَ ثانيةً وزير آخرُ اسمه عليُّ بن عيسى، ويصدر هذا الوزير أوامر شديدة إلى الولاة، وَيَفْرِضُ الاقتصادَ على الخليفة، وَيَقْضِي على كثيرٍ من سوء الاستعمال، وَيَجْعَلُ لنفسه أعداءً بذلك، ومع ذلك فإن الحاجة إلى المال تَبْدُو دائماً، وَيَتَمَرَّدُ الجندُ نيلًا لِمَا تَأخَّرَ من رواتبهم، وَيَطْلُبُ عِيُّ بن عيسى إعفاهه من مَنْصِبِهِ، وَيَرْجُو الخليفة منه البقاء، ولكن عليًّا يُغْزَلُ وَيُسَجَّنُ وَيُغْرَمُ، نتيجة لِمَا يُحَاكُ من الدسائس.

وَيَعُودُ ابْنُ الْفَرَاتِ إِلَى السُّلْطَةِ، وَتَسَاعِدُ غَرَامَاتُ جَدِيدَةً عَلَى
مَلِكِ بَيْتِ الْمَالِ، وَيَقْضِي الْوَزِيرُ حَيَاةَ بَدْخٍ، وَيَسْتَقْبَلُ سَفَرَاءَ
بَزَنْطَةَ اسْتِقْبَالًا فَخْمًا، وَيَشْمَلُ الْعُلَمَاءَ وَالطُّلَّابَ بِكَرَمِهِ، وَيُصْفِرُ
بَيْتَ الْمَالِ، وَيَفْقِدُ مَا نَالَ مِنْ حُطْوَةٍ مُجَدِّدًا (٣٠٦)، وَيُلْقَى فِي
السَّجْنِ، وَيَكُونُ خَلْفَهُ رَجُلًا قَلِيلَ الْاِقْتِدَارِ، وَيَتَنَاوَلُ زَمَامَ الْأُمُورِ
مُسَاعِدًا لِلْوَزِيرِ، وَيُبْحَثُ فِي قَضِيَةِ ابْنِ الْفَرَاتِ، وَيُتَّهَمُ بِأَنَّهُ اسْتَوْلَى
عَلَى الْأَمْوَالِ الْعَامَةِ، وَيُسْتَعَانُ بِكِتَابِ مُزَوَّرٍ ضِدَّهُ، وَيَدَافِعُ عَنِ
نَفْسِهِ بِشِدَّةٍ، وَيَتَّهَمُ خَلْفَهُ بِالْعَجْزِ، وَيُكْرِّرُ عَيْنَ الْمُنَاطَرِ الَّتِي عَقَبَتْ
سُقُوطَ الْحُطْوَةِ الْأُولَى، أَي يُكْرِّرُ التَّحْقِيقَ الطَّوِيلَ وَالْإِهَانَاتِ
وَالْاِغْتِصَابَاتِ، وَيُجَلِّدُ ابْنَ الْفَرَاتِ بِقَسْوَةٍ حَمَلًا لَهُ عَلَى تَقْدِيمِ مَالٍ،
وَيُلْجَأُ إِلَى الْخِرَافَةِ، أَي إِنْ ابْنُ الْفَرَاتِ يَسْتَنْدُ إِلَى حَلْمٍ فِي الْمَنَامِ
فَيَعِدُّ الْخَلِيفَةَ بِمَبْلَغٍ عَظِيمٍ.

وَيَأْسَفُ الْخَلِيفَةُ عَلَى مَا عَامَلَ بِهِ الْوَزِيرَ الْفَاقِدَ الْحُطْوَةَ، وَيَطْلُبُ
مَنْ خَلْفَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ خَطِيئًا بِمَقْدَارِ الْمَالِ الَّذِي يَرَى جِبَابِيَتَهُ مِنَ
الضَّرَائِبِ، وَكَانَ هَذَا رَسْمَ مِيزَانِيَةٍ، وَيَعْرِضُ هَذَا الْوَزِيرُ مَبْلَغًا مِنْ
الْمَالِ، وَيُؤَكِّدُ ابْنَ الْفَرَاتِ قُدْرَتَهُ عَلَى تَحْصِيلِ ضِعْفِ هَذَا الْمَبْلَغِ،
وَيُعَيِّنُهُ الْخَلِيفَةُ وَزِيرًا لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْوِزَارَةِ بَدَأَ
بِمَصَادِرَةِ أَمْوَالِ زُبْنِ الْوَزِيرِ السَّابِقِ كُلِّهِمْ وَمَصَادِرَةِ رَسَائِلِ هَذَا
الْوَزِيرِ، وَيَفِرُّ هَذَا الْأَخِيرُ بِزِيٍّ دَرُوشٍ، وَيَقَعُ فِي أَيْدِي الشَّرْطَةِ
عَنْ خِيَانَتِهِ، وَيُوتَى بِهِ إِلَى ابْنِ الْفَرَاتِ، وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مَدِينٌ لِلدَّوْلَةِ
بِمِثْقَى أَلْفِ دِينَارٍ، وَيَحَاوِلُ بِالْوَعْدِ مَعْرِفَةَ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُخْفِي
مَالَهُ فِيهِ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ مَدِينَةٌ «وَاسِطٌ»، وَيُعَذِّبُ هَذَا الْوَزِيرَ، وَيَذْفَعُ

مبالغ جديدة، وتباع أرضه في « واسط »، ويُجَلَّبُ إلى هذه المدينة، ولكنه يُسْقَى بعض السمِّ في الطريق، ويعود غير قادر على المشي بين يدي قضاة، ويموت في أثناء القضية.

واضطهاداتٌ مثلُ هذه تُوجَّهُ إلى علي بن عيسى وإلى كبار آخرين، ولكن النصيب يعود مُجدِّداً، وذلك أن القرامطة يهاجمون قوافل الحجاج فيكون للاضطرابات الناشئة عن غاراتهم انعكاسٌ في بغداد التي يَغْدُو أهلها مُعادين لابن الفرات، ويُعزَّل، ويُفتح بابُ تحقيقِ ضِدِّه للمرة الثالثة، ويدافع عن نفسه بعرضه رسائل من الخليفة، ويُضرب بالعصا، وأخيراً يَضْرِبُ عُنُقَهُ رؤساءُ الحرس التركي.

فقصةٌ مثلُ هذه، تُعْرَضُ مع تفصيلٍ في التحقيق والمكايد، تُشْرِفُ المؤرخَ أكثرَ من تشریفهما طِبَاعَ ذلك الزمنِ السياسيَّة.

ولدينا كتابٌ جميلٌ أُفْرِدَ للخلفاء العباسيين ووزرائهم، وهذا الكتاب هو « الفخريُّ » لابن الطُّقْطُقِيِّ^(١٧)، وليس لهذا الكتاب ما لكتب التاريخ الكبيرة التي تكلمنا عنها من فخامة وبعْدِ غورٍ، مع احتوائه أُماليحَ أُحْسِنَ اختيارها فتطيبُ مطالعتها إلى الغاية، وتجدُ عَقَبَ ما هو خاصٌّ بكلِّ خليفةٍ موادَّ خاصةً عن وزرائه، ومن شأن هذا الوضع مَنَحُ الكتابِ مُتعةً خاصةً.

(١٧) الفخري، طبعة ف، أهلورد، غوتا، ١٨٦٠، - الفخري، لابن الطقطقي، طبعة جديدة، هرتويغ دربرغ، باريس، ١٨٩٥، في مكتبة مدرسة العلوم العليا.

وكان تصنيف المؤلف لهذا الكتاب بعد سقوط الخلافة العباسية بزمان قليل، أي في عهد السلطان المغولي: قازان خان، وهو يقصُّ كيف حُمِلَ على تأليفه.

وذلك أنه كان قد حُصِرَ في المَوْصِلِ بالثلج في شتاء شديد (١٣٠١)، ففضى أوقات فراغه في العمل في المكتبات، وكانت هذه المدينة تشتمل على كتب كثيرة، وكان لصاحب المَوْصِلِ، فخر الدين عيسى، مكتبة رائعة زاخرة فجعلها تحت تصرف مؤلفنا، فأهدى إليه هذا المؤلف ثمرة قراءاته باطلاق اسم «الفخري» على الكتاب، وأما فيما هو خاصٌّ بالوزراء على الخصوص فإن ابن الطُّطْقَى فقد ذَكَرَ أنه انتفع بكتابٍ قديمٍ للصولي.

وتحسب الصفحات الأخيرة من الكتاب، الباحثة في آخر خلفاء بني العباس وفي سقوط بغداد، وثيقة ذات قيمة كبيرة، وذلك أن المؤلف عرّف شهودَ هذه الحوادث وروى ما قصّوه بكثيرٍ من الضبط والصحة، وتعدُّ الصورة التي رسمها عن الخليفة طريفةً جداً، وهي تدلُّ على أنه مُجدُّ ذو طيبة عظيمة في حياته الداخلية، وهو يزوي الحكاية اللطيفة الآتية عن الموسيقي صفّي الدين الذي كان مقرباً عند الخليفة:

وذلك أن الخليفة كان قد استجدَّ في آخر أيامه خِزَانَةَ كتبٍ، ونَقَلَ إليها من نفائس الكتب وسَلَّمَ مفاتيحها إلى صفّي الدين، فصار صفّي الدين يجلس بباب الخِزَانَةِ يَنْسَخُ له ما يريد، وكان الخليفة يأتي إلى هذه الخِزَانَةِ غالباً، وكانت هناك مرتبة برسم الخليفة، إذا جاء إلى هناك جلس عليها، وقد بُسِطَتْ عليها ملحفة

لتردّ عنها الغبار، فجاء خُوَيْدِمٌ ونام قريباً من الأريكة المذكورة واستغرق في النوم، فتقلّب حتى تَلَفَّفَ في تلك المِلْحَفَةِ المبسوطة على مرتبة، ثم تقلّب حتى صارت رجلاه على المسند، وبينما كان الأمر هكذا أحسَّ صفيُّ الدين وطأ في الدهليز، فنظر فإذا هو الخليفة، وهو يستدعيه بالإشارة ويُخَفِّفُ وِطْأَهُ، وَيَقُولُ الخليفة له: هذا الخُوَيْدِمُ الذي قد نام حتى تَلَفَّفَ في هذه المِلْحَفَةِ وصارت رجلاه على المسند، متى هجمتُ عليه حتى يستيقظ ويعلمَ أني قد شاهدته على هذه الحال تَنَفِّطُ مَرَارَتَهُ من الخوف، فأيقظه أنت برفق، فإني سأخرج إلى البستان ثم أعود، ويوقظُ الخُوَيْدِمُ، وتُصَلِّحُ المرتبة، ثم يَدْخُلُ الخليفة.

ويقول كُتَيْبِيٌّ آخر إنه دخل مرةً إلى خِزَانَةِ الكُتُبِ على عادته، وفي كَمِّهِ مِندِيلٌ فيه رِقَاعٌ كثيرةٌ لجماعة من أرباب الحوائج، فطرح المِندِيلَ وفيه الرِقَاعُ في موضعه، ثم قام لبعض شأنه، فلما عاد إلى الخِزَانَةِ بعد ساعة حلَّ الرِقَاعُ من المِندِيلِ حتى يتأمَّلَهَا وَيَقْدَمَ منها المَهْمُ، فرآها جميعها وعليها توقيعُ الخليفة بالإجابة إلى جميع ما فيها، فعلمَ أن الخليفة قد جاء إلى الخِزَانَةِ عند قيامه فرأى المِندِيلَ وفيه الرِقَاعَ ففتحها ووقَّعَ على جميعها.

ومع ذلك فإن الطُّقْطَقِيَّ يعترف بأن المستعصمَ كان خالياً من كلِّ تَيْقِظٍ سياسيٍّ، غافلاً إلى أبعد حدٍّ، «وفي آخر أيامه قويت الأراجيفُ بوصولِ عسكرِ المُغُولِ صحبةَ السلطانِ هُلاكو، فلم يُحرِّكْ ذلكَ منه عَزْماً، ولا نَبَّهَ منه هِمَّةً، ولا أخذتَ عنده هَمًّا، وكان كلما سُمِعَ عن السلطانِ من الاحتياطِ والاستعدادِ شيءٌ ظهر

من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك، ولا يعرف هذه الدولة حق المعرفة.»

وعلى العكس كان الوزير ابن العلقمي رجلاً أريباً، ويُلوح أنه كان على وفاقٍ مع هُلاكو، وإن أنكر المؤلف ذلك، فعند المؤلف أن ابن العلقمي كان يعرف حقيقة الحال فيكاتب الخليفة بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد، وهو لا يزداد إلا غفولاً، وكان خواص الخليفة يوهمون أنه ليس في هذا كبير خطرٍ ولا هناك محذورٌ، وأن الوزير إنما يُعظم هذا لتنفق سوقه ولتبرز إليه الأموال ليُجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه، وفي آخر الحصار خرج ابن العلقمي إلى معسكر هُلاكو كما طلب هذا السلطان، ويقدمه إليه العالم نصير الدين الطوسي، فلما فتحت بغداد سُلمت إليه الشحنة، ثم مرض ومات، وكان هذا أديباً ومولعاً بالكتب أيضاً، فيشترى مخطوطات كثيرة ثمينه جداً، وقد روى ابنه للمؤلف أن خزانة كُتبه كانت تشتمل على عشرة آلاف مُجلد ذات قيمة، وألف كثير من العلماء كتباً إجابةً إلى طلبه.



مؤرخ شرقي معاصر:

زيدان

وَدَرَسَ المؤلّفُ الشرقيُّ المعاصر، جُرْجي زيدان، تاريخَ العباسيين بروح فلسفيٍّ وكثيرٍ من الفطنة، والسيدُ زيدان، الذي فقدَه المستشرقون منذ زمنٍ قليلٍ، سوريُّ المولد مقيمٌ بالقاهرة حيث أدار مجلة «الهلّال»، وهو يُعدُّ من زمرة علماء العرب الذين أساغوا مناهجَ النقد الغربيِّ فَطَبَّقوها على دراسة آدابهم الخاصة، وترانا مَدِينين له بتاريخٍ مهمٍّ عن التمدن الإسلاميِّ تُرْجِمُ قِسْمَهُ الخاصُّ بالأمويين والعباسيين إلى الإنكليزية، وسوف يُرى ببعض الأمثلة كيف يُحلِّلُ أحوالَ حكومة الخلفاء العباسيين وكيف يُبرِّزُ بعض خصائصِ سياسة ذلك الزمن. (١٨)

وهكذا فإنه يُبيِّن، فيما يتعلّق بالنساء، كيف أن الفتح جَلَبَ إلى دوائر الحرّيمِ إماء، من أصولٍ مختلفة، فعَرَفَ كثيرٌ من هؤلاء الإماء أن يَكُنَّ موضعَ احترامٍ فنلنَ مركزاً ممتازاً في الأسرة المالكة، وفي

(١٨) الأمويون والعباسيون، الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي، ترجمة مرغليوث، مذكرة جب، ليدن - لندن ١٩٠٧.

الحكومة أيضاً، وتترك مبادئ العرب القديمة القائلة بنقاء العرق،
وصار الولد لا يستحي من أن يكون ابناً لأمة.

ونسبة الخلفاء العباسيين الذين كانت أمهاتهم من أصل عبدي
كبيرة، ويقدم السيد زيدان قائمة ناقصة عن ذلك يظهر
أعظمهم، فأُم المنصور أمة بربرية، وأُم الرشيد أمة حرشية، وأُم
المأمون أمة فارسية، وأُم المنتصر بالله أمة حبشية رومية، وأُم
المهتدي أمة رومية، وأُم المستعين بالله أمة صقلبية، وأُم المستضيء
أمة أرمنية، وولدَ المقتدر والمكتفى والناصر من إماء تركيات.

ومثل كثير من هؤلاء الإماء، اللاتي ارتقن إلى منزلة الملكة
الوالدة، دوراً سياسياً مهماً، ومن ذلك أن أم الرشيد الخيزران
حملت جواربها، كما يُعتقد، على قتل الخليفة الهادي، وذلك بخنقه
بغطاء وجلوسه عليه، وقد جمعت أموالاً، طائلة في عهد الرشيد،
« فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم، أي نحو نصف خراج
المملكة العباسية في ذلك العهد »، ولا مرأى في أن هذا مبالغ فيه،
والواقع أن أم المقتدر، واسمها السيدة، كانت تتصرف في الأحكام
بالاشتراك مع الحجاب والخدم، وقل مثل هذا عن أم المستعين
الصقلبية التي مارست السلطة مع اثنين من قواد الأتراك « فكانت
الأموال التي ترد إلى بيت المال من النواحي يصير معظمها إلى
هؤلاء الثلاثة ».

ودرس السيد زيدان، أيضاً، شأن مختلف العروق ونفوذهم
النسبي في عهد الخلافة، ودار الحديث، في الغالب، حول تنافس
العرب والفرس، وتجدد هذا التنافس في جميع تاريخ الإسلام الأدبي.

والديني، ونفوذ الأتراك موضوع أكثر غموضاً وأقل تنقيباً، وقد أفرد له مؤلفنا بعض الفقر النافعة.

وهو يميز أول دور في تاريخ الخلافة العباسية حيث ساد النفوذ الفارسي، فتمتع الوزراء الفارسيون بسطان يكاد يكون استبدادياً، وقد عقب هذا الدور دور آخر غداً فيه الحرس التركي سيداً مطلقاً للعاصمة والخليفة، ولذا يكون الفرس قد سيطروا بنبوغهم الإداري وذوقهم الأدبي والفني، ويكون الأتراك قد سيطروا بخدمهم العسكرية، ويبدأ الدور التركي في خلافة المتوكل سنة ٢٣٢.

وهناك يذكر المؤلف بإيجاز ما دار من أساطير حول أصل الترك، ومنها أسطورة الأولاد الذين رضعوا من ثدي الذئبة والمشابهة لاسطورة روملس ورملس في أوائل التاريخ الروماني، وكان الترك، بعد أن قاتلوا الفرس والصينيين والبيزنطيين، قد استقروا ببلاد ما وراء النهر حين الفتح الإسلامي، «ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك، وهم يُعبّرون عنها بما وراء النهر، ففتحوا بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بني أمية، ولما تولّى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج، وكانوا يحملون في جملة الجزية أولاداً من أهل بادية تركستان يبيعونهم ببيع الرقيق، وهم في الغالب من السبي أو الأسرى على جاري العادة في تلك الأعصر، فضلاً عن كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبي، ويُعبّرون

عنهم بالماليك، ويُفَرِّقونهم في بِلَاطِ الخلفاء ومنازلِ الأُمراء... وكان الأتراكُ يومئذٍ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانتُ للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النَّشَابِ والصبرِ على الأسفار الشاقَّة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوَغَى مع قلة العناية بالعلوم، ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعيُّ، وكلما اشتغل أحدٌ منهم بدرسها في إبان التمدن الإسلاميِّ، واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا إذا سَمِعُوا بتركيٍّ يشتغل بالعلم الطبيعيِّ ذَكَرُوهُ مع الاستغراب، كما فعل ابنُ الأثير لما أشار إلى معرفة قُتْلِمِشِ عِلْمِ النجوم فقال: «ومن العَجَب أن قُتْلِمِشَ هذا كان يَعْلَمُ عِلْمَ النجوم، وقد أتقنه مع أنه تركيٌّ، وَيَعْلَمُ غيرَه من علوم القوم» - ولَمَّا تقدم الأتراك في الدولة العباسية وعَلِمَ إخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئاتٍ وألوفاً يَطْلُبُونَ الارتزاقَ بالجنديَّة ورَغِبُوا في الإسلام، وجَعَلُوا يَدْخُلُونَ فيه بالألوف وعشرات الألوف، فقد أسَلِمَ منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠,٠٠٠ خَرَكَاهُ دُفْعَةً واحدة، والخَرَكَاهُ الخيمة، ولا يَقِلُّ أهلُ الخيمة الواحدة عن خمسة أنفُس، فعدَّدُ الذين أسلموا في هذه الدُفْعَةِ نحو مليونِ نفسٍ.»

وكذلك دُرِسَ بعمقٍ تأثيرُ المفهومِ الدينيِّ في حكومة الإسلام وما بين الدين والاستبداد من صلة، وقد أظهرَ ما يَكُنُّهُ قدماءُ التركِ هؤلاء من احترامٍ لنظام الخلافة ولشخص الخليفة مراعاةً لشعور العامة بسطورٍ امتزج فيها التحقيقُ والفكرُ امتزاجاً وثيقاً، «وكذلك كان شأنُ الأجناد الأتراك وأمرائهم، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغدادَ قتلاً وخلعاً لا يَجْسُرُونَ على استبقاء

مَنْصِبِ الْخِلاَفَةِ خَالِيًا يَوْمًا وَاحِدًا، لاعتقادهم أنه بدون الخليفة لا تُسْتَصْلَحُ الْعَامَّةُ، حَتَّى الْمُلُوكُ وَالسَّلَاطِينُ الَّذِينَ تَسَلَّطُوا عَلَى بَغْدَادَ وَقَبَضُوا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا، وَأَصْبَحَ الْخَلِيفَةُ آلَةَ فِي أَيْدِيهِمْ، مِثْلَ آلِ بُوَيْهٍ وَآلِ سَلْجُوقٍ، فَقَدْ كَانُوا يَحَارِبُونَ الْخَلِيفَةَ وَيُجَرِّدُونَ عَلَيْهِ الْجِيُوشَ حَتَّى إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَغَلَبُوهُ بَايَعُوهُ وَأَكْرَمُوهُ وَرَفَعُوا مَقَامَهُ وَتَبَرَّكُوا بِهِ، فَعَضُدُ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيُّ مَلِكُ بَغْدَادَ وَاسْتَبَدَّ بِهَا وَهُوَ شِيعِيٌّ عَلَى غَيْرِ مَذْهَبِ الْخَلِيفَةِ... وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ بَايَعَهُ وَعَظَّمْ شَأْنَهُ وَأَعَادَ مِنْ أَمْرِ الْخِلاَفَةِ مَا قَدْ نَسِيَ وَأَمَرَ بِعِمَارَةِ دَارِ الْخِلاَفَةِ وَالْإِكْتِثَارِ مِنَ الْأَلَاتِ وَعِمَارَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلِيفَةِ وَبِطَانَتِهِ وَأَكْرَمَهُ غَايَةً الْإِكْرَامِ»، - وَإِنَّمَا أُرِيدُ الْاِقْتِصَارَ عَلَى بَيَانِ الرُّوحِ الْفَلَسْفِيِّ لَدَى الْمُؤَلِّفِ، فَمَا كَانَتْ دَرَسَةً نَظْرِيَّةَ الْخِلاَفَةِ دَرَسًا عَمِيقًا لِيُمْكِنَ صُنْعُهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ.



الفصل الرابع

مؤرخو العرب

(تكملة)

مؤرخو الحروب الصليبية

مؤرخو الشام ومصر والاندلس

- ابن الأثير، تاريخه، استيلاء الموحدين على مراكش،
ثناء على الأتابك نور الدين
- الشام : الأمير أسامة ، مذكراته ،
أبوالفداء ، حولياته ، سيرته
- مصر: المقرئ ، وصفه للقاهرة ، تاريخه عن المالِك ،
صفحة عن السلطان بيبرس
- الأندلس: المقرئ ، مختاراته ، قطعة عن أشبيلية ،
قطعة عن حصار غرناطة وتسليمها

ابن الأثير، تاريخه،

استيلاء الموحدين على مراكش،

ثناءً على الأتابك نورالدين

إليك مُوَاصِلَ الطبريِّ، إليك مؤرخاً آخرَ عَظِيمَ الشَّانِ مشهوراً في الغرب منذ زمن طويل، إليك ابن الأثير، ويَرْجِعُ ابنُ الأثيرِ إلى دَوْرِ الحروبِ الصليبية^(١)، وقد وُلِدَ في جزيرة ابن عمر، في هذه المدينة الواقعة بين النهرين، وكان ينتسب إلى أسرة غنية، ويأتي في سنة ٥٧٦ إلى المَوْصِلِ، وَيَجْعَلُ منها محلَّ إقامته مَدَى حَيَاتِهِ، فيقوم بالتعليم قياماً خاصاً، وإنما قام ببعض رِحَلَاتٍ في العراق والشام والحجاز سواءً ألتأدية فريضة الحجِّ أم للقيام برسالةٍ من قِبَلِ أمراء المَوْصِلِ، وتَحْضُرُهُ الوفاةُ سنة ٦٣٠.

وفي عَصْرِ ابن الأثير عاد تاريخُ الطبريِّ لا يَكُونُ في مُتَنَاولِ الجُمهورِ، وذلك أن نُسخَه كانت نادرةً، وأن هذا الأثر كان من اتساع المَدَى وثَقَلِ التَّأليفِ بحيث يُبْعَدُ كثيراً من القراء، وَيَجْعَلُ ابنُ الأثيرِ منه أثراً وجيزاً سائغاً، وَيُضَيِّفُ إليه بعضَ الوقائعِ

(١) انظر إلى البيان المفصل الذي قام به دوسلان في مجموعة مؤرخي العرب أيام الحروب الصليبية، جزءاً، ص ٧٥٩.

المُسْتَقَاةَ من مصادرَ أُخرى، وأخصُّ ما يُضَيَّفُ إليه قطعةٌ مهمَّةٌ عن «أيام» العرب قبل الإسلام، أو ما بين القبائل من قتال، ثم يُواصلُ هذا التاريخَ ويأتي به إلى زمنه، أي إلى سنة ٦٢٨، ومن مزايا هذا الأثر اشتماله على عدد كبير من الأخبار عن القسم الغربيِّ من العالم الإسلاميِّ الذي كان، على العموم، معروفاً قليلاً لدى علماء العرب من المُشَارِقَة، وكان تاريخُ ابن الأثير، المعروفُ بـ «الكامل» عادةً، قد طُبِعَ، منذ سنة ١٨٥١ بليدانَ من قِبَلِ تُرنبرُغ في أربعة عشرَ مُجلِّداً.

وإذا عَدَوْتَ هذا الكتابَ الكبيرَ وَجَدْتَ ابن الأثيرَ قد أَلَّفَ تاريخاً عن «دولة الأتابكية في الموصل» طُبِعَ بفرنسةٍ في الجزء الثاني من المجموعة الرائعة التي عُنوانُها «مؤرخو العرب أيام الحروب الصليبية».

وكان أثرُ ابن الأثير قد انتُفِعَ به من قِبَلِ العالمِ الإيطاليِّ أماري في كتابه الكبير عن سلطان العرب في صِقْلِيَّة (Bibliotheca arabo - Sicula) وقد استخرج العالمُ الفرنسيُّ، فنيانُ، الذي عُنِيََ بترجمة جميع قطعِ مؤرخي العرب الخاصة بالمغرب وشمال إفريقيا ومراكش وصِقْلِيَّة والأندلس، من أثرِ ابن الأثير ما هو خاصٌّ بهذه البِقَاعِ من صَفَحات، فألَّفَ منها مُجلِّداً من أمتع ما يَكُونُ^(٢)، فترانا نقتطف منها العبارة الآتية على سبيل المثال،

(٢) ابن الأثير، حوليات المغرب والأندلس، ترجمها وعلق عليها إ. فنيان، الجزائر

وبذلك تكون لدينا فكرة عن طريقة المؤلف التي تُذكر بعض التذكير بطريقة الطبري وإن كانت أكثر قوة وارتكازاً في بعض الأحيان، وسوف يُرى كيف أن هذه الطريقة الصحيحة الدقيقة، على الرغم من جُفوف الأسلوب، ترك أثراً مؤثراً حقاً.

ويُدور الموضوع حولَ حادث في تاريخ المغرب، وهو انتزاعُ مؤسسِ دولة الموحدين، عبدِ المؤمن، مَرَّاكشَ من المرابطين، قال ابن الأثير:

«لَمَّا فَرَغَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ فَاسٍ وَتَلَّكَ النُّوَاحِي سَارَ إِلَى مَرَّاكُشَ، وَهِيَ كَرْسِيٌّ مَمْلُوكَةُ الْمُلْتَمِئِينَ وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَدِينِ وَأَعْظَمِهَا، وَكَانَ صَاحِبُهَا حِينئِذٍ إِسْحَاقُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ تَاشْفِينِ، وَهُوَ صَبِيٌّ، فَنَازَلَهَا وَكَانَ نَزْوُهُ عَلَيْهَا سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِئَةَ (٢) مِنْ يُونِيهِ (١١٤٦)، فَضَرَبَ خِيَامَهُ فِي غَرْبِهَا عَلَى جَبَلٍ صَغِيرٍ، وَبَنَى عَلَيْهِ مَدِينَةً لَهُ وَلِعَسْكَرِهِ، وَبَنَى بِهَا جَامِعاً، وَبَنَى لَهُ بِنَاءً عَالِياً يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَيَرَى أَحْوَالَ أَهْلِهَا وَأَحْوَالَ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَاتَلَهَا قِتَالاً كَثِيراً، وَأَقَامَ عَلَيْهَا أَحَدَ عَشَرَ شَهْراً، فَكَانَ مِنْهَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ يَخْرُجُونَ يِقَاتِلُونَهُمْ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَاشْتَدَّ الْجُوعُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَعَدَّرَتِ الْأَقْوَاتُ عِنْدَهُمْ ...»

«وكان شيوخُ المُلتَمِئِينَ يُدَبِّرون دولةَ إسحاق بنِ عليِّ بنِ يوسفٍ لِصِغَرِ سِنِهِ، فَاتَّفَقَ أَنْ إِنْسَاناً مِنْ جَمَلَتِهِمْ يَقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ خَرَجَ إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مُسْتَأْمِناً وَأَطْلَعَهُ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، فَقَوِيَ الطَّمَعُ فِيهِمْ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَنُصِبَ عَلَيْهِمُ الْمُنْجِنِيقاتِ وَالْأَبْرَاجِ، وَفَنِيَتِ أَقْوَاتُهُمْ، وَأَكَلُوا دَوَابَّهُمْ، وَمَاتَ مِنَ الْعَامَةِ بِالْجُوعِ

ما يزيدُ على مئة ألف إنسان، فأنتنَ البلدُ من ریح المَوْتَى، وكان
بمَرَاكُشَ جيشُ من الفَرَنجِ كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاءوا
إليهم نَجْدَةً، فلما طال عليهم الأمرُ راسلوا عبدَ المؤمن يسألون
الأمانَ، فأجابهم إليه، فَفَتَحُوا له باباً من أبواب البلد يقال له بابُ
أغمات، فدخلت عساكرُه بالسيف ومَلَكُوا المدينةَ عَنوَةً، وَقَتَلُوا من
وَجَدُوا، وَوَصَلُوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأميرَ إِسْحاقَ
وجميعَ من معه من أمراء المرابطين، فَقَتَلُوا، وجعلَ إِسْحاقُ يرتعد
رغبةً في البقاء، وَيَدْعُو لعبد المؤمن، وَيَبْكِي، فقام إليه سهيل بن
الحاجِّ، وكان إلى جانبه مكتوفاً، فَبَزَقَ في وجهه، وقال: «تَبْكِي
على أبيك وأمك، اصْبِرْ صَبْرَ الرجال، فهذا رجلٌ لا يخاف الله، ولا
يَدِينُ بدينٍ» فقام الموحِّدون إليه بالخشب فضربوه حتى قَتَلُوهُ،
وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة، وَقُدِّمَ إِسْحاقُ على صِغَرِ
سِنِّه، فَضُرِبَتْ عنقه سنة اثنتين وأربعين...

«ولما فتح عبدُ المؤمن مَرَّاكُشَ أقام بها واستوطنها واستقرَّ
ملكه... فلما كان بعد سبعة أيام أمرَ عبدُ المؤمن، فَنُوْدِيَ بأمان
من بَقِيَّ من أهل مَرَّاكُشَ... وأمر بإخراج القَتْلَى من البلد،
فأخرجوهم، وبَنَى بالقصر جامعاً كبيراً، وزخرفه، فأحسن عَمَلَهُ،
وأمر بهدم الجامع الذي بناه أميرُ المسلمين يوسفُ بنُ تاشفينَ».

وَيُمْكِنُ أن تَجِدَ بلا عَنَاءٍ عباراتٍ أُخَرَ خاصةً بالأندلس
والمغرب، ولكننا نَرَى من الأجدد أن نَذْكُرَ واحدةً عن المشرقِ لِمَا
عُرِفَ من كَوْنِ ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية على الخصوص،
ولا نَقْرَأ من غير انتفاعِ ذاك الشناء الجميل على أتابك المُوَصِّلِ:

نور الدين بن زنكى الذي هَدَّد، ذاتَ حينٍ طالعَ صلاح الدين،
والذي ظَهَرَ، قَبْلَ هذا الأمير، بطلَ الإسلام حِيَالَ الفَرَنْج، قال ابنُ
الأثير:

« كان نور الدين أسمرَ طويلَ القامة، ليس له لحيَةٌ إلاَّ في

حَنَكه، وكان واسعَ الجبهة حسنَ الصورة حُلُوَ العينين، وكان قد
اتسع مُلكُه جِدًّا، وخطبَ له بالحرمين الشريفين وباليمنَ لَمَّا دَخَلَهَا
شمسُ الدين بنُ أيوبَ ومَلَكها، وكان مولدُه سنة إحدى عشرة
وخمسة (١١١٧ م)، وَطَبَّقَ ذكرُه الأَرْضَ بَحْسَنَ سيرته وعدله،
وقد طالعتُ سِيرَ الملوك المتقدمين فلم أَر فيها بعد الخلفاء الراشدين
وعمرَ بن عبد العزيز^(٣) أحسنَ من سيرته ولا أكثرَ تَحَرِّيًّا منه
للعدل...

« ومن خِصال نور الدين الحميدة زهده وعبادته وعلمه، فإنه
كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يَخُصُّه من مُلكِ
كان له قد اشتراه من سَهْمه من الفئيمة ومن الأموال المرصدة
لمصالح المسلمين، ولقد شَكَتُ إليه زوجته من الضائقة فأعطاهَا
ثلاثَ دكاكين في حمص كانت له يُحَصِّلُ له منها في السنة نحو
العشرين ديناراً، فلما استَقَلَّتْها قال: ليس لي إلاَّ هذا، وجميع ما
بيدي أنا فيه خازنٌ للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نارَ
جهنم لأجلِكِ ».

(٣) خليفة أموي ملك من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١.

ولاميراء في أن ذلك وصفٌ جميلٌ جداً، وصفٌ ميزَ بعض الملامس الصائبة، وذلك من غير جهدٍ ولا فحصرٍ مستمداً جميع قوته من خطوطٍ أحسن اختيارها، والعالم النفسى البارغ، ابن الأثير، يعرفُ، كذلك، أن يقود بنشاطٍ قصة معركة، كما يرى في الصفحة الآتية، حيث يظهرُ اسمُ بوهيمند المشهور، والأمرُ يدور حول القتال الذي وقعَ حِيال قلعة حارم الشامية، قال ابن الأثير:

« في هذه السنة في شهر رمضان (يوليو-أغسطس ١١٦٤ م، ٥٥٩ هـ) فتح نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم من الفرنج، وسبب ذلك أن نور الدين لما عاد منهزماً من البقيعة تحت حصن الأكراد، كما ذكرناه قبلُ، فرّق الأموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدّم، فعاد العسكرُ كأنهم لم يُصابوا، وأخذ في الاستعداد للجهاد والأخذ بشأره، واتفق مسيرُ بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصرَ كما ذكرناه، فأراد أن يقصد بلادهم ليعودوا عن مصرَ، فأرسل إلى أخيه قطبُ الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى غيره من اصحاب الاطراف يستنجدهم، فأما قطبُ الدين فإنه جمعَ عسكره وسار مُجداً... وأما فخرُ الدين صاحب حصن كَيْفَا فبلغني عنه أنه قال له نُدماؤه وخواصه: على أي شيء عزمْتَ، فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة وهو يُلقِي نفسه في المهالك، فكلُّهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان الغدُ أمرَ بالتجهيزِ للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا، فارقناك أمسِ على حاله، فتراك اليومَ على ضيِّها، فقال: إن نور الدين قد سلَّك معي طريقاً إن لم أنجده خرجَ أهلُ بلادِي

يَلْقُوا رَاجِلًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ... فَيَأْخُذُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ»، وَهَذَا مَا وَقَعَ، فَقَدْ رَجَعَ
الْفَرَسَانِ، وَلَمْ يَجِدُوا رَاجِلًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، فَأَبِيدُوا بِسَهُولَةٍ.

« فَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا دَبَّرُوهُ، فَإِنَّ الْفَرَنْجَ لَمَّا تَبِعُوا الْمُنْهَزِمِينَ
عَطَفَ عَلَيْهِمْ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ عَسْكَرِ الْمَوْصِلِيِّ عَلَى رَاجِلِ الْفَرَنْجِ،
فَأَفْنَاهُمْ قِتْلًا وَأَسْرًا، وَعَادَ خِيَالَتُهُمْ وَلَمْ يُعْنُوا فِي الطَّلَبِ خَوْفًا عَلَى
رَاجِلِهِمْ، فَعَادَ الْمُنْهَزِمُونَ فِي آثَارِهِمْ، فَلَمَّا وَصَلَ الْفَرَنْجُ رَأَوْا رِجَالَهُمْ
قَتَلَى وَأَسْرَى، فَسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَبَقُوا فِي
الْوَسْطِ قَدْ أَحْدَقَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ،
وَقَامَتْ عَلَى قَدَمِ وَسَاقِي، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي الْفَرَنْجِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِمُ
الْهَزِيمَةُ، فَعَدَلَ حِينَئِذٍ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْقَتْلِ إِلَى الْأَسْرِ، فَأَسْرَوْا مَا لَا
يُحَدُّ، وَفِي جَمَلَةِ الْأَسْرَى صَاحِبُ انْطَاكِيَّةٍ، وَالْقَمُصُّ صَاحِبُ
طَرَابَلُسٍ، وَكَانَ شَيْطَانُ الْفَرَنْجِ وَأَشَدَّهُمْ شَكِيمَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ،
وَالدُّوكُ مُقَدَّمُ الرُّومِ، وَابْنُ جُوسَلِينَ، وَكَانَتْ عِدَّةُ الْقَتْلَى تَزِيدُ عَلَى
عَشْرَةِ آلَافٍ قَتِيلٍ». ثُمَّ أُطْلِقَ بِيْمُونْدُ فِي مَقَابِلِ فِدْيَةٍ عَظِيمَةٍ.

مَكْتَبَةُ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَقَاتِلِيَّةِ

عن طاعتي، وأخرجوا البلادَ عن يدي، فإنه قد كاتب زُهَّادها
وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يَذْكُرُ لهم ما لَقِيَ المسلمون من
الفرنج وما نالهم من القتل والأسر، ويستمدُّ منهم الدعاء، ويطلبُ أن
يحثُّوا المسلمين على الغزاة، فقد قَعَدَ كلُّ واحدٍ من أولئك، ومعه
أصحابه وأتباعه، وهم يقرءون كتبَ نور الدين وَيَبْكُونَ ويلعنونني
ويَدْعُونَ عليَّ، فلا بُدَّ من المَسِيرِ إليه».

وبعد هذه القطعة، التي تدلُّ على حركة النفس أحسنَ دلالةٍ،
ينتقل المؤرِّخُ إلى حكاية وقائع الحرب، وذلك أن نور الدين سار
نحو «حارم» على رأس هذه الكتائب وحَصَّرَهَا ونصب عليها
المجانيقَ وتابَعَ الزحفَ إليها، «فاجتمع من بَقِيَّ بالساحل من
الفرنج فجاءوا في حُدِّهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم
ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كلِّ حَدَبٍ يَنسلون، وكان المُقَدَّمُ عليهم
البرنس بيموند، صاحبُ أنطاكية، والقمصُ صاحبُ طرابلسَ
وأعمالها وابن جوسلين، وهو من مشاهير الفرنج، والدُّوكُ، وهو
مُقَدَّمٌ كبيرٌ من الروم...»

فلما دنا جيشُ الفرنج تظاهر نورُ الدين بفكِّ الحصار عن
حارم، ولم يَجْرُؤُ الفرنجُ على مطاردته كما كانوا يأملون، بل
ارتدُّوا إلى حارم، ولما عادوا تَبِعَهُم نورُ الدين لِيَحْمِلَهُم على القتال،
«فبدأ الفرنج بالحملة على مِئْمَنَةِ المسلمين»، فانهزم المسلمون
فيها، فكانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دَبْرُوه على
حسب عادة الشرقيين التي تَكُونُ مُجْدِيَّةً في الغالب، ويُوضِحُ المؤرِّخُ
الأمرَ بقوله: «وهو أن يَتَّبِعَهُم فرسانُ الفرنج فَيَبْعُدُوا عن راجلهم،
فَيَمِيلُ عليهم من بَقِيَّ من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم لم

الشام: الأمير أسامة، مذكراته، أبوالفداء، حولياته، سيرته

نَجِدُ في دَوْر الحروب الصليبية كاتباً فاتناً جداً، ولم يَكُنْ هذا الكاتبُ مؤرخاً تماماً، بل صاحبُ حَقِّ في أن يُلْحَقَ بالمؤرخين، وهذا هو الأميرُ أسامةُ المؤلِّفُ لمذَكِّراتِ، وهذا النوعُ المستطابُ كثيراً عندنا كان قليلَ الحُظوة لدى العرب، ولم يكن لدينا من العرب في هذا النوع غيرُ سِيرِ قصيرةٍ عن العلماء مكتوبةٍ بأيديهم كالتي انتهت إلينا عن ابن سينا والبيهقي، وغيرُ حكاياتِ شخصيةٍ أُدرِجت من قِبَلِ المؤرخين في آثارهم، وغيرُ عددٍ قليلٍ من حكاياتِ الرُّحلات، وتُعَدُّ كلُّ سيرةٍ طويلةٍ كالتي كتبها أسامةٌ عن نفسه مثلاً يكاد يَكُونُ فريداً في هذه الآداب^(١)، وَيَطْبَعُ مسيو هـ. درنبرغ هذا المَتْنِ الثمين، وَيَسْتَخْرِجُ منه «حياةُ أسامة» مع شرحٍ علمي^(٥).

(١) انظر في هذا المجلد إلى المقالات عن أبي الفداء والنسوي.
(٥) أسامة بن منقذ (أمير سوري) ظهر في القرن الأول من الحروب الصليبية، درنبرغ، القسم الأول، حياة أسامة، كراستان، نشر مدرسة اللغات الشرقية الحية، باريس ١٨٨٩ - ١٨٩٣، قد يكون من الأفضل وجود ترجمة بسيطة لها مع مقدمة وبعض التعليقات.

وُلِدَ أُسَامَةُ سَنَةَ ١٠٩٥ م فِي شَيْزَرَ الْوَاقِعَةَ عَلَى نَهْرِ الْعَاصِي وَالَّتِي هِيَ مِنْ قَصَبَاتِ الشَّامِ، وَهُوَ يَنْتَسِبُ إِلَى آلِ مُنْقَذِ الَّذِينَ كَانُوا أُسْرَةً إِقْطَاعِيَّةً مَالِكَةً لِقَصْبَةِ شَيْزَرَ مَعَ بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الْمَجَاوِرَةِ لَهَا، وَكَانَ أَسَدًا لِلْأَمْرَاءِ أَنَا سَاءً أَتَقِيَاءَ نَجْبَاءَ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ رَفَضَ الْإِمَارَةَ تَارِكًا إِيَّاهَا لِأَحَدِ إِخْوَتِهِ كَيْمَا يَنْقَطِعَ لِلدَّرْسِ وَالْفَنِّ وَالتَّامُّلِ، وَكَانَ هَذَا الْأَبُ نَابِغَةً فِي حُسْنِ الْخَطِّ فَيَقْضِي قِسْمًا مِنْ وَقْتِهِ فِي اسْتِنْسَاخِ الْقُرْآنِ، فَيُرَوَّى أَنَّهُ نَقَلَ مِنْهُ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ نَسْخَةً يُعَدُّ كَثِيرًا مِنْهَا آيَةٌ فِي الْجَمَالِ.

وَلِذَا فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّابُّ أُسَامَةُ الْآدَابَ بَاكِرًا، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ أُمُورَ الْحَرْبِ مِنْ فَوْرِهِ تَقْرِيْبًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الزَّمَانَ وَالْبِلَادَ كَانَا مَضْطَرِبَيْنِ جِدًّا، فَالْفَرَنْجُ وَالتَّرْكُ وَالسَّلَاجِقَةُ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ كَانُوا يَمْرُونَ بِالقُرْبِ مِنْ شَيْزَرَ وَيَتَقَاتِلُونَ، وَكَانَ الْفَرَنْجُ قَدْ اسْتَوْلُوا عَلَى أَنْطَاكِيَّةٍ حِينَمَا وُلِدَ أُسَامَةُ، وَقَدْ اسْتَوْلُوا عَلَى الْقُدْسِ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ (١٠٩٩)، وَلَمْ تَكُنْ إِمَارَةُ شَيْزَرَ فِي مَأْمَنِ مِنْ غَارَاتِهِمْ، فَفِي سَنَةِ ١١٠٨ ظَهَرَ تَنْكْرِيدُ بِنَفْسِهِ تَحْتَ أَسْوَارِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَنَالَ مَغَانِمَ مِنْ ضَاحِيَّتِهَا وَانصَرَفَ، وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ هُمُ الَّذِينَ كَادُوا، فِي مَرَّةٍ أُخْرَى، أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى الْقَصْبَةِ، وَقَدْ كَانَتْ تَشْتَمِلُ عَلَى بَعْضِ أَنْصَارِهِمْ، فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ الْأَمِيرُ مِنَ الْفُضُولِ بِحَيْثُ ذَهَبَ لِحَضُورِ عِيدِ الْفِصْحِ فِي دَيْرِ نَصْرَانِي قَائِمًا فِي الْجُورِ، وَقَدْ أَتَى بِضَبَّاطِهِ مَعَهُ، وَيَسْتَفِيدُ نَحْوَ مِئَةِ بَاطِنِيٍّ مِنْ غِيَابِهِمْ، وَيَفَاجِئُونَ الْقَلْعَةَ، وَيَسْتَقْرُونَ بِهَا، وَلَكِنْ هُوَ لَا يَفَاجِئُونَ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ بِفَضْلِ ثَبَاتِ جَنَانِ النِّسَاءِ وَبِسَالْتِنَهُنَّ، بِفَضْلِ هُوَ لَا النِّسَاءِ اللَّائِي اسْتَدْعَيْنَ أَزْوَاجَهُنَّ سِرًّا وَأَدْخَلْنَهُنَّ مِنَ النِّوَافِذِ بِالْحَبَالِ، وَفِي سَنَةِ ١١١٠ عَقِدَ

الأميرُ معاهدةً مع الفرنجِ مشتملةً على ضمانِ تَنكِريدٍ لسلامةِ إمارتهِ
مُؤدياً إتاوةً ٤،٠٠٠ دينار سنوياً في مقابل ذلك.

وتَمضي بضعُ سنينَ فنرى أسامةً يقاتلُ الفرنجَ بنفسه مُبدياً
شجاعةً فائقةً، ويشارك في المعركة التي قهرَ فيها رُوجرُ الأنطاكيُّ
وقُتِلَ، فاسمَع وصفه لارتساماته:

« فضجوا [أي الفرنجة] ضجة عظيمة. فهان علي الموت لهلاك
ذلك العالم معي. فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه
وتخفف بجوزنا من بين أيدينا. فطعنته في صدره فطار عن سرجه
ميتاً. ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما
حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم، وتحتي فرس مثل الطير، ألحق أعقابهم
لأطعن فيهم، ثم أجتن عنهم.

« وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة
الحرب أنا خائف منه لا يكون جاذباً لي يعود علي، حتى رأيتَه
ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه. فعلمت أنه قد أعيا. فحملت
عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحو من ذراع. وخرجت من
السرج لحفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ثم تراجعت
وجذبت رمحي وأنا أظن أني قتلتَه. فجمعت أصحابي وهم
سالمون. »

وفي سنة ١١٢٧ يَدْخُل أسامةُ في خدمة أتابك المَوْصِلِ،
زَنْكِي، الذي الف جيشاً قوياً ووجّه هَمَّهُ لقتال الفرنج، وقد ظلَّ
ملازماً له نحوَ عشرِ سنين، ولكنْ كان عليه وقتئذٍ أن يُعنى بالدفاع

عن بلده الخاص ما كانت شيزرُ هدفاً لكتائب حليف الصليبيين:
قيصر الروم، وتعاني هذه المدينة حصار أربع وعشرين يوماً فصله
مؤلفنا تفصيلاً فنياً بديعاً مُمتعاً جداً، قال أسامة:

«ومن عجيب الآجال لما نزل الروم إلى شيزر سنة اثنتين
وثلاثين وخمسة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من
بلادهم ترمي الثقل ويبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة. وترمي
الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا. ولقد رموا مرة دار صاحب
لي يقال له يوسف بن أبي الغريب رحمه الله بقلب قوف (كذا)
فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد. وكان على برج في دار الأمير
قنطارية فيها راية منصوبة وطريق الناس في الحصن من تحتها.
فضرب القنطارية حجر المجنيق كسرها من نصفها وانقلب كسرها
الذي فيه السنان تنكسَ ووقع إلى الطريق ورجل من أصحابنا
عابر، فوقع السنان من ذلك العلو، وفيه نصف القنطارية في
ترقوته خرج إلى الأرض وقتله.

«وحدثني خُطُّخ مملوك لوالدي رحمه الله قال: كنا في حصار
الروم جلوساً في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا
يعدو وقال: «يا مسلمون، الحرم! دخل الروم معنا، فأخذنا
سيوفنا وخرجنا فوجدناهم قد طلَعوا من ثغرة في السور ثغرتها
المجانيق. فقربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم. وخرجنا خلفهم حتى
أوصلناهم إلى أصحابهم، وعدنا فتفرقتنا. وبقيت أنا وذلك الشيخ
الذي استفزعنا. فوقف وأدار وجهه إلى الحائط يرين الماء،
فأعرضت عنه. فسمعت وجبة. فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت

جرح أصابعه: لا انقطع قلبه. فكان أعجب من إقدام ذلك الكلب على الأسد، وكل الحيوان ينفر من الأسد ويتجنبه»

ويتوجّه أسامة إلى مصرَ عند الخليفة الفاطميّ: الحافظ، وهناك يندفع وراء المكاييد التي كانت تَبْلُغُ حَدَّ الإِجْرَامِ، ومع أن قصته صِيغَتْ على شكلٍ يُزِيلُ عنه التهمة فإنه مُذْنِبٌ، على ما يُعْتَقَدُ، بالاشتراك في اغتيالِ خَلْفِ الحافظِ: الخليفة الظافر، ومن المحتمل أن تكون هذه الدسائسُ قد كَرَّهَتْ مِصرَ إليه، فتوجّه إلى الشام، وهاجِمِ الفَرَنْجِ قافلته في الطريق، وَيَخْسِرُ مكتبته الشمينية، ويستقرُّ بدمشقَ ثانيةً، ويشغل فيها بالأدب على الخصوص، وَيُخْبِرُ ذاتَ يوم أن زلزلةً هائلةً هَدَمَتْ ثلاثَ عشرةَ مدينةً مسلمةً وفرنجيةً، وأن شَيَزَرَ منها، وَيَهْلِكُ جميع آل مُنْقَدِ بسببها، خلا واحداً، وَيَكُونُ الفَرَنْجِ أَوْلَ مَنْ يَدْخُلُهَا بعد هذه الكارثة لِمَا كان من شِدَّةِ طمعهم بها، وَيَصِلُ الإسماعيليون بَغْتَةً وَيُخْرِجُونَهُمْ منها، وَيُرْسِلُ نورُ الدين أميراً إليها بدوِّره، ويقيم هذا الأمير بها، ويأتي نورُ الدين بنفسه للإشراف على تجديدِها، ففي هذا الحين يَسْطَعُ نَجْمُ صلاح الدين في سماء الإسلام، فيُدْفِيءُ أُسامَةَ مشيبه بعضَ التدفئةِ بأشعةِ هذا النجم، ويموت سنة ١١٨٨، أي بُعِيدَ مشاهدته هذا السلطانَ الشهيرَ يَسْتَرِدُّ القُدْسَ من الفَرَنْجِ، وَيُدْفَنُ في الناحية الشرقية من جبل قاسيون قريباً من دمشق.

وَكَتَبَ أُسامَةُ مؤلِّفاتٍ أخرى غيرَ سيرته التي صنَّفها بيده (كتاب الاعتبار)، وتلك المؤلِّفاتُ هي: «كتابُ العصا» الذي هو مجموعةٌ حكاياتٍ عن العُصِيِّ المشهورة ضد عصا موسى، ورسالة في

رأسه حجر المنجنيق كسرته وألصقته بالحائط، ومخه قد سال على الحائط. فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه. رحمه الله»

«وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله. فحملوه إلى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن فقالوا: «هاتوا المجر» وكان بشيرز رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير. فحضر وجلس يجبر رجله وهو في ستره خارج باب الحصن. فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته. فدخل المجر إلى الدهليز فقال عمي: «ما أسرع ما جبرته!» قال: يا مولاي جاءته حجر ثانية اغنته عن التجبير.»

وعَقَبَ هذه الحوادث يطوف أسامة في الشام بعضَ الزمن، ويقم بالقدس حيث يرتبط بصلة المودة في الفرسان الهيكليين، ثم يَسْكُن دمشقَ حيث يَقْضِي وقته بالصيد والشعر والموسيقا وبقليل من الدُّبْلِيَّةِ، وقد أَفْرَدَ عِدَّةَ صَفَحَاتٍ للصيد ذاتِ فائدة فنية، وإليك عبارةٌ منها:

«ومن عجيب أمر السباع أن أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر. فخرجنا إليه ومعنا رجال من أهل شيزر فيهم غلام للمُعَبَّد الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد أن يُعْبَد. ومع ذلك الغلام كلب له. فخرج الأسد على الخيل، فجلت قدماه جافلة ودخل في الرجالة. فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه. فوثب الكلب على ظهر الأسد، فنفر عن الرجل وعاد إلى الأجمة. وخرج الرجل إلى بين يدي والدي رحمه الله يضحك وقال: (يا مولاي وحياتك ما جرحني ولا آذاني، وقتلوا الأسد. ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير

الأخلاق السياسية، ورسالة في صناعة الشعر، وكتاب نوادر عن المرأة، ورسالة عن القلاع والحصون؛ فضلاً عن ذلك فإن أسامة كان يُلقب دروساً في الفقه أيام مشيبه.

وقليل من الناس من أعانهم الطالع كما أعان أبا الفداء، فقد كان واسع الذكاء سريع الإدراك عالماً بشتى العلوم، شاعراً مجيداً، شجاعاً في الحرب، فاتناً في صلاته، صاحب كَيْدٍ في اجتذابِ وُلاةِ أمره ونَيْلِ مرضاتهم، وهو الأميرُ البالغُ الغنى، وقد استطاع أن يحفظَ مقامَ آبائه وأن يزيدَه بثرواتٍ جديدةٍ ومراتبَ عتيده في زمنٍ مضطربٍ إلى الغاية حيث كان جميعُ كبارِ الأمراءِ الإقطاعيين يزولون، وحيث كانت الإماراتُ الخاصة تتلاشى أمام قوة السلاطين، ويظهرُ أبو الفداء، الذي حَسَنَ موقعه وأعجبَ به وأحبَّ في أثناء حياته، للأعقاب متوجَّحاً بتاجِ المؤرخ والجغرافي المضاعف، ويُلوحُ اسمه من الأوائل مرتين في حقلِ الآداب العظيم.

ولطويل زمنٍ بقيَ تاريخُ أبي الفداء، الذي نشرَه رِسْكُ سنة ١٧٥٤^(٦)، أهمَّ كتابٍ في تاريخ الإسلام عرَفَه الغرب، وأفيدُ ما في هذا التاريخ، على الخصوص، هو ما قصَّه المؤلِّفُ عن الحوادث التي اتصل بها، ففيه تجدُ حركةَ المُدكِّراتِ وفتونها، ولا نستطيع أن

(٦) كان ج. غانية قد استخرج، منذ سنة ١٧٢٣، سيرة محمد من ذلك التاريخ، ونشرها في أكسفورد مع ترجمة لاتينية لها، وعنوان ترجمة ريسك هو: حوليات أبي الفداء الإسلامية، Abilfedae Amares Moslemici ليبسك، ١٧٥٤، وقد نشر المتن العربي سنة ١٧٨٩.

نَصَنَع، في تقديم فكرة عنه، ما هو خيرٌ من تلخيص سيرة أبي الفداء التي فضّلت من لدُن رينو قَبْلَ زمن^(٧).

كان أبو الفداء ينتسب إلى أسرة أيوبَ التي هي أسرة صلاح الدين الشهير، وكان هذا السلطان قد أقطع ابن أخيه تقي الدين عمر، الذي هو من أجداد مؤلّفنا، مدينة حماة الشامية الواقعة على نهر العاصي وبعض الأماكن المجاورة لها، ونلقَى أنفسنا، إذن، في عين البقعة التي كنا قد عرفنا فيها الأمير أسامة، أي على ذات النهر، وبموقع تاريخي عام لم يتغير تغييراً محسوساً في مئة عام، وبهزُّ الشام قتالاً متصل، ويظهرُ فيه النصارى والتترُ المغول والمماليك، وتكون السلطة المسيطرة سلطة سلطان مصر.

وولد أبو الفداء في زمن طرد أبوه فيه من الإمارة نتيجة لغارة شنّها التتر، فلجأ إلى دمشق، وفي دمشق وُلد المؤرّخ سنة ٦٧٢، وقد تلقى تربيةً كاملةً جداً، وإن كان من الصعب أن نتصور كيف استطاع أن يجد من الوقت ما يتعلم فيه، وذلك أنه لم يكذَّ يخرج من دور الصبّا حتى رُئي حاملاً سلاحاً، ولما بلغ الثانية عشرة من سنّيه وجد بجانب أبيه عند نزع قلعة المرقب من الفرسان الإسبتاليين، ولما بلغ السادسة عشرة كان مع أبيه وابن عمه، أمير حماة، عند الاستيلاء على طرابلس، وفي سنة ٦٩١ ذهب مع الجيش الإسلامي إلى ضيفاف الفرات وحضّر فتح قلعة الروم المشرفة

(٧) جغرافية أبي الفداء، مقدمة، ص ٢ - ٣٨.

على مجرى هذا النهر، وفي سنة ٦٩٧ اشترك في الحملة التي قادها السلطان لاجين بأرمينية الصغرى.

ويروي أبو الفداء في تاريخه (جزء ٥، ص ١١٤ وما بعدها) قصة هذا السلطان الذي هو من الوجوه الغربية التي يُمكنُ تلك الأزمنة وحدها أن تُزود بها، ويظهرُ أن هذا كان فارساً توتونياً قديماً، وكان وثنيوليفونية أول من حارب مع مُنظّمته، ثم جاء إلى الشام قاصداً محاربة المسلمين، ولكنه هناك، بدلاً من أن يبقى مُخلصاً لإخوانه في السلاح، قلبَ لهم ظهرَ المِجنِّ واعتنق الإسلام، ويُقبلُ في فيلتي سلاطين المماليك، ويرتقي فيه درجةً بعد درجة، وينتهي إلى الحلول محلّ سادته، ومع ذلك فإن عهده كان قصيراً.

وفي تلك الحملة بأرمينية الصغرى يحضرُ أبو الفداء حصارَ قلعة حموصَ الشاقّ جداً، فيكونُ نصيبه من غنائم الحصار جاريتين نصرانيتين ومملوكاً، ويصابُ ابنُ عمه أميرُ حماة، بمرضٍ في ذلك الحين فيعالجه بما لديه من خبرةٍ طبية، ويشفيه.

ويقتل السلطانُ لاجينُ في العام القادم كما يموت أميرُ حماة في الوقت نفسه تقريباً، وبالعبارة التصويرية يُقصُّ أبو الفداء كيف أن كلفَ هذا الأخير بالصيد أدّى إلى هلاكه، قال أبو الفداء:

« وكان ابنُ عمي غاوباً برمي البندق، واتفقَ له فيه صروعاتٌ حسنة، فأراد أن يرمي النسرَ من طيور الواجب، فقصد جبلَ عراروز، وهو جبلٌ مُطلٌّ على قسطون، وكان ذلك في شدة الحرِّ، وقتلَ حماراً وتركه على موضعٍ بذلك الجبل، وعَمِلَ من أغصان الشجر كوخاً، وكان يجلسُ في الكوخ وأنا معه ومملوكٌ له ومن

يشاهدُه في رَمِي البندق، وكان يَدْخُلُ إلى الكوخ في السَّحَر، وَيَظَلُّ فيه إلى الظُّهْرِ، ولا يتكلم انتظاراً لنزول النَّسْرِ على جيفة الحمار، وكنا نَشْمُ نَتْنَ تلك الجيفة، واتفقَ نزول النَّسْرِ في تلك الحالة، ولم يُقَدَّرْ له رَمِيه، ثم عُدنا إلى حماة، فابتدأ بنا المرض، وبلغتُ الموت، وفي مدة مرضي مَرَضَ الملكُ الْمُظَفَّرَ وعادني وهو قد ابتدأ به المرض، ثم بَعْدَ بضعَ عشرَ يوماً تُوُفِّيَ في التاريخ المذكور وأنا منقطعٌ عنه بسبب مرضي.»

وَيَخْسِرُ آلَ أَبِي الْفِدَاءِ إِمَارَةَ حِمَاةَ نَتِيجَةَ لِهَذَا الْحَادِثِ، وَلَكِنْ مَعَ احْتِفَاطِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيُكْرِمُ السُّلْطَانَ الْجَدِيدُ أَبَا الْفِدَاءِ، وَيُزَادُ مَا خُصَّصَ بِهِ.

وفي سنة ٧٠١ تَوَجَّهَ تَجْرِيدَةً جَدِيدَةً إِلَى بِلَادِ الْأُرْمَنِ، وَيَشْتَرِكُ مَوْلَانَا فِيهَا، وَيُقَاتِلُ التُّرْكَ الْمَغُولَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ، وَيَرُدُّ فِيلِقًا لَهُم بِالْقُرْبِ مِنْ تَدْمُرَ، وَيُوَدِّي فَرِيضَةَ الْحَجِّ إِلَى مَكَّةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، وَيَزُورُ الْقُدْسَ وَضَرْيَحَ إِبْرَاهِيمَ بِالْحَلِيلِ، وَيَذْهَبُ إِلَى الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ٧١٠، فَيُعَيِّنُ نَائِبًا لِلسُّلْطَانَةِ بِاحْتِفَالِ، وَيُقَدِّمُ تَفْصِيلاتِ طَرِيفَةٍ فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، وَيَمُرُّ عَامَانَ، وَيَزُورُ الْقَاهِرَةَ مُجَدِّدًا، وَيُنَالُ لِقَابَ أَمِيرِ حِمَاةِ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ أَجْدَادُهُ، وَيُنزِلُهُ السُّلْطَانُ فِي قَصْرِ الْكَبْشِ، وَيَعُودُ إِلَى حِمَاةَ فِي مَوْكِبٍ كَبِيرٍ، وَيَدْخُلُهَا بِأَبْنَيْهِ، قَالَ أَبُو الْفِدَاءِ:

« وَطَلَعَ جَمِيعُ الْعَسْكَرِ الْحَمَوِيِّ إِلَى لِقَائِي، وَدَخَلْتُ إِلَى حِمَاةَ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ نَهَارِ الْاِثْنَيْنِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادِي الْآخِرَةِ مِنْ سَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِئَةٍ، وَلَمَّا قَارَبْتُ حِمَاةَ أَلْبَسَنِي الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ مَجْلِسَ

التشريفَ السلطانيّ، وهو أطلس أحمر بطراز زركش فوقاني وتحتة
أطلس أصفر وكلوته زوكش وشاش رقم ومنطقة ذهب مصريّ
وسيف محلى بذهب مصري، وأركبني حصاناً برقياً بسرجه
ولجامه ودخلتُ حماةً بذلك، وقُرئَ التقليد الشريف بحضور
الناس».

ويبدو أبو الفداء سخيّاً في هذه المناسبة، فيُعطي الأمير المذكورَ
الحاملَ لأمر التولية أربعين ألفَ درهم ويُوصله بالخلع والخيول.
ويؤدّي فريضة الحجّ للمرة الثانية بأبته بالغية ولا ينفكُ
بجارب، ففي سنة ٧١٥ اشترك في حملة مهمة بأسية الصغرى بقيادة
نائب السلطان بدمشق وعلى حساب السلطان، وقد قال:
«فتوجّهتُ أنا وعسكرُ حماة، ودخلنا إلى حلب... ثم سِرنا من
حلبَ إلى عين تاب، ثم إلى نهر مرزبان، ثم إلى رعبان، ثم إلى النهر
الأزرق، وعبرنا على قنطرةٍ عليه روميةٌ معمولة بالحجر النحيت لم
أشاهدُ مثلها في سعتها، وسِرنا وجعلنا حصنَ منصور يميننا، وصار
منا في جهة الشمال، ووصلنا إلى ذيل الجبل، ونزلنا عند خانٍ هناك
يقال له خان قمر الدين، وعبرنا الدر بند، ويسمى ذلك الدر بندُ
بلغه أهل تلك البلاد بند طجق دراً، وبقي العسكر ينجرّ في
الدر بند يومين وليتين لضيقه وحرّجه ثم سِرنا إلى زبطرة، وهي
مدينةٌ صغيرةٌ خراب...»، ويرى بهذا النوع من يومية السير أن
المؤلف يُقدّم عن كلّ نقطةٍ تفصيلاً جوهرياً بارزاً وإحساساً بالأمر
الذي يُرى.

ففي أثناء جميع هذه الغزوات وجميع هذه الحملات كان أبو

الفداء يؤلف، وإلى هذا الدَّور يُرَدُّ قِسْمٌ تاريخه القديم، ثم يُضَيَّفُ الحوادثَ المعاصرةَ إليه سنةً بعد سنة، وقد كان في السنة (٧١٧) بحماة حيث كان جاداً في كتابه جغرافيته محاطاً بأهل الفضل محادثاً التجارَ قليلَ الالتفاتِ إلى التجارة بنفسه.

ولا رَيْبَ في أنه زار مصرَ بعد ذلك كثيراً توطيداً لمركزه وحِفْظاً لحُظوته لدى السلطان، وكان السلطان يُرْسِلُ إليه في أثناء هذه الرِّحلات، هدايا من ضأنٍ وسكرٍ وشعير تزويداً له ولحاشيته، وما حدث ذات مرة أن تلقى من السلطان شاهيناً معلماً للصيد وعُلبَ حلاوى.

وأظهر في إحدى هذه الرِّحلات رغبته في زيارة الإسكندرية، فجَعَلَ السلطانُ مركبين تحت تصرفه فسارَ والنيلَ والخليجَ الناصريَّ، ويَصِلُ إلى الإسكندرية، ويتناول هديةً مؤلفةً من مئة قطعة نسيجٍ مصنوعةٍ في معامل هذه المدينة، وقد طلب منه السلطان في زيارته التالية أن يرافقه لتأدية فريضة الحجِّ بمكة فنزل عند هذه الرِّغبة، وهو يَقْصُ علينا كيف كان يصطاد بالباز وَيَقْبِضُ على غزلان.

ولمَّا عاد أبو الفداء من هذا الحجِّ غَدًا هدفاً للطفِ يَفُوقُ العادة كانت صفةُ ابن أخي صلاح الدين الأصغر تَجَعُّله ممكناً، وذلك أنه نال حَقَّ حَمَلِ لقب السلطان وأشعيرة السلطنة، وقد أقيمت في هذه المناسبة من الاحتفالات ما هو أسطع، أيضاً، من الذي كان قد أقيم عند رجوع إمارة حماة، وقد حضرَ في زيارته الأخرى لمصرَ استقبالاتٍ للسفراء كاستقبال رسول جيمس الثاني

الأرغوني، واستقبال أحدِ خانات تترِ فارسَ، وقد وَصَفَ هذا الاحتفالَ وصفاً لطيفاً جداً، وكان قد رافق السلطانَ في رحلةٍ بمصرَ العليا حتى دندرة.

وتُوفِّيَ أبو الفداء سنة ٧٣٢ متمتعاً بالمجد وضروب العِزِّ، فدفنَ في الضريح الذي كان قد أوجب إنشاءه لنفسه، وتجدُّ لأبي الفداء، عدا كتابيه المهمين: تاريخه وجغرافيته، كتاباً في الطبِّ مؤلفاً من عدَّة مجلِّدات، واسمُ هذا الكتاب «الكِنَّاش» كما تجدُّ له كتاباً اسمه «الموازن».



مصر : المقريري

وصفه للقاهرة ، تاريخه عن الممالك ،

صفحة عن السلطان بيبرس

ظَهَرَ فِي مِصْرٍ مُؤَرِّخُونَ بَارِعُونَ ، وَالْمُقَرِّبِيُّ هُوَ أَشْهُرُ هَؤُلَاءِ
الْمُؤَرِّخِينَ ، وَوُلِدَ الْمُقَرِّبِيُّ فِي الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ٧٦٦ مِنْ الْهِجْرَةِ (١٣٦٤
م) ، وَنُشِيَءَ مِنْ قَبْلِ جَدِّهِ لِأَمِهِ الَّذِي عَلَّمَهُ الْفِقْهَ الْحَنْفِيَّ ، بَيِّنًا أَنَّهُ
تَحَوَّلَ إِلَى الشَّافِعِيَّةِ بَعْدَ إِتْمَامِ دِرَاسَتِهِ وَصَارَ خَصَمًا شَدِيدًا لِلْفَرِيقِ
الْأَوَّلِ ، وَقَدْ حَجَّ إِلَى مَكَّةَ ، وَلَمَّا عَادَ دَخَلَ فِي الْخِدْمِ مِثْلَ نَائِبِ
قَاضٍ وَمِثْلَ كَاتِبٍ ، وَنَعُدُّ مِنْ الْوِظَائِفِ الَّتِي تَقْلِدُهَا مَنْصِبَ اسْتَاذٍ
لِلْحَدِيثِ فِي الْمُؤَيَّدِيَّةِ ، وَيَنْتَقِلُ فِي سَنَةِ ٨١١ إِلَى دِمَشْقَ حَيْثُ يَصِيرُ
قِيَمَ أَمْوَالِ الْوَقْفِ عَلَى الْقَلَانِسِيَّةِ وَعَلَى الْمَارِسْتَانَ النُّورِيِّ ، وَيَقُومُ
بِالتَّدْرِيسِ فِي دِمَشْقَ أَيْضًا ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِيَعْكِفَ عَلَى أَعْمَالِهِ
الْأَدَبِيَّةِ ، ثُمَّ يُؤَدِّي فَرِيضَةَ الْحَجِّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ مَعَ أُسْرَتِهِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى
الْقَاهِرَةِ ، وَيَتَوَفَّى فِيهَا سَنَةَ ٨٤٥ (١٤٤٢ م) بَعْدَ مَرَضٍ طَوِيلٍ .

وَاسْمَعُ مَا قَالَ عَنْهُ صَدِيقُهُ الْمُؤَرِّخُ أَبُو الْحَاسَنِ : « وَكَانَ الشَّيْخُ
تَقِيَّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَامًا بَارِعًا مَفْنَانًا مَتَقْنًا ضَابِطًا دِينًا خَيْرًا ،
مُحِبًّا لِأَهْلِ السَّنَةِ يَمِيلُ إِلَى الْحَدِيثِ وَالْعَمَلِ بِهِ حَتَّى نَسِبَ إِلَيْهِ مَذْهَبُ
الظَّاهِرِ . وَكَانَ فِيهِ تَعْصِبٌ عَلَى السَّنَةِ الْحَنْفِيَّةِ بِغَيْرِ لِبَاقَةٍ يَعْرِفُ ذَلِكَ
مِنْ مَصْنَفَاتِهِ . »

ولا يُهْمُنَا وَرَعُ الْمُقْرِيزِيِّ وَآرَاؤُهُ الْكَلَامِيَّةُ إِلَّا قَلِيلاً، وَإِنَّمَا الَّذِي يَرُوقْنَا فِيهِ هُوَ فَضُولُهُ الذَّهْنِيُّ، فَفُضُولُهُ هَذَا قَوِيٌّ جِدًّا، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْبَحْثِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ عَنِ أَنْبَاءِ جَاعِلِهَا مَا لَأَلَهُ، وَمَا لَاحَظَ بَعْضُ النُّقَّادِ أَنَّ مَوْلَفَاتِهِ إِذَا مَا حُلَّتْ لَمْ يُرَ فِيهَا غَيْرُ قَلِيلٍ إِبْدَاعٍ، فَهِيَ قَدْ كَوْنَتْ مِنْ قِطْعٍ مُسْتَعَارَةٍ مِنْ مُؤَلِّفِينَ آخَرِينَ وَصِلَ بَعْضُهَا بِجَانِبِ بَعْضٍ كَمَا لَوْ كَانَتْ تَأْلِيفًا مُتَنَوِّعًا الْإِنْشَاءِ وَالْمَوْضُوعِ، وَلَيْسَ أَقْلٌ مِنْ هَذَا صِحَّةً كَوْنُهُ أَحْسَنَ اخْتِيَارًا هَذِهِ الْقِطْعِ فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ وَكَوْنُهَا وَثَائِقٌ ثَمِينَةٌ، فَتُعَدُّ فِي مَجْمُوعِهَا أَثْرًا زَاخِرًا مُنَوِّعًا بَارِعًا تَصْوِيرِيًّا يَفُوقُ، فِي الْإِمْتِنَاعِ وَالنَّفْعِ لَا رَيْبَ، جَمِيعَ مَا سِوَاهُ مِمَّا تَأَلَّفَ مِنْهُ، أَجَلٌ، لَيْسَ الْمُقْرِيزِيُّ غَيْرَ جَامِعٍ عَلَى مَا يَحْتَمَلُ، وَلَكِنَّهُ جَامِعٌ مُوَفَّقٌ ذَكِيٌّ جِدًّا.

وَتَصَانِيفُ الْمُقْرِيزِيِّ كَثِيرَةٌ، وَأَهْمُهَا مَا جَرَتْ الْعَادَةُ عَلَى تَسْمِيَّتِهَا بِاخْتِصَارِ عُنُوفِهَا، وَهِيَ: «الْحِطُّطُ»، أَيِ الْأَحْيَاءِ، أَوْ وَصْفُ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ، وَ«السُّلُوكُ»، أَيِ الطَّرِيقِ، أَوْ تَارِيخُ سُلَاطِينِ مِصْرَ الْمَمَالِكِ، وَقَدْ أَلَّفَ الْمُقْرِيزِيُّ، فَضْلًا عَنْ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ، تَارِيخًا لِلْفَاتِمِيِّينَ. تُوجَدُ نَسْخَةٌ خَطِيئةٌ مِنْهُ فِي غُوطَا، وَمُعْجَمًا ضَخْمًا فِي تَرَاجُمِ أَمْرَاءِ مِصْرَ وَأَعْيَانِهَا، وَقَدْ كَانَ، أَوْ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ، مُؤَلَّفًا مِنْ ثَمَانِينَ مَجْلَدًا، فَلَا يُوجَدُ مِنْهُ غَيْرُ أَرْبَعَةِ مَجْلَدَاتٍ، وَرِسَالَةٌ فِي النُّقُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَرَجَمَهَا سَلْسِيْتَرُ دُو سَاسِي، وَرِسَالَةٌ فِي الْمَكَائِيلِ وَالْمَوَازِينِ كَانَتْ قَدْ طُبِعَتْ فِي الْغَرْبِ مِنْذُ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، وَرِسَالَةٌ فِي الْأَعْرَابِ بِمِصْرَ، نَشَرَهَا وَسْتِنْفَلْدُ، وَرِسَالَةٌ عَمَّنْ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَمْلُوكِ الْإِسْلَامِ، وَرِسَائِلٌ أُخْرَى، وَمِنْ هَذِهِ الْعُنُوفِ وَحَدَّهَا يُرَى أَنَّنَا نَتَنَاوَلُ نَفْسًا تُحِبُّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي هِيَ

على شيءٍ من النُدرة، وتَبْدُو ذاتَ ميولٍ علميةٍ زيادةً على ذلك، كما يشهدُ بذلك ما تَمَّ من مباحث في النقود والموازن، وكتابُ «الخِطَط» الكبير هو، بالحقيقة، مجموعةٌ مما يُمكنُ أن يقال عنه إنه نادرٌ طريفٌ كما يقال عنه إنه علميٌّ، وذلك عن مصرَ ومدنها وأقاليمها.

ويُبيِّن المقرِيزيُّ أنه لم يستطع ترتيبَ هذا الكتاب ترتيباً تاريخياً، وذلك لأن التواريخ فاقدةُ الدقة إلى حدِّ كبير، ولذا فإنه رتبه وَفَقَ الدِّيار أو الأحياء، وكذلك وَفَقَ نظام الموضوعات المنطقيِّ إلى درجةٍ ما، وكان قد سَبَقَ في هذا المضمار من قَبَل كثير من المؤرخين ذَكَرهم بنفسه، ومن هؤلاء أبو عمر الكنديُّ الذي طُبِعَ له حديثاً^(٨) كتاب كبير في حكام مصر وقضاتها، وابنُ سلامة والقضاعيُّ وغيرُهما، ولكن مما لاحظ المقرِيزيُّ كَوْنَ الأماكن التي وصفها هؤلاء المؤلفون قد تَغَيَّرت عِدَّةً مَرَّاتٍ، فَيُوجَدُ من المُدُن ما أَقْفَرَ بسبب المجاعات والأوبئة، ومن ذلك القحطُ الذي أَهْلَكَ عدداً كبيراً من الأهلين في عهد المستنصر بين السنتين: ٤٥٧ - ٤٦٤، فَخَرَّبَ القاهرة^(٩)، وكانت القاهرة كثيرةَ الازدهار في عهد الملك الناصر بن قلاوون، وصار أهلها من الكثرة بحيث غدت غيرَ

(٨) في مجموعة ذكرى جب، «كتاب الولاة وكتاب القضاة»، طبع من قبل روفن

غست، ليدن - لندن، ١٩١٢.

(٩) المقرِيزي، الخِطَط والآثار بمصر، ترجمة بوريان، باريس، ١٨٩٥، القسم الأول، في مجموعة المذكرات التي نشرها أعضاء البعثة الأثرية الفرنسية بمصر، ثم نشر القسم الثاني والتمن في عين المجموعة.

كافية لاستيعابهم، ومع ذلك فقد خربت بالقحط وغيره من الآفات، وكانت جميع هذه التحولات تستلزم عملاً جديداً. ولا نرى وجوبَ الثناء على المقرزي من أجل جميع الأقاوص التي أدرجها في كتابه، وإن كان من المستطاب قراءتها، وكانت ذات نفع في أساطير القوم، وذلك إلى أنها لم تُجمَع إلا بسبيل النوادر، وهي عنوان ما كان يقال، في ذلك الزمن، من حكايات عن مصر الغابرة، وقد أفرَدَ فصلاً طريفاً لخرافة نصرانية عن عيد الشهداء، تكلم عنها بتهمكٍ جدير بمؤلفي إيطالية المُجيدِين في عصر النهضة، ويبدأ الفصلُ بوصفِ فاتن، قال المقرزي:

«ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد. وكان من أنزه فرج مصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط. ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب فلعوب ولا بغي ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر. ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتشور فتن وتقتل أناس ويبيع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً. وباع نصراني في يوم واحد باثني عشر ألف درهم قفة من الخمر.»

وقد أراد الأمير بيبرس^(١٠) الذي كان في ذلك الحين خَوَلِيَّ السلطان الناصر بن قلاوون والناظر عليه ان يمنع هذه الأعياد، فكلمه الأقباطُ في ذلك، بواسطة كاتبٍ له من أبناء جنسهم، ذاكرين له أنه إذا مُنِعَ العيدُ نَقَصَ حاصلُ الجِبَايةِ، وأن معظم ضرائب شَبْرًا لم تُدْفَعْ إِلَّا مِنْهُ، وقد أضافوا إلى هذا قولهم: «متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبداً ويجرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل» بيد أن بيبرسَ سَخِرَ من نُبوءاتهم، وأجابهم بقوله: «إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الاصبع فلا يطلع، وإن كان الله سبحانه هو المتصرف فيه فنكذب النصارى».

ويحظر العيد اذن ويدوم الحَظْرُ حتى سنة ٧٣٨. وَيُعْنَى المقرِيزِيُّ بمسائل الأصل، فَيَمَسُّ المَعْضِلَاتِ الجِئولوجيةَ مَسًّا عَرَضِيًّا في الفصل عن حال مصر الأزمنة الأولى، وهو يرى أن النيلَ كان يَغْمُرُ جميعَ أرضِ مصرَ في البُدْءِةِ وَيَمْتَدُّ فيها كالبحرِ «وقد كانت أرض مصر... يركب أرضها ماء النيل... فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر وسكن الناس بلاد مصر، ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن، والغمائر»^(١١).

وكان المصريون قَبْلَ إقامةِ منفيَسَ يعيشون في المَغَاوِرِ، قال

(١٠) وهذا الأمير مؤرخ، فقد أُلِفَ تاريخاً عامًّا للإسلام في أحد عشر مجلداً، كما أُلِفَ تاريخاً للمماليك، انظر إلى ك. بروكلمن، تاريخ الأدب العربي، ٢، ص ٤٤.

(١١) ينقل المؤلف هنا عن المسعودي. (المترجم).

مؤلفنا: «ويقال إن الناس كانوا قبل سكنى مدينة منفس يسكنون بسفح الجبل المقطم في منازل كثيرة نقروها... ومن صعد من طرا إلى الجبل وسار فيه دخلها. وهي مغائر متسعة، وفيها مغائر تنفذ إلى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة.»

ويُقدّم مؤرخنا معلوماتٍ وافرةً عن إدارة الضرائب وكيفية توزيعها وجبايتها، وهو يَعْرِفُ حال المزارعين ومختلف النُظُم التي مرت على الأرض، وقد قال فيما قال: «واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما معنى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية. وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء وأجناد وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم. لا يعرف هذه الأبدية التي يقال لها اليوم الفلاحة ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية... بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدم وحمل ما عليه لبيت المال.»

وبعد ذلك يَرَسُمُ المقرئ تاريخَ الضرائب بمصر، ويُقدّم قائمة مفصلة عنها مع مَبْلَغِ حاصلِ كلِّ منها حينما تَغَلَّبَ صلاح الدين على هذا القطر.

وما قال المقرئ: «وأما دار الضرب فكان بالقاهرة دار الضرب وبالاسكندرية دار الضرب وبقوص دار الضرب، ولا يتولى عيار الضرب إلا قاضي القضاة أو من يستخلفه. ثم رذلت في زمننا حتى صار يليها مسألة فسفة اليهود المصريين على الفسق مع ادعائهم الاسلام... وأما دار العيار فكانت مكانا محتاط فيه

للرعية وتصلح موازينهم ومكاييلهم به ويحصل منها للسلطان مال. وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة».

وقد عدلت الرسوم على الأسداد، والمكوس أيضاً، فوعد المقريري أن يتكلم عن الرسوم الجديدة في الكتاب الذي يحمل عنوان «أسباب الخراب» الفلسفي جداً.

وقد أبصرنا في المقريري ذلك القاص المستطلع العالم الاقتصادي الأثري، ولتقدم مثلاً على ظهوره مؤرخاً بصريح القول، وإني أتأوله في تاريخ الممالك^(١٢)، فهذه صفحة يئدي المؤلف السلطان بيبرس فيها جداً في فتح الحصون، ولا يمكن إلا أن يُعجب بما يحبو به هذا السلطان من حياة وسجية وأصلية قوية، وفضلاً عن ذلك فإن لجزئيات القطعة ذلك الطابع التصويري الذي يماز به جميع كتب هذا المؤلف المفضل:

توجه السلطان الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ (١٢٦٤) إلى قيسارية على حين غفلة من حاميتها التي لم تكن لتتوقع الهجوم، وأعطى إشارة القتال، «وللوقت ألقى الناس أنفسهم في خندقها، وأخذوا السكك^(١٣) الحديد التي برسم الخيول مع المقاوِد والشبج^(١٤)،

(١٢) تاريخ سلاطين مصر الممالك، ترجمة كاترمير، مجلدان، باريس، ١٨٤٠ - ١٨٤٢.

(١٣) السكك: جمع سكة، وهي الوتد التي يربط به مقود الحصان.

(١٤) الشبج: جمع شبة، وهي السلسلة التي يربط بها قدم الحصان، في أحد طرفيها عروة تزرر في القدم، وفي طرفها الآخر رزة تدق في الأرض.

وتعلّقوا فيها من كلّ جانبٍ حتى صعّدوا، وقد نصّبت المجانيقُ ورُمي بها، فحرّقوا أبوابَ المدينة واقتحموها، ففرَّ أهلها إلى قلعتها... وكان قد حملَ عليها الفرنجُ العمُدَ الصوّانَ، وأتقنوها بتصليب العمُد في بنيانها، حتى لا تعملَ فيها الثقوب ولا تقع إذا علقَت، فاستمر الزحفُ والقتالُ عليها بالمجانيق والوثابات والزخّافات ورُمي النشاب... هذا والسلطانُ مقيمٌ بأعلى كنيسةٍ تجاه القلعة ليمنعَ الفرنجَ من الصعود إلى علوِّ القلعة، وتارةً يركبُ السلطانُ في بعض الدبّابات ذوات العجل التي تجري حتى يصلَ إلى السور ليَرى الثقوب بنفسه، وأخذ السلطانُ بيده يوماً من الأيام تُرساً وقاتل، فلم يَرجع إلاّ وفي تُرسه عدّة سهامٍ.

وبعد قليلٍ بدأ السلطانُ بِحصارِ أرسوف، وحفرَ سربين [من خندق المدينة إلى خندق القلعة] وسقّفها بالأخشاب، ورُدِمَت الأحطابُ في الخندق، فأحرَقها الفرنجُ، فأمر السلطانُ بالحفر من باب السربين إلى البحر، وعملَ سُرُوباً تحت الأرض يَكُون حائط خندق العدو سائراً لها، وأحضَرَ المهندسين حتى تقررَ ذلك، «والسلطانُ بنفسه ملازمٌ للعمل بيده في الحفر وفي جرّ المنجنيقات

ورُمي التراب ونقلَ الأحجار، أسوةً غيره من الناس»، ويكون المُسكِرُ على أحسن حال، قال المقرئُ: «لم يُعهد في هذه الغزاة حَمْرٌ ولا شيءٌ من الفواحش، بل كانت النساءُ الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويعملن في جرّ المجانيق».

ولا نستطيع أن ندرس هنا مؤرخي مصر الآخرين، ولكن من

الصواب ألاّ نختّم هذه المادة من غير أن نذكّر، على الأقلّ، مؤلّف «النجوم»: أبا الحسن^(١٥)، وكثير التآليف مع التنويع: السيوطي^(١٦)



(١٥) أبو الحسن بن تغري بردي، توفي سنة ٨١٥، وقد طبع قسم من كتابه من قبل جنبول وماتس، ليدن، ١٨٥٢، مجلدان.

(١٦) جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١)، فقيه ومحدث ومؤرخ، وتشتمل قائمة مؤلفاته، كما في تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، على ٣١٦ كتاباً.

الأندلس: المقري ،

مختاراته ، قطعة عن أشبيلية ،

قطعة عن حصار غرناطة وتسليمها

المَقْرِيُّ أهُمُّ مُؤرِّخِ عَرَبِيِّ الْأَنْدَلُسِ ، وَاسْمُ كِتَابِهِ الْكَبِيرُ هُوَ « نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ » ، وَكَانَ قَدْ نُشِرَ فِي تَارِيخٍ قَدِيمٍ نَسَبِيًّا ، أَيْ بَيْنَ السَّنَتَيْنِ ١٨٥٥ و ١٨٥٩ ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ الْمُسْتَشْرِقُ الْهَوْلَنْدِيُّ الْكَبِيرُ ، دُوْزِي ، عِلْمَهُ وَنَشَاطَهُ عَلَى تَارِيخِ ذَاكَ الْقَطْرِ ، وَكَانَ دُوْزِي قَدْ نَشَرَ فِي سَنَةِ ١٨٤٧ كِتَابَ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَرَّاكُشِيِّ الَّذِي سَتَكَلَّمَ عَنْهُ بَعْدَ حِينٍ ، كَمَا أَنَّهُ نَشَرَ فِيهَا بَيْنَ السَّنَتَيْنِ ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، تَارِيخَ إِفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ الَّذِي عُنْوَانُهُ « الْبَيَانُ الْمَغْرِبُ » لِابْنِ عَدَارِي ، الْمَرَّاكُشِيِّ أَيْضًا ، مُذَيَّلًا بِقَطْعٍ مِنْ تَارِيخِ عَرِيبِ الْقَرْطُبِيِّ ، وَكَمَا أَنَّهُ بَدَأَ فِي سَنَةِ ١٨٤٩ نَشْرَ « مَبَاحِثِهِ فِي تَارِيخِ إِسْبَانِيَّةِ السِّيَاسِيِّ وَالْأَدْبِيِّ أَيَّامِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى » ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى تَرَى رَايْتَ قَدْ نَشَرَ فِي سَنَةِ ١٨٥٢ ، رِحْلَةَ السَّائِحِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، ابْنِ جُبَيْرِ ، الْمُتَمَتِّعَةِ الَّتِي سَوَّفَ نَتَكَلَّمُ عَنْهَا ، وَكَانَ طَبَعُ كِتَابِ الْمَقْرِيِّ عَمَلًا عَظِيمًا وَقَفَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ عُلَمَاءَ ، وَهُمْ : دُوْزِي وَوَلِيمَ رَايْتَ وَلُودْوِلف كِرِهْلُ وَالْفَرَنْسِيُّ غُوسْتَاْفَ

دوغا^(١٧)، وإلى هذا الأخير يعود شرف كتابة المقدمة، وتشتمل هذه المقدمة على لمحة عن سيرة المقرئ مستنبطة من كُتبه الخاصة ومن مترجم آخر للأحوال تقوم بتلخيصها على عجل.

وُلدَ أحمدُ بنُ محمدِ المقرئِ بتِلِمَسَانَ من أُسْرَةٍ أَصْلُهَا من قَرْيَةٍ مَقَرَّةٍ المجاورة لهذه المدينة، وَقَضَى المقرئُ قسماً من صباه في تَعَلُّمِ القرآن والحديث على عمِّه الشيخ العلامة، وكانت تِلِمَسَانَ في ذلك الحين مدينةً كبيرةً واقعةً تحت السيادة التركية، وتكاد تكون على حدود الدولة المراكشية، وفي ذلك الحين كان مولاي أحمد المنصور خليفةً في مركز المغرب الأدبي والديني وعاصمته: فاس. وقصد المقرئُ فاسَ مرتين، فَتَعَرَّفَ فيها ببعض ذوي الفضل وبكثير من الكتب على الخصوص، ثم زار مَرَّاكُشَ وأنعم النظر في أطلالِ مسجدِ الموحدين وبقايا مبانٍ أخرى (١٦٠١)، وتشتعل فتنةً في دولة مَرَّاكُشَ، ويفادر المقرئُ فاسَ وَيُنَجِرُ (١٦١٧)، وكانت مكةُ أولَ بلدٍ زاره في المشرق، ثم ذهب إلى القاهرة حيث تزوج، وقد زار القدسَ في العام القادم، ثم عاد إلى القاهرة، وقد رجع إلى مكة سنة ١٦٢٧، وبلغ مبلغُ ذهابه إليها خمسَ مرات، وقد درَّسَ التاريخَ والحديثَ في عاصمة الإسلام، وهكذا تَرَجَّحَ بين القاهرة ومكة والمدينة والقدسِ بضعَ سنين، وأخيراً واصلَ السَّيْرَ حتى بلغَ دمشقَ حيث ألقى دروساً لقيتُ نجاحاً عظيماً، وكانت هذه محاضراتٍ في

(١٧) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرئ جزء ١، القسم الأول، طبعة و. رأيت، ١٨٥٥، القسم الثاني، طبعة غ. دوغا، ١٨٥٩، ليدن.

وهذا الأمر، كما يُذكر، هو الذي وُفق للنجاة من ذبح العباسيين
لآله في المشرق فَبَلَغَ الأندلسَ طريداً شاردأ، ففاز فيها بملك، وقد
أُطلق عليه أهل الأندلس لقب «الداخل».

وتلقني علينا جميع هذه التراجم في مجموعها حساً قوياً حول
الحياة الثقافية في الإسلام بالأندلس، وليس الأمر مقصوراً على
كون المركزين الكبيرين المشهورين، أو المراكز الثلاثة الكبيرة
المشهورة، أشبيلية وقرطبة وغرناطة، قد اشتركت فيها، بل كانت
جميع البلاد، حتى جزيرة ميورقة، تشتمل على علماء وأدباء،
وفضلاً عن ذلك فقد كان لهذه الجزيرة مؤرخها، ويعني المقرئ
بالفقهاء كثيراً، ويحسب كتابه مصدراً مهماً في تاريخ الفقه، ويكثر
من العناية بالموسيقين فيتحننا بتفاصيل مؤثرة لطيفة، ويعني
كذلك بالأطباء فيوجه نظره إلى آل زهر المشهورين، ويعني، مع
العطف أيضاً، بنساء عالمات وشاعرات ومعانيات وفقهيات، وتجذ
في ناحية أخرى من كتابه، أي في الباب السابع منه، تراجم وجيزة
عن نحو ثلاثين امرأة أديبة في القرنين: الثاني عشر والثالث عشر،
وهو يذكر في الباب السادس الخاص بالعلماء الغرباء الوافدين على
الأندلس زنجية محدثة فاضلة تلميذة للإمام مالك.

وإذا عدوت هذين البابين اللذين وُضعا على شكل تركيب
ترجمي وجدت الكتاب يشتمل على أبواب أخرى خاصة بالتاريخ
العالم، أو أبواب خاصة بنوع يمكن أن يسمى «التاريخ الوصفي»
كما هو الأخرى أن يقال، وذلك عن البلاد وصفاتها وأهلها ومبانيها
وطبائعها، فيمكننا أن نسأل، عند هذه المناسبة، هل هذا النوع،

الحديث فَسَّرَ فِيهَا كِتَابَ الْبَخَارِيِّ الشَّهِيرَ عَلَى الْخُصُوصِ، وَتَخْتَمُ
الْمَحَاضِرَاتُ بِمُخْطَبَةٍ كُتِبَ لَهَا بِهَا فَوْزٌ حَقِيقِيٌّ، وَيَرْجِعُ الْمَوْرُخُ إِلَى
الْقَاهِرَةِ حَيْثُ يُحَسِّنُ اسْتِقْبَالَهُ، وَيَسْتَعِدُّ لِلْعَوْدِ إِلَى دِمَشْقَ ثَانِيَةً كَمَا
يَسْتَقَرُّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ الْأَجَلَ جَاءَ بَغْتَةً فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ جُمَادِي سَنَةِ
١٠٤١، (١٦٣١ م).

أَجَلَ، تَمَّ ظَهُورُ الْمُقَرِّيِّ فِي تَارِيخٍ مُتَأَخَّرٍ كَمَا يُرَى، وَلَكِنَّهُ
أَصِيلٌ مُوَاصِلٌ لِسَبِيلِ كِبَارِ مُؤَرِّخِي الْعَرَبِ، وَهُوَ كَهَوْلَاءَ جَلِيٌّ
الذَّهْنِ نَادِرُ الذِّكَاةِ ذُو جِدِّ وَصَاحِبِ لَأَسْلُوبٍ دَقِيقٍ، غَنِيٌّ
فِي رَوَايَةِ النُّوَادِرِ مَعَ الْجَزْئِيَّاتِ وَالتَّوَارِيخِ، وَيُنْكَرُ «دَوْغَا» عَلَيْهِ
نَقْصَ التَّرْكِيبِ، فَيُظْهِرُ لِي أَنَّ هَذَا اللَّوْمَ بَعِيدٌ مِنَ الصَّوَابِ، وَمَهْمَا
يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْأَهْمِيَّةِ فِي نَوْعِ الْجَمْعِ الَّذِي اخْتَارَهُ
الْمُؤَلِّفُ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُقَرِّيُّ مُتَرْجِمًا لِلْأَحْوَالِ أَكْثَرَ مِنْهُ مُؤَرِّخًا،
فمَوْضُوعٌ بَاطِنٌ، مِنْ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْوَابِ قَائِمٍ عَلَى عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ
كَانُوا فِي الْمَشْرِقِ (البَابُ الْخَامِسُ)، وَيَتَأَلَّفُ مِنْ هَذَا وَحْدَهُ رُبْعُ
مَجْمُوعِ الْأَثَرِ، وَمَوْضُوعُ الْبَابِ الْآخِرِ قَائِمٌ عَلَى مَنْ جَاءَ الْأَنْدَلُسَ مِنْ
عُلَمَاءِ الْمَشَارِقَةِ وَأَعْيَانِهَا (البَابُ السَّادِسُ)، وَيَبْدَأُ هَذَا الْبَابُ بِتَرَاجِمِ
ذَاتِ نَفْعٍ تَارِيخِيٍّ عَامٍ، أَيِ تَرَاجِمِ فَاتِحِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعَرَبِ، أَيِ
رَفْقَاءِ طَارِقٍ، وَمِنْ هَوْلَاءَ مُغِيثُ الْمَسْمِيُّ «فَاتِحُ قَرْطَبَةَ»، الَّذِي
ذَكَرَ مُؤَرِّخُونَ آخَرُونَ أَنَّهُ كَانَ رُومِيًّا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ كَمَا قَالَ
الْمُقَرِّيُّ بَلْ غَسَّائِيٌّ سُبِيٍّ مِنَ الرُّومِ بِالْمَشْرِقِ وَهُوَ صَغِيرٌ فَأَدَّبَهُ الْخَلِيفَةُ
الْأُمَوِيَّةُ، عَبْدُ الْمَلِكِ، مَعَ وُلْدِهِ الْوَلِيدِ، وَأُنْجِبَ فِي الْوِلَادَةِ وَصَارَ مِنْهُ
بَنُو مُغِيثِ الَّذِينَ نَجَّبُوا فِي قَرْطَبَةَ وَعَظُمَ بَيْتُهُمْ، وَيُعَدُّ مَوْضُوعٌ
مُؤَسَّسِ الْأُمَوِيِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ، مِمْتَعًا عَلَى الْخُصُوصِ،

الذي يُلَوِّحُ لي أنه لا اسم خاص له، غيرُ جدير بأن يُطْلَقَ عليه اسم وهل، عند إطلاق هذا الاسم عليه، يُرَدُّ إلى العرب فَخْرُ اختراعه أو فخر توسيعه على الأقل؟ ان الباب الاول، الذي هو وصفٌ طبيعِيٌّ للأندلس، زاخِرٌ بالأخبار الممتعة عن مُدُن الأندلس وجوِّها ومنتجاتها ومعالمها مع ترصيعِ بالنوادر وقَطْعِ بالأشعار والتراجم، ثم يتكلمُ المَقْرِيُّ عن فَتْحِ العرب للأندلس (الباب الثاني) مقدِّمًا تاريخًا موجزًا عن خلفائها وملوكها (الباب الثالث)، ثم يلتفت التفاتًا خاصًا إلى قرطبة (الباب الرابع)، ويَصِفُ منازلها وقصورها التي عادت لا تَكُونُ غيرَ خرائبَ في ذلك الحين فتُثِيرُ في الذهن ما كان يُقْضَى فيها من حياةٍ زاهرةٍ ناضرة، والبابان الآتيان هما اللذان نتكلم عنهما، ويتناول الباب السابع بالبحث ما اتصف به عربُ الأندلس من صفاتٍ خُلُقِيَّةٍ وذهنية، وأخيرًا يَبْحَثُ الباب الثامن في اقتتال الفَرَنْجِ والمغاربة وطرده العرب من شبه جزيرة الأندلس، وهناك تَجِدُ قولًا حَوْلَ معاهدة تسليم غرناطة التي نذكرها بعد حين مع شروط التسليم، أي قطعةً بالغة الإمتاع.

وأما أن يَسْتَشْهَدَ المؤلِّفُ في هذا الكتاب كثيرًا ويستنسخَ فأمرٌ يَجْرِي من ذاته، فهو، الغالب، يُورِدُ مؤرخين أو مترجمين للأحوال معروفين لدينا كابن خلكان، ومع ذلك فإن من الممكن أن تَكُونُ لنا فائدةٌ من جَمْعِ جميع هذه الوثائق وتكويِّمها، ومما يَتَّفِقُ له أيضًا أن يَحْفَظَ لنا قِطْعًا ثمينةً جدًّا لا نَعْرِفُها بغير ذلك، وهكذا أَدْرَجُ في الباب السابع ثلاثَ رسائلَ طويلةً، إحداها للعالم الأندلسيِّ ابن سعيد، والثانية للوزير العلامَّة ابن حَزْم، والثالثة للشقندي، وهو

أديبٌ أندلسيٌّ يتبادل هو وأديبٌ مراكشيُّ الحِوَارِ حَوْلَ فضائلِ كلِّ من بلديهما، ورسالةُ ابنِ حَزْمٍ رائعةٌ على الخصوص، فإنشاؤها حسنٌ جداً، وهي تُعدُّ أفضلَ مؤلَّفِي عربِ الأندلسِ وأمتعَ مصنَّفَاتِهِم من كلِّ نوعٍ، وهذا هو، كما لاحظ «دوغا»، ضربٌ من القوائم، أي موسوعةٌ حقيقيةٌ في تاريخ تلك الديار الأدبيِّ، وتؤلَّفُ رسالةُ ابنِ سعيدٍ تكملةً لرسالةِ ابنِ حَزْمٍ وصورةٌ أخرى لها، وأنا نقتطف الكلمةَ الجميلةَ الآتيةَ عن أشبيلية من رسالةِ ابنِ الشَّقْنَدِيِّ (١٨)

«وأما أشبيليةٌ فمن محاسنها اعتدالُ الهواءِ وحسنُ المباني وتزيينُ الخارجِ والداخلِ وتمكُّنُ التَّمَصُّرِ، حتى إن العامةَ تقول لو طَلَبَ لبَنُ الطيرِ في أشبيليةٍ وُجِدَ، ونهرُها الأعظمُ الذي يصعدُ المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً، ثم ينحسرُ، وفيه يقول ابن سفر:

شَقَّ النسيمُ عليه جيبَ قميصه
فانساب من شَطِيئِهِ يَطْلُبُ ثارَهُ
فتضاحكت ورقُ الحمامِ بدوَجِها
هزاً فضمَّ من الحياءِ إزارَهُ

وزيادته على الأنهار كَوْنُ ضِفْتَيْهِ مُطَرَّزَةً بالمنازةِ والبساتين والكروم والأنسام، متصلٌ ذلك اتصالاً لا يُوجدُ على غيره... وقد سَعِدَ هذا الوادي بكونه لا يَخْلُو من مَسْرَّةٍ، وأن جميعَ أدوات

الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤدُّ السكرُ إلى شرٍّ وعزْبَدَة، وقد رام من وُلِّيها من الولاة المظْهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته، وأهله أخفُّ النَّاسِ أرواحاً وأطبْعُهُم نوادرَ، وأحْلُهُم لمُزَاحٍ بأقْبِحِ ما تَكُونُ من السَّبِّ، قد مرَّنا على ذلك فصار لهم دَيْدَناً حتى صار عندهم من لا يَبْتَدِلُ فيه ولا يتلَاعن مَمْقوتاً ثَقِيلاً، وقد سمعتُ عن شَرَفِ أَشْبِيلِيَّةِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَحَدُ الْوَشَّاحِينَ فِي مُوشِحَةِ مَدَحِهَا الْمُعْتَصِدِ بْنِ عَبَّادٍ:

أشْبِيلُنَا عروساً وبَعْلُهَا عَبَّادٌ
وتأجُّهُ الشرف ومسلِكُهَا الوادِ.

«أيَّ شرفٍ قد حاز ما شاء من الشرف إذ عمَّ أقطارَ الأرض خَيْرُهُ، وسَفَّرَ ما يُعَصَّرُ من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية، وتزيد قُرَاهُ على غيرها من القرى بانتخاب مبانيتها وتَهَمُّ سكاينها فيها داخلاً وخارجاً، إذ هما من تبيضهم لها نجومٌ في سماء الزيتون.

«وقيلَ لأحدٍ من رأى مصرَ والشامَ أُثِيما رأيتَ أحسنَ: هذان أم أشبيلية؟ فقال بعد تفضيلِ أَشْبِيلِيَّةِ وشرفِها: «غابَةُ بلا أسد، ونهرُها نيلٌ بلا تمساح» وقد سمعتُ عن جبال الرحمة بخارجها وكثرة ما فيها من التين القوطيِّ والشَّعْرِيِّ، وهذان الصنفان أجمع المتجولون في أقطار الأرض أن ليس في أشبيلية مثلُهما، وقد سمعتُ ما في هذا البلد من أصنافِ أدواتِ الطَّرْبِ»، وهنا يُعَدِّدُ

المؤلف اثنتي عشرة آله كالعود والرباب والقانون والبوق، وغير ذلك مما نرى ضرورة القيام بدراسته دراسةً فنيةً خاصةً، فيُضيف إلى ذلك قوله: « وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد، وليس في برّ العُدوة من هذا شيء إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحبهم الدّف... ودبدبة السودان وحمّاق البرابر.

« واما جوارها ومراكبها برّاً وبحراً ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصنافٌ أخذت من التفضيل بأوفر نصيب، وأما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالفارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك.»

ونلوم المقرّي على عيب واحد، وذلك أنه كان يحبُّ الشعر كثيراً، ويظهر أن هذا لم يكن رأيي «دوغاً» الذي يُثني في مقدمته على الشعر العربي الأندلسي بشيءٍ من الحماسة، ومع ذلك فإنه لا يمكن، كما يبدو لي، غيرُ الأسف على أن قطع الشعر الطويلة، البالغة الدقة شكلاً على ما يحتمل، ولكن مع كونها مهمة فارغة من حيث الأساس، تأتي لتقطع بيان وقائع التاريخ الرزين ولتقوم مقامها تقريباً، ويُفردُ المقرّي في بابه الأخير، الذي يعرضُ موضوعه مُتعةً بالغة التأثير والقوة، وهو البابُ الخاصُّ بفتح الفرنج للأندلس عدّة صفحاتٍ لإيراد تراكيبٍ ثرية موزونة كتبها مؤلفُ اسمه لسانُ الدين بن الخطيب، وهذا المؤلفُ، الذي يُعرب عن حبه وشدة تقديره له، والذي ترجم حياته فضلاً عن ذلك، هو من مؤرخي

الأندلس^(١٩)، ووزير بغرناطة، وقد استشهد الغزيري بعدة عبارات من مؤلفاته، ولكن يشوب التكلف أسلوبه غالباً، ونحن نفضل نشر مؤرخي العرب السابقين الصريح البسيط، الذي هو على شيء من الجفوف، على الجهود المتصل الذي بذله هذا الأديب البارع الذي ينشد الوزن والسجع واللفظ النادر، والذي ينتهي إلى نسيان الفكر في ذلك، ولنكن، مع ذلك، شاكرين للمقري ما قدمه إلينا من صفحات رائعة في هذا المقام، ونورد عبارته عن سقوط غرناطة^(٢٠).

وفي ثاني عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانئة خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الأرض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير وأحكم بناءه، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والإقامة، وصار يضيق على غرناطة كل يوم، ودام القتال سبعة اشهر، واشتد الحصار بالمسلمين، غير ان النصارى على بُعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد ونزل الثلج،

(١٩) انظر إلى ك. بروكلمن، تاريخ الأدب العربي، جزء ٢، ٢٦٠، ويشتمل Seirtrage zur geschichte der Westlichem Arber لمرقص جوزيف مولر، ميونيخ، ١٨٦٦ و ١٨٧٨ على قطعتين لابن الخطيب هذا مطابقتين لأحكام السجع، وقد ولد هذا المؤلف سنة ٧١٣ (١٣١٣م) في لوشه (ويرى فستنفلد أنه ولد في غرناطة)، وكانت حياته السياسية مضطربة، فمات في السجن سنة ٧٧٦ (١٣٧٤م).

(٢٠) الجزء الثاني، ص ٨١١ - ٨١٢.

فانسدَّ بابُ المرافق، وانقطع الجالب، وقلَّ الطعام، واشتدَّ الغلاء، وعظُم البلاء، واستولى العدوُّ على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنَعَ المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال، وبان الاختلال، وعظُم الخطب، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانئة.

« وطمع العدوُّ في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب، ففرَّ ناسٌ كثيرون من الجوع إلى البشّرات.

« ثم اشتدَّ الأمرُ في شهر صفر من السنة، وقلَّ الطعام، وتفاقم الخطب، فاجتمع ناسٌ مع من يُشارُ إليه من أهل العلم، وقالوا « انظروا في أنفسكم وتكلّموا مع سلطانكم، فأحضر السلطانُ أهلَ الدولة وأربابَ المشورة، وتكلّموا في هذا المعنى، « وإن العدوُّ يزداد مودّه كلّ يوم، ونحن لا مودَّ لنا، وكان ظنُّنا أنه يُقلعُ عنا في فصل الشتاء، فخاب الظنُّ، وبني وأسسَ وأقام، وقربَ منا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم».

« فاتفق الرأيُ على ارتكاب أخفِّ الضررين، وشاع أن الكلام وقعَ بين النصارى ورؤساءِ الأجناد قبلَ ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس، ثم عدّدوا مطالبَ وشروطاً أرادوها وزادوا أشياءً على ما كان في صلح وادي آش منها أن صاحبَ رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكّنوه من حمراء غرناطة والمعاقلة والحصون، ويخلف على عادة النصارى في اليهود، وتكلّم الناسُ في ذلك، وذكروا أن رؤساءِ أجناد المسلمين لما خرّجوا للكلام في ذلك امتنَّ عليهم النصارى بمالٍ جزيل وذخائر، ثم عُقدتَ بينهم الوثائقُ على شروطٍ قرئت على أهل غرناطة فانقادوا إليها

ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقيلها منهم، ونزل
سلطان غرناطة من الحمراء.

« وفي ثاني ربيع الأول من السنة، أعني سنة سبع وتسعين
وثمانيئة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا
من أهل غرناطة بنحو خمسمئة من الأعيان رهناً خوفاً الغدر.

« وكانت الشروطُ سبعةً وستين، منها تأمينُ الصغير والكبير في
النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم
وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يُحكم على أحدٍ
منهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقافُ
كذلك، وأن لا يدخل النصارى دارَ مسلمٍ ولا يفضبوا أحداً، وأن
لا يؤلّى على المسلمين نصرانيٌّ أو يهوديٌّ من يتولّى عليهم من قبل
سلطانهم قبلُ، وأن يُفتكَّ جميعُ من أُسِرَ في غرناطة من حيث كانوا
وخصوصاً أعياناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين
ودخل غرناطة لا سبيلَ عليه للملكه ولا سواه، والسلطانُ يدفعُ ثمنه
للملكه، ومن أراد الجوازَ للعدوة لا يُمنع، ويجوزون في مدةٍ عُيِّنَتْ
في مراكبِ السلطان لا يلزمهم إلا الكراءُ، ثم بعد تلك المدة يُعطون
عشرَ ما لهم والكراءُ، وأن لا يؤخذَ أحدٌ بذنبٍ غيره، وأن لا يُقهرَ
من أسلمَ على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصَّرَ من المسلمين
يوقفُ أياماً حتى يظهرَ حاله ويحضرَ له حاكمٌ من المسلمين وآخرٌ من
النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تَمَادَى على ما أراد، ولا
يعاتبُ على من قتلَ نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذُ منه ما سلبَ
من النصارى أيام العداوة، ولا يُكَلَّفُ المسلمُ بضيافةِ أجناد

النصارى، ولا يُسَفَّرُ لجهةٍ من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وتُرْفَعُ عنهم جميعُ المظالم والمغارم المُحدَثة، ولا يَطْلَعُ نصرانيٌّ للسور، ولا يَتَطَّلَعُ على دُور المسلمين، ولا يَدْخُلُ مسجداً من مساجدهم، وَيَسِيرُ المُسَلِّمُ في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يَحْمِلُ علامةً كما يَحْمِلُ اليهودُ وأهلُ الدَّجَن، ولا يُنْعَمُ مؤذَّنٌ ولا مُصَلِّ ولا صائِئٌ ولا غيرُه من أمور دينه، ومن ضَحِكَ منهم يعاقب، ويتركُون من المغارم سنين معلومةً.»

ووافق صاحبُ رومة على هذه الشروط ووقَّعها، ودَخَلَ النصارى المدينةَ والحمرَاءَ، وبَنَوْا ما يحتاجون اليه في الحمرَاءَ وحَصَّنُوهَا، وجدَّدُوا بناءَ قصورها وأصلحوا سورَهَا.

وتعدُّ معاهدةُ تسليمِ غرناطة هذه عنوانَ الاعتدالِ والكرَم، ومن أروع وثائق تاريخِ الفُتُوح، وكلُّ يَعْلَمُ أنه عَقَبَ ذلك، بعد أعوامٍ قليلة، مَوْجٌ من التعصب لم يُحْتَرَمَ معه دينُ الإسلام ولا آثاره الثقافية.

مكتبة التراث الإسلامي
www.al-maktabeh.com

الفصل الخامس

مُورِّخُو الْفُرْسِ ومُورِّخُو الْمَغُولِ

- شاعرٌ فارسيٌّ مُورِّخٌ : الفردوسيّ ، الشاهنامه ،
راية كاوه ، موت البطل رستم .
- المستوفي ، ميرخوند ، قطعة
عن موت جنكيزخان ، رشيد الدين .
- شاعر رحالة : ناصر خسرو .
- مؤلف مذكرات بالعربية عن عصر جنكيزخان :
النسوي ، أمير مُورِّخ من آل جنكيزخان :
أبو الغازي .



مكتبة

المفتدين

شاعر فارسي مؤرخ: الفردوسي، الشاهنامه، راية كاوه، موت البطل رستم

من المناسب أن نضع على رأس مؤرخي الفُرس شاعراً، أن نضع شاعراً كبيراً جداً، أن نضع مؤلفَ «كتاب الملوك»^(١) الشهير: الفردوسي، والواقع أن الفردوسي، برسمه تاريخ قدماء الفُرس الأسطوري منذ الأصل حتى الإسلام، لم يأت بشيء جديد، فالحكايات التي تتألف منها منظومته كانت موجودةً مجموعاً قسم منها قبله، وهو لم يصنع غير تزيينها بالصُور والتعبير عنها بكلام رائع، ولذا فهو مأثورٌ بمقدار ما هو شاعرٌ كما هو الواقع، وإليك خلاصةً لتاريخ هذه الأقاويص الحماسية:

كان من عادة ملوك إيران أن يأمرُوا بجمع غابر الأخبار، وكانت الأسرُ الفارسية الشريفة تحافظ، كذلك، على ذكرى الأعمال الجليلة التي اشتهرت بها، ويروى أن أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) هو أول ملكٍ حاول أن يجمع عنعنات فارس التاريخية، وإليه

(١) كتاب الملوك، لأبي القاسم الفردوسي، ترجمة جول مول، سبعة مجلدات، باريس، ١٨٧٦ - ١٨٧٨، مع مقدمة مهمة.

يُعزَى كُلُّ خَيْرِ عَمَلٍ فِي فَارِسَ سَابِقًا، وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُ بِأَنْ يُجْمَعَ فِي
 جَمِيعِ أَقَالِيمِ إِمْبِرَاطُورِيَتِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُلُوكِ مِنْ أَحَادِيثَ شَعْبِيَّةٍ وَأَنْ
 تُودَعَ هَذِهِ الْجَمْعُوعَةُ ضِمْنَ مَكْتَبَتِهِ، وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْجَمْعُوعَةُ
 «خُدَايِ نَامِه»، وَيَسْتَأْنَفُ الْمَلِكُ السَّاسَانِيُّ الْأَخِيرُ، يَزْدَجِرْدُ
 (٦٣٢ - ٦٥١ م) ذَلِكَ، وَيَعْهَدُ إِلَى دِهْقَانِ عَالَمٍ أَوْ شَرِيفٍ كَانَ
 يُعْرَفُ بِاسْمِ دَانِشُورَ «وَتَحْيَى هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِمَعْنَى عَالَمٍ» فِي الْقِيَامِ بِهَذَا
 الْعَمَلِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْثَرِ الْأَعْيَانِ امْتِيَازًا فِي الْبَلَّاطِ مِنْ حَيْثُ
 النَّسَبُ وَالْعِلْمُ، وَكَانَ يُوجَدُ فِي فَارِسَ حِينئِذٍ كَثِيرٌ مِنَ الْمَوَائِدَةِ أَوْ
 الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ بَعْضَ الْقِطْعِ مِنَ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ، وَيَأْتِي
 دَانِشُورَ مِنْ كُلِّ إِقْلِيمٍ بِمَوْبِذٍ مُسَيَّنٍ مَخْتَارٍ مِنْ بَيْنِ مَنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ
 غَيْرِهِمْ اِطْلَاعًا عَلَى الْعَنْعَنَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى رِوَايَةِ مَا كَانُوا
 يَعْلَمُونَ، وَتُقَيَّدُ أَقْوَالُهُمْ، وَيُؤَلَّفُ مِنْهَا كِتَابٌ يُدْعَى «شَاهِنَامِه»، أَوْ
 كِتَابَ الْمُلُوكِ لِدَانِشُورَ، وَقَدْ أَلَّفَ هَذَا الْكِتَابُ بِالْفَهْلَوِيَّةِ، وَاشْتَمَلَ
 عَلَى تَارِيخِ الْمُلُوكِ مِنْذُ زَمَنِ جِيومَرْتِ حَتَّى آخِرِ عَهْدِ خُسْرَوِ پَرُوِيزِ
 (٦٢٨ م)، وَصَلَحَ أَنْ يَكُونَ أَسَاسًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تُرْجَمُ
 أَحَدُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ مِنَ الْفَهْلَوِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَالَّتِي مِنْهَا
 «كِتَابُ الْمُلُوكِ الْقَدِيمِ» لِعَلِيِّ الْبَلْخِيِّ، وَ«كِتَابُ الْمُلُوكِ» لِأَبِي
 مَنْصُورٍ، ثُمَّ كِتَابُ الْفَرْدُوسِيِّ.

وَيُرَوَى أَنَّ مَجْمُوعَةَ دَانِشُورَ وُجِدَتْ فِي خَزَائِنِ يَزْدَجِرْدَ حِينَ
 الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ الْقَائِدَ الْمُسْلِمَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَرْسَلَهَا إِلَى
 الْخَلِيفَةِ عُمَرَ، وَتَتَنَاوَلُ يَدُ الْاِغْتِرَابِ هَذَا الْكِتَابَ بَعْدَئِذٍ فَيُلْقَى فِي
 الْهِنْدِ، وَيُلَوِّحُ أَنَّ كَشْفَ هَذَا الْكِتَابِ فِي الْهِنْدِ مِنْ نَوْعِ الْأَسْطُورَةِ

التي طُبِّقَتْ على قصة «كَلِيلَةَ»، فالحقُّ أن نُسَخاً من الكتاب كانت موجودة بفارس كما يجب أن يقال، فكان ابنُ المُقَفَّع حائزاً لواحدةٍ منها في النصف الأول من القرن الهجري الثاني، وكان هذا المؤلفُ مجوسياً ناقص الإسلام، ولم تنته إلينا ترجمته قطُّ.

وفي العهد الإسلامي وُجِدَ مجوسٌ آخرون أَلْفُوا كُتُباً عن عَنَعَنَاتِ بلدهم، فانتفع الشاعرُ عليٌّ بأثارهم في مؤلِّفه «كتاب الملوك» السابق.

وكان أبو منصور والي طُوسَ أو أخوا لوالي طوسَ، فيما بين سنة ٣٣٤ هـ. وسنة ٣٤٩ هـ.، وكانت دراسة الفارسية الجديدة دارجةً جداً في ذلك الزمن، ويَحْمِلُ هذا السَّرِيُّ على القيام بمقابلة فارسية بين مخطوطات كتاب دَانِشُورَ الذي كان منتشرأ في خراسان والعراق وذكَّره البيرونيُّ.

ويُعْنَى الأُمراءُ السامانيون، الذين تَمَّ لهم السلطان منذ سنة ٢٧٩ هـ.، عنايةً حماسيةً بالعنعنات الفارسية، ويُفَوِّضُ الوزيرُ السامانيُّ، أبو صالح منصور (٣٥٠ - ٣٦٥)، إلى مجوسيِّ اسمه دقيقيُّ تحويلَ كتابِ دَانِشُورَ المذكورِ إلى نظمٍ، ولا يَتَّفِقُ لدقيقيِّ من الوقت ما يَضَعُ فيه ألف بيتٍ أو أَلْفِي بيتٍ، فقد قَتَلَهُ رفيقٌ له بطعنةٍ سكينٍ في أثناء سَفَاهةٍ.

ولَسُرْعَانَ ما حَلَّ الغزنويون محلَّ السامانيين، وكان الأميرُ الثاني من أولئك الآل، محمودُ بنُ سُبُكْتِكِينِ، الذي تكلمنا عنه آنفاً، يَرَعَى الأدبَ الفارسيَّ بجرارة، وكان بَلَاطُهُ مَجْمَعاً أدبياً حقيقياً، وكان يَفْعِدُ في المساء مجالسَ أدبيةٍ يُنْشِدُ الشعراءُ فيها قصائدهم

فَيُقَدَّرُونَ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَبْحَثُ فِي جَمِيعِ دَوْلَتِهِ عَنِ الْكُتُبِ وَالْعَنْعَنَاتِ الشَّفَوِيَّةِ، فَأَتَتْهُ لَهَا بِقِسْمٍ مِنْ كِتَابِ ابْنِ الْمُفْعَعِ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهَا وَاحِدًا مِنْ سَلَالَةِ أَنْوَشِيرْوَانِ جَمِيعِ الْكُتُبِ، وَيَأْتِيهِ بِمُحَايَاتِ ذَرِيَّةِ آخَرُونَ لِقَدَمَاءِ الْمُلُوكِ مُشْكُوكٍ فِي صِحَّةِ نَسَبِهِمْ، (وَحَدِيثُ النِّعْمَةِ مِنَ الْفَرَسِ كَانُوا يَتَمَسَّكُونَ بِالْأَحْسَابِ طَوْعًا)، وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَاغِبًا فِي حِيَازَةِ مَلْحَمَةِ تَارِيخِيَّةٍ كَامِلَةٍ، وَيَضَعُ لِلْمُبَارَاةِ أَقَاصِيصَ شَتَّى بَيْنَ شِعْرَائِهِ، فَهَنَالِكَ يُجَلِّبُ الْفَرْدُوسِيَّ إِلَيْهِ.

وَكَانَ الْفَرْدُوسِيُّ قَدْ وُلِدَ بِشَادَابَ التِّي هِيَ مِنْ قُرَى طُوسَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ٣٢٩ (٩٤٠ م) عَلَى مَا يَظْهَرُ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ طَبَقَةِ الدَّهَاقِيْنَ، أَيِ الْأَشْرَافِ، وَكَانَ مَالِكًا لِإِقْطَاعِيَّةٍ صَغِيرَةٍ وَاقِعَةٍ فِي جَوَارِ طُوسَ، وَكَانَ كَثِيرَ الدَّرْسِ فِي صِبَاهِ، فَيَجْلِسُ عَلَى طَرَفِ الْقَنَاةِ الْمَارَّةِ أَمَامَ بَيْتِ أَبِيهِ، وَيَقْرَأُ هُنَاكَ وَيُفَكِّرُ، وَيُعْنَى بِأَكْرَبِ بَوَاضِعِ الْعَنْعَنَاتِ الْحَمَاسِيَّةِ فِي أَشْعَارِ، فَلَمَّا مَاتَ دَقِيقِي الْمَوْكُولُ إِلَيْهِ وَضَعَ مَلْحَمَةَ فَارْسِيَّةً عَظِيمَةً مُخَلَّفًا الْأَثَرَ الَّذِي لَمْ يَكْذِبْ بَدَأُ فِيهِ وَدَّ الْفَرْدُوسِيُّ مِنْ صَمِيمِ فَوَادِهِ لَوْ يَقُومُ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَيَفُوزُ بِمَجْمُوعَةِ دَانِشُورَ الْفَهْلُويَّةِ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ أُسَاسًا، وَيَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ ابْنًا لِلسَّادَةِ وَالثَّلَاثِينَ، وَأَوَّلُ مَا يَضَعُ نَظْمَهُ قِصَّتَهُ أَرْدِهَاقَ «الضَّحَّاكِ» وَأَمْزِيدُونَ، وَعَلَى مَا كَانَ مِنْ إِحَاطَتِهِ أَثَرَهُ بِالْكَتْمَانِ فَقَدْ أَثَارَ أَثَرُهُ فَضُولَ الْجُمْهُورِ، وَأَرَادَ وَالِي الْإِقْلِيمِ أَنْ يَسْمَعَ قِطْعًا مِنْهُ، وَيُقْتَنَ بِذَلِكَ، وَيَقُومَ بِمُحَاجَاتِ الشَّاعِرِ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ.

ويواصل الفردوسي العمل، ولكن من غير انتظام في سيره،
ويقيم بطوس إلى حين قصده بلاط غزنه الذي دعاه إليه محمود
دعوة غامضة لا ريب، ويجد السلطان محاطاً بندماء وشعراء
وأدباء فيجد عناء في إسماع نفسه، وكان كثير من الشعراء قد
أجابوا ولي الأمر إلى رغبته فوضعوا قطعاً عن سير الملوك السابقين
فشغل إنشادها عدة اجتماعات، وأخيراً قدم صديق للفردوسي
حكاية رستم وأسفنديار إلى محمود، فلما اطلع محمود عليها ناداه،
وسأله عن طوس وعن تاريخ هذه المدينة وأصلها، ويقف نظره ما
أظهر الشاعر في أجوبته من نبوغ وفضل، ويقدمه إلى ندمائه
الآخرين، ويطلب منه بعد قليل أن يضع رباعية تكريماً لخادمه
أياز، ويروى أن الملك بلغ من الرضا ما شكر الشاعر معه قائلاً له:
إنه صير المجلس فردوساً، ومن هنا جاء اسم الفردوسي، ويتحدثه
شعراء البلاط بتقديمهم إليه بدء رباعية كما يتمها فيخرج من الأمر
على أحسن وجه.

وتعظم منزلته لدى محمود، ويستفيد من المواد التي جمعتها هذا
الملك عن تاريخ فارس الغابرة، ويسلمه محمود كتاب «سير
الملوك»، ويأمر بإعداد منزل مجاور للقصر، وكان أحد أبواب هذا
المنزل نافذاً إلى حديقة الملك الخاصة، ويزين هذا المنزل بصور
خيول وفيول وجمال وغور، وبصور أبطال إيران وتوران الذين
تغنى بمآثرهم، ويمنع كل واحد من دخول بابه خلا الخادم أياز،
وكان كلما تقدم في حقل عمله قوبل بكرم، ويروى أنه كان إذا ما
أنشد الملك قطعة منه قرن الإنشاد بالموسيقا والرقص، فكانت
حركات الراقصات تنم على وزن أشعاره.

ولا رَيْبَ في أن الحسدَ وَضَعَ حَدًّا لهذا الوَضْعِ المَبَارِكِ، ومع أنه لا يُعْرَفُ بالضبط ما الذي أَدَّى إلى هذا التحول ولا نَوْعُ الجُورِ الذي كان على الشاعر أن يعانِيَه فإنه يُرَى تَوَجُّعُه بمرارة من إهماله ومن اضطراره إلى الضروريِّ تقريباً، وَيَشْكُرُ لبعض أصدقائه ما صَنَعُوا من أَجْلِه، وبما أن السلطان عاد لا يَصْنَعُ له شيئاً، وصار غيرَ راضٍ بما أُعْطِيَ في آخر عمله فقد غادر البلاطَ، وهو، حينما انصرف، تَرَكَ لأَيَّازَ هَجْوَهَ لمحمود، تَرَكَ لأَيَّازَ ذاك المَهْجُوَ الذي تكلمنا عنه آنفاً فكان هذا الخادمُ من الغفلة بحيث سَلَّمَه إلى مولاه، وَيَغْضَبُ هذا المَوْلَى، وَيُرِيدُ أن يُلقِيَ الفردوسيَّ في السجن، ولكن هذا الشاعر تمكَّن من الفرار، وكان أولُ ما صنع أن لاذ بأَميرِ جُرْجَانَ، قابُوسَ، الذي أحسن قبوله، ثم اضطرَّ إلى صَرْفِه اجتناباً لِعِدَاءِ محمود، فذهب إلى بغداد لاجئاً تقريباً، ونَزَلَ ضيفاً على أحد التجار، وتعرَّفَ إلى الخليفة، وَيَبْدُو الخليفةَ عَطُوفاً، ومع ذلك فإنه، وهو المُسَلِّمُ الصالح، يُوَاخِذُ الشاعر بوقفه حياته ومواهبه على تمجيد عبدة النار، هنالك وَعَدَّ الفردوسيُّ بتأليف منظومة في موضوع إسلاميٍّ، وَوَضَعَ «يوسف وزليخا»، ويواصلُ حياةَ التَّنَقُّلِ، وَيَذْهَبُ إلى الأهواز وقَهْسْتَانَ، وَيَلْقَى هناك والياً يَلُومُه على غَفَلاتِه، وينال له عَفْوَ عاهلِ عَزَنِه، وَيَعُودُ الفردوسيُّ إلى طُوسَ التي هي بلدُه الأصليُّ، وبينما كان سائراً في السُّوقِ سَقَطَ مَغْشِيًّا عليه، وَيُحْمَلُ إلى بيته، وَيَمُوتُ فيه، وكانت وفاته سنة ٤١١ (١٠٢٠ م.) ابناً للثالثة والثمانين من سِنِيَه، وَيُدْفَنُ في بستانه، وَيُرَوَى أن محموداً أرسل إليه، وهو يَلْفِظُ أنفاسَه الأخيرة، مبلِّغاً

كبيراً من المال في مقابل أثره الرائع، فأنفق هذا المال على بناء خانٍ للقوافل.

وفي «كتاب الملوك» تَمَازُ أربعةُ أنماطٍ من الأساطير، وأول ما فيه صفحاتٌ قليلةٌ عن الملوك الأولين الذين عُرضوا مثلَ حكماءٍ وأنبياءٍ ومخترعين للمُهِن والحِرَف، وأمرُ هذه الزمرة نافعٌ في دراسة الأساطير العلمية^(٢)، - ثم يأتي تاريخُ الملوك الكِتائين الذي يَشغَلُ أربعةَ أجزاءٍ من سبعةٍ في ترجمةٍ مُولَ، وهذا هو الدَّورُ الذي يَسُوده وجهُ البَطَلِ القوميِّ رَسَمَ، ومن المِهَمِّ أن يلاحظَ، ولا أدري هل صُنِعَ هذا بما فيه الكفاية، كَوْنُ هذا التاريخُ يطابقُ مطابقتاً تامّةً قسَمَ إيرانَ الشرقيَّ المجاورَ للصينِ والهندِ وبَقَطْرِيانِ وبلدَ كابلِ، وكَوْنُ مركزِه ليس تماماً في غربِ بلادِ فارسَ حيثَ الرِّيِّ والسُّوسُ وما بين النهرينِ، ويَلُوحُ أن كَيْخُسْرَوَ، الذي غابَ في ثُلُوجِ الجبالِ بشرقِ كابلِ، متحدٌ ذاتاً ببعضِ الآلهةِ أو الجِنِّ في نُجُودِ آسيةِ الوسطى، - ثم تأتي اسطورةُ الإسكندرِ في الملحمةِ من غير أن يَكُونُ بينها وبين الأسطورةِ السابقةِ أيةُ رابطةٍ كانت، وأخيراً يأتي تاريخُ الساسانيينِ، ويَكُونُ هذا التاريخُ أسطوريّاً في بدءِ هؤلاء الآلِ، فيصيرُ حقيقياً من عهدِ يَزْدَجَرَدِ الأولِ (٣٩٩ - ٤٢٠ م)، ويُسَبِّهُ مَسِيوُ «نُدِكِه» تأليفَ الفردوسيِّ بتأليفِ مؤرخي العرب الذين كَتَبُوا في هذا الموضوعِ، كالطبريِّ وابنِ حَوَقلِ واليعقوبيِّ^(٣)،

(٢) يوجد في الشاهنامه أساطير أخرى تتعلق بالاختراعات العلمية، وسنورد بعضها في هذا الكتاب عند الكلام عن الشطرنج والآلات المتحركة ودود الحرير.

(٣) نلده، Gesh. d. Persen und Arber zur Zeit der Sasaniden

ليدن، ١٨٧٩، ٥، المقدمة.

وما حَقَّقَ أن الشاعرَ الفارسيَّ وهؤلاء المؤلفين قد اقتبسوا من مصادرٍ مختلفٍ بعضها عن بعض، فضلاً عن ذلك فإن الفردوسيَّ انتفع بمصادرٍ سماعيةٍ، وما يقول أحياناً: «أزوي هذا الأمر عن دَهْقَانٍ معينٍ».

وما يُعجَبُ به في هذا المؤلَّف الكبير اتساعُ القصةِ ونُبُلُ الحماسةِ وقوةُ الإحساسِ، وسُمُو الحكمة مع الفهم في جميع الكتاب، وشاعريةُ الأسلوب بدرجة الكمال، فنُصِّفُ التلون إلى هذا، والواقع أنك تجدُ في الفردوسيِّ كثيراً من هذا التلون الفارسيِّ المنسجم كثيراً واللطيف كثيراً فيقدرُ اليوم كثيراً، فيوحي شعره، في الغالب، بطابع أحسن المرسومات والخزفيات الفارسية، ولا نُوردُ من هذا النوع غيرَ مثالٍ واحدٍ، وهو وصفُ واقيةِ كاوه^(٤) الجلدية وقد ظلت واقيةَ الحدَّادِ الجلديةِ هذه علَّم فارسَ القوميَّ حتى سقوطِ الدولة الساسانية.

جَمَعَ كاوه، حينَ السَّيرِ، جَمْعاً حَوَّله ليشور على طغيان الغول الضحَّاك، «فجاء إلى الدكان وأخذ قطعة جلدٍ يُغَطِّي الحدَّادُ بها قدمه عند تطريق الحديدِ الحماة، ورَفَعه على رأسِ عَصَا شِبهِ العَلَمِ، فاجتمع تحت رايته خلقٌ كثيرٌ، وسَوَّادٌ عظيمٌ، ونادوا بشعار أفريدون... وخرَجَ كاوه بمن معه من المنادين بطاعة أفريدون يطلبون مَقَرَّه ويتبعون أثره، فلما قَرَّبَ من أفريدون في ذلك الجمعِ الغفيرِ والعدَدِ الكبيرِ تَهَلَّلَ وَجْهُه فَرِحاً وبَشَّرته السعادةُ أن تباشيرَ

(٤) ترجمة مول، ٦٥:١.

صُبِحَ دَوْلَتُهُ هَمَّتْ بِالطَّلُوعِ، وَتَيَمَّنَ بِتِلْكَ الرَّايَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَكَانَتْ تَسْمَى دِرْفَشَ كَاوِيَانَ، وَكَانَ مَلُوكُ الْفُرْسِ يَتَوَارَثُونَهَا وَيَتَيَمَّنُونَ بِهَا، وَرَضَعُوا ذَلِكَ الْجِلْدَ بِاللَّيْلِ وَالْيَوَاقِيتِ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهِ عِلَاقَ الدِّيَبَاجِ وَالْحَرِيرِ، وَصَارَتْ تِلْكَ الرَّايَةُ آيَةً بَيْنَ مَلُوكِ الْفُرْسِ، كَأَنَّمَا أَنْزَلَتْ فِي شَأْنِهَا آيَاتُ الظَّفَرِ وَالْفَتْحِ، فَمَا رُفِعَتْ فِي مَعْرَكَةٍ إِلَّا وَالسَّعَادَةُ تَرْفَرُ عَلَيْهَا بِالْأَجْنَحَةِ، وَالْإِقْبَالُ يَضْرِبُ تَحْتَ ظِلِّهَا بِالْجِرَانَ.

وَيُعَدُّ رُسْتَمُ، وَ«الْقَوِيُّ» مَعْنَى هَذَا الْاسْمِ، أَعْظَمَ أَبْطَالِ «الشَاهَنَامَةِ»، وَيُحْسَبُ رِمَازاً إِلَى قِتَالِ إِيرَانَ حِيَالَ تُورَانَ، أَيْ تَجَسَّدُ فِيهِ مَقَاوِمَةُ الْعِرَاقِ الْآرِيِّ لِانْدِفَاعِ عِرَاقِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ الْأُخْرَى وَإِنْ شئتُ فَقُلْ لِلْبِقَاعِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ نَهْرِ جِيحُونَ، وَهِيَ بِلَادُ أَجْدَادِ التُّرْكِ وَالْمَغُولِ.

وَقِصَّةُ هَذَا الْبَطْلِ مُطَوَّلَةٌ فِي الْمَنْظُومَةِ كَثِيراً، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ عِدَّةَ عَهُودٍ، وَتَنْطَوِي عَلَى عِدَّةِ حِكَايَاتٍ يُرَى رِسْتَمُ فِيهَا مُحَارِباً لِمَقْدَارٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَ«الْعَفَارِيَتِ» وَلَتْنِينَ وَلسَاحِرَةَ، وَلرُؤْسَاءَ تُورَانِيِّينَ عَلَى الْخِصُوصِ، وَأَفْرَاسِيَابُ، الَّذِي تَقَمَّصَتِ التُّورَانِيَّةُ فِيهِ، هُوَ خِصْمُ رُسْتَمِ الْأَكْبَرِ، وَيُؤَسِّرُ أَفْرَاسِيَابَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ، وَيُقْتَلُ مِنْ قِبَلِ مَلِكِ إِيرَانَ: كَيْخُسْرُو.

وَلَا يَهْلِكُ رِسْتَمُ نَفْسُهُ إِلَّا بِالْخِيَانَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ كَابُلَ أَوْجَبَ سِقُوطَهُ فِي حَفِيرَةٍ، وَإِلَيْكَ بَعْضَ سَطُورِ هَذَا الْحَادِثِ، وَسَوْفَ تَلَاخِظُ مَقْدَارَ مَا فِي وَصْفِ حَرَكَاتِ الْحِصَانِ مِنْ إِحْكَامٍ وَاهْتِزَازٍ، قَالَ الْفَرْدَوْسِيُّ:

«إن الملك، بعد أن تَقَبَّلَ مَشُورَةَ خَائِنٍ، ذهب إلى مكان الصيد ومعه أْبْرَعُ رجال جيشه في فنِّ صُنْعِ الجَبَابِ^(٥) فَحَفَرُوا منها تحت الطرق في المْتَصِيدِ، مُجَهِّزاً قَعْرَ ذلك بأوتاد ونصال وجراب وسِهَامٍ وسيوف مغروسة في الأرض، وتُجْعَلُ فتحةُ الجَبَابِ خافيةً بأقصى ما يُمكن من المهارة، فلا يستطيع كَشْفُهَا إنسانٌ ولا عَيْنُ حِصَانٍ...»

«والواقعُ أنه كان يُوجَدُ أمامَ مدينةِ كابلَ مكانٌ ذو ماءٍ وخُضْرَةٍ وأرضٍ طيبة، فَيَتَمَتَّعُ فيه بكلِّ ما لَدَّ وطاب...»

«قال الملكُ لرسَمَ: «متى أردت الصيدَ وجدتَ لديَّ مْتَصِيداً مملوءاً يعافير^(٦) وغزلاًناً، سواءً أفي السهل أم في الجبل، والجبلُ زاخرٌ بالكِبَاشِ البرِّيَّةِ، والسهلُ مَكْسُوءٌ بالفِرَاءِ^(٧)، ومن كان عنده حِصَانٌ سريعٌ استطاع أن يصطاد حُمراً وحشيةً ووُعولاً لا رَيْبَ، ولا ينبغي المرورُ من غير زيارة هذا المكان الفاتن.»

ويَدْعُ البطلُ نَفْسَهُ تَغْوَى، وذلك، كما قال الشاعر، «لأن الذي أَعَدَّ لإبلاغ الإنسان أجله يَهْزُ فَوَادَهُ وَيُفْسِدُ حُكْمَهُ، وهذا هو فِعْلُ هذه الدنيا المتقلبة، وهي لا تَكْشِفُ لنا عن سِرِّها، فالوتُ باسطٌ يَدَهُ إلى التمساح في البحر، وإلى الفهد في البادية، وإلى الأسد ذي

(٥) الجباب والأجباب: جمع الجبّة، وهو الحفيرة.

(٦) اليعافير، جمع اليعفور، وهو نوع من الطباء.

(٧) الفراء: جمع الفَرّاء، وهو حمار الوحش.

البرائن الحادّة، وإلى الذّبَاب والنمل، فلا بقاء لأحدٍ في هذا العالم .
« ويأمرستم بإسراج الرّخش (الحِصان)، وسرّ السهل بالبيزان
والشواهين، ويضع قوسه الملكيّة في قرابها»، ويهرع الأبطال إلى
جانبه، ويكون الحائنُ بينهم، « ويتفرّق الموكب في أثناء الصيد،
ويُسرع بعضُ من فيه إلى الأجناب، ويُسرع الآخرون إلى
الأخباب^(٨)... فجعل الرّخشُ يشمُّ الترابَ ويرتاع، وينزوي بعضُه
إلى بعض ويثبُّ، ويبحثُ في الأرض بحوافره، ويقفُ بين جبّين
ويصيرُ رستمُ على دَفْعِهِ إلى التّقدم، ويُعميه القدرُ، ويضجرُ من
الحِصان ويرفعُ سوطه، ويضربه ضرباً خفيفاً، ويعود الحِصانُ
الهلوعُ إلى اندفاعه، وقد كان مُتقبّضاً بين حفيرتين محاولاً الإفلاتَ
من أظفار المصير، ولكنه يقعُ بحافريه على بلاطة إحدى الحفائر
حيث لم تبقَ له أداةٌ يتعلّقُ بها عن السقوط فينجو، وكان قعرُ
الجُبِّ مملوءاً حِرَاباً وسيوفاً باترة، ولا فائدة من الشجاعة هناك،
والفرارُ متعذّرٌ إذ ذاك، ويمرّقُ بطنُ رخشِ الباسلِ وخاصرته،
ويطعنُ البطلُ المغوارُ في صدره وساقيه» .

ويكون رستمُ من القوة بحيث يقتلُ الحائنَ بنشاب، وتفيضُ
روحه بعد قليل، ومن ثمَّ يُرى حِدقُ الشاعر في مزجه بين القصة
الحماسية والتأمّلات الخلقية .

(٨) الأخباب: جمع الخب، وهو المطنن من الأرض .

المستوفي ، ميرخوند قطعة عن موت جنكيز خان رشيد الدين

فارسٌ أقلُّ خِصْباً بالمؤرخين منها بالشعراء، ومن البعيد أن يَكُون للأدب التاريخيُّ باللغة الفارسية ما لمثيله باللغة العربية من الأهمية والغنى والدقة، وهذا فيما يتعلق بتاريخ فارس الخاص على الأقل، وذلك لأنه يُوجدُ للتاريخ الفارسيِّ فرعٌ خاصٌّ بالهند مشتملٌ على كتبٍ ذاتِ قيمةٍ كبيرة، فضلاً عن ذلك فإن هؤلاء المؤرخين من الفُرس ظهروا في وقتٍ متأخر، فدُرسوا من قِبَل علماء الغرب بأقلِّ مما دُرسَ أكابرُ مؤرخي العرب.

ويُعَدُّ المستوفي من أشهرهم، واسمه الاضافي حَمْدُ الله وأصله من قزوين، وقد عُرِفَ هذا المؤلف في أوربة باكرأ، وعُيِّنَ فيها باسم «الجغرافيِّ الفارسيِّ»، وكان كاتباً للسلطان أولجائتو (خدًا بِنْدَه)، وترانا مَدِينين له بتاريخٍ قُدِّرَ في فارس كثيراً ونشره حَوَالَى سنة ١٣٤٠، وبكتابٍ في الفلك اسمه «نزهة القلوب»، وقد لُحِصَ هذا الكتابُ الأخيرُ وزيِدَ ببعض الملاحظات الجديدة من قِبَلِ محمد مجديِّ سنة ١٥٩٣ بعنوان «زينة المجالس».

وَيُحَسَبُ «تَارِيخُ كَزِيدَةَ»، أي «التاريخُ المختار»^(١)، مختصراً
نَشَرَ بَعْضُهُ مَسِيو غَنْتَان، فَيَتَأَلَّفُ مِنْهُ وَحْدَهُ مُجَلِّدٌ ضَخْمٌ، وَتَجِدُ
مَجْمُوعاً فِيهِ تَارِيخُ الدُولِ الْفَارِسِيَّةِ وَالْعَصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّرِكِيَّةِ
وَالْمُغُولِيَّةِ بِفَارِس، وَيُلَخِّصُ الْمُؤَلِّفُ، مَعَ الْوُضُوحِ الْبَالِغِ، هَذَا التَّارِيخَ
الْمُرَكَّبَ الَّذِي يَلْمَعُ فِيهِ نَجْمُ الْأَسْرِ الْمَالِكَةِ، الْمُتَقَاتِلَةَ بِلَا انْقِطَاعٍ،
حِيناً ثُمَّ يَنْطَفِئُ، وَعَلَى هَذَا الدَّوْرُ وَهَذَا الْقَطْرُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ
تَنْطَبِقَ كَلِمَةُ ابْنِ خَلْدُونَ الْقَائِلَةُ إِنْ دَوَامَ الْأَسْرِ الْمَالِكَةِ الْمَعْتَادَ هُوَ
١٢٠ سَنَةً، وَيَزِيدُ الْمُؤَرِّخُ مَزِيَّةً بِبَقَائِهِ جَلِيًّا فِي مَوْضُوعٍ كَثِيرٍ
الْفَمُوضِ، وَبَدَعِهِ غَرَضُ الْقِصَّةِ دَعْمًا مَقْبُولًا عِنْدَمَا يُلُوحُ أَنَّ الْقَدْرَ
يَتَلَهَّى بِمَعَاكِسَتِهِ وَتَشْعِيثِهِ، وَهَيْمِنَ عَلَى كُلِّ دَوْلَةٍ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْ
وَجْهِ الْأُمَرَاءِ الْمَتَازِينِ، وَيَمُرُّ كِبَارُ الْفَاتِحِينَ عَائِقِينَ فَيُرْمَمُونَ
بِالْإِسْطِيسَاةِ وَالْعَنْفِ مَنَاوِبَةً وَحَدَةً لَا تَلَبَّثُ أَنْ تَتَحَطَّمُ.

وَنَقُولُ إِنْ التَّارِيخَ الَّذِي يَشْغَلُ بَالِنَا لَيْسَ سِوَى خِلَاصَةٍ،
وَالْمُؤَلِّفُ نَفْسُهُ يَغْرِضُهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَهَكَذَا فَإِنَّ الْمُؤَلِّفَ يَقُولُ
عِنْدَ كَلَامِهِ عَنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ الَّذِي كَانَ أَمِيرًا كَثِيرَ الْإِعْتِبَارِ فِي
الدَّوْلَةِ الْبُوهِيَّةِ أَوْ الدَّيْلَمِيَّةِ: «لَقَدْ دَامَ عَهْدُهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً،
وَلَا مَثِيلَ لَهُ بَيْنَ مَلُوكِ الدَّيْلَمِ، وَكَانَ خَيْرَ أُمَرَاءِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ وَزُبْدَةَ

(١) تاريخ كزیده، لحمد الله مستوفى القزويني، طبعه وترجمه جول غنتان، مجلد ١، باريس، ١٩٠٣، وقد بقي هذا الكتاب ناقصاً، وقد نشر متن «تاريخ كزیده» طبق الأصل، أي وفق مخطوط قديم، من قبل إدوارد ج. براون، في مجموعة تذكرة جب، جزء ١، ١٩١٠، مجلد ٢، خلاصات من المضامين والفهارس.

هؤلاء الآل، فوضعتُ عدَّةً مُجلِّداتٍ عما بَقِيَ لنا منه، ولا يُمكنُ أن يَسَعَهُ صدرُ هذا الموجزِ».

وكذلك كَتَبَ العبارةَ الآتيةَ، التي تَعُقِبُها فِقرَةٌ قصيرةٌ، عن السلطان السلجوقيَّ ببلاد الروم، قَلِيحُ أرسلان، وهي: «لقد بَقِيَ جالِساً على عَرشِ السلطنة أربعين عاماً، فَنَشَرَ أُلويةَ العدل والإنصاف، وذاع صيتُ مجده في العالمِ».

وأكثرُ إيجازاً من ذلك قَوْلُهُ عن علاء الدين كَيْقَبَاد: «إنه كان أشهرَ ملوكِ هؤلاء الآل، وقد قام بأُمورِ السلطنة قيامَ جَدَارَةٍ»، وَيَعُقِبُ ذلك ذِكْرُ حربين ودوامِ العهدِ ستَّةَ وعشرين عاماً، «وأخيراً يَسْمُهُ ابنُه غياثُ الدين كَيْخُسْرُو سَهْواً وَيَمُوتُ سنةَ ٦٣٦ (١٢٣٨ م)».

ولذا فإن تاريخ المستوفي كثيرُ الجَفَافِ والاقْتِصارِ، مثيرٌ للأسفِ غالباً، ومع ذلك فإن ما قِيلَ من قليلِ أحْسِنَ اختيارُهُ، وهو واضحٌ بارزٌ، ويشتمل الكتابُ على عَدَدٍ مُمتِعٍ من الصَّفَحَاتِ، وليس المؤرخُ خالياً من روحِ النقدِ، وَيُمْكِنُ الحُكْمُ في ذلك بِمَعْرِضِ القِصَّةِ التي يَرُويها عن أصلِ سكانِ لُورِستان، وذلك أن النبيَّ سليمانَ كان قد أرسلَ إلى التركستانِ رسولاً مُفَوَّضاً إليه أن يَأْتِيَهُ ببعضِ الفَتَيَاتِ العَدَارِي الحِسانِ مُعلِّماً إياه وَصِفَةً سحريةً تَحْفَظُهُنَّ من كُلِّ خَطَرٍ، ومن دواعي الأسفِ أن نَسِيَ الرَّجُلُ تلكَ الوصفةَ حين عبوره مَضِيقَ ما بَرُودِ فافتَرَعَ الفَتَيَاتِ عَفْريتٌ متخذاً صورته، فلما أَحَسَّ سليمانُ ذلك سَرَّحَهُنَّ في المكانِ الذي صِرْنَ فيه حَبَالِي، وَغَدَوْنَ أُمَهَاتٍ لِأَهْلِينَ، فقال المستوفي مستنتجاً: «يَظْهَرُ أن هذه

الرواية ضعيفة، وفضلاً عن ذلك فإنه يُخبرُ بِمِثْلِ هذا الأمر عن أصلِ سكانِ جيلانٍ.»

واليك عبارةً ظريفةً عن محمودِ الغزنويِّ يَرى فيها هذا الفاتحُ وهو يقطعُ جواباً رائعاً من فمِ عجوز، وذلك «أن قافلةً تَوَجَّهتْ من العراقِ إلى الهندستان فأغار عليها في البِيداءِ بعضُ قُطَّاعِ الطُّرُق، وقتلوا رجالها، وسلبوا أموالها، ويكُونُ بين قتلى هذا المهجومِ ابنُ لعجوز، وتشتكي إلى السلطان، ويقول لها: «بما أن ذلك الإقليمَ بعيدٌ من العاصمةِ فإنه لا يُمكنُ أن يُرَقَبَ كما يجب»، واسمَعُ جوابَ العجوز: «لا تَسْتَوِلِ على ولاياتٍ أكثرَ مما تستطيعُ أن تَحْرُسَ، فتجيبُ اللهَ يومَ الحسابِ بما يَقَعُ عنده موقعَ الرِّضَا»، ويؤثِّرُ هذا الكلامُ في السلطانِ فيُلزِمُ نفسهَ جهراً بضمانِ حياةٍ من يأتي إلى الهندستان بطريقِ الصحراءِ كما يَضْمَنُ أمواله، ويتذرَّعُ بالحيلِ الحربيةِ ويُطَهِّرُ القَطْرَ من اللصوصِ.

وهكذا يبيِّنُ المستوفي كيف أن جنكيزخان قهرَ شاهَ خوارزمَ، قطبَ الدين محمدًا الثاني، الذي يَقْصُ خبرَ عهدهِ بشيءٍ من الإسهابِ، «ويشعرُ أحدُ رجالاتِ بلاطِ خوارزمِ شاهٍ بعدمِ ثِقَةٍ من هذا السلطانِ، ففرَّ قاصداً مُعسكراً جنكيزخان، وكتبَ رسائلَ مزوَّرةً على لسانِ أمراءِ خوارزمِ شاهٍ إلى جنكيز خان طالبين منه الصُّلحَ والمساعدةَ على خلعِ السلطانِ ويُجيبُ جنكيزخانُ بكلمةٍ على ظَهْرِ كلِّ رسالةٍ مُوكِّداً للأمراءِ صداقتهِ ومعاونتهِ بالرجالِ، ثم أعاد الرسائلَ بواسطةِ جاسوسٍ»، وتَضَبَّطُ الرسائلُ من قِبَلِ رجالِ خوارزمِ شاهٍ، ولا يساورُ هذا الملكَ أدنى شكٍ في تَمَرُّدِ أمرائه،

فَيَنْفِيهِمْ فِي مَخْتَلَفِ مَدُنِهِ، وَلَمَّا جَاءَ الْمُغُولُ، الَّذِينَ كَانَ السُّلْطَانُ قَدْ آذَاهُمْ بِوَقَاةٍ، لَمْ يَجِدُوا عِنَاءً فِي لِقَاءِ جَيْشِ مُجَرِّدٍ مِنْ قَادَتِهِ، «وَيَفِرُّ السُّلْطَانُ أَمَامَ جَيْشِ الْمُغُولِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخُوضَ غَمَارَ مَعْرَكَةٍ لِاجْتِنَاءٍ إِلَى جَزِيرَةِ أَيْسَكُونِ حَيْثُ مَاتَ سَنَةَ ٦١٧، وَيُدْفَنُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِشِبَاهِ التِّي كَانَ يَلْبَسُهَا لِعَدَمِ وَجُودِ كَفَنٍ لَهُ.

وَيُعتَبَرُ المِستوفى أَعزَرَ مَادَّةٍ فِي الجِغرافِيةِ مِنْهُ فِي التَّارِيخِ، وَمَا كَتَبَ مِنْ أَبْوَابٍ عَنِ مَدُنِ فَارِسَ يَشتمَلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الوَقَائِعِ وَمِنِ الأوصافِ المِستحبةِ، وَمِنِ البِيانَاتِ الوافِرةِ عَنِ التِّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَطِبَاعِ السُّكَّانِ، وَعَنِ مَبَانِي المَدُنِ وَعَنِ دَخْلِ الضَّرَائِبِ، وَإِنَّا نوردُ هُنَا بَعْضَ السُّطُورِ مِنَ مَقَالِهِ عَنِ تَبْرِيزٍ: قال المِستوفى:

«إِنَّ امْرَأَةَ الخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ، زُبَيْدَةَ، هِيَ الَّتِي أَنْشَأَتْ قُبَّةَ الإِسْلامِ، تَبْرِيزَ سَنَةَ ١٧٥ مِنْ الهِجْرَةِ، وَبَهَدِمَهَا الزَّلْزَالُ الَّذِي حَدَثَ فِي عَهْدِ المِتوَكَلِّ سَنَةَ ٢٤٤ فِيعِيدُ هَذَا الأَمِيرُ بِنَاءَهَا، وَيَمُرُّ نَحْوَ قَرْنَيْنِ فَيَقَعُ فِي ١٤ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ ٤٣٤ زَلْزَالٌ جَدِيدٌ أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ فَيَدْكُهَا كَلِّهَا، وَيَرَوِي القَاضِي رِكنُ الدِّينِ القَهْوِيُّ فِي كِتَابِهِ «أَصْحَابُ الأَقَالِمِ» أَنَّ الفَلَكِيَّ أبا طَاهِرِ الشِّيرَازِيِّ كَانَ قَدْ أَخْبَرَ بِهَذِهِ النِّكْبَةِ قَبْلَ وَقوعِهَا، وَيَقْنَعُ فَرِيقٌ مِنَ الأَهْلِ بِصِحَّةِ هَذِهِ النُّبوءَةِ فَيَلُودُ بِالْفِرَارِ، بَيِّنٌ أَنَّ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنَ السُّكَّانِ أَصْرُوا عَلَى

(١٠) بَرِبِيه دُو مِينار، مَعجَم فَارِس، مِستَخْلَصٌ مِنَ مَعجَمِ البِلْدانِ لِياقوت، بَارِيس ١٨٦١، ص ١٣٢. - تَجَدُّ لِبَارِبِيه دُو مِينار مَقالَةٌ عَنِ حَيَاةِ المِستوفى فِي المِجْلَةِ الأَسْويَةِ، ١٨٥٧.

البقاء في منازلهم فهلكوا تحت أنقاض المدينة... ويبلغ محيط
السور القائم حول تبريز ستة آلاف خطوة، ويشتمل على عشرة
أبواب، وتُصيح هذه المدينة عاصمة المغول فتزدهر بما لا عهد لها
به، ويزيد عدد سكانها بسرعة فائقة فيؤدي هذا إلى قيام أرباض
عند الأبواب العشرة الخارجية، ويحيط جنكيزخان هذه الأرباض
بسورٍ آخر، فيقع جبلا وليان وسنجان ضمن هذا السور الجديد
الذي كانت له ستة أبواب ودائرة خمسة آلاف خطوة، ويقطع موت
غازان هذه الأشغال، وقد أنشأ غازان عند أسفل هذه السور، وفي
المكان المسمى شام، وفي سبيل ضريحه، ضاحية واسعة زينها بمبانٍ
عالية ذات جمالٍ منقطع النظير... وتكتنف هذه المدينة بساتين،
وتروى بنهر مهران رُود الذي يخرج من جبل سهند، وفضلاً عن
ذلك فإنه يُخصى هناك ما يزيد على تسعمئة قناة تم إنشاؤها بمجودٍ
بعض الناس فلا تكاد تكفي لسقي تلك الحدائق، وإذا عدت
اثنتين أو ثلاثاً منها وجدتها كلها مُلكاً محفوظاً، والجو باردٌ، والماء
عذبٌ طيبٌ... ويكون ماء الآبار في المدينة على عمق ثلاثين
ذراعاً، ويكون على عمق عشر أذرعٍ في حيّ شام، ويكون سبع
عشرة ذراعاً في ضاحية الرشيد.»

وما تقدّم يكفي لإثباتنا أن مطالعة كتب المستوفي لا تخلو من
فائدة، وأن هذا المؤلف الجليل جديرٌ بدراساتٍ جديدة.

ولفارس مؤلفٌ شعبيٌّ يُذكر كثيراً، وهذا المؤلف هو ميرخوند
الذي يُحسبُ أثره مهماً لا ريب، ولكن مع عدم إمكاننا عدّه
مؤرخاً كبيراً، وهو قصيرُ الباع في النقد نفيسُ الأسلوب في الغالب،

وما يسوق من حكاية ليس واضحاً دائماً، وما يفصل من وقائع ليس منتظماً، أي إنك تلقى ثغرات كبيرة بجانب فقرات مبحوث فيها كثيراً، ومع ذلك فإن هذا مؤلف تمت عدة دراسات عنه فعدت كتبه كلاسية في الشرق كما عدت بيننا.

ولا نعرف غير قليل عن حياة ميرخوند، وهو محمد بن خاوند شاه بن محمود كما يدعى، وقد ألف أثره لأمير هراة: علي شير، وتوفي سنة ٩٠٣ (١٤٩٨ م)، ومؤلف «حبيب السير»، خوند مير حفيد له، أو ابن لابن أخ له، وهذا المؤلف مهم أيضاً، ولكنه لم يُدرَس إلا قليلاً، وهو غير سهل المدخل إلا قليلاً^(١١).

وعنوان أثر ميرخوند هو «روضة الصفا»، وهو تاريخ عام يُقسم إلى عشرة أجزاء^(١٢).

وقال المؤلف في مقدمته إن أمير هراة وافقه على مقاصده فأمر بأن يؤلف تاريخاً خالياً من المجازات المجاوزة للحد، ومن انتحال أقوال الغير، ومن الإسهاب والإلهام، مقسوماً إلى سبعة أقسام يُمكن قراءة كل واحد منها على حدة، ويزوده الأمير بالكتب، ويسكنه

(١١) خوند مير، حبيب السير، تاريخ عام للعالم منذ الأزمنة الأولى حتى سنة ٩٣٠ من الهجرة (١٥٢٣ م). وقد نُشر تحت إشراف اللورد ج. إلفستون، وذلك من قبل أمّا محمد حين القاشاني. مجلدان، بمبي، ١٨٤٧. والكتاب كبير القيمة، وقد نشرت سيرة تيمورلنك على حدة في بمبي سنة ١٨٩١.

(١٢) ميرخوند، روضة الصفا، وهو تاريخ يبدأ من الأزمنة القديمة حتى وفاة السلطان أبي الغازي بهادر. ٩١١. (١٥٠٥ م). وقد طبع مرات كثيرة.

منزل نَجِيٍّ له قائمٌ على ضِفافِ نهرِ جَبَلِ قَرِيبٍ من مَدْرَسَةٍ كانَ هذا
الوَجِيهَ قد أَقامها، وَيُعْرَبُ مِيرْخُونَدُ عَن شُكْرِهِ لِحَمَاتِهِ فَيُورِدُ الشَّعْرَ
الآتِيَّ الجَمِيلَ عَن التَّارِيخِ، وَهُوَ: «تُرَى مَبَانِ اندَثرتْ بِالشَّمْسِ
والمَطَرِ، فَأَقَمَ التَّارِيخَ عَلى أُسُسٍ قَوِيَّةٍ كَمَا تُقَاوِمُ الرِّيحَ والعَوَاصِفَ
وعَوَامِلَ الخَرَابِ».

وإِليكِ ما أَفَرَدتْ لَه أَقْسَامُ الأَثَرِ الحَمِصَةِ، فَالقِسْمُ الأَوَّلُ خاصٌّ
بِالمَخْلُوقَاتِ الأَوَّلَى، وَمِنها المَلائِكَةُ وَالجِنُّ، وَبِالأَنْبِيَاءِ وَمَلُوكِ فَارِسَ
السَّابِقِينَ وَفِلاسِفَةِ القُرُونِ القَدِيمَةِ، وَالقِسْمُ الثَّانِي خاصٌّ بِمُحَمَّدٍ
وَخَلْفائِهِ الأَرْبَعَةَ الأَوَّلِينَ، وَالقِسْمُ الثَّالِثُ خاصٌّ بِالخُلَفَاءِ الأُمَوِيِّينَ
وَالعَبَّاسِيِّينَ وَالْأُمَّةِ الاثْنَى عَشَرَ مِنْ عِتْرَةِ عَلِيٍّ، وَالقِسْمُ الرَّابِعُ خاصٌّ
بِالمُلُوكِ المَعاصِرِينَ لِلعَبَّاسِيِّينَ، أَيِ الأَسْرِ المَالِكَةِ الأُخْرَى، وَالقِسْمُ
الخَامِسُ خاصٌّ بِجَنْكِيزْخَانَ وَذَرِيَّتِهِ الذِّينَ مَلَكُوا إِيرانَ أَوْ تورانَ،
وَالقِسْمُ السَّادِسُ خاصٌّ بِتيمورلنكٍ وَعَقْبِهِ، وَالقِسْمُ السَّابِعُ خاصٌّ
بِتارِيخِ السُّلْطانِ أَبِي الغَازِي حَسِينِ بَهادرٍ.

وَفِي الغَرْبِ تُرْجِمَتْ، أَوْ طُبِعَتْ، قِطْعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ هَذَا الأَثَرِ
الوَاسِعِ، وَعُنيَ مِيرْخُونَدُ مِنْذُ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، وَاقْتَبَسَ مِنْهُ كَثِيرٌ
فِي كِتابِ «دَوْلِ العالَمِ وإِماراتِهِ» الَّذِي ظَهَرَ بِالفَرَنْسِيَّةِ فِي بَدءِ
الأَمْرِ سَنَةَ ١٦٦٢، ثُمَّ تُرْجِمَ إِلى الإِيطالِيَّةِ، فإِلى الإِنْكِلِيزِيَّةِ سَنَةَ
١٧١٥، وَاسْتُخْرِجَ مِنْ أَثَرِ مِيرْخُونَدِ نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ كِتاباً، فَمِنْ
ذَلِكَ تارِيخُ مَلُوكِ فَارِسَ السَّابِقِينَ الَّذِي نُشِرَ فِي قَينا سَنَةَ ١٧٨٠
وَمَذْكَرَةُ سِلْفِستَرْدو ساسي التي نُشِرَتْ سَنَةَ ١٧٩٣ عَن عَصُورِ فَارِسَ
وَبني ساسانِ القَدِيمَةِ، وَالتَّوارِيخُ الجَزْئِيَّةُ عَن السَّامانِيِّينَ وَطاهريِّينَ

والغوريين والبوهيين والسلجوقيين، وسيرة جنكيزخان، وتاريخ
أتابكية الشام وفارس.

وقد يكون القسم الأول من الأثر أكثر ما فيه شعبية، وقد
تُرجم إلى الإنكليزية من قبل رهاٲسك^(١٣) كما تُرجم القسم الثاني،
بيد أن هذين القسمين زاخران بالأساطير، ويؤلّفان كتابَ تسلية
أكثر من تأليفهما كتاباً تاريخياً حقيقياً، وما أُفرد لفلاسفة اليونان
وعلمائهم من موادّ مثلاً ذو جدّيّة قليلة، وذلك أن ميرخوند يعزّو
إلى كلّ منهم من المُلح ما ليس من مُميّزات فلسفتهم، ومن ذلك أنه
يذكر، في مَعْرِض الكلام عن أفلاطون، كتابَ «تاريخ الحكماء»
الذي هو مجموعة تراجم عربية رائعة أعلى من موادّه الخاصة
بمراحل فيحترز من نقل عناوين مؤلّفات أفلاطون الأدبية الخمسة
والستين التي يقول إنها مذكورة في هذا الكتاب، وهو يُقدّم
صفحتين من الأمثال أو النوادر المَعزّوة إلى الفلاسفة، ويضيف إلى
هذا قوله إن جميع هذه النوادر أُدرج في آخر كتاب «أخلاق
نصيري»، وهو كتاب نصير الدين الطوسي في الأخلاق، ومن جملة
تلك النوادر قولُ أفلاطون على فراش الموت عندما سأله
اصدقاؤه عما أوحى إليه الحياة من انطباع: «لقد دخلت الحياة
كرهاً، وسيرتُ فيها حائرأً، والأُن أخرج منها مُرغماً، وأخصُّ ما
أعريف هو أنني لا أعرف شيئاً».

(١٣) في ذخيرة الترجمة الشرقية، ثلاثة مجلدات، لندن، ١٨٩١ - ٨٠٩.

وَتُرْجِمُ قِسْمُ كِتَابِ مِيرْخُونْدِ الْخَاصُّ بِتَارِيخِ السَّامَانِيِّينَ، إِلَى
الْفَرَنْسِيَّةِ مِنْ قَبْلِ دِفْرِمِرِيِّ^(١٤)، وَفِيهِ تَجِدُ اسْمَ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ
كَانُوا ذَوِي مَزَايَا ثِقَافِيَّةٍ، وَالَّذِينَ نَالُوا حَقًّا فِي شُكْرَانَ الْأَدْبَاءِ مِثْلَ
حَمَاةِ لِلْعُلُومِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ نَذْكُرُ، عَلَى الْخِصُوصِ، نُوحَ بْنَ مَنْصُورِ
الَّذِي كَانَ ابْنُ سَيْنَا وَزِيرًا لَهُ ذَاتَ حِينٍ، كَمَا نَذْكُرُ أَمِيرَ جُرْجَانَ،
قَابُوسَ، الَّذِي جَمَعَ إِلَيْهِ هَذَا الْفِيلَسُوفَ كَمَا جَمَعَ الْفِرْدَوْسِيَّ، وَلَمْ
يَكُنْ لَدَى هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ الثَّانَوِيِّينَ مَا أُعْجِبْنَا بِهِ لَدَى أَكْبَارِ
الْعَاهِلِينَ مِنْ سُمُو طَبَعٍ وَعَبْقَرِيَّةٍ، فَطَابِعَ أَوْلَئِكَ الْخُلُقِيُّ وَطَالَعَهُمْ
دُونَ مَا لِهَؤُلَاءِ، وَمِنْ الصَّوَابِ، مَعَ ذَلِكَ، أَلَّا يُنْسَوُا تَمَامًا.

وَيَقْضِي نُوحٌ عَهْدَهُ فِي الْارْتِحَافِ أَمَامَ بَعْضِ الْأَتْرَاقِ مَعْتَمِدًا
عَلَى عَوْنِ آخَرِينَ مِنْهُمْ، وَيَقَاتِلُ الْأُمَرَاءَ الْمُتَمَرِّدِينَ، وَتَفْصِيلُ هَذِهِ
الْحُرُوبِ مُرَكَّبٌ، وَتَقْتَبِسُ رِوَايَةُ مِيرْخُونْدِ شَيْئًا مِنْ اخْتِلَاطِهَا،
وَيَتَنَزَّلُ صَاحِبُ بَحَارِي وَسَمَرْقَنْدُ، نُوحٌ، الَّذِي أَغَارَ عَلَيْهِ التُّرُكُ
وَخَانَهُ قَائِدُ فَوْضٍ إِلَيْهِ أَمْرَ الدِّفَاعِ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْآخِرَةِ، عَنْ
سُلْطَانِهِ، « وَبِحَتْفِي خَائِفًا يَتَرَقَّبُ »، وَيَسْتَقِرُّ التُّرُكُ فِي مَمْلَكَاتِهِ،
وَلَكِنْ جَوَّ بَحَارِي لَايْلَاقُ زَعِيمَهُمْ فَيَتْرُكُونَهَا، وَيَعُودُ نُوحٌ إِلَيْهَا بَيْنَ
ابْتِهَاجِ الْأَهْلِينَ، ثُمَّ يَطْلُبُ الْمَدَدَ ضِدَّ الْأُمَرَاءِ الْخَائِنِينَ مِنْ صَاحِبِ
غَزْنَةِ التُّرْكِيِّ أَبِي مُحَمَّدِ الْغَزْنَويِّ: سُبُكْتِكِينَ، وَيُرَوَّى تَقَابُلُهُمَا بِشَيْءٍ
مِنْ طَابِعِ مِيرْخُونْدِ:

(١٤) تاريخ السامانيين لميرخوند، طبعة مسيو دفرميري وترجمته، باريس، ١٨٤٥.

« أَمَرَ الْأَمِيرُ سُبُكْتِكِينَ، الْمَمْلُوءُ غَيْرَةً بِسَبَبِ مَا أَصَابَ أَبْنَاءَ
 سَامَانَ مِنْ سُوءِ حَالِ، بَدَقُّ طَبْلِ الرَّحِيلِ حَالاً، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَاحِيَةِ
 بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَيَذْهَبُ الْأَمِيرُ نُوحٌ حَتَّى بَلَدِ « كِشَّ »، وَقَدْ
 طَلَبَ سُبُكْتِكِينَ، قَبْلَ الْمَقَابَلَةِ، أَنْ يُعْفَى مِنَ النُّزُولِ عَنِ الْحِصَانِ
 وَتَقْبِيلِ الْأَرْضِ بِسَبَبِ تَقَدُّمِهِ فِي السَّنِّ، وَيَقْبَلُ نُوحٌ مَعَاذِيرَهُ، بِيَدِ
 أَنْ سُبُكْتِكِينَ، لَمَّا وَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ نُوحٍ، أَخْرَجَ مَا يُوجِي بِهِ الْمَلِكُ
 مِنْ إِحْتِرَامِ زِمَامِ اخْتِيَارِهِ مِنْ يَدِهِ، وَتَرَجَّلَ وَقَبَّلَ رِكَابَ نُوحٍ،
 وَيَضُمُّهُ هَذَا إِلَى صَدْرِهِ مَعَ الْإِجْلَالِ وَالْفَرَحِ الشَّامِلِ، وَتَدْبُّ حَيَاةَ
 جَدِيدَةٍ فِي قُلُوبِ النَّاسِ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ اتِّحَادِ هَذَيْنِ الْأَمِيرَيْنِ
 السَّعِيدَيْنِ، وَيَتَفَتَّحُ وَرْدُ الْفَرَحِ فِي بَسَاتِينِ نَفُوسِ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ ».

وَيَكْسِبُ سُبُكْتِكِينُ مَعْرَكَةً فِي سَبِيلِ نُوحٍ، وَلَكِنْ مَعَ اضْطِرَارِ
 مُحَمَّدٍ إِلَى كَسْبِ مَعْرَكَةٍ أُخْرَى بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ، « وَلَمَّا وَصَلَ مُحَمَّدٌ
 هَجَمَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَبَلَغَ مِنْ إِرْعَادِ فَرِيقٍ كَبِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا حُنِيَ
 مَعَهُ ظَهْرُ الْحَوْتِ (الَّذِي يُنْسِكُ الْأَرْضَ) بِثِقَلِهِمْ وَمَا رُوِيَ الْأَرْضُ
 مَعَهُ بِدِمَائِهِمْ، وَيُسْحَقُ فَرِيقٌ لَا يُحْصَى لَهُ عَدٌّ تَحْتَ قَوَائِمِ الْفِيُولِ »،
 وَلَمْ يَحُلْ هَذَا دُونَ « خُرُوجِ الْأَمْرَاءِ الْعَاصِيْنَ أَصِحَّاءَ سَالِمِينَ مِنْ
 مِيدَانِ الْقِتَالِ الْجَدِيدِ هَذَا »، وَقَدْ تَوَجَّهُوا إِلَى حِصْنِ « يِنَاطِحِ
 السَّمَاءِ بَارْتِفَاعِهِ، وَيُعَدُّ فِي مَأْمَنِ مِنْ حَوَادِثِ الطَّالِعِ »، وَأَخِيرًا بِمَا أَنَّ
 نُوحًا آذَى سُبُكْتِكِينَ بِرَفْضِهِ الْحُضُورَ فِي مِيدَانِ الْحَرْبِ فَقَدْ اضْطُرَّ
 إِلَى عَقْدِ مَعَاهِدَةٍ سَلِّمٍ بَعِيدَةٍ بَعْضَ الْبَعْدِ مِنَ الشَّرْفِ، وَهُوَ قَدْ مَاتَ
 سَنَةَ ٣٨٧ (٩٩٧ م.).

وَيَظْهَرُ قَابُوسٌ أَكْثَرَ مَزِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى
 الْقِسْوَةِ مَا أَدَّى إِلَى بَوَارِهِ، وَقَدْ كَانَ صَاحِبَ جُرْجَانَ وَصَدِيقَ

السامانيين، وكان أمره صعباً في البداية، ثم أسعفه الطالع فاستولى على الديلم، وعلى جميع طبرستان حتى بحر قزوين، وقد أثنى عليه ميرخوند ثناءً كبيراً، فقد قال: « كان شمس المعالي (قابوس) ممتازاً بين الملوك وعظماء العالم بشرف نفسه وصفات جوده وبيعه عقله وكمال فضله وهاء قوته، وهو لا يدع نفسه تنحرف عن طريق الحكمة ولا سبيل الشريعة، وكان مبرءاً من كل منكر وكل لهو محرّم، ثم إنه كان مزيّناً بحليّة العدل والانصاف، عاكفاً على مختلف فروع المعارف، وقد ذاع صيت الرسائل التي وضعها في أنحاء العالم كلها، وليس بمجهول تفوق بلاغته في تنظيم الكلم، وكل حرف ينزل من قلمه على صدر كتاب كالشامة على جبين الفضيلة، وكل لؤلؤة يستخرجها ذو القرنين^(١٥) من ظلام المخبرة كانت جوهرة في قلادة الطالع، وكان الصاحب بن عباد يقول كلما أبصر سطرأ رسمه قابوس: « هذا خط قابوس، أو جناح الطاووس ».

غير أن شدة هذا الأمير نحو أمرائه وجنوده جلب إليه الأحقاد، فاضطّر إلى التنزل عن سلطانه لابنه، وعزم على الذهاب إلى قصر يقضي فيه أعمال العبادة، ومع ذلك فإن الأمراء، بعد زمن قليل، فضلوا « الاستراحة من ناحيته » واجتنب رجوعه إلى انتقاماته فقتلوه، ويذفن عند باب جرجان تحت قبة جميلة تحيل اسمه.

وإلى ذلك نضيف صفحة مستخرجة من فصل خاص بموضوع

(١٥) استمارة مرغوب فيها، وذو القرنين هو الفاتح الاسكندر الأكبر.

كبير، وهذا نَقْصِدُ المقالة التي قَصَّ ميرخوند بها كيفية تولية جنكيزخان لأولاده عندما دَنَا أَجَلَهُ^(١٦)، وهو يَضَعُ خاتمة سيرة هذا الفاتح، ويتطلب نبوغ الكاتب، وَيَدْعُمُهُ جلالُ المنظر الذي عليه أن يَرْسُمَهُ، من غزارة المادة وكرمِ البساطة ما لا يواتيه دائماً.

«بَيْنَا كان جنكيزُ قائماً بفارته على الصين رأى حلماً مُزِعِجاً أَخْبَرَ به دُنُوَّ أَجَلِهِ، وَيَتَطَيَّرُ بهذا الإنذار، فيأمر بإحضار أولاده وَحَفَدَتِهِ، وبما أن جوشي لم يَكُنْ موجوداً فقد مثل بين يديه جفطاي وأقطاي وطلُّو وأولاد جوشي، وقال لهم: «لقد تحول بأسُ حياتي إلى ضعفٍ وعجزٍ مع العُمر، وحلَّ الوهن والهَرَمُ محلَّ استقامة القوام والسَّباب، وأتى وقتُ الارتحال إلى العالم الآخر، ولا رادٌ لذلك، وقد فَتَحْتُ لكم ودَوَّخْتُ، بفضلِ الله وَعَوْنِ السَّماءِ، مملكةً بلغت من الاتساع ما تُعَدُّ المسافةُ من مركزها إلى كلِّ من أطرافها سَيْرَ سنة، والآن أوصيكم بأن تُقْصُوا العداوة من بينكم وتَبْذُرُوا الصداقة فيكم، وألاً تَكُونُوا غيرَ قلبٍ واحدٍ ولسانٍ واحدٍ كما يَحْبُوكُم الطالعُ بإنعامه، وذلك لأن سِرَّ القُوَّةِ في الائتلاف وسِرَّ البلاءِ في الاختلاف، وإني، لكي يَقُومَ بناءُ سلطانكم على الوفاق، أَعْنَى بوضع قانون يبقى سالماً تحت ضمان أمانه بعيداً من عوامل الشقاق والحسد المشؤومة، وإذا ما سلكتم سبيلَ التناقض ذَوَى بستان هؤلاء الآل وذبل برياح الشقاء وعاد لا يَلْتَقَى اخْضِرارَه ولا

(١٦) سيرة جنكيز خان لميرخوند (متن فارس)، وقد طبعت هذه السيرة في المجموعة الشرقية الموضوعة لاستعمال تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية، باريس ١٨٤١، ولنذكر أيضاً كيف نشر تاريخ السلاجقة المهم على انفراد، طبعة ج. أ. فولرز، جيئاً، ١٨٣٨.

يُجِدُّ ازدهاره»، ثم وَضَعَ فِي أُذُنِ أَبْنَائِهِ عَشْرَ نَصَائِحَ غَالِيَةٍ كَالدُّرَرِ
عُرِضَ تَفْصِيلُهَا فِي الْكُتُبِ.

وَسَأَلَ جَنْكِيْزُ بَعْدَ أَنْ خَتَمَ وَصَايَاهُ: «مَنْ مِنْكُمْ يَنْسِبُ وَضَعَهُ
فِي مَكَانِي بَعْدِي؟»، فَرَكَعَ أَبْنَاؤُهُ وَأَجَابُوا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ: «الْأَبُ
هُوَ السَّيِّدُ، وَنَحْنُ عَبِيدُهُ، فَتُنَحِّنِي أَمَامَ حُكْمِهِ»، هُنَالِكَ قَالَ
جَنْكِيْزُ: «أَوْلَى، إِذَنْ، أَقْطَايِ خَانَ، وَأَسَلَّمُ إِلَى يَدَيْ قَدْرَتِهِ زَمَامَ
أُمُورِ الْعَالَمِ، وَأَرَانِي عَظِيمَ الثَّقَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَعْلَمُ قَرَجَارُ نُوَيَانَ
وَبَسَالَتِهِ».

ثُمَّ أَمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُؤْتَى مِنَ الْخِزَانَةِ بِكِتَابِ عَهْدِ الْوَرَاثَةِ لِقَبْلِ
خَانَ وَكُشُولِي بَهَادَرِ الْمَوْسُومِ بِخَاتَمِ طُمْنِيهِ خَانَ الْمَلِكِيِّ، وَالَّذِي كَانَ
أَبَاؤُهُ قَدْ وَقَعُوهُ وَفَقَّ أَمْرِهِمْ، وَذَلِكَ، كَمَا قَالَ لَهُمْ، «لِتَكُنْ ذَاتُ
الْعَادَةِ مُتَّبَعَةً بَيْنَكُمْ كَمَا سَلَكْتُ أَنَا وَقَرَجَارُ نُوَيَانَ»، ثُمَّ أُعْطِيَ
جَفْطَايَ بِلَادَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَقِسْمًا مِنَ الْبِقَاعِ الْمَاجَاوِرَةِ لَهَا، وَأَمَرَ
بِوَضْعِ كِتَابِ حِلْفٍ بَيْنَ أَقْطَايِ وَجَفْطَايِ وَإِخْوَتِهِ... ثُمَّ قَالَ
مُضِيْفًا: «إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ وَقَضِيْتُ نَحْبِي فَلَا تَنُوحُوا وَلَا تُؤَلُّوُلُوا،
بَلْ، عَلَى الْعَكْسِ، اكْتُمُوا خَبْرَ مَوْتِي لِكَيْلَا يَعْلَمَ الْعَدُوُّ ذَلِكَ، وَمَتَى
وَصَلَ «حَكِيمُ شَيْدَرْقُو» وَحَاشِيَتُهُ فَاقْتُلُوهُمْ وَلَا تَدْعُوا أَحَدًا يَنْجُو
مِنْهُمْ، وَذَلِكَ كَيْمَا تَبْقَى السُّلْطَةُ هَادِئَةً بَيْنَ أَيْدِيكُمْ»، وَيُعْمَلُ بِهَذِهِ
الْوَصِيَّةِ الْأَخِيرَةِ، وَتَقَعُ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٢٤.

وَتُودَعُ جُثَّةُ جَنْكِيْزِ خَانَ عِنْدَ أَسْفَلِ شَجَرَةٍ كَانَتْ اسْتِرَاحَ عِنْدَهَا
فِي أَثْنَاءِ قِيَامِهِ بِصَيْدِهِ، وَكَانَ قَدْ قَالَ إِنَّهَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ ضَرْبِيًّا
لَهُ.

ومن أكابر مؤرخي فارس نذكر رشيد الدين الهمداني الذي هو من الأعيان الممتازين، والذي كان وزيراً لثلاثة سلاطين من المغول فنال من الثراء ما كفى لإقامة مُدُنٍ، ثم ختمت حياته بفاجعة نتيجة لتحول الطالع فجأة، وسابقاً نشر كاتريمير، وتقل إلى الفرنسية، قسماً من « تاريخ المغول » الذي هو أثره الرئيس^(١٧)؛ فقدّمه بمُدخلٍ طويل، وحديثاً تناول مسيو « بلوشيه » دراسة هذا المؤرخ^(١٨)، ونشر أقساماً آخر من ذات الأثر.

وُلد رشيد الدين في همدان على رأي كاتريمير، وذلك على الرغم من « حاجي خليفة » الذي أخبر بولادته في تبريز، « وأبي الغازي بهادر خان » الذي قال إن قزوين محلُّ ولادته، وذكر أعداء هذا المؤلف الكبير أنه من أصل يهودي، ولا مرأى في أن هذا ضربٌ من الإهانة لا أساس له، وذلك أننا نعلم مما رواه ميرخوند أن جدَّ رشيد الدين، موقَّع الدولة الحمداني، استُخدم من قبل هلاكو بعد استيلاء هذا الأمير على قلعة « الاموت » كما استُخدم نصير الدين الطوسي، ولا شيء يدلُّ على أن هذا الوجية اتَّبع ديناً غير الإسلام، ومهما يكن من أمر فإن رشيد الدين أقبل على علم القرآن منذ صباه، ثم تعلَّم الطبَّ فجلب إليه نبوغه في هذا الفن رعاية

(١٧) تاريخ مغول فارس، تأليف رشيد الدين، طبعة كاتريمير وترجمته، باريس، المطبعة الملكية، ١٨٣٦، مجلد واحد نفيس.

(١٨) تاريخ مبارك غازاني، تاريخ المغول، طبعة إ. بلوشيه، جزء ٢، يشتمل على تاريخ ملوك المغول من خلفاء جنكيز خان، ليدن، ١٩١١، - مقدمة تاريخ المغول لفضل الله رشيد الدين، وهي لبلوشيه، ١٩١١، - مجلدان في مجموعة تذكرة جي.

ملوك المَغُولِ بفارسَ، ولا سيما غازان خان، وَيَصِيرُ وزيرَه، ويرافقُ هذا السلطانَ في غزوه الرَّحْبَةَ الواقعةَ على الفرات، ويهدي هذا الأميرُ إليه بَغْلَةً من أصابله الخاصة، ويَلْقَى في مكانٍ قريبٍ من الرحبة مؤرخاً آخرَ، وهو مؤلفُ «تاريخ وصَّاف»: عبدُ الله بنُ فضلِ الله، فَيَتَقَبَّلُهُ بقبولٍ حسن، وَيَجْعَلُهُ ذا حُظْوَةٍ لدى السلطان، وَيَمِضِي وقت قصيرٍ فيفُوْضُ إليه أمرَ إدارةِ مَوْسَّاتٍ فَخْمَةٍ أنشأها غازان خان في مدينة تبريز.

وَيَمُوتُ هذا السلطان، وَيَظَلُّ رشيد الدين وزيراً لأخيه أولغاتيو، وَيُقِيمُ رشيد الدين ضاحية بمدينة سلطانية التي شادها هذا الأمير، كما يقيم ضاحيةً أخرى بشرق تبريز تُسَمَّى باسمه، أي تدعى «ربعه رشيدي»، ومعناها حَيُّ رشيد، وكان هذا الحَيُّ يشتمل على مبانٍ رائعة، وقد جَلَبَ الوزيرُ إليه ماء نهرٍ بقناةٍ حُفِرَتْ في الصخر قاطعةً جبلَ سُرْكَاب، وقد دُفِعَ بدلُ هذه المَوْسَّاتِ الواسعة من ماله الشخصي الذي كان عظيماً.

وكان رشيدُ الدين كثيرَ الِوَلَعِ بالكتب، فأنفق، على رواية ميرخوند، ستين ألفَ دينار، (أي ما قَدَّرَه كاتِرْمِيرُ سنة ١٨٣٦ بتسعمئة ألف فرنك ذهبيٍّ من نَقْدِنَا)، وذلك لِنَسْخِ كِتابه الخاصة وتجليدها وتزويقها ورسم خرائطها.

وما يُوَدِّي إليه ذاك الثراءُ البالغُ خَلْقُ حُسَّادٍ له، وهذا ما وَقَعَ فعلاً في عهد أولغاتيو مع إحباط ما حيكَ فيه من الدَسِّ عليه، فلما جاء عهدُ خَلْفِ أولغاتيو، أبي سعيد، زاد الحقدُ عليه، وفاز عاملُ الحسد على سعادته وعلى ثقة العاهل به، فعُزِلَ، ودُعِيَ إلى البَلَاطِ

ثانية، ولكن لِيُتَهَمَ من فَوْرِهِ بأنه سَمَّ أُولغَائِتُو، وَيُدَافِعُ عن نفسه بما أُوتِيَ من قُوَّةِ حِيَالِ هذا الاتهام الخالي من كُلِّ احتمال، وَيَحْمِلُ عليه الطَّبِيبُ الَّذِي كان قد عالج السُلطانَ المَتوفِيَّ بقوله إن رَشِيدَ الدين، حينما اشْتَدَّ المرضُ على أُولغَائِتُو، أشار بإعطائه دواءً زادَه إِسهالاً وأدَّى إلى موته، وَلِذَا حُكِمَ على الوزير بالقتل، فَقُطِعَ رأسُه ورأسُ ابنه البالغ من العُمُر سِتَّةَ عَشَرَ عاماً، وكان هذا سنة ٧١٨، وَيُطَافُ برأسه في الشوارع، وَيُقَطَّعُ جَسَدُهُ وَيُوزَّعُ بين الأقاليم، وَيَصْرُخُ المُنَادُونَ قائلين: «إليكم رأس هذا اليهودي اللعين الذي حَرَّفَ كلامَ الله»، وتصادر أموال الضحية، وَيُسَلَّمُ الحَيُّ الَّذِي أقامه في تبريز إلى النهب.

ولنا أن نعتقد أن الحقد كان وطيداً، وذلك أن والي تبريز، ميران شاه بن الفاتح تيمورلنك أمرَ بِإِخراج رُفات رَشِيدَ الدين من ستره الأخير ودفنه في مقبرة اليهود.

وكان هذا المؤلفُ الكبيرُ ذا مواهبَ شاملة، فيَعْرِفُ عِدَّةَ لغات، أي كان يَعْرِفُ الفارسيةَ والعربيةَ والمغوليةَ والتركيةَ والعبريةَ، والصينيةَ على ما يحتمل، وكان عارفاً بالزراعة والمعمار والفلسفة، وغازان خانُ هو الَّذِي عَهَدَ إليه في تأليف تاريخِ المُنْغُول، ولم يَكُنْ موجوداً غيرَ آثارٍ ناقصة عن هذا الموضوع في ذلك الحين، وهي عبارةٌ عن بعضِ قِطْعٍ من كتاب «الكامل» لابن الأثير، وعن كتاب «نظام التواريخ» لعبدالله البيضاوي، وعن عَطَا مَلِكِ الجوينيِّ، وأما الحولياتُ باللغةِ المغولية فقد كانت محفوظة في خزائن الوثائق التاريخية للدولة، وكانت مؤلَّفةً من عِدَّةِ دفاترٍ بلا

ترتيب، ولكن مع اشتغالها على معارف وافرة، وفضلاً عن ذلك فإن الأُسْرَ المُغُولِيَةَ الكبيرة كانت تحتفظ بسلسلة أنسابها، وذكرياتِ توارِيخِها الخاصة التي تتألف منها وثائقُ ذاتُ قيمة.

وكان رشيدُ الدين يشتغل في تأليف تاريخه بعد صلاة الفجر، وأما بقيةُ نهاره فكان يقضيها في شؤون الدولة، وقد تمَّ الأثرُ في عهد غازان خان تقريباً، وطلب منه أولغايتو أن يضيفَ إليه بياناً عن الأمم الأخرى ووصفاً للبقاع التي يعرفها المغول، وقد أتمَّ الجميع سنة ٧١٠ بعنوان «جامع التواريخ»، ووضعَ المخطوط في مسجد رشيد الدين بتبريز، ويعدُّ المجلدُ الأول أثراً على حدة فيحملُ عنوان «التاريخ الغازاني» على الخصوص، وهو يشتمل على تاريخ أصل القبائل التركية، وعلى تاريخ أجداد جنكيزخان وعلى تاريخ هذا الفاتح نفسه وتاريخ أولاده وذريته حتى عهد أولغايتو فقط، وقد حُكِيَ عن عهد أولغايتو في المجلد الثاني، ويقتضي التقسيمُ الذي اتخذهُ المؤلفُ أربعة مجلدات لجميع الأثر.

ورشيدُ الدين مؤلفٌ بارعٌ، مُجمَعُ الأسلوب، على شيءٍ من الاعتدال، وافرُ الأخبار، خالٍ من التكلف المسيءِ لمؤرخي ذات اللسان، وإليك كلمةً طريفةً عن أذواق هُلاكُو العلمية حيث يَنِمُّ المؤلفُ على روحِ نقدٍ فيه لا يُعدُّ تطبيقه صائباً تماماً في بابه مع ذلك، وهذا مع العلم بأن مباحث السياويين كانت ذات فائدة للعلم إجمالاً:

«كان هُلاكُو خان مُحبّاً للبناء حبّاً عجيبيّاً، وما شيدَ من مَبَانٍ بأوامره لا يزال مُعظَمُه قائماً حتى الآن، وقد أمر ببناء قصرٍ في

مدينة «الأتاغ» كما أمر بإقامة معابد للأصنام في مدينة «قهُوئي»، وفي هذه السنة قَسَمَ العاهلُ وقته بين أشغاله المعمارية وتدبير شؤون المملكة وما يتطلبه الجيشُ والأهلون من عناية، وقد تَوَجَّهَ في الخريف نحو معسكره الشتويّ بزَريِنه رُود (نهر الذهب) الذي يُطلَقُ عليه اسمُ «جَفَاتو نَغَاتو»، ولَمَّا بَلَغَ «مَرَاغَةَ» أَبْدَى نشاطاً فائقاً ليرى انتهاءَ إنشاءِ المَرصد، وكان هذا الأميرُ ولُوعاً بالفلسفة، فَبَحَثُ أهلَ الشَّافَةِ على القيام بمناقشات حَوْلَ علومِ الأولين، وكان يُعَيِّنُ لهؤلاء الفضلاء رواتبَ وإنعاماتٍ، وكان يُحِبُّ أن يشاهد منزله المَلِكِيَّ مُزِيناً بوجود العلماء والحكماء، وكان السيمياءُ أخصَّ ما هو كَلِفٌ به، فلا يَنفَكُ يَرعَى من يَقومون بهذا النوع من المباحث، وهم يوقِدُونَ، بخيالهم الباطل وتلقيناتهم الكاذبة، نيراناً في كلِّ مكان، فيُحْرِقُونَ كُتلاً عظيمةً من مختلف الموادِّ، ويُخْرِجونَ نَفَخاتٍ كبيرةً وصغيرةً على غير جَدْوَى، وَيَصنَعُونَ قُدُوراً من طينِ مركَّبٍ وَفَقَّ قواعدِ العِلْمِ، بَيِّنَ أن جميع أعمالهم لا تُسْفِرُ عن فائدةٍ غير تزويدهم بوجباتِ الصباح والمساء، فلم يُحَقِّقُوا أيَّ تحويلٍ كان، وكلُّ شيءٍ، من ناحيتهم يُرَدُّ إلى الخِداعِ والجهلِ مع الوقاحة، وهم لم يستطيعوا أن يَرُوا قطعةَ ذهبٍ أو فضةٍ خَرَجَتْ من معاملهم.

مكتبة المصطفى بن عبد الله
 مؤسسة المصطفى بن عبد الله
 مؤسسة المصطفى بن عبد الله

شاعر رحالة:

ناصر خسرو

تعدُّ الجغرافيةُ الفارسية بين ممثليها وجيهاً أصيلَ الطبع شاعراً سائحاً باحثاً، وهذا الرجلُ هو ناصر خسرو^(١٩)، وتصيرُ سيرته التي أُخبر بها كثيرٌ من المؤلفين اسطوريةً بعض الشيء، وهو من ذرية عليّ، وكانت ولادته سنة ٣٩٤ (١٠٠٣ م.) تخميناً، ومن كاتبي السير من ذهب إلى أن ولادته وقعت قبل ذلك بثلاثين عاماً أو أربعين عاماً، فقالوا إنه تُوفِّيَ مُجَاوِزاً حَدَّ المئة، وهو يَقْصُ بنفسه نبأ صباه وتربيته قِصصاً شعرياً فلسفياً، فقد قال: «كانت قد مضت ٣٩٤ سنة منذ الهجرة حينما وضعتني أمِّي في هذا المنزل الأغبر، وأنمو جاهلاً كلَّ شيءٍ مشابهاً لنباتٍ يَخْرُجُ من الأرض السوداء، ومن الماءِ النازل قطرةً قطرةً... وأنتقل من حالِ النبات إلى حالِ الحيوان، وأكُونُ بعضَ الوقتِ كالعصفور الذي لم يَظْهَرْ له رشٌ بَعْدُ، وفي الدَّوْرِ الرابعِ فقط شَعَرْتُ بأنني من فصيلة البشر، وذلك حينما استطاع وجودي المُسلم للقم أن يَنطِقَ بكلامٍ».

(١٩) سفرنامه، كتاب رحلة ناصر خسرو، ٤٣٧ - ٤٤٤ هـ.، طبعة ش. شيفر وترجمته، باريس ١٨٨١، نشرات مدرسة اللغات الشرقية الحية.

ثم وَصَفَ دَوْرَ دراساته في قطعةٍ يُودِّي فيضُها إلى الابتسام، وتُذَكِّرُ ببرنامجِ فرانسوا رابليه في التعليم، ولكن مع عَدِّها وثيقةً طريفةً عن مسألة تقسيم العلوم التي أُثِرت كثيراً في القرون الوسطى، قال ناصر خسرو: «عندما صِرْتُ قادراً على تمييز يدي اليسرى من يدي اليمنى شَعَرْتُ برغبةٍ في نَيْلِ جميع أنواع المعارف، فكانت لي سعادة حفظ القرآن على ظهر القلب في العام التاسع من عُمرِي... ثم قضيتُ خمسَ سنين في تَعَلُّمِ اللغة والنحو والصرف والعروض والشعر والاشتقاق ورسائل في الحساب، ولما بلغتُ الرابعةَ عشرةَ من سِنِّي تناولتُ دراسةَ التنجيم وعلم الفلك وعلم الرَّمَلِ وهندسةَ أُقْلِيدس، والمَجَسْطِي وَفَقَّ مختلف المناهج لدي أساتذة مدرسة البصرة والروم والهنود وقدماء اليونان والبابليين»، ويَدْرُسُ فيما بين الرابعةَ عشرةَ والسابعةَ عشرةَ من سِنِّيهِ عِلْمَ الفقه والحديث وتفسير القرآن، وفي الثانية والثلاثين من سِنِّيهِ، وما فَتَتْ تربيته تَدْوِمَ، تَعَلَّمَ اللغات التي نَزَلَتْ بها الكتبُ المقدسةُ الثلاثة: «التوراة والزبور والإنجيل»، وكذلك درس المنطق والطبَّ والرياضيات العالية والاقتصاد السياسي، كما تَعَلَّمَ علومَ السحر في الثاني والأربعين من عُمره، ويطمئنُّ بعد ذلك إلى أنه لم يَبْقَ شيءٌ يتعلَّمُه فيَقْصِدُ مصرَ حيث نال مقاماً مهمّاً.

ويَقْدُو نظامَ حياته معقداً، فقد اضطرَّ ناصرٌ إلى الفرارِ من مصرَ بعد أن خَدَمَ الفاطميين هناك فُقِبِلَ من قِبَلِ الخليفة القائم بالله في بغدادَ، ثم فُوِّضَ إليه أن يقوم برسالةٍ لدى الإسماعيليين، وَيَمِيلُ إلى هؤلاء المتبدعين، وَيَضَعُ حتى تفسيراً للقرآن وَفَقَّ

مذهبهم، ثم يُتَّهَمُ بالإضرار بالسر فيُفْلَتُ من أيديهم، ومن هناك يُرَى أنه ينتقل، مضطهداً دائماً، إلى نيسابور ثم إلى إقليم بدخشان ثم يذهبُ لِنَزْوِيٍّ في غارٍ حيث يقضي حياة نُسكٍ مدة خمسة وعشرين عاماً، ويموت على المذهب الشيعي سنة ٤٨١ من الهجرة (١٠٨٨ م).

والواقعُ أنه قضى بعضَ الزمن في خدمة محمود الغزنويِّ وخدمة ابنه مسعود، وكان قد سَاحَ قَبْلَ ذلك في مُلْتَانِ وفي شمال الهند، ثم صار من موظفي طغرل بك، ويتأثرُ بمُحَلِّمِ ذاتِ يوم فيعتزل مَنْصِبَهُ ويسبيحُ، ولا يُذْرِكُ بوضوحٍ ما أدلَّى من سببِ صوفيِّ هذه الرحلة، وإنما يُعَلِّمُ بأمثلةٍ كثيرة كَوْنُ الميُولِ الصوفية تَلازم، لدى الشرقيين في الغالب، ذوقَ الجولان، قال ناصر خسرو:

«لقد غادرتُ المكان الذي كنت أقيم به، وخرَجْتُ للسياحة، وقد نسيتُ منزلي كما نَسِيتُ البساتينَ وسُرادقَ اللهُو، وأردتُ أن أروِّيَ رغبتِي فدرستُ الفارسية والعربية والهندية والتركية والسُّندية واليونانية والعبرية وفلسفة ماني ومذاهبَ الصائبة ومذاهبَ العقليين... وما أكثرَ ما كنتُ، في أثناء رحلتي، أتَّخِذُ الحَجَرَ فِرَاشاً ووَسَاداً، وما أكثرَ ما كنتُ أتَّخِذُ السحابَ سُرَادِقاً ووِطَاقاً^(٢٠)، وأحياناً كنتُ أهبطُ إلى أعماق الأرض حتى الحوتِ الذي يذعمُها، وأحياناً كنتُ أرتفعُ إلى ما فوق بُرجِ الجُوزاء.»

(٢٠) الوطاق: الخيمة.

وليس هذا الطَّرَازُ مُمِلًّا من الناحية الأدبية، ومع ذلك فإن من المُتَمَعِّع أن يُحَقِّقَ أن الرحلة رُوِيَتْ بأَسْلُوبٍ أَكْثَرَ إِمْجَابًا، فَهِيَ مُفِيدَةٌ حَقًّا.

ويزور ناصر خُسْرُوَ آشورية وفلسطين ومصرَ وسورية وفارسَ، وهو يَقِظٌ، ويتكلم مثلَ عَالِمٍ ومهندسٍ أحياناً أَكْثَرَ من تَكَلُّمِهِ مِثْلَ شاعرٍ، وإليك كيف يُحَدِّثُ عن جبلِ دِمَاوَنْدٍ: «يَرْتَفِعُ بَيْنَ الرَّيِّ وَأَمْلَ جَبَلِ دِمَاوَنْدٍ ذُو الشَّكْلِ المُدَوَّرِ اسْتِدَارَةَ القَبَةِ، وَيُطَلِّقُ عَلَيْهِ اسْمُ لُوَاسَّانٍ، وَتَنْفَتِحُ فِي ذُرُوتِهِ فَوْهَةٌ يُسْتَخْرَجُ فِيهَا مِلْحُ النُّشَادِرِ وَالكَبْرِيَّتِ، وَيَتَسَلَّقُ هَذَا الجَبَلَ أَناسٌ حَامِلُونَ جُلُودَ جِوَامِيسَ فَيَمْلَأُونَ هَذِهِ الجُلُودَ نُشَادِرًا، ثُمَّ يُذَحْرَجُونَهَا حَتَّى السَّفْحِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ طَرِيقٌ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ نَقْلِهَا عَلَيْهِ».

وفي أَمَدٍ يلاحظُ الحِصُونَ فيقول: «إِنَّ هَذِهِ المَدِينَةَ قَائِمَةٌ عَلَى صَخْرَةٍ... وَهِيَ مَحَاطَةٌ بِسُورٍ مَنِيعٍ ذِي حِجَارَةٍ سُودٍ تَزِنُ القِطْعَةَ المُشَدَّبَةَ مِنْهَا مَا يَتَرَجَّحُ بَيْنَ مِئَةِ مَنٍّ وَأَلْفِ مَنٍّ، وَأَكْثَرَ مِنْ هَذَا أَيْضًا، وَلَيْسَ بَعْضُهَا مَوْصُولًا بِبَعْضٍ بِمِلاطٍ^(٢١) وَلَا لِيَاطٍ^(٢٢)، وَارْتِفَاعُ السُّورِ عِشْرُونَ ذِرَاعًا وَثِخْنُهُ عِشْرَةُ أَذْرُعٍ، وَأَقِيمَ بَيْنَ كُلِّ مِئَةِ ذِرَاعٍ بَرَجٌ يَبْلُغُ قَطْرُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا وَتَتَأَلَّفُ شَرَفَاتُهُ مِنْ تِلْكَ الحِجَارَةِ السُّودِ، وَأَمَّا مِنْ دَاخِلِ المَدِينَةِ فَفَقْدَ اتَّخَذَتْ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مَرَاقٍ مُؤَدِيَةً إِلَى فَوْقِ المَتَارِيسِ، وَيُوجَدُ فِي أَعْلَى كُلِّ بُرْجٍ سَطْحٌ لِلْمَقَاتِلِينَ»، وَكَانَتْ

(٢١) المِلاطُ: الطِينُ الَّذِي يَطْلَى بِهِ الحَائِطُ.

(٢٢) اللِيَاطُ: الكَلْسُ وَالجِصُّ.

هذه الحُصُون، الموصوفةُ بِدِقَّةٍ علميةٍ، من صُنْعٍ مهندسين من الروم سابقاً.

وكذلك يُقدِّم ناصر خسرُو تفاصيلَ مُمتعةٍ عن القدس، وعن كنيسة القيامة التي كان تجديدُ بنائها قد تمَّ عندما زارها، وعن المباني الواقعة ضِمنَ سورِ الحَرَمِ الشريفِ، وكذلك يُقدِّم تفاصيلَ عن الكعبة بمكَّة، وهو يَصِفُ قصرَ السلطان بِمصرَ وصفاً طريفاً كما يَصِفُ ما كان يُصنَعُ في هذه المدينة من خَزَفٍ مطليٍّ ذي انعكاسات معدنية، وخَزَفٍ مطليٍّ لطيفٍ شفافٍ مُزَيَّنٍ بالألوان مماثلةً لألوانِ النسائجِ المعروفةِ بالبقلمُون، فتتنوَعُ الألوانُ بالأوضاعِ التي يُجَعَلُ عليها الإناء، ثم تَجِدُ كلمةً مقبولةً عن منظمة القرامطة في الأحساء التي هي من جزيرة العرب.

وقد زُيِّنَت طبعة هذا الكتاب المفيد، التي قام بها مسيو شيفر، برسومٍ مُلوَّنةٍ عن مكَّة والمدينة.



مؤلف مذكرات بالعربية عن عصر جنكيز خان :

النسوي

أمير مؤرخ من آل جنكيز خان :

ابوالغازي

الآن سنتكلم عن مؤلف لم يكتب بالفارسية، وإنما عاش في البقاع المجاورة لفارس فأثرت فيه حضارتها، وهذا المؤلف هو كاتب سيرة سلطان خوارزم، جلال الدين منكبرتي، وكان لهذا السلطان ذي الطبع المغامر شرف القتال حيال غزو جنكيزخان بكل نشاط وشجاعة، وقد تبعه النسوي في جميع مغازيه بصفته كاتباً له فيقص علينا خبر حياته مثل شاهد أكثر منه مثل مؤرخ^(٢٣)، ولا جرم أنه خال من مزايا كبار المؤرخين، أي من اتساع الأفق ومن الحركة والوضوح والرواق، ويلوح أنه يتبع أحياناً في جزئيات موضوعه فيركم بعضها فوق بعض مع شيء من الاختلاط والنمطية، أجل، إن البيئة التي كان يعيش فيها فوضوية معقدة، ومع ذلك فإنه كان يمكن مؤلفاً ذا نبوغ أكثر

(٢٣) سيرة أميرخوارزم: السلطان جلال الدين منكبرتي، لحمد النسوي، متن عربي، طبعة أ. اوداس، ١٨٩١، وقد ترجمه سنة ١٨٩٥، وذلك مجلد يؤلف قسماً من نشرات مدرسة اللغات الشرقية الحية، وتجد فضلاً جيداً مجملاً عن هذا السلطان في « تاريخ كزیده » للمستوفي، ترجمة غنتان .

نشاطاً أن يستنبط نتيجةً كبيرةً من جهاد أُسرٍ مالكةٍ صغيرةٍ ذاتِ تربيةٍ فارسيةٍ حيالَ عدوٍّ شاذٍّ متوحشٍ غير معروفٍ جيداً تُخبرُ عشائرهُ النَّواقلُ الكُثُرُ واستفحالُ سلطانهُ بسرعةٍ وطُموحهُ الجليُّ بحدوثِ انقلاباتٍ بعيدةٍ الغورِ مؤديةٍ إلى هَوْلٍ حافلٍ بالأسرارِ، ولا بُدَّ من الاعترافِ، مع ذلك، بأن هذه المذكراتُ المكتوبةُ في مثل ذلك الدورِ وذلك الزمنِ هي، على الرغمِ من ضَعْفِ المؤلِّفِ النسبيِّ، ذاتُ قيمةٍ، ولكن مع صعوبةِ المغالاةِ في قيمتها.

كان جلالُ الدين ابنَ سلطانِ خُوَارِزْمِ سنجارِ الأكبرِ وأميرةٍ اسمها آي جيجاق، والواقعُ أن أباه الذي يُلقَّبُه مؤرخنا بالسلطانِ الأكبرِ، ويُفردُ له الفصولَ الأولى من كتابه، أقام دولةً مهمةً ميمونةً في مُعظَمِ عهدهِ، وكُنَّا قد تكلمنا عنها، وقد عُرِفَ في حَقْلِ الأدبِ لِمَا كان من رعايته لأحدِ أكابرِ شعراءِ الفُرسِ: أنورِيٍّ، وقد تُوَفِّيَ في جزيرةٍ ببحرِ قزوینِ في أثناءِ حربٍ ضدَّ التترِ، ثم نُقِلَتْ جثتهُ إلى قلعةٍ، فوَقعت في أيدي التترِ، فأرسلها هؤلاءُ إلى خانهم الأكبرِ، فأمر هذا بإحراقها.

وكان جنكيزخان قد دَوَّخَ بخاري حينما جلس جلال الدين على العرشِ، فأغار على موطنِ مؤلِّفِ هذه المذكراتِ الأصليِّ، «نَسَا»، التي كانت تُوَلِّفُ خَطَّ الدفاعِ الأقصى عن خُوَارِزْمِ، وَيَسْقُطُ هذا المكانُ تحت سيطرتهِ، ويعود جلال الدين إلى خُوَارِزْمِ، وَيَبْقَى فيه قليلاً، وَيَذْهَبُ منه إلى جهةِ الهندِ حيث يلاقي جنكيز خان على ضفافِ السندِ، فهناك يَخُوضُ حِيالَهُ غِمَارَ معركةٍ يصفها المؤرخُ بسداجةٍ بأنها «من معظَماتِ الحروبِ ومعضلاتِ الخطوبِ» وَيَحْمِلُ جلال الدين بشخصه على مركزِ جيشِ جنكيز، ثم حمل نفسه على

قلب جنكيزخان فمزقه بددا، وجعله طرائق قدا، وولى اللعين
 بنفسه هزيمًا، يحث مركب النجا حرصًا على النجاة هشيًا. وكادت
 الدائرة تدور على الكفار، والهزيمة تستمر بأهل النار، لولا أن
 اللعين أفرد قبل اللقاء الكمين، وفيه عشرة آلاف فارس من نخب
 رجاله الملقبين بالبهادريه فخرجوا على ميمنة جلال الدين وفيها
 أمين ملك فكسروها وطرحوها على القلب فتبدد نظامه،
 وتزعزعت عن الثبات أقدامه»، ويُدْحَرُ جيشُ خوارِزْمِ نحو
 السُّنْدِ، ولم يَبْقَ من ذلك اليوم غيرُ جُثِّ مُلَطَّخَةٍ بالدم وأجسادٍ
 عائمة على النهر.

ويؤسّرُ ابن جلال الدين، البالغُ عُمُرُهُ سبعةَ أعوامٍ أو ثمانيةَ
 أعوامٍ، في أثناء المعركة، ويؤتي به أمام جنكيز، فيأمر هذا بقتله
 أمام عينيه، ويَبْلُغُ جلال الدين ضيفاف النهر حيث يرى أمه وأم
 ولده وجميع نسائه يَضْرَعْنَ إليه صائحاتٍ أن يقتلن خشية وقوعهن
 أسيراتٍ بيد الغالب، فأجابهن السلطانُ إلى طلبهن وأغرَقهن، وأما
 هو فقد لَبِسَ عِدَّةَ الحرب، وقَذَفَ بِحِصَانِهِ بين المَوْجِ الهائجِ، فَعَبَّرَ
 هذا الجوادُ الممتازُ ذاك النهرَ العظيمَ ساجحاً.

ولا نستطيع أن نَتَّبِعَ جميعَ وقائع جلال الدين ولا ما دار في
 عهده الطويل من دسائس حَوْلَهُ كان يَحُوكُهَا أمراءُ ووجهاء من
 المرتبة الثانية، وإذا عَدَدْتُ حروبَهُ حِيَالَ جنكيزخان وَجَدْتُهُ قد
 نال عِدَّةَ انتصاراتٍ على جيرانه، ولكن التترَ وَصَلُوا إلى حدود
 أَذْرَبِيجَانَ أخيراً، فَهَزَمُوهُ في مُوقَانَ، ثم في آمِدَ حيث قُتِلَ.

ويَقْصُ النَسَوِيُّ خبرَ هذه المعركة بجرارةٍ وكثيرٍ إحساس كما

قَصَّ خَيْرَ المعركة الأولى، وَيَغِيبُ السلطانُ من نظره في أثناء الهزيمة، ويقول: «لما فرقت الواقعة بيني وبين السلطان رميتني الجفلة إلى آمد بعد اختفائي ببعض المغاير ثلاثة أيام، ثم إلى إريل بعد تعويقي بآمد شهرين ممنوعاً من الخروج، ثم إلى آذربيجان بعد مصائب شتى ونوائب تثرى، ثم إلى ميارفارقين بعد مشقة وبؤس، وفراغ كيس وعري لقطع أصابني عن اللبوس. فلم أنزل بمنزل من البلاد السلطانية إلا والناس يرجفون بأن السلطان باق وأنه جمع واحتشد، واستمد واستعد، أخاير زور وأماني غرور، يفترها الأهواء ويخلقها الود والولاء إلى أن عدت إلى ميارفارقين وتيقنت هلاكه.»

وفضلاً عن تلك الوقائع العظيمة يشتمل كتابُ النَّسَوِيِّ على عددٍ من الجزئيات الطريفة الممتعة، المُسَلِّيَّةِ أحياناً، الشَّجِيَّةِ غالباً، ومن ذلك ما هو خاصٌّ بأميراتٍ وعلماءٍ كما أنك تجدُ فيه كلاماً مهمّاً عن الإسماعيلية وتعصبهم وجرائمهم، وأقوالاً أخرى عن جليّ وهدايا ونماذج بديعة، ومن المُلهِيَّاتِ حكايةُ ذاك الساحر الذي صنع للسلطان سنجر، حين سيره إلى بغداد نُصَيْباً مسحوراً على شكلٍ موافق، فإذا ما دُفِنَ هذا النُّصَيْبُ في بغداد نال السلطانُ كلَّ ما يتمنى، ويُسلِّمُهُ الأميرُ إلى سفيرٍ أرسله إلى هذه العاصمة ويَدْفِنُه في منزله، بيْدَ أن الساحر أبصَرَ مؤخراً أنه كان قد خُدِعَ، أي أن النُّصَيْبَ يضرُّ السلطانَ وينفعُ عدوّه الخليفةَ، ولذا وَجَبَ نبشُه من الأرض، ويُرْسَلُ السفيرُ نفسه مُجَدِّداً، ولكنه لم يستطع دخولَ المنزل، الذي كان قد أقام به للمرة الأولى، على ما بَدَل من

حَيْلٍ، فَبَقِيَ النُّصَيْبُ مَدْفُونًا حَيْثُ كَانَ، وَيَسْخَرُ النَّسَوِيُّ نَفْسَهُ مِنْ
اتِّصَافِ أَمِيرٍ كَبِيرٍ كَهَذَا بِسُرْعَةِ تَصَدِيقِ مَتْنَاهِيَةِ، فَيُضِيفُ إِلَى مَا
تَقَدَّمَ قَوْلَهُ كَكَلِّ مُسْلِمٍ صَالِحٍ: «يَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ وَعِنْدَهُ أَمُّ
الْكِتَابِ».

وكيف لا يُوقَفُ مع التَّلَذُّذِ أَمَامَ صَفْحَةِ كَالْتِي عُدَّتْ فِيهَا
الهِدَايَا الْمُرْسَلَةَ مِنْ قِبَلِ الْخَلِيفَةِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَهِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ خِيُولٍ
مَنْتَعَلَةٍ بِنَعَالٍ مِنْ ذَهَبٍ تَعْدِلُ قِيَمَةُ النَّعْلِ مِنْهَا مِئَةَ دِينَارٍ، وَمِنْ
تُرُوسٍ ذَهَبِيَّةٍ مَرِصَعَةٍ بِلَالِيَاءٍ، وَمِنْ جِيَادٍ مَكْسُوءَةٍ بِأَطْلَسٍ رُومِيٍّ
مُبْطَنٍ بِأَطْلَسٍ بَغْدَادِيٍّ، وَمِنْ فُهُودٍ لِلصَّيْدِ ذَاتِ جَلَالٍ بِكَسُوءَةٍ مِنْ
أَطْلَسٍ وَقَلَائِدَ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِنْ شَوَاهِينِ ذَاتِ قَلَانِسَ مُطَرَّزَةٍ بِمَجَواهِرٍ
صَغِيرَةٍ، وَمِنْ كُرَاتٍ عُنْبَرٍ مُطَوَّقَةٍ بِذَهَبٍ، وَمِنْ حُلَلٍ تَشْرِيفٍ
كَثِيرَةٍ، الْخ.

وَيُنْحِي مَسِيو أَوْدَاسُ، الَّذِي جَعَلْنَا نَعْرِفُ هَذَا الْكِتَابَ الْمَفِيدَ
فِي «مَجْمُوعَةِ مَدْرَسَةِ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ»، بِاللَّائِمَةِ عَلَى النَّسَوِيِّ لِعَطْلِهِ
مِمَّا اتَّصَفَ بِهِ مُؤَرِّخُو الْعَرَبِ الْمُجِيدِينَ مِنْ أَسْلُوبٍ بَسِيطٍ دَقِيقٍ
مَتِينٍ، وَلِتَفْضِيلِهِ مَا اتَّصَفَ بِهِ مُؤَرِّخُو الْفَرَسِ مِنْ أَسْلُوبٍ يَشُوبُهُ
التَّعَمُّلُ وَالتَّصَنُّعُ وَالِاسْتِعَارَاتُ، وَكَانَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ أَنْ تَقَلَّبَ
هَذَا الْمَشْتَرَقُ الْفَرَنْسِيُّ الْعَالِمُ فِي تَرْجُمَتِهِ لِمَخْطُوطِ هَذَا الْكِتَابِ
الْوَحِيدِ، بِسَلَاسَةٍ وَبَيَانٍ، عَلَى صَعُوبَةِ فَهْمِهِ.

وَفِي الْقَرْنِ السَّابِعِ أَلْفَ أَمِيرٍ مِنْ ذَرِيَةِ جَنْكِيْزْخَانَ كِتَابًا عَنِ
الْمُغُولِ فَدَلَّ عَلَى اتِّصَافِهِ بِنَبُوغِ الْمُوْرُخِ، وَاسْمُ هَذَا الْمُوْلَفِ هُوَ: أَبُو

الغازي بهادر الذي كان أميراً لخوارزم^(٢٤)، ولم تكن اللغة التي اتخذها في تأليفه لغة الفُرس، بل التركية الشرقية بلهجة بلده الخاصة، أجل، يُوجدُ بالتركية الشرقية أدبٌ محدودٌ بعض الشيء، ولكن مع اشتاله على كثيرٍ من الكتب ذات القيمة العالية، وهذا إلى وجود فائدة كبيرة لهذا الأدب من الناحية اللغوية، وسابقاً عرفنا مذكرات بابر، ونوائٍ هو الشاعرُ المهمُّ في ذاك الأدب.

بدأ أبو الغازي كتابةً تاريخه في سنة ١٠٧٤ من الهجرة (١٦٦٣ م.)، فسماه «شجرة التُّرك»، وقسمه إلى تسعة أقسام سائراً من آدم حتى زمنه، فالقسمُ الأولُ يَسِيرُ من آدم حتى مُغول خان، والقسمُ الثاني من مُغول خان حتى جنكيزخان، والقسم الثالث خاصٌّ بجنكيزخان، والقسم الرابع خاصٌّ بابن جنكيزخان الثالث، أقطاي وبذرية هذا الملك الذين ملكوا مُغولية، والقسم الخامسُ خاصٌّ ببذرية ابن جنكيزخان الثاني، جفطاي الذين ملكوا بلاداً ما وراء النهر وكشغَرَ، والقسم السادسُ خاصٌّ ببذرية ابن جنكيز الرابع، طُلو، الذين ملكوا إيران (فارس)، والقسم السابعُ خاصٌّ ببذرية جوشي الابن الأكبر للفتح، الذين ملكوا دشت قِپچاق، والقسم الثامنُ خاصٌّ ببذرية شيباني خان بن جوشي خان الذين ملكوا بلاداً ما وراء النهر والقرم والقوزاق وتوران، ويشتمل الجزء التاسع على

(٢٤) أبو الغازي بهادرخان، تاريخ المغول والتتر، طبعة البارون دوميزون وترجمته، مجلدان، سان بطرسبرغ، ١٨٧١ - ١٨٧٤

تاريخ ذرية شيباني خان الذين ملكوا خوارزم، ومن ثمّ ترى أن هذا تصميمٌ واسعٌ رائع.

وكان أبو الغازي نفسه أميراً من سلالة شيباني خان، وكذلك كانت أمّه من هؤلاء الآل، فتجتمع مع أبيه في الجدّ الخامس، ويَقصُّ في آخر أثره تاريخه الخاصّ، وهو يُقدِّم إلينا بذلك بعضَ صفحاتٍ من سيرته مكتوبةٍ بيده، وهي على جانبٍ كبيرٍ من الحيوية.

قال أبو الغازي: «لقد وُلدت في ولاية أوركناج (مدينة أوركناج وإقليمها) سنة ١٠١٤ من الهجرة، أي عام الأرنب^(٢٥)... وقد كنت في السادسة من سِنِّي حينما فقَدتُ أمي، وقد بقيت في أوركناج عند أبي حتى السادسة عشرة من سِنِّي، فلما بلغتُ هذا العُمُرَ زَوَّجني أبي وأعطاني نصفَ أوركناج، وأما النصفُ الآخرُ فقد حَبَا به أخي الأكبر، حَبَسَ سلطان»، ويدخُلُ في قتالِ حِيَالِ أخويه الأكبرين، ومحارِبُهما بالاتحاد مع أبيه، ويلتقي الفريقان، «فيتسلَّم خائناً قيادة المركز، ويفهَدُ بقيادة الميمنة إلى قائدِ اسمه إسفنديار خان، كما يفهَدُ إليَّ بقيادة الميسرة، وتكوُنُ المعركة دامية، وتقتل ثلاثة أخصِيَةِ تحتي، وأكون آخرَ من يَرْتدُّ، ولا يَبْقَى

(٢٥) كان المغول وقدماء الترك يقولون بدوراتٍ مؤلفة كلِّ واحدة منها من اثنتي عشرة سنة مسماة بأسماء الحيوان.

غَيْرُ سِتَّةِ رِجَالٍ بَجَانِي، وَيَتَعَقَّبُنَا الْعَدُوُّ، وَنَعُودُ إِلَى الْقِتَالِ، وَيَهْجُمُ عَلَيْنَا أَرْبَعُونَ فَارِسًا، وَيُفْصَلُ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، وَالْوُذُ بِالْفِرَارِ».

وَيَنْجُو مَعِي رَجُلٌ وَاحِدٌ، «وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَنْقَطِعْ عَن تَعَقُّبِنَا رَامِيًا إِيَانَا بِسِهَامٍ، وَيَصِيبُنِي سَهْمٌ فِي فَمِي، وَيَكْسِرُ عَظْمَ فَكِّي، وَيَمْتَلِيءُ فَمِي دَمًا مِنْ فُورِهِ، وَتَكُونُ ضِيفَاةُ النَّهْرِ وَغَرَّةً جَدًّا... وَأَدُورُ وَرَاءَ غِيضَةِ أَثَلٍ، وَأَغِيبُ عَن بَصْرِ الْعَدُوِّ، وَيَدَاوِمُ عَلَيَّ تَعَقُّبُ الْفَارِسِينَ الْآخَرِينَ، بَيِّدَ أَنْ حَافِرُ حِصَانِي زَلَّ فِي حُفْرَةٍ فَسَقَطَ تَحْتِي».

ثم يحاول أن يعبرَ النهر، ويصِفُ جهوده بكثيرٍ من الدقة وعلى شكلٍ مُثيرٍ، ويُلقِي نفسه في الماء رَاكِبًا جَوَادَهُ لَابِسًا زَرَدَهُ، وَيَكَادُ الْجَوَادُ يَفُوصُ فِي الْمَاءِ تَحْتَ الثَّقَلِ، وَهَنَّاكَ يَذْكَرُ رَأْيَا قَدُمٍ إِلَيْهِ فِيهَا مَضَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْهَضُ قَلِيلًا وَيُمِدُّ سَاقَهُ عَلَيَّ ذَنْبَ الْحِصَانِ وَيَعُودُ الْحِصَانُ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَيَرْمِيهِ الْعَدُوُّ مِنَ الضَّفَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيبَهُ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى سَمَرْقَنْدٍ حَيْثُ يُحْسِنُ الْخَانَ قَبُولَهُ قَائِلًا لَهُ: «أَنْتَ شَابٌّ بَاسِلٌ، فَأَعِدْكَ بِأَنْ تَعُودَ إِلَى بَلَدِكَ، وَلِيَهْدَأُ بِأَلْكَ»، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ تَوَلَّى أَمْرَ آرَالٍ بِانْتِظَامٍ مِنْذُ سَنَةِ ١٦٤٤.

وَمِنَ الْمُؤَسَّفِ أَنْ أَخَذَ أَبُو الْغَازِي يَكْتُبُ مُذَكَّرَاتِهِ فِي تَارِيخِهِ مُتَأَخِّرًا نِسْبِيًّا، وَقَدْ كَانَ مَرِيضًا حِينَمَا بَاشَرَ عَمَلَهُ هَذَا، فَلَمْ يُسَعِفْهُ الْوَقْتُ عَلَيَّ إِتْمَامِهِ، فَأَكْمَلَهُ أَوْلَادُهُ، وَلَا مِرَاءَ فِي أَنْ الْأَقْسَامَ الْخَاصَّةَ بِتَارِيخِ الْمُغُولِ الْقَدِيمِ هِيَ مِنْ أَثَرِهِ، وَهَذِهِ خِلَاصَةٌ، وَحِكَايَتُهَا طَوِيلَةٌ، وَهِيَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنَ التَّرْكِيبِ، وَكَانَ لَدَى الْمُؤَلِّفِ كَثِيرٌ مِنْ

المستندات، ومن قوله لنا إنه كان يوجد أمامه مقدارٌ كبيرٌ من المؤلفاتِ عدّاً ما تكلمنا عنه من كتاب «رشيد الدين» ومجموعة الحوَلِيَّاتِ، وهكذا فإنه كان حائزاً «لِسَبْعِ عَشْرَةَ سِيرَةً عن جنكيزخان (جنكيزنامه) خلاَ سيرة رشيد الدين التي انتفع بها في تأليف تاريخه، ولِنَكْتَفِ بِالحِكَايَةِ الآتِيَةِ لِإِتْمَامِ مَا تَقْدَمُ^(٢٦)»:

«في هذا الزمن (زمن جنكيزخان) كانت جميعُ البلادِ الواقعةِ بين إيرانَ وتورانَ تتمتع بأمنٍ بَلَغَ من الإحكامِ بحيثُ كان يُمكنُ الإنسانَ أن يَحْمِلَ على رأسه طَبَقَ ذهبٍ، وأن يَذْهَبَ به من المَشْرِقِ إلى المغربِ من غير أن يصيبه أقلُّ اعتداءٍ من أحدٍ، ولم تَكُنْ لَتُرَى مُدُنٌ في البقاعِ التي يَسْكُنُهَا المَغُولُ، فكان التجار الذين يأتون حاملين إليهم نُسجاً وفراءً وغَزَلاً وكتّانياتٍ وقُطُنِيَّاتٍ ينالون ربحاً كبيراً».

ومما حَدَثَ، ذاتَ يومٍ، أن جاءَ بلادَ ما وراءَ النهرِ تجارٌ ليعْرِضُوا على جنكيزخان نُسجاً، فأمرَ أحدهمَ بِيَسْطِ سِلْعِهِ، وسألَ عن الثمنِ، فطلبَ هذا التاجرُ عَشْرَةَ دنانيرَ ثمناً لشيءٍ لا يَعْدِلُ ثمنُهُ غيرَ دينارٍ واحدٍ، فقالَ الخانُ غاضباً: «يَظُنُّ هذا الرجلُ أننا لم نَرَ شيئاً من هذا النوعِ قَطُّ»، وأمرَ بإحضارِ خازنِهِ، وأوعزَ إليه بأن يَجْلِبَ ما عنده من نَسائِجٍ ثَمِينَةٍ، فَأتى الخازنُ بألفِ صُنْدُوقٍ مملوءِ نُسجاً فاخرةً مُطَرَّزَةً بالذهبِ، ويُرِيها الخانُ، ويأمرُ، بعد أن أراها،

(٢٦) الكتاب المذكور، ترجمة، ص ١٠٤.

بأن تُسَلِّمَ إلى النهب جميعُ الشُّج التي عَرَضها ذاك التاجر، -
وهناك قال التجار الآخرون الذي قُدِّموا: «إذا كانت هذه السِّلَع
لائقةً بالسيدة الكريمة (الملكة) فإننا نُقدِّمها هديةً إليها، فليس
لدينا هنا من السِّلَع ما نبيِع»، - قال أبو الغازي: «وَقَعَ هذا
القولُ عند الخان موقع الرِّضَا، فأخذ جميعَ ما جاءوا به من مَتَاع،
ودَفَع إليهم عشرة أمثال ما تساوي من ثمن.»



الفصل السادس

مؤرخو الترك

- ترك حؤوليون، مؤرخون سابقون : سعد الدين ،
قطعة عن فتح القسطنطينية ، نعيما ، مؤرخ للبحرية التركية
حاجي خليفة ومذكرات بارباروس .

- مترجمو أحوال من الترك ، كلمات عن الشعر التركي ،
ثناء على عبد الباقي

- كتب رحالة عن القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر :
أوليا أفندي ، محمد أفندي ، رحلته الى
فرنسة في عهد لويس الخامس عشر .

- مؤرخون مُجدِّثون : واصف أفندي ، الحرب
التركية الروسية سنة ١٧٦٩ ، مناحيها السلمية ، المؤرخ
العسكري المير آلمع : أحمد جواد بك ،
قصة الانكشارية .

ترك حوليون ، مؤرخون سابقون
سعد الدين ، قطعة عن فتح القسطنطينية ،
نعيماً ، مؤرخ للبحرية التركية ،
حاجي خليفة ومذكرات بارباروس

للعثمانيين سلسلة من الحولين الكثيري الرشاقة، والذين هم أدباء أكثر من مؤرخي العرب بدرجات، واتفق للعثمانيين عدد من هؤلاء باكرًا، ومنهم نذكر أحمد بن يحيى الذي ألف للترك تاريخاً يبدأ من زمن أورخان، وفي عهد بايزيد الثاني ألف مولانا إدريس البتليسي ونشري تواريخ قومية وفق الذوق الفارسي، وأكبر حولي تركي هو مؤلف «تاج التواريخ»: سعد الدين الذي سنتكلم عنه، ويمتد تاريخه إلى سليم الأول (٩٢٦هـ.)، وألف پشاي تاريخ ما بين سنة ٩٣٠ هـ. وسنة ١٠٤٩ هـ. ويطابق هذا عهد سليمان ومراد الرابع، وألف قره چلبی زاده (سليمان نامه)، وهو تاريخ لسليمان القانوني، كما ألف كتاب «روضة الأبرار» الذي هو أثر تاريخي ذو قيمة، وألف السلانيكي تاريخاً عثمانياً من عهد سليمان حتى سنة ١٠٠٠ هـ. وألف كمال باشا زاده، الذي كان يعيش في عهد سليم الأول وعهد سليمان «تاريخاً لآل عثمان» راوياً خبر معركة «محاقر» التي وقعت سنة ١٥٢٦، ونعياً مؤرخ ما بين سنة ١٠٠٠ هـ وسنة ١٠٧٠ (١٥٩١ - ١٦٥٩ م.)، وهذا تاريخ لعهد مراد الثالث والفضي التي عقبته، ويعقب رشيد أفندي «نعماً»، ويتناول أثره

ما بين سنة ١٦٦٠ وسنة ١٧٢١م، ويواصل «عاصم جلبي زاده» رشيداً، فيتناول بالبحث ما بين سنة ١٧٢٢ وسنة ١٧٢٨م، أي قسماً من عهد أحمد الثالث الذي خلع سنة ١٧٣٠، وصبحي حولي ما بين سنة ١٧٣١ وسنة ١٧٤٤، كما أن عزياً حولي ما بين سنة ١٧٤٤ وسنة ١٧٥٣، وأحمد واصف مؤرخ عهد عثمان الثالث وعهد مصطفى الثالث، وهو يتناول تاريخ ما بين سنة ١٧٥٢ وسنة ١٧٧٥، ومصطفى نجيب هو مؤرخ سليم الثالث الذي دام عهده من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٠٩، وكتب المؤلف المحدث المهم، أحمد جودت، حوليات الدولة العثمانية فيما بين سنة ١٧٧٤ وسنة ١٨٢٥ (١١٨٨ - ١٢٤١ هـ)، كما ألف لطفي حولياتها فيما بين سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٤٤م.

ولنعدُّ إلى سعد الدين، فقد كان وصياً على السلطان مراد الثالث، وقد حاولت ملكة إنكلترا، إليزابيث، أن تجعل بواسطته هذا السلطان يُرسِلُ أسطولاً يساعد الأسطول الإنكليزي المهدد في ذلك الحين بعود الأرمادا الإسبانية، وظلَّ سعد الدين مقرباً و كاتباً للدولة في عهد محمد الثالث، ورافق هذا الأمير في غزوة هُنغارية، ويُعدُّ الجيش العثماني، بعد سلسلة من النوايب، مديناً في انتصاره بكرزيس (١٥٩٦) لنصائح سعد الدين وبسالته على الخصوص، ويُقصي هذا الرجل الكبير، المتقدم في السن حينئذٍ، عن السلطة بفعل المقرب إبراهيم، ويتوفى في تلك الأثناء بعد قليل من نصبه مُفتياً للآستانة، وذلك في سنة ١٠٠٦ هـ (١٥٩٨م).

وكان الترك يُعجبون بأسلوب سعد الدين كثيراً فيما مضى،

واليوم عاد لا يكون كذلك إلا قليلاً على ما أقدر، وذلك لعدم
 ملاءمته الذوق الحديث، فهو مُجَمَّلٌ بِمَجَازَاتٍ مُصَنَّعَةٍ دَقِيقَةٍ تُضَاقِقُ
 العبارة، وتؤذي البساطة، وتَضَعُ في كُلِّ لِحْظَةٍ مِنَ الْأَلْغَازِ مَا يَصْعُبُ
 حَلُّهُ، ولا سيما من قَبْلِ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ عَوَائِدُ الشَّرْقِيِّينَ
 الذَهْنِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَمَا قَصَّ حِكَايَةَ الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى
 «أبيدوس» من قَبْلِ الْمُسْلِمِينَ ذَكَرَ خَبَرَ خِيَانَةِ عَلَى وَجْهِ رَوَائِيٍّ،
 وَذَلِكَ أَنَّ بِنْتَ الْحَاكِمِ أَوْلَعَتْ بِالْقَائِدِ الْمُسْلِمِ الَّذِي يَحَاصِرُ تِلْكَ الْقَلْعَةَ،
 فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ كِتَاباً دَلَّتْهُ فِيهِ عَلَى كَيْفِيَّةِ إِمْكَانِهِ دُخُولِهَا، فَبَدَلًا مِنْ
 أَنْ يَذُمَّ سَعْدُ الدِّينِ هَذَا السُّلُوكَ زَخْرَفَ نَبَأَهُ بِمَجْمِيعِ الزُّهُورِ الَّتِي
 يُمَكِّنُ الشَّاعِرَ الزَّاحِرَ الْخِيَالَ أَنْ يَجِدَّهَا، وَأَحَاطَ هَذِهِ الْفِتَاةَ بِهَالَةِ
 نُورٍ، فَقَالَ: «إِنَّمَا رَبَطْتُ كِتَابَهَا بِمَجْرٍ وَقَدَفْتَهُ نَحْوَ جَيْشِ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَتَصِلُ الْحِصَاةُ إِلَى مَعْسَكَرِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا لَوْ كَانَتْ حَمَامَ الزَّاجِلِ
 السَّرِيعِ الطَّيْرَانِ.... وَتَتَدَحْرَجُ حَتَّى حَوَافِرِ حِصَانِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 الْمُبْتَطَّرَةِ»، وَيَكُونُ هَذَا الْقَائِدُ سَعِيدًا بِهَذَا الْحِظِّ، فَيَدْخُلُ الْقَلْعَةَ
 بِتَسْوُرِ الْجُدْرَانِ، قَالَ سَعْدُ الدِّينِ: «وَقَدْ كَانَ أُسِيرًا فِي بُحَيْرَاتِ
 زَرَافِينٍ^(١) شَعَرَ خَلِيلَتِهِ الْحَسَنَاءِ، فَعَدَا سَبِيحًا مُجَدِّدًا بَارْتِبَاطِهِ فِي
 الْحَبْلِ الَّذِي عُنِيتُ بِإِنْزَالِهِ».

إِذَنْ، يَكُونُ التَّارِيخُ فِي ذَهْنِ سَعْدِ الدِّينِ قَرِيبًا مِنَ الْمَلْحَمَةِ،
 وَيَكُونُ هَذَا الطَّرَازُ فِي إِدْرَاكِ دَوْرِ الْمُؤَرِّخِ قَلِيلَ الْمَلَاءِمَةِ لِلنَّقْدِ،
 وَيُرَى بِذَلِكَ أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَى هَذَا الْمُؤَلِّفِ قَبُولُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقَاصِيصِ،

(١) زرفن شغره: جملة كالزرافين، وهي الحلق الصغيرة، واحدها زرفين.

وتجدد من هذه الأقاويص ما هو طريفٌ حول إنشاء أيا صوفية^(٢)، فقال إنه اقتبسها من تاريخ المؤرخ العثماني القديم: إدريس، وإليك ما نقتطفه منها:

« ويواصلُ العمل في الهيكل في تلك الأثناء، وتوضعُ في وسط المذبح، وعلى عرشٍ من فضة، صورةٌ ذهبيةٌ للسيد المسيح، وتوضعُ على الجانبين تماثيل فضية لحواري عيسى الاثني عشر، ويرتَّبُ على اثني عشر كرسيًّا اثني عشرة نسخةً من الإنجيل كاملةً التجليد، وتعلَّقُ في قبة أيا صوفية ستة آلاف مصباح، من ذهبٍ أو فضة، مجملٍ بالحجارة الكريمة كان أمراءٌ كثيرون قد أهدوها إليها، ويُجعلُ فوق الرّجاج^(٣) لوحٌ لسفينة نوحٍ مرصعٌ بالذهب... ويروى مع التوكيد أنه أنفقَ على إنشاء هذا البناء ثلاثمئة ألف وأربعمائة سبيكة ذهبٍ تساوي قيمة كلِّ واحدةٍ منها ألفَ دوقا، وقد ورَّع جُستينيان على الفقراء صدقاتٍ كثيرة تيمناً بما وُفق له من إتمام هذه الكنيسة الفخمة، وأتى القسطنطينية ملوكٌ كثيرون لحضور افتتاح أيا صوفية، ووُجدَ فيها ثلاثة آلاف قسيسٍ أو راهبٍ حاملٍ كلِّ واحدٍ منهم شمعاً بيضاء بيده... وتمضي ستة أشهر فيرتجُّ عمودُ جُستينيان الوجوديُّ»، وبذلك يُقصدُ أنه مرضَ ثم مات، ويقول لنا المؤرخ التركيُّ أنه بعد سنتين من ارتقاء خلفه، جُستان، سقطت قبة أيا صوفية، « فسافر ما يزيدُ على أربعمئة رجلٍ، ومنهم

(٢) إدريس البتليسي، مؤلف التاريخ العثماني، توفي سنة ٩٣٠.

(٣) الرجاج: الباب العظيم.

البطركُ، على طريق الموت»، ثم عَقَبَتْ ذلك أسطورةً طويلةً حَوْلَ المِعماريِّ أَغناديُوس وكيفيةِ تَخْلِصِهِ مِنَ العِقَابِ بعد ترميمِ القُبَّةِ، وتسقطُ هذه القُبَّةُ مرَّةً ثانيةً عند ولادةِ محمد.

وأما من جهة الأزمنة القريبة من زمن سعد الدين فقد بدأ مؤرِّخاً أميناً لها، وما شابَ أسلوبه من تكلفٍ لم يُؤذِ ناحيةَ الدقة كثيراً، وإنا نُقدِّمُ صفحةً من الصَّفحات الجميلة التي خصَّ بها فَتَحَ القسطنطينية^(٤) من قِبَلِ محمد الثاني، قال سعد الدين:

«أقام الترك المتاريسَ بعد أن نَصَبُوا فِي النِّقَاطِ الملائمة مدافعهم ذاتَ وجوه الشعبان ورؤوسِ التَّنِينِ التي حُكِيَ عنها، وَيُفَوِّضُ إِلَى كِتَابَتَبَ مِنَ الأَنْكَشَارِيَةِ والعَزَبِ^(٥) أَنْ تَقُومَ بِهَذَا العَمَلِ، وَتُفْتَحَ ثُقُوبٌ وَثُغْرَاتٌ فِي الجُدُرِ والحِصُونِ المِشَابِهَةِ لِعُشَّاقِي زَافِرِينَ، وَتُوسَّعُ الحُرُوقُ التي أَحْدَثْتَهَا المِدَافِعُ وَالدَّائِكَةُ لِلقَلَاعِ، وَيَرُبُّكَ الكَافِرِينَ وَيَفْتُ فِي عَضُدِهِمْ مَا تَرْمِي بِهِ هَذِهِ المَرَّاجِلُ ذاتُ الفِوَهَاتِ أَلْمَلْتَهَبَةِ مِنَ نارِ، وَمَا يَتصَاعَدُ نَحْوِ النِجُومِ مِنَ دُخَانِ يَحُولُ دُونَ نَفُوذِ القُوَى البَاصِرَةِ بَعِيداً، وَيَصِيرُ النِهارُ المِنيِرُ مِشَابِهاً لِللَّيْلِ المِدهِمِّ، وَيَتَحَوَّلُ وَجْهُ الأَرْضِ إِلَى رِيحِ سِوداءِ كِسِوادِ مِصِيرِ الكَافِرِينَ الأَشْقِياءِ، وَيَأْتِي فَمُ السِّهْمِ، المُرْسَلِ بِدَلِيلِ القِوسِ إِلَى الأُذُنِ، بِمَا لَا يَسِرُّ العَدُوَّ الوَاجِمَ مِنَ صِوتِ عَالٍ قَائِلٍ: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ المِوتُ...»

(٤) شارل ويلز، الأدب التركي، لندن، ١٨٩١ ص ٢٩

(٥) العزب: حملة البنادق في الاصطلاح البحري التركي القديم.

« وفي غُضُونِ ذلك يَأْتِي لمساعدة الفَرَنْجِ مركبان كبيران يناطحان السماءَ بصَوَارِيهما، وَيَصِلُ الشياطينُ الذين يركبونهما إلى أسفل الحصون وَيَدْخُلُونها، وَيَأْخُذُونَ في سَدِّ الخُرُوقِ والثُّغُرَاتِ التي أُخْدِثَتْ فيها وفي دَحْرِ الجيشِ الإسلاميِّ من حَوْلِ الأسوارِ، على حين كان المَلَكِيُّ، الذين لا دِينَ لهم والذين هم فوق الجُدُرِ، يُخْرِجُونَ رؤوسَهُم من الحُصُونِ على نَمَطِ السَّلَاحِيفِ ويشتموننا.»

ويُشيرُ بعضُ رجالات الجيش الإسلاميِّ على السلطان بالارتداد، ولكن بما أنه لم يكن للعالم الكبير الشيخ أحمد قُورَاني والشيخ المشهور آق شمس الدين والوزير البارع زغُتوس باشا مع فاتح العالم السلطان غير قلب واحد ولسان واحد فإنهم عارضوا كلَّ ما يُبيحُ السَّلْمَ والتوفيق، فقد قالوا: «ليس من عَزْمِ الأمور أن تُنزعَ اليدُ من رِداءِ النصر»، وحرَّضوا الجُنْدَ على ما فيه الفَلَاحُ، وأوضحوا لهم معنى القول المأثور بأن القسطنطينية هي درة فتحهم لامبراطورية الروم. هنالك استعدَّ أبطالُ الجهاد هؤلاء لبذل أجسامهم وأرواحهم في سبيل الدين فأضاءوا ميدان القتال بوميض سيوفهم ليلَ نهار.

وفي تلك الأثناء يَرَى السلطانُ المحظوظُ أن إلهة النصر تَدِلُّ حتى تُبَدِّيَ نفسها، فيَجْمَعُ جميعَ أمرائه من ذوي الذهن اللامع ويقول لهم ما يَأْتِي: «إن الدخول من هذه الناحية مُوصَدٌّ بخندق عميق، ولا تُحصى وسائل الدفاع عنه وحراسته، ولا يمكن أن يجاوز الخندق بلا كبيرِ عناءٍ، ولا يَجِدُ بَرِيدُ سَوانِحنا نقطة يُمكن أن تُقْتَحَمَ منها المتاريس، وتُوجدُ ثلاثة جُدُرٍ، فتوجيهُ الجُهدِ إلى

هذه الجهة إضاعةً للوقت، وإذا ما حُمِلَ على ناحية واحدة صَعِبَ
الانصرار على العدو وأدى ذلك إلى قتل كثير من الرجال، فيجبُ
أن توجد وسيلةً للمهجوم على الحصون من ناحية البحر.»

وكانت قد أُلقيت سلسلة على المَضيق الفاصل بين إستنانبول
وغلطة فتحول دون مرور السفن، ولا يُمكن أن يوتى بمراكب من
تلك الناحية، ولم يصل جميع أركان العرش (المستشارون) الذين
قدحوا زناد أفكارهم حول هذا الأمر إلى نتيجة، وأخيراً تلوح
هذه النتيجة لفكر السلطان المُلهَم والفاتح للأقطار، أي أنه يُجرُّ من
ناحية الحصن الجديد عددٌ من السفن فتجلب إلى البحر من وراء
غلطة، وأن الحصون تُضرب من ناحية البحر، أيضاً، بمدافع تُمرُّ،
ومع أن هذه الخطة خارجة عن نطاق الممكنات المعتادة فإنها
حُققت بعون العاهل البخيت بسهولة، أي أنه، بما كان عليه
خبراًؤه المهرة في فن جرّ الأثقال من استعداد، جرّت السفن من
البحر واحدة بعد الأخرى، وأنه جذب إلى البر على ألواح
مُشحمة، وبين طلعات ونزلات، كثيرٌ من هذه الجوّاري^(٦)
المنشآت^(٧) كالأعلام^(٨)، ويُقدّف بها في البحر، ويوضعُ جسرٌ على
هذه المراكب، وترتّبُ أمام الكافرين كتائبُ باسلة وتعدُّ متاريسُ
على طول القسطنطينية.

(٦) الجوّاري: جمع جارية، وهي السفينة.

(٧) المنشآت: المرفوعات.

(٨) الأعلام: جمع علم، وهو الجبل الطويل.

ونعياً مؤلفٌ أسهلُّ من سعد الدين كثيراً، وأحسنُ ملاءمةً لذوقنا، ولأسلوبه ما نُحِبُّ من صفاتِ الوُضوحِ والرَّشاقةِ والاستقامةِ والدقةِ والخُلُوِّ من الزُّخْرُفِ الذي لا طائلَ تحته، وفضلاً عن ذلك فإن الترك كثيراً كثيرو التقدير له أيضاً، وكتابه مُنتَشِرٌ في مكنتهم، ويُعدُّ من أول ما نُشِرَ منذ قيام الطباعة بإستانبول في عهدِ أحمدِ الثالثِ (١٧٠٣ - ١٧٣٩)، وكان قد طُبِعَ في مجلدين مع كتابِ مواصِلِهِ: راشدٍ.

ووصف نعياً خبرَ معركةِ كِرسْتِس، خبرَ هذا القتالِ الذي دام ثلاثةَ أيامٍ فانتَهى بنصرِ العثمانيين بفضلِ نشاطِ المؤرخِ سعد الدين وبصره بالأمر، وكان ذاك الأمرُ في أوائلِ عهدِ محمد الثالث، وكانت أيامُ الدولةِ الجميلةِ قد مَضَتْ كما يُلُوح، وكان سلاحُ الإسلامِ قد أُصِيبَ بِنَكَسَاتٍ في أوروبا، وكان الصدرُ الأعظمُ قد خَسِرَ جيشَه في مَنَاقِعِ قَلُو جيرانِ بفلَاشية، وقد أَلَفَ جيشاً آخرَ ففُضِيَ عليه من قبل أميرِ الفلَاقِ، مِيشِل، عند مَعْبَرِ نهرِ الدانوبِ بِيخَارِسْت، وأُيِّدَ جيشٌ ثالثٌ على يدِ ابنه أمامَ مدينةِ غِرَانَ بَهَنْغَارِيَّة، فصارت مواقعُ إِبْرَائِيلِ ووارنه وكيَلِيَّةِ وإِسْمَاعِيلِ وسيلسترةِ وروچوكِ وبخارستِ وأكِرْمَانَ فريسةَ الفلَاقِيينِ والنمُسويينِ والهَنْغَارِيينِ المتحالِفينِ، قال لامارتين: «كان يُلُوح انهيارُ كلِّ رُكْنٍ في الدولة»، وما أكثرَ البلايا التي هَزَّتِ السَّرَايَ! فقد أمرَ السلطانُ بإقامةِ صلواتٍ عامةٍ في آتِ مِيدَانِ، ثم دُفِعَ بِصِيحَاتِ الشَّعْبِ فَعَزَمَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ عَلَى رَأْسِ جِيوشِهِ، فغادرَ إِسْتَانْبُولَ فِي ٢١ مِنْ يُونِيهِ سَنَةِ ١٥٩٦، وَكَانَ الصَّدْرُ الْأَعْظَمُ

إبراهيم، الذي خَلَفَ سِنَانَ يَقودُ الكَتَّابِ، وكان سعدُ الدين يقومُ بالشؤونِ الدِّبْلُميةِ والمدنيةِ تحتِ إمرتهِ.

ويَبْلُغُ الجيشُ التركيُّ أسوارَ إرْلُو، ويستولي على المكانِ في اثني عشر يوماً، ويَصِلُ الأرشيدوكُ مَكْسِمِيانُ، وأميرُ تَرَنْسَلْقانيةِ: سِيَجْسَمُنْد، وأميرُ فَلَاشيةِ: مِيْشِل، بعد الأوانِ فلا يُعدُّونه، ومع ذلك فإن هؤلاء عندما بَدَوْا زُلْزَلَ السلطانِ إزاءِ قواهم المتحددة ذاتَ ساعةِ فمال إلى التقهقر، ويعارضُ هذا الرأيَ صُوقولِيُّ ابنُ الصدرِ الأعظمِ المشهورِ الذي يَحْمِلُ هذا الاسمَ قائلاً في المجلس: «لم يُسَمَّعْ أن سلطاناً للعثمانيين تَقَهَّرَ بلا داعٍ»، ويؤيِّده سعدُ الدين قائلاً مع التوكيد: «ليس هذا ظَرْفًا يُمكنُ اتِّخَاذَ معاونين فيه، فالشرفُ والوجوبُ هما اللذان يهيمنان على حضور السلطان»، وتَقَعُ المعركةُ في ٢٦ من أكتوبرِ إِذَنْ، واسمَعُ ما يقولُ المؤرخُ نعيماً^(٩):

«أخذ الكُفَّارُ يتحركون بعد الظهر، وظهروا كُتْلَةً، وأولُ ما بَدَتْ كَتَّابُ مشاة الألمان اللابسين دروعاً، ثم ظهر بعضُ الكَتَّابِ الزُرْقِ كالسَّماءِ، والمسليحةُ ببنادقٍ فَيْتِيلِيَّةٍ فَتَقْدِفُ خمسةَ عشرَ درهماً، أو عشرين درهماً، من الرِّصاصِ، ثم ظَهَرَ لُصُوصُ المجرِ وكتَّابُ حاملةُ أسلحةٍ ناريةِ، أي ما يَزِيدُ مجموعُهُ على مئةِ كَتَّابِ من المشاة تشتملُ كلُّ واحدةٍ منها على خَمْسَمِئَةِ كافرٍ، ثم جاءت كَتَّابُ الفرسانِ المجريةِ التي تُحَدِّثُ بأعلامها وحِرابها انطباعَ رَبْوَةٍ مُشَجَّرَةٍ،

(٩) شارل ويلز: الأدب التركي، ص ٧٣ - ٧٧

ثم تَجِيءُ بعدها كتائبُ فرسانٍ مؤلَّفةٌ من ألمانٍ وبوهيميينٍ
ويُولُونيينٍ وغيرهم من الشعوب، وكان كلُّ كافرٍ يَحْمِلُ من البنادقِ
المجرية ما يترجَّحُ بين ثلاثٍ وخمسٍ، وكان عدد هذه الكتائبِ
يزيد على خمسين.

« وَيُرْسَلُ مراد باشا ورئيسُ البُسْتَانِجِيَّةِ (أي الحرس والبوليسِ
الحربي)، علي باشا، لتقوية سِنانِ باشا، وَيَلْحَقَانِ به، ولكن بما أن
جميع النصارى كانوا حاملين أسلحةً نارية فإن المقاومة صارت
مُتَعَذِّرةً، وَتَنْحَلُّ عَرَى الكتائبِ الإسلامية، وَتَمُرُّ من المَنَاقِعِ،
وَتَنْتَشِرُ في السهل، وَيَضْرِبُ الكُفَّارَ بالمدافع والأسلحة الصغيرة،
وَيَقْرَعُونَ الطُّبُولَ، وَيَقْطَعُونَ المَنَاقِعَ، وَيَزْحَفُونَ إلى جيشنا تَوًّا،
وكان حسن باشا قد تَلَقَّى أمراً بالذهاب مع كتائبِ الرُّومِليِّ إلى
رأس الممرِّ ووقِفِ العدوِّ هناك، وَيَتَوَجَّهَ، ولكن قوة أسلحة العدوِّ
النارية تحوّل دون البقاء في ذلك المكان، وَتَلْحَقُ كتائبُه بالكتائبِ
الأخرى، وَيَأْتِي الكُفَّارُ إلى مُعَسْكَرِنَا بلا وَجَلٍ وَيَنْهَمُكُونَ في
النهب قبل أن يصاب جيشنا بالهزيمة تماماً، حتى إن بعض الكفار
يَهْجُمُونَ على خِزَانَتِنَا وهم حاملون رايةً أو رايتين، وَيُسْتَتُّ شَمْلُ
الأنكشارية والسباهي (فرق فرسان من المتطوعين) المحافظين
عليها، وَيَنْقَضُ النصارى على الصناديق، وَيَرْفَعُونَ أعلامهم حاملين
الصليب، وَيَأْخُذُونَ في الرقص.

« ولما رأى السلطان سيرَ الأمور على هذا المنوال سأل خوجه
أفندي (سعد الدين)، الذي كان ماثلاً بين يديه، عما يَجِبُ أن
يُصْنَعُ، فكان جوابُ الخوجه قوله: «مولاي! الرأْيُ أن تَظَلَّ هادئاً
ثابتاً حيث أنت، وهذا ما كان يَحْدُثُ أيامَ أجدادك في كثيرٍ من

كُتِبَتِ المَعَارِكُ، فَلسوف يُؤْتَى النصرُ للمسلمين بركة محمد إن شاء الله»، ويُرَوَى أن السلطان كان رَاكِباً حِصَانَهُ شديدَ الاكْتِتَابِ مع سعد الدين الذي بَقِيَ واقفاً بجانبه، فَرَفَعَ الاثنان أَيْدِيَهُمَا نحو السماء ضارعين خاشعين.

وَتُبْصِرُ عَاقِبَةَ الحَوَادِثِ، ولا مَرَاءٍ في أن انكسار المسلمين لم يَكُنْ في غير الظاهر، وإن لم يَقُلْ نَعِيمًا ذلك، فَمَا أن النصارى تَمْتَعُوا قَبْلَ الأوان بنصرٍ لم يَنَالُوهُ بَعْدُ فَإِنَّهُمْ فوجئوا في مَعَسَكَرِ أَعْدَائِهِمْ مُخْتَلِي النِظَامِ، قال نَعِيمًا: «إن أبطال الدين القويم ظَهَرُوا في صورة خَدَمٍ للأصابل وطُهَاةٍ وَأَجْرَاءَ لَدَى الأَنْكِشَارِيَّةِ، فَتَسَلَّحُوا بِفُؤُوسٍ صَغِيرَةٍ ومجَارِفٍ خَشْبِيَّةٍ وما ماثل ذلك من الأَدَوَاتِ فَانقَضُوا على الكافرين، وَجَنَدَلُوا أَناسًا كَثِيرِينَ مِنْهُمْ بَضْرَبِهِمْ على رؤوسهم، ولم يَلْتَقِ الجندُ النظاميون مَشَقَّةً في إتمام النصر، «فَقُطِعَ بالسيف من غير رحمةٍ ما يَزِيدُ على خمسين ألفَ كافرٍ، ومن الكَفَرَةِ من تَلَبَّكُوا في المناقع حيث قُطِعَتْ رؤوسهم، وَقَتَلَ سِنَانُ باشا مع كتابته في نصف ساعة عشرين ألفَ فارسٍ نصرانيٍّ أَتَوْا إلى مَيْمَنَةِ الجيش السلطانيِّ كما دَحَرَ إلى الماءَ عددًا كبيرًا من فرسان النصارى، وَمَنْ بَقِيَ حَيًّا من جند النصارى لاذ بالفرار، وَيَتَعَقِبُهُمْ «فتح غيرائي» من كلِّ جانبٍ بكتائبٍ تتريةٍ، وَيُمنِعُ في قتلهم، وَحَطَّمَ فِرْقَهُمْ، وَحَاوَلُوا التَّحَصُّنَ في خِيَامِهِمْ، ولكن من غير أن يستطيعوا الثبات، فَتَرَكَوا مَتَاعَهُمْ وَعُدَدَهُمْ فَارَّينَ في الجبالِ ناجين برؤوسهم فقط، وَيَقَعُ في أيدي الغالبين سبعةٌ وتسعون مِذْفَعًا فَخْمًا يَغْدِلُ ثَمَنَ الواحد منها عشرة آلاف دُوقًا، وَيَغْنَمُ الغالبون قنابلَ ومخازنَ زاخرةً بالمِيرةِ العسكرية.»

ولقد خَلَّفَ لنا «حاجي خليفة»، الذي هو مؤلِّفٌ في القرنِ السابعِ عشرَ، والذي سنعود إلى الكلام عنه في، المَطْلَبِ الآتي، تاريخاً عن حروب الترك البحرية^(١٠)، فَيَعُدُّ مُسْتَنَداً عالي القيمة، وقد استنبطت قطعة طويلة في هذا التاريخ من مذكرات أمير البحر المشهور: بارباروسَ خير الله، قال المؤلف:

«كان هذا الباشا، الذي بلغ أعلى درجات المجد في بلادنا، جندياً شجاعاً باسلاً ووجيهاً عجيباً، فلما مَثَلَ أمام السلطان سليمان خان استقبله هذا السلطان بأعظم إكرام، وطلب منه أن يكتب رسالةً عن مغامراته، فاختر خيرُ الله من بين كتب رفقائه أخباراً عن مغامراته الأصلية وألَّفَ منها كتاباً، وقَدَّمه إلى السلطان، وقد أَدْرَجْنَا مُعْظَمَه في كتابنا».

وهناك قُصٌّ على وجهٍ مختصر، ولكن مع الوضوح، خَبَرُ غَزَوَاتِ خير الدين في الجزائر وتونس وتَلْمِيسَانَ، إلخ..، وها نحن أولاء نقطف نصّاً خاصّاً بصراعٍ وَقَعَ أمام لِيبيَانتو (١٤٥٠ هـ، ١٥٣٨ م.) حيث تَمَّ الفوز للعثمانيين:

بما أن «أُنذِرُه دُورِيَا» كان يستعدُّ للدخول إلى خليج لِيبيَانتو في ٣ من جمادي الأولى فإن خير الدين ألقَ نحو «بَحْشِيلَة»، ولما بَلَغَ هذا المكان أمر بطلُوع بعض الرجال فوق الصواري، فرأى

(١٠) تاريخ حروب الترك البحرية، ترجمة جيمس ميتشل، قسم ١، من مجموعة لجنة الترجمة الشرقية، وقد نشر المتن بالآستانة في بدء طباعتها، ويشتمل الكتاب المذكور أيضاً على بحث في مبادئ الملاحة وأنظمة إمارة البحر.

هؤلاء شُرُوعاً في جوار سَنَتَامُورَا وفي ميناءِ إِنْجِيرِ، وَلَسْرُعَانَ مَا أَقْلَعَ
وَأَمَجْرَ مُسْتَعِدّاً لِلْقِتَالِ، وَيُبَصِّرُ الْكَافِرُونَ ذَلِكَ، وَيَخْرُجُونَ لِلِقَائِهِ،
وَتَكُونُ الرِّيحُ مَلَائِمَةً لَهُمْ فَيُذْعَرُ الْمُسْلِمُونَ، وَذَلِكَ لِعَدَمِ اسْتِطَاعَةِ
سُفُنِ النُّقْلِ أَنْ تَقَاتِلَ الْمَرَاقِبَ الْعَالِيَةَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ،
وَيَكْتُبُ خَيْرُ الدِّينِ آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ وَيُلْقِيهِمَا فِي
الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِي سَفِينَتِهِ، وَلَمْ تَلْبَثِ الرِّيحُ أَنْ هَبَّتْ،
فَسَكَنَتِ السُّفُنُ الْكَبِيرَةَ، وَأَخَذَ الْكَافِرُونَ التُّعَسَاءَ، الْمَصْفُوفُونَ
عَلَى خُطُوطٍ مُنْتَظِمَةٍ، يُطْلِقُونَ مَدَافِعَهُمْ، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ كَبِيرِ
جَدْوَى، وَكَانَ أَوْلَى مَا تَقَدَّمَ مَرْكَبُ نَصْرَانِيٍّ، فَأَطْلَقَ نَاراً حَامِيَةً، وَلَمْ
يَنْشَبْ هَذَا الْمَرْكَبُ أَنْ دُجِرَ بِنَارِ الْأَسْطُولِ التُّرْكِيِّ، - ثُمَّ التَّزَمَ
بَارْبَارُوسُ خِطَةَ الْمَهْجُومِ، فَقَابَلَ أَسْطُولَ أَنْدَرِهِ دُورِيَا بِالمِثْلِ، قَالَ
الرَّوَايُ: «كَانَتِ الْقَنَابِلُ تَتَسَاقَطُ كَالْمَطَرِ، وَبَلَغَ الدُّخَانُ مِنْ
اِكْتِنَافِ الْأَسْطُولَيْنِ بِحَيْثُ صَارَ كُلُّ مَنَّهُمَا لَا يَرَى الْآخَرَ، وَكَانَتِ
مَرَاقِبُ الْعَدُوِّ الْعَالِيَةِ كَالْقِلَاعِ الْعَائِمَةِ، وَغَدَّتْ مِنَ التَّدَافِعِ بِشِدَّةٍ مَا
صَارَ تَفَاصِلُهَا مُتَعَذِّراً مَعَهُ»، وَيَذْخَرُ الْأَسْطُولُ الْعُثْمَانِيُّ هَذِهِ السُّفُنَ
الضَّخْمَةَ، وَيُفْرِقُ كَثِيراً مِنْهَا، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى سُفُنِ النُّقْلِ، وَتَكُونُ
هَذِهِ السُّفُنُ عَلَى مَسَافَاتٍ قَصِيرَةٍ، فَتَعْجِزُ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الْقِتَالِ
وَتَبْتَعِدُ، وَيَرَى أَنْدَرِهِ دُورِيَا هَذَا الْإِنْكَسَارَ، وَيَنْتَفِ عُنُونَهُ^(١١)،
وَيَلُودُ بِالْفِرَارِ، وَتَتَّبِعُهُ سُفُنُ النُّقْلِ، وَيُحْرِقُ الْكُفَّارُ مَا بَقِيَ مِنْ
السُّفُنِ الْكَبِيرَةِ.

(١١) العثونون: اللحية.

مترجمو أحوال من الترك كلمات عن الشعر التركي، ثناءً على عبد الباقي

كان لدى الترك مؤلفون مهمون لمعجم السير والتراجم، فعندهم قواميس عن العلماء والأساتذة والشعراء والوزراء وشيوخ الإسلام، كما يوجد عندهم موسوعات تاريخية وجغرافية، وأهم مؤلفي هذا الطراز طاشكوبيري زاده وكاتب جلبي^(١٢)، فأما الأول فموسوعي ومترجم للأحوال واسع الشهرة في تركيا، وكان أستاذاً في أدرنة وفي استانبول، وقاضياً للأستانة، وتوفي سنة ٩٦٨ (١٥٦٠م)، وتشتمل موسوعته التي اسمها «مفتاح السعادة» على «١٥٠ علم»، ويشتمل أثره في التراجم على سير ١٥٠ عالم و ٥٠ شيخاً، وقد زيد من قبل مجدي وواصله عطاء الله بن يحيى، - وترك لنا كاتب جلبي، المعروف باسم حاجي خليفة لدى المستشرقين عادةً، مُعْجَمًا موسوعيًا وترجميًا مُقَدَّرًا جَدًّا ومُنْتَفَعًا به كثيراً غالباً، وقد طبع ببُولاغ وإستانبول، كما طبع عندنا في سبعة مجلِّداتٍ من قبل فلوغل (لنيزج - لندن، ١٨٣٥ -

(١٢) توجد كلمات عنهم في «تاريخ الأدب العربي» لبروكلن، ٢: ٤٢٥ و ٤٢٧.

(١٨٥٨) وحاجي خليفة هو من المؤلفين الذين نُشِرت آثارهم في الآستانة عند تأسيس الطباعة فيها، وقد طُبِعَ في ذلك الحين كتابه «جِهَانُ نَمَا» أو مرآة العالم الذي هو وصفٌ لأقطار الشرق وفق مصادر الشرق وبعض المصادر الغربية التي أطلعه عليها مرتدٌ نصراني وكذلك كتابه «تقومُ التواريخ» أو مُعْجَمُ الملوك والعظماء الذي أُوصِلَ إلى سنة ١٧٣٢، وتاريخه عن البحرية العثمانية^(١٣) حتى سنة ١٦٥٥، وقد قام هذا البَحَاثة، الذي كان خَوْلِيَّ الجيوش العثمانية، بعدة رِحَلَاتٍ خَلَفَ الكِتَابِ، وتُوَفِّيَ سنة ١٠٦٨ (١٦٥٨ م.)، في الستين من عُمره إلا قليلاً.

وكان للترك مَيْلٌ كبيرٌ إلى الشعر، وَيَنْطَوِي أدبهم على مجموعة من تراجم الشعراء، وهنا نختار، كمثالٍ، مديحاً لعبد الباقي وفق ما جاء في مجموعة عربية، وهذا الشاعر، الذي يُدْعَى «باقياً» فقط، هو أشهر من ظَهَرَ بعد «فُضُولِي» في المدرسة القديمة، وقد تُوَفِّيَ سنة ١٠٠٨ (١٥٩٩ م.)، أي في عصر سليمان وخَلَفِيهِ سليم الثاني ومراد، وقد كان كاتباً رقيقاً ذا طَبْعٍ عاطفيٍّ حَسَّاسٍ^(١٤)، وفضلاً

(١٣) لدينا منه، أيضاً، كتابٌ نفيس طبع في ذلك الحين، واسم هذا الكتاب «تاريخ الهند الغربية»، وهذا هو تاريخ كشف أمريكا، وطبع هذا المجلد أُنِيقٌ، وهو يشتمل على خرائط وعلى صفائح خشبية مسلية كثيراً حيث يرى الهنود والحيوان البري، وقد ذُكِرَ في آخر الكتاب أن طبعه تم سنة ١١٤٢ من قِبَل «الفقيه إبراهيم» أو قِيمَ المطبعة العثمانية: بصمه جي إبراهيم.

(١٤) ادمون فازي وعبد الحليم ممدوح، مجموعة من الغرام التركي، باريس، ١٩٠٥، ص ٣٧ - ٤٢.

عن ذلك فإن الشاعر كان على شيء من الارتياب، فهو يُظهِرُ أن بعض الأتقياء لاموه على ما يجدُ من لذةٍ بالعيش « في هذه الدنيا الدنيّة ».

ويُفَصِّلُ صاحبُ السيرة الذي نذكره ما لا يُفَضِّلُه جميعُ مترجمي الأحوال الترك، من التصورات النادرة والأسلوب المتكلف، وقد كُتِبَ هذا الشئاء عن جهدٍ أكثر مما كُتِبَ عن ذوق، ومع ذلك فإنه يدلُّ على أن الترك يمتازون بحبِّ التزويق الأدبي وإن كانوا لا يَضْعُون ذلك في محله أحياناً.

ولا يُلَوِّح لنا أن الشعر التركي القديم ذو صفاتٍ على شيء من العمومية وقابلية النقل إلى لغات أخرى بما فيه الكفاية، ولذا فإننا لا نرى أن نخصّه بدراسة طويلة في هذا الكتاب، ويظهر لنا أن مدرسة شعراء التُّرك المُحدَثين البالغى الرِّقة وذوي الذوق الحَسَن أدعى إلى الالتفات، وستكلم عنهم في جزء لاحق لا ريب.



كُتِبَ سِيَّاحَ عَنِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ

وَالْقَرْنَ الثَّامِنَ عَشَرَ:

أُولِيَا أَفندي، مُحَمَّدَ أَفندي

رِحْلَتِهِ إِلَى فَرَنْسَةِ فِي عَهْدِ لُؤيسِ الْخَامِسِ عَشَرَ

يُوجَدُ لَدَى التُّرْكِ كِتَابٌ جَيِّدٌ فِي الرُّحَلَاتِ نَمِيْزٌ مِنْ بَيْنِهَا كِتَابُ أُولِيَا أَفندي^(١٥)، فَهَذَا الْمُؤَلَّفُ الَّذِي ظَهَرَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، فَكَانَ كَثِيرَ الْفَضْلِ وَالتَّامُّلِ، قَدْ دَرَسَ مَطْوَلًا كَثِيرًا مِنْ بِلَادِ أَوْرُوبَةِ وَأَسِيَةِ كِبُورْسَةِ وَطَرَابِزُونَ وَجُورْجِيَا وَالْقَرِيمِ وَمَالِطَةَ وَتَبْرِيزِ، وَلَا سِيَّامَا الْأَسْتَانَةَ، وَوَجْهَةُ النَّظَرِ الْعَسْكَرِيَّةُ هِيَ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ غَالِبًا، فَتَرَاهُ يُكْثِرُ مِنْ وَصْفِ الْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ، وَقَدْ أَفْرَدَ فَصْلًا طَرِيفًا لِمَسَبِّكَ الْمُدَافِعِ بِالْأَسْتَانَةِ فَنُورِدُهُ مَعَ قَلِيلِ اخْتِصَارٍ، وَمِنَ الْمُتَمَتِّعِ كَثِيرًا، أَيْضًا، مَا تَنَاوَلَهُ فِي مَعْرِضِ الطَّبَاعِ وَالْاجْتِمَاعِ مِنْ قِسْمِ أَفْرَدِهِ لِمَجْمَعِيَّاتِ الْعَمَالِ وَالتَّجَارِ بِالْأَسْتَانَةِ، فَهُوَ يَشِيرُ إِلَى عَدَدِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ، كَمَا يَشِيرُ إِلَى عَدَدِ الدَّكَاكِينِ، وَمَا تَزَيَّنُّ بِهِ مِنْ إِشَارَاتٍ، وَإِلَى أَسْمَاءِ أَوْلِيَاءِ النَّقَابَةِ، (وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ

(١٥) رِحْلَةُ إِلَى أَوْرُوبَةِ وَأَسِيَةِ وَإِفْرِيْقِيَّةِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ لِمُؤَلِّفِهَا أُولِيَا أَفندي، تَرْجُمَةُ: ج. فُونِ هَامِر، لَنْدُنَ ١٨٤٦ و - ١٨٥٠، الْقِسْمَانِ فِي مَجْلَدٍ وَاحِدٍ.

لهذه النقابات أولياء حُماة كقديسي النصرانية)، وغير ذلك من التفصيلات الكثيرة.

ومن ذلك، مثلاً، أن لِقْيُون^(١٦) حديد الأحذية، أي الحديد الذي يُوضَع تحت النعال لتقويتها، ألفُ عاملٍ وأربعمئة دكان، وأن وليهم الحامي حدَّادٌ من خراسان وقبره بهرآة، فيزيئون دكاكينهم بأنواع حدائد الأحذية المسماة بالكبادي والحزومي، إلخ، فتصنع في النار.

ويتكلم المؤلف عن نحو خمسين من هذه الجمعيات التي منها ما هو خاصٌّ بالمتفنين كالمصورين والمعماريين والموسيقيين والمغنين، حتى المُجَّان والممثلين الهزليين.

واليك كيف يَصِفُ صَبَّ المدافع تقريباً، وذلك أن القوالب تُعدُّ في قاعاتٍ مُعدَّةٍ لهذا الغرض، فيوضَع في الوسط قضيبٌ من صلصال حتى إذا تمَّ الصَّبُّ نُزِعَ القضيب وتكوَّن تجويفُ المدفع.

وتُبنى أفرانُ صهرِ النحاس من الجهتين بنوعٍ خاصٍّ من الحجارة التي يُمكنها أن تقاوم قوةَ النهار، ويكون القسمُ الأسفلُ من الأفران مجوّفاً، ويكون القسمُ الأعلى منها مُقَبَّباً، ويوضَع فيها ما بين الأربعين والخمسين ألفَ قنطارٍ من البرونز مع قطعٍ من المدافع القديمة، ويُعدُّ مقدارٌ كبيرٌ من القصدير.

فأمام هذه الأفران المُقبَّبة تُدْفَنُ قوالبُ المدافع، وتكوَّن الفوهةُ

(١٦) القيون: جمع القين، وهو الحداد، ويطلق على كل صانع.

من فوق، وإذا ما دار الموضوع حَوْلَ المَدَافِ ذاتِ العِيَارِ القويِّ فإن
عشرة قوالب تُوضَعُ في الحُفْرَةِ، وإذا ما دار حَوْلَ مَدَافِ القَوْلُورين
وُضِعَ عشرون، وإذا ما دار حَوْلَ المَدَافِ الصغيرةِ وُضِعَتْ مئة؛
وعندما يَصَبُّ من المَدَافِ البالغةِ من الضخامة ما يستطيع الرجل
الواحد ان يَدْخُلَهَا معه فإنه لا يُصَبُّ سوى خمسة دفعاتٍ واحدة،
وتُغَطَّى فَوْهَاتُ هذه الطَّرُزُ بالصلصال، فتُشَقُّ على الأرض،
حينئذٍ، ميازيبُ، كالتِي يَصْنَعُهَا البُستانيُّ لسَوقِ ماءِ البساتين،
فتَجْرِي من الأفران إلى القوالب، وتُوضَعُ في جميع جوانب الأفران
أكوامٌ كبيرة من الحَطَبِ الجافِ.

فإذا حَلَّ يومُ السَّبَكِ اجتمع جميعُ المعلمين ومعاونيهم
والسَّبَّاكُونِ وقائدُ المدفعية والحارسُ الأولُ والإمامُ والمؤذنُ
والموكلُ، وأُلقِيَ الحَطَبُ في الفرن مع الهُتافِ بـ «الله! الله!»،
وتزود النارُ أربعاً وعشرين ساعةً، ويَلْبَسُ السَّبَّاكُونُ، بعد انقضاء
هذا الوقت، رداءً لا يَدَعُ ما يَرَى غيرَ العينين، وكُمَيْنِ صَفِيْقَيْنِ
حفظاً لليدين، ويؤتَى بالوزير والمفتي والشيخ، ويُقَبَلُ أربعون
شخصاً زيادةً عليهم، ويُسَرَّحَ الحَدَمُ خوفاً من إصابة المعدن الذائب
بالعين المصيبة بسوء، ويُقَدِّفُ المعلمون السَّبَّاكُونِ، مع أكوام
الحطب، نحو مئة قنطار من القصدير في بحر النحاس الذائب،
ويُلْقِي الصدرُ الأعظمُ فيه صُرَّراً من ذهب، فيقتدي الوجوهُ
الآخرون به، ويُستعان بِعُصِيٍّ من الصَّنَوْبِرِ طويلاً كالصَّوَّاري لَمَزَجِ
الذهب والفضة بالمعدن، فمتى أخذ هذا يَفُورُ زِيدُ الحَطَبِ، ونُطِقَ
ببعض الأدعية، ثم فُتِحَ فَوْهَةُ الأفران، ويسيل المَعْدِنُ المائعُ
منها، وَيُنِيرُ وجوهَ الحُضُورِ من مسافة مئة خُطوة، وَيَجْرِي في

الجدول الذي يسوقه إلى القالب الأول، ويمتلىء أكبر قالب في نصف ساعة، فإذا امتلأ تجاوز عنه المائع النحاسي بواسطة صمام صُلصالي، وسال في جدول آخر مجاور، وهلمَّ جرّاً. وتبقى المدافع أسبوعاً في قوالبها، ثم تُنشل وتُصقل.

ويوجد لدى التُّرك، كما عند الفرس، من قصص السفارات ما هو صادقٌ زاخراً باللطائف، قصة سفارة محمد أفندي لدى لويس الخامس عشر نموذجاً لهذا النوع وهي من أفتنٍ ما يُمكن أن يوجد من قصص السياحات^(١٧).

كان هذا الوجيه خازناً للدولة التركية، وساعدَ بصفته مُفوضاً في وضع معاهدة صلحٍ پَساروفيج، بين تركيا والنسمة، التي عُقدت سنة ١٧١٨، وكانت سفارةً فئينا أول ما ذهب إليه عقب هذا الصلح، ثم أرسل إلى باريس سنة ١٧٢٠، وقد فُوض إليه أن يبلغ الملك أن السلطان، نتيجةً للحماية التي يريد جلالته أن يُنعم بها على رُهبان اللاتين، يوافق على القيام بما تقتضيه كنيسة القيامة من ترجيحات فلما عاد إلى الآستانة أَلَّف كتابَ رحلته إرواءً لفضول السلطان أحمد الثالث وصدوره الأعظم: إبراهيم باشا.

ويجُرُّ السائح من الآستانة على مركب فرنسي، فلما كانت هذه السفينة سائرة في بحر مَرَمرة عَرَضَ لها حادثٌ قصَّه ذاك السائح بطلاوة كما يأتي، قال محمد أفندي «في ليلة الجمعة أثقلَ الهواء

(١٧) سفارة محمد أفندي لدى بلاط فرنسا سنة ١٧٢١، وقد كتبها بنفسه، وترجمت من التركية، الآستانة، ١٧٥٧.

بالسُّحْبِ مقرونة بالمطر وبعاصفة صغيرة، فلما أوشكت الساعةُ
 الثانية أن تَحِلَّ، وكنا قد ابتعدنا من لَنِبَاقٍ مقدارَ فَرَسَخٍ، ودَنَا
 مركبنا من الساحل كثيراً، وكان الرُّبَانُ يتناول عِشاءَهُ، كاد هذا
 المركبُ يَجْنَحُ إلى الشاطيءِ، وَلَسُرْعَانُ ما عَلَا المركبَ كَرَبٌ لا يُمَكِّنُ
 وصفه، فصارت أصواتُ الاستغاثة تُوجِّهُ إلى كلِّ جهةٍ... ولكن
 لا مُجِيبَ، «كما لو خلا ما تحت هذه القبة الزرقاء من السكان»،
 وبينما كان المسافرون ينتظرون العَوْنَ «ارتجَّ المركبُ كثيراً، والتطم
 بالأرض من صدره ومؤخره، وأخذ يترنح، وعُدنا إلى الصُّراخِ
 قائلين: رَبَّاه! ستتحطمُ السفينة! لَمَّا يأتِ أحدٌ لإِغاثتنا!»، والحقُّ
 أن المركبَ نَجَا من تلقاء نفسه «كما لو كان هذا بيد الملائكة».

ومجاوِزُ المسافرون الدَّرْدَنِيَلِ، وَيَصِلُونَ إلى مالطة، وأخيراً
 يَنزِلُونَ إلى طُولُون، وكان ذلك أيام طاعون مَرَسِيَّةِ الذي أباد
 عدداً كبيراً من سكان بقية البَرُوفُنْسِ أيضاً، وَيُحْتَفَى بالسفير في
 حديقة المَلِكِ عند أبواب طُولُون، ثم يُحْمَلُ على القِيَامِ بدَوْرَةِ كبيرة
 ابتعاداً عن البِقَاعِ الموبوءة، وَيُسَارُ به إلى باريسَ على طريق سِتَ
 وَعَسْقُونِيَّةِ، وَيُقِيمُ بِمَحَجَرٍ صَحِّيٍّ قريب من سِتَ في بدء الأمر، وذلك
 في كنيسة قديمة خَرِبَةٌ، ويأتي من مُونْپَلِييه وما جاورها جَمْعٌ كبيرٌ
 لمشاهدته، والنساءُ أَخْصُ مَنْ لَاحَظَ، فقد قال: «أخذ النساءُ
 يأتين زُمَراً، وكان عدد كلِّ فَوْجٍ منهن مؤلفاً من عشرٍ أو خمسِ
 عشرة، ولم تنقطع هذه الأفواجُ عن الورد حتى الساعة الخامسة بعد
 الغروب، وذلك لأن جميع ذوات الحَسَبِ من نساء الجِوَارِ، ولا سيما
 مُونْپَلِييه كُنَّ قد اجتمعن في سِتَ لرؤيتي»، وهو يُبْدِي في أمرهن
 الملاحظة الملهية القائلة «إن الرجال في فرنسا يُضْمِرُونَ لجنس

النساء كثيرَ احترام، ومن ذلك أن أكابرَ السنيورات^(١٨) يُظهرون ما لا يُصدّق من لطفٍ نحو نساءٍ أحقر الطبقات، وذلك بحيث إن النساء يفعلن ما يُرذَن ويذهبن إلى أيِّ محلٍّ يشأن، وينفذن أمرهنَّ في كلِّ مكان، ويقال إن فرنسة فردوسهن، فهنَّ يعشن فيها خالياتٍ من كلِّ غمٍّ وعناء، وهنَّ إذا ما وُجدَ شيءٌ يرغبن فيه نلنّه بسهولة.

ويسلّك السفير قنّاةً لنغدوكة، ويُعجب بإنشائها، «وقد أقيمت حواجزٌ حجريةٌ تستطيع كلُّ واحدةٍ منها أن تستوعب ثلاثةَ مراكبٍ أو أربعةَ مراكبٍ دفعةً واحدة»، ويبيّن بوضوحٍ إدارةَ هذه الحواجز وقيادةَ هذه الأسداد، وتَمُرُّ القنّاة تحت الجبل، ويعدُّ محمد أفندي هذا العملَ من عجائب الدنيا.

وفي طُولوزَ (طُلُوشَة) يُغيّر المركبَ، وذلك لاستبداله النهرَ بالقنّاة، ويكُون لديه من الوقت ما يلتفت فيه إلى حياة الإقليم السياسية، ومن قوله: «إن هذه المدينة هي مقرُّ برلمان إقليم لنغدوكة، ولم يَزُرني رئيس هذا القطّاع لمقامه الرفيع، ولكن زوجه وابنته لم تلتفتا إلى هذا الاعتبار قطّ»، ويداوم على إثارة النساء «اللائي لم يستطعن الهدوءَ ولا البقاءَ حيث هنَّ» في الزمن القصير الذي قضاه هناك.

ويصلُّ إلى بُوردو، وقد طابت له «رؤيةُ جَزَر البحر المحيط ومدّه» اللذين كان قد سمعَ عنهما حديثاً، «فالمرّكبُ التي تكون

(١٨) السنيورات: يقصد السادة.

قريبة من الساحل وقت الجزر تبقى على اليابسة، فإذا ما أتى المد
عامت على الماء كما في السابق... وهذه أعجوبة يجب أن تشاهد

لتعتقد»، ويزور قلعة بوردو، ويُعجبُ بحديقة الحاكم القائمة فوق
هذه القلعة، والمزينة بسرادق مشرف على جميع المدينة، «وكان
الحاكم - الذي اجتمع به - ذا ولع بالزهور، فربى كثيراً من
الحوذان^(١٩)، وكان قد تفتح منه ثمان زهرات في ذلك الحين
فاقتطفها ليقدّمها إليّ، وكانت البراعم تظهر على معظم الحوذانات
الأخرى... وما انقطعت جميع الأماكن التي مررتُ منها، بعد
وصولي إلى طولون، لأجيء إلى بوردو عن إتحافي بأزهار الربيع
كالسوسن والبنفسج، إلخ..، ومما لا شك فيه أنه لا أثر لمثل هذه
الأنواع من الزهر في تركية في مثل ذلك الزمن».

ولكن من الواجب إيراد جميع القصة، فلا تجدُ صفحة لا
تتضمن على تفاصيل رائعة، ومن ذلك أنه وصل إلى قصر هيبى له
بالقرب من باريس، ويكون أول همّه أن يبحث عن صحة ما رواه
«كاتب جلبي» عن وجود صدى عجيب في شارنتون، وذلك أن
هذا الصدى يردد الكلام ترديداً يبلغ ثلاث عشرة مرة، فيجد أنه
لا علم لأحد بذلك، ويأتي مقدّم السفراء وكثير من ذوي المقامات
لزيارته، وأخيراً يتم مهمته، ويقابل الملك، «ولم يكد الملك يجاوز
الحادية عشرة من سنه ويدخل في الثاني عشر من عمره، ولا مثيل

(١٩) الحوذان: نبات طيب الطعم زهره أحمر في أصله صفرة.

لجماله. وكان يلزم هذا الجمال سناءً ثيابه المثقلة بالذهب والغارقة بالألماس فتُلقي أشعة نور في المجلس».

ويُزور السفيرُ التركيُّ أكابرَ الدولة، أي الوزراءَ ورئيسَ أساقفة كَنبر الذي كان وزيراً للخارجية، ويقول إن هذا كان قسيساً حقيراً فصار رئيساً لكنيسة كَنبر، ويزور المَريشالَ قُلرُوا، يَزورُ هذا «الشائبَ الطيبَ» الذي يَغمرُه بضروب التكريم، وكان قد عُهدَ إليه بتربية الملك، وبما أن منزله ضِمَّن قَصْرَه، فقد كان ينام ويَقوم معه، ولا يفارقه طَرْفَةَ عَيْنٍ، «وبينما كنتُ أحادثه كان الملك الكَلْفُ برؤيبي ينظر إليَّ من خلال الستائر».

ويستقبل وزيراً يُدعى وزيرَ الحربية، فيقول له إنه يُوجدُ بباريس «قصرٌ خاصٌ يجادثُ الملكُ فيه الجنودَ الجَرَحَى أو من هم خارجَ الحُدُمة العسكرية»، فمن الحَرِيِّ أن يُرى هذا القصر، ولذا فإنه يَذْهب لزيارة الأنقاليد، فيصفُ لنا وصفاً مُفصَّلاً ما يشتمل عليه من عُرفٍ وأفرانٍ ومطابخٍ وصيدليةٍ.

ويستعرض جميع طرائفِ باريسَ وهائها كما يستعرض ضواحيها كقرساي ومازلي واللوفرِ والمَرصد، وهو يَنمُّ على وجود روحٍ علمية قوية فيه، ومن ذلك أن وَصَفَ وصفاً دقيقاً مِرْفَعَ مازلي وآلات الفلكيين، فقال: «ويُوجدُ، على الخصوص، آلةٌ اختَرِعتُ حديثاً لمعرفة الكُفوفِ والحُسوفِ، وهي دوائرُ كثيرةٌ رُسمتْ حولها أرقامٌ ونُقِشتَ الشمسُ والقمرُ، فإذا ما دارت هذه الدوائرُ امتدَّ عقربٌ صغيرٌ كعقرب الساعة، ذو طرفٍ مُدَوَّرٍ

كالمُعَمَّةِ، على الشمس تارةً وعلى القمر تارةً أخرى، فَوْقَ مَا يَسْتُرُ
القمرَ كلياً أو جزئياً يُحَكِّمُ بأنه لا بُدَّ من حدوث خسوفٍ في
الشهر الفلانيِّ مقدارُه كذا بُوصات، وَقُلْ مِثْلَ هَذَا عَنِ الشَّمْسِ».

والخلاصةُ أن تلك الرحلةَ تدلُّ على سرعة إدراكٍ وثقافةٍ واسعة
واستعدادٍ خُلُقِيٍّ لطيفٍ مع قدرةٍ نادرةٍ على الوصف.



المفتدين

مؤرخون مُحدَثون : واصف أفندي،
الحرب التركية الروسية سنة ١٧٦٩،
مناحيها السلمية، المؤرخ العسكري الميرالأي:
أحمد جواد بك، قصة الأنكشارية

كان واصف أفندي من أبرز المؤرخين لعصورهم، وقد عهدَ إليه في ذلك من قِبَل السلطان سليم الثالث، وقد واصلَ عمل « عزي » الذي سار في كتابة الحوليات العثمانية حتى السنين الأخيرة من عهدِ محمود، وتجدُ قسماً من أثرِ واصفٍ زاخراً بتاريخ الحرب التي وقعت بين روسية والباب العالي من سنة ١٧٦٩ إلى سنة ١٧٧٤ .

وإذا ما وُصِلَ، كما صنع كُوسَان دُوپِرْ سُقال^(٢٠)، بين جميع مسالك الحوليات الخاصة بتلك الحرب، إي إذا ما تُرِكَ جانباً ما هو خاصُّ بأقاليمٍ أخرى، وإذا ما طُرِحَ قسمٌ من الاستعارات التي كان يتطلَّبها الذوقُ التركيُّ في ذلك الحين، ظُفِرَ بعَرَضٍ حسن الأداء

(٢٠) خلاصة تاريخية للحرب التركية الروسية منذ سنة ١٧٦٩ حتى سنة ١٧٧٤.

وقد صار اقتباسها من حوليات المؤرخ التركي واصف أفندي، وقد قام بها أ. كوسان دو برسفال، باريس، ١٨٢٢ .

وأسلوب جزيل واسع موسوم بشيء من السوءاء التي تُوجد لدى مؤلفي هؤلاء القوم في الغالب.

وقد علّلت هذه الحربُ بسبب توسُّع روسية في بُولونية نتيجةً لانتخاب بُنياتفسكي، فقد قصَدَ السنيورُ البُولونيُّ پرتوكي البابَ العالی طالباً العون، وكان من رأيِ السلطان مصطفى الثالث أن تُشهرَ الحربُ سريعاً، ومن العبث أن حاول الصدرُ الأعظم صرْفَه عن عزمه ببيانه له عدم استعداد الدولة، فلم يلاقِ نصْحَه قبولاً، وعُزل.

ويُقصُّ واصفٌ خبرَ المواقبِ الفخمة التي نُظِّمت عند سفر الجيش، قال واصف:

« تمَّ الاحتفال المعتاد بتولية القائد الأول في أثناء شهر شوال، ويأتي العلماء والمشايخُ وجميعُ كبار موظفي الدولة إلى منزل الوزير فيغرسون في ساحة داره « الطوغ » الذي هو شعارُ القيادة، وتُدبِحُ الضحايا، وتوزَّع الصدقات بين الفقراء، وتُنظَّم جمعياتُ العمال والصُّناع من كلِّ نوع، وهي ما تُتبعُ الكتابِ عادةً، وترسَلُ إلى سهل داود باشا الذي هو مكان تجمُّع الكتابِ، وتُنصِبُ فيه الخيامَ للجيش، فلما انقضى يومان مرَّ الأنكشارية في عرضِ أمام السلطان الأعظم وعلى رأسهم أغاهم، وكانوا أولَ مَنْ عسكرَ تحت الخيام في السهل، وفي الغد جاء المدفَعِيُّونَ والخدمُ وغيرهم من المرافقين في موكبٍ وانضمُّوا إلى أولئك ».

وفي الثامن عشرَ من الشهر يقصِدُ الوزراءُ وقاضيا العسكر وكبراءُ الباب العالی مع الصدرِ الأعظم وشيخ الإسلام قصرَ

السلطان، ويأمر الخاقان الأعظم بإلباس هذين السريين حلة التشفير، وزيادة على ذلك فإنه يُنعم على الصدر الأعظم، الذي هو قائدُ عامٍّ في الوقت نفسه، بسيفٍ وقوسٍ وجفبةٍ وريشةٍ رأسٍ مرصعةٍ بالجواهر، «وأخيراً يُخرجُ علمُ الجهاد من عُلبته ويُسَلَّمُ إلى يدِ الوزير، ويركبُ هذا جواداً مُجهَّزاً بأفخر جهاز، ويتبعه أهمُّ ضباط الدولة الذين يُوجِّههم العلم، ويجوبُ الآستانة، ويخرجُ من باب «طوبُ قَبُو» ويتوجَّه إلى سهل داود باشا، ويحضُرُ السلطان بعد بضعة أيام زائراً المُعسكر، ويأخذُ الجيش في السير، ويكونُ أولَ ما يصنع الوزير في أثناء هذا السير أن يَقْبِضَ على بعضِ النصارى الذين كانوا قد أُدْخِلُوا إلى الجيشِ مِثْلَ أطباءٍ فاتَّهَمُوا بتسميم الجنود، وَيُسْتَنْطِقُونَ، وَيُحْمَلُونَ على الاعتراف بأنهم جواسيسُ من الروس، وتُقَطَّعَ رؤوسُهُم.

وتقدِّم هذه الحربُ قليلاً من الوقائع الكبيرة التي يمكنها تزويدُ المؤرخِ بمادةٍ صفحاتٍ مَضَاءٍ مُضِيئةٍ، وهذا لا يَمْنَعُ حكايتها من أن تكونَ مُشَوِّقةً إلى القراءة وأن تُعْرِضَ كثيراً من الجزئيات المُغرِيةِ بمعرفة أحوالِ مقاتلة الترك النفسية، وهكذا يَقْصُ الحوُلِيُّ ما يأتي:

كان كبارُ الدولة لا يعتقدون إمكانَ وجودِ قسمٍ من الأسطولِ الروسيِّ في البحر المتوسط، وقد أخبرت الولايات النصارانية البابَ العالي بأن لدى روسية خِطَطاً ضِدَّ المورَه، فلم يلتفت الديوانُ إلى نصيححتها قطُّ «عاداً هذا الرأي حُلماً مثيراً للسُّخرية»، وفي تلك الأثناء يأتي قِسمٌ من السُّفنِ الروسية لإثارة المنيوت ويأسِرُ، أو

يَقْتُلُ، جَمِيعَ مُسْلِمِي مِزِسْتَرَا، قَالَ الْحَوْلِيُّ: «إِنْ بَيَانَ الْفِطَائِعِ الَّتِي اقْتَرَفَهَا الْمَنِيُوتُ فِي مِزِسْتَرَا مِمَّا تَقْشَعُرُّ لَهُ الْأَبْدَانُ، وَمِنْ تِلْكَ الْفِطَائِعِ أَنْ أَلْقِيَ الْأَطْفَالَ مِنْ فَوْقِ الْمَآذِنِ، وَمَا اجْتَرَحَ مِنْ أَلْفِ هَمْجِيَةٍ أُخْرَى رَسَمَ لَوْحَةَ ضِرَاءِ الْأُمَّمِ الْوَحْشِيَّةِ».

وَتَعْرِضُ الْحَرْبُ الْبَحْرِيَّةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ رَسُومًا جَمِيلَةً، فَقَدْ لَاقَى قَبُودَانَ بَاشَا الرُّوسِ فِي الْقَنَاةِ الَّتِي تَفْصِلُ جَزِيرَةَ سَاقِزَ عَنِ الْيَابَسَةِ «وَمِنْ أَقْوَى مَا وَقَعَ أَنْ الْبَاسِلَ حَسَنَ بَكِ الَّذِي كَانَ رَاكِبًا الْمَرْكَبَ الْأَمِيرَالِيَّ الْإِسْلَامِيَّ دَنَا مِنَ الْمَرْكَبِ الْأَمِيرَالِيِّ الرَّوسِيِّ، وَتَبَدَّأَ مَعْرَكَةً حَامِيَةَ الْوَطِيْسِ، وَيَشْعُرُ الْعَدُوُّ بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْمَقَاوِمَةِ وَبَأَنَّ مَرْكَبَهُمْ يَكَادُ يُغْنَمُ، وَيُشْعَلُونَهُ عَنِ يَأْسٍ، وَكَانَ بَعْضُ الْمَرَائِكِبِ نَاشِبًا فِي بَعْضٍ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الرُّوسِ، وَأَنْ يَقُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْحَرِيقِ، وَيَحْتَرِقَ الْمَرْكَبَانِ وَيُنْتَسَفَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً مَعَ قَرْقَعَةٍ هَائِلَةٍ، وَيَكُونُ حَسَنَ بَكِ مِنْ حُسْنِ الْحِظِّ بِحَيْثُ يَنْجُو».

وَيُقَدِّمُ مُؤَرِّخُنَا الْحَوْلِيُّ تَفْصِيْلَاتٍ حَسَنَةً أحيانًا، فَيُحَدِّثُ عَنِ الْجُهُودِ الَّتِي بُدِلَتْ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ لِإِصْلَاحِ الْمِدْفَعِيَّةِ كَمَا يَأْتِي: «فَقَدْ صُبَّتْ مِدْفَعُ فِي الْآسْتَانَةِ، وَمَا اسْتُعْمِلَ مِنْ مِدْفَعٍ حَتَّى الْآنَ ثَقِيلٌ جَدًّا، وَهُوَ مِنْ عِيَارٍ كَبِيرٍ، وَكَانَتْ مَسَانِدُهَا الْكَثِيرَةُ الثَّقَلِ وَالْعُلُوُّ تَجْعَلُ حَرَكَتَهَا وَتَقْلَهُ أَمْرًا صَعْبًا جَدًّا، وَيُعَيِّنُ رَئِيسُ الْعَرَبَاتِ (عَرَبَةٌ جِي بَاشِي) مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ قِطْعَةٍ كَيْمَا تَكُونَ سَهْلَةً الْاسْتِعْمَالِ، وَيُجَدُّ فِي الْعَمَلِ وَفَقَّ مَا عَرَضَ مِنْ رَأْيٍ، فَصُنِعَ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ مِقْدَارٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمِدْفَعِ تَرَجَّحُ حَشَوَاتُهَا بَيْنَ مِئَةِ دِرْهَمِ

وثلاث أقاتٍ من البارود، وجُعِلَتْ لها مَسَانِدُ خفيفةٌ متينةٌ، ويؤتى منها ستون بطريق البرِّ إلى بابَا طَاغِي (وهو المكان الذي كان يشتمل على معسكراتِ الكتائبِ في الشتاء)، وأما الأخرى فقد وُضِعَتْ على سُنْفٍ أُنْزِلَتْ منها إلى قره كِرْمَانَ، وتُصَفُّ عشرةٌ من أصغرها أمام منزل الصدر الأعظم بعد تجربتها بمَشَوَتَيْنِ وتُسَلَّمُ البقية إلى رئيس المدفعية (طُونجِي باشي).

وكان واصف أفندي ذا ذهن فلسفيٍّ معتدل، وكان محبًّا للسُّلْمِ كثيراً، وهو ككلِّ محبِّ للسُّلْمِ يَبْدُو أكثرَ تقديرًا لمزايا العرقِ والجيشِ الدفاعية من تقديره لمزاياه الهجومية، وهو لا يَخْشَى أن يقول إن العثمانيين ضعفاء في الأرض المكشوفة، وإن دفاعهم في الحصون أمرٌ يُشِيرُ العَجَبَ، وإليك السطور التي كَتَبَ حَوْلَ دفاعِ الترك عن سِلْسترة حيث كَلَّلَ بالنجاح:

«لو أبدأت الجيوش العثمانية في كلِّ مناسبة من البسالة ما أبدته هنالك لكُتِبَ لها النصرُ في كلِّ زمان، ولانتشر هَوْلُ سيوفها في كلِّ مكان... ولكن من الحقِّ أن يقال إن الجنديَّ المسلم إذا لم يُخَصَّرَ ضِمْنَ نطاقٍ وثيق كان من النادر أن يقاتل بكلِّ ما في استطاعته من شجاعة، فهو يتقهقر إذا ما أَبْصَرَ طُرُقَ النجاة مفتوحةً حَوْلَهُ من كلِّ جانب، وقد أثبتت التجربةُ هذا في الغالب، وهذا ما حَفَزَ قنصلَ الفرنسيين الأولَ حاليًّا إلى القول بأن عشرة آلاف جنديٍّ حَسَنِ التدريب تكفي لِقَهْرِهَا في السَّهْلِ جيشاً مؤلفاً من مئة ألف مسلم، ولكن جيشاً مؤلفاً من مئة ألف رجلٍ لا يَكْفِي لكَسْرِ عشرة آلاف مسلمٍ محصورين في قلعة.»

وإن «واصفاً» الذي لا يخشى لَوْمَ الوزراء بَلَّغَ من الحدِّ ما خَطَّأَ معه السلطانَ لائماً الديوانَ على عدم قبوله الصلحَ الذي عرَضته روسية في السنة الثانية من الحرب، وذلك على أساس قيام ذلك الصلح على شروطٍ أقلَّ شِدَّةً، وهو في ذلك يُوردُ عبارةً للمِناوي مقتطفةً من كتابِ عنوانه «شرح المَوْجَز الصغير»، وذلك أنه «عندما يكون الطالعُ حليفَ الكُفَّارِ، ويُرَهقُ المؤمنونَ الصادقونَ بضَرَباتِ العدوِّ، يَجِبُ أن يُعدَّ الصلحَ الذي يَجعلُ حياةَ المسلمين وأموالهم في مأمنٍ نصرًا حقيقيًّا لهم»، وإلى هذا يُضيفُ الحولي واصفًا قوله إن هذه القاعدة هي ما يَجِبُ أن يسير عليه البابُ العالِي في هذه الأحوال التي تُسبِّبُ المصائبَ.

وإن واصفًا، الذي يُوصي بالخضوع لحُكْمِ القدر في الضرَّاءِ، يُشني على الاعتدال عند النصر، وهو يَرَوِي خَبَرَ جوابِ جميلٍ صادر عن المَفوِّضِ التركيِّ حِيَالَ المَفوِّضِ الروسيِّ عندما دار البحثُ حَوْلَ وَضْعِ حدِّ لتلك الحرب الطويلة، وذلك أن المَفوِّضِ التركيِّ تَوَجَّعَ من كَوْنِ الشروطِ قاسيةً جدًّا، فقال الروسيُّ: «كنتم تَضَعُونَ شروطاً أقسى من تلك لو ظَهَرَ الطالعُ حليفاً لكم»، واسمَعُ جوابَ المَفوِّضِ العثمانيِّ الدالَّ على الإباء: «ومع ذلك فإن الباب العالِي لم يُسِيءَ استعمالَ نصرِهِ قَطُّ عندما قَهَرَ عاهلُكم بطرسُ وحاصرَهُ جيشُ المسلمين وكان على رَمَتِي من العيش^(٢١) ولم يَكُنْ لديه من

(٢١) انظر إلى فولتير، تاريخ الإمبراطورية الروسية في عهد بطرس الأكبر، القسم الثاني، فصل ١، غزوة بروت.

الغذاء غير قشر الشجر، وقد أشار خان التتر وكثير من القواد في ذلك الحين على الصدر الأعظم بالهجوم على القيصر وإكراهه على تسليم نفسه أسيراً هو وجميع جنوده»، وإنما اكتفى البلطه جي محمد منه بأن يعد بطرس بإعادة آزوف إلى الباب العالي، وقد تملص من الوفاء بهذا الوعد فيما بعد، ويعد عدم القيام به من الأمور التي «تكشف الفئاع عن سياسة روسية القائمة على المكر والاحتيال».

ويُعدّ الصلح في «قينارجي» إذن، ويكون شاقاً على تركية، ويتعزى واصف عن ذلك مثل أفيلسوف، ويقول: «لا تغرض الحرب غير طوالع عن النصر مشكوكاً فيها، مقرونة بخسار لا بد منه في الرجال والمال، وينطوي الصلح، مع ما يُنذَل من توضيحات لنيله، على خير وكيد، وهو أنه يُنعم على الأمم بالسكون»، وهو يوصي بنظام التوازن بين الأمم الذي غداً مذهب الدبلمية السائد في القرن التاسع عشر، «فإذا ما اتسعت أمة وعلت على حساب أمة أخرى وجب على جميع الحكومات أن تتحد ضد الطاغية وأن تضع حاجزاً دون طمعه»، ومن دواعي الأسف أن الحكومات لا تعمل بهذا المبدأ الحكيم دائماً، فهي تأخذ نصيبها من أسلوب المغلوب بدلاً من تأييده، وهذا ما صنعه بلاط فيينا في ذلك الحين على الرغم من العواطف التي أظهرها للباب العالي، وذلك أنه وضع يده على قسم من قطاع ملدافيا، «وإذ نهك الباب العالي بصراع طويل جالب للنوائب، فقد اضطر إلى احتمال هذا التسلط الجديد، وإلى الإغضاء على هذا الغدر الذي لم يستطع أن يقابله بالانتقام».

ولا ننوي أن نتكلم في هذا المجلد عن المؤلفين المسلمين المحدثين

كثيراً، ومع ذلك فإننا نرى إمكانَ وَضْعِ استثناءٍ لذلك بإيرادنا قطعةً تاريخيةً جميلةً مَدِينَةَ للمير آلاي أحمد جواد بك، وذلك إتماماً لهذا الفصل، وقد بدأ هذا الكاتبُ الممتازُ، بعنوان «الحالة الحربية العثمانية منذ قيام الدولة حتى أيامنا»^(٢٢)، تاريخاً للجيش التركيّ كان يُنتظرُ أن يكون من الآثار الضخمة، ولكن المجلد الأول منه هو الذي ظهر، وهذا المجلد خاصٌّ بالانكشارية.

ومن بين القطع الخاصة بهذه المليشيا المشهورة يُقدِّم جواد بك الفرمان الناطقُ بِإلغائها^(٢٣)؛ وقد كُتِبَ هذا المرسومُ من قِبَل بَيْلِكْجِي بَرْتُو أفندي، وأسلوبه رائعٌ جداً، ويُمكنُ أن تُعدَّ هذه القطعةُ مثلاً بارزاً على بلاغة التُّركِ الرسمية.

«كان الانكشارية قد قدّموا إلى الدولة خِدمًا عظيمة أيام حُسْنِ نظامهم فيما مضى، وكان من أثرِ بسالتهم التي يَعْرِضُونَ بها صدورهم لضربات أعدائهم، وأثرِ ثباتهم البالغ في ميدان الوَغَى، وأثرِ إطاعتهم لرؤسائهم، نَيْلَهُم النصرَ لِسِلاحنا، ولكن روحاً خبيثاً فَسَأَ بينهم بعد ذلك، فَتَحَوَّلَ انقيادُهم إلى تَمَرُّدٍ، وما فَتَسُّوا، في جميع المَغازي التي قاموا بها منذ قرن، يَبْذُرُونَ الأراجيفَ حِيالَ قُوَادِهِمْ فَيَمْتَنِعُونَ عن إطاعتهم، مُؤلِّين الأَدبارَ بما يَجْلِبُ العارَ،

(٢٢) نقله إلى الفرنسية ج مكريديس، باريس، ١٨٨٢.

(٢٣) يُوجَدُ لمدون وقائع عهد السلطان محمود الثاني كتاب عنوانه «أساس الظفر» تأليف أسعد أفندي مشتمل على إلغاء الانكشارية حصراً، ترجمة كوسان دو پرسفال، باريس، ١٨٣٣.

فَسَلَّمُوا قِلَاعَنَا وَوَلَايَاتِنَا إِلَى أَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ عَنْ جُبْنٍ وَعَدَمِ خُضُوعٍ
لِلنِّظَامِ، وَاسْرِعَانِ مَا تَشَجَّعَ هَؤُلَاءِ الأَعْدَاءِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ فِكْرَةٍ عَنِ
ضَعْفِنَا، فَأَقَامُوا أَلْفَ ادْعَاءٍ وَقَحِ طَامَعِينَ فِي كَسْرِ بَيْضَةِ الإِسْلَامِ،
وَحَوِّطُونَا بِأَطَارٍ مِنَ الأَخْطَارِ.

« هُنَالِكَ اسْتَيْقِظَ شَعُورُ الشَّرَفِ الإِسْلَامِيِّ، وَأُرِيدَ الأَنْتِقَامُ مِنْ
الهِزَائِمِ الكَثِيرَةِ، وَقَدْ شُعِرَ بِأَنَّ مَا نَالَ أَعْدَاؤُنَا مِنْ انتِصَارَاتٍ
رَخِيصَةٍ نَشَأَ عَنِ العِرْفَانِ بِفَنِّ الحَرْبِ، وَقَدْ عَزِمَ عَلَى تَنْظِيمِ كِتَابِنَا
المُدْرَبَةِ، فَلَمْ يُرَدِّ الإِنْكَشَارِيَّةُ، غَيْرُ الصَّالِحِينَ لِلخِدْمَةِ العَسْكَرِيَّةِ
بِالحَقِيقَةِ، أَنْ يُسَمَّحَ بِتَكْوِينِ رِجَالٍ قَادِرِينَ عَلَى القِيَامِ بِمَقَامِهِمْ، وَقَدْ
حَالُوا دُونَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَقَدْ تَمَرَّدُوا، وَقَدْ هَدَمُوا البِنَاءَ
الَّذِينَ أَخَذَ يَرْتَفِعُ، وَوُجِدَ كَثِيرٌ مِنَ السُّلْطَانِينَ مَنْ كَانُوا لِلعَالَمِ
كَالرُوحِ لِلبَدَنِ، فَغَدَوْا ضَحَايَاهُمْ وَفَقَدُوا حَيَاتَهُمْ فِي المِصَائِبِ الَّتِي
أَدَّتْ إِلَيْهَا مَفَاسِدُهُمْ. »

وَيُوجَدُ مُسْتَنْدٌ آخَرٌ يَحْتَوِي، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، بَعْضَ التَّفْصِيلاتِ
عَنِ الوَضْعِ السَّيِّئِ النَّاشِيءِ عَنِ مُنْظَمَةِ الإِنْكَشَارِيَّةِ، وَهُوَ مُشْرُوعُ
القَانُونِ الَّتِي يَقْضِي بِإِجْمَادِ مُنْظَمَةِ الأَشْكِينَجِيَّةِ المُعَدِّينَ لِلحُلُولِ
مَحَلَّهُمْ:

« كَانَتِ الإِنْكَشَارِيَّةُ كُلُّهَا جُنُوداً عَامِلِينَ (أَشْكِينَجِيَّةً) يَنَالُونَ
الرَّاتِبَ المُقَرَّرَ عِنْدَ أَسْمَائِهِمْ فِي القَوَائِمِ، وَكَانُوا فِي الغَزْوِ مُسْتَعِدِّينَ،
تَحْتَ الأَعْلَامِ، لِتَنْفِيذِ أوَامِرِ ضَباطِهِمْ، وَذَلِكَ مَا كَانَتِ الأَنْظَمَةُ
تُفَرِّضُهُ، وَفِي سَنَةِ ١١٥٢ (١٧٣٦م)، أَيَّامَ حَرْبِ المُورَةِ وَفَتْحِ قَلْعَةِ
نُوبَلِي، نَالَ بَعْضُ الأَشْكِينَجِيَّةِ، بِوَساطَةِ رِجَالِ غَافِلِينَ، رَوَاتِبَ

تقاعد مكافأة على خدَمهم، وإن كانوا لا يزالون أصِحَّاءَ، فأخذوا يُدْخِلُونَ إلى الجنود المتقاعدين عادةً بَيْعِ صكوكِ «العُلُوفَةِ» من أناسٍ غُرَبَاءَ عن الجيش، وَيَزِيدُ سوءَ الاستعمال هذا على وجهٍ غير محسوس، وذلك بحيث إن المنظِّمة (الأوجاق) عادت لا تُعَدُّ رجالَ حربٍ حقيقيين تقريباً، وذلك بحيث إنها عادت لا تكون غيرَ هيئةٍ كبيرةٍ فاقدةِ النظامِ يَتَسَرَّبُ فيها جواسيسُ بفعلِ الفوضى فيُلْقُونَ فيها بذورَ الفساد، ويغتمُّ أعداؤنا ذلك في تلك الأثناء للإضرار بنا، وَيَتَشَجَّعُونَ على حسابِ ضعفنا فيجرؤون على مَدِّ أيديهم القذرة إلى بَيْضَةِ الشرفِ الإسلاميِّ الناصعِ البياضِ».

وأما الوقائعُ الخاصةُ بما أنها سَبَقَتْ الإلغَاءَ وَسَوَّغَتْه فإنها ذُكِرَتْ في الفَرَمَانَ المذكورِ آنفاً، «ويَبْدُو الانكشاريةُ هُمًّا حِيَالِ صوتِ الدينِ ورأيِ علماءِ الشرعِ المُردِّدِ، فيَتَمَرَّدُونَ ليلةَ الخميسِ، وبيتُ آغامهم هو ما هاجموا، ثم هَجَمُوا على بيتِ الصدرِ الأعظمِ وعلى بيوتِ أخرى ناهبين إياها، واقترفوا أنواعَ الفظائعِ والقبائحِ، وبلغوا من الاستهتارِ واتباعِ الهوى ما مَزَّقوا معه المصاحفَ التي تناولتها أيديهم بالسكاكينِ، وعَلَا هُتافُهُم «لَيْسُقَطِ التدریب!» مُعْرِبين به عن فورانهم، وذلك مع تصويبهم إلى الحكومةِ عينِ الأسلحةِ التي سَلَّمَتْها إليهم ليستعملوها في تعليمهم، ومع رفعهم رايةَ العصيانِ حِيَالِ سلطانهم الشرعيِّ».

وتَتَجَلَّى قوَّةُ الذوقِ لدى التركِ عند تَمَثُّلنا ما اسفرت عنه هذه الصَّفَحَاتُ الرصينةُ مع الأنسجامِ وأصالةِ الأسلوبِ من ذبحِ نحو عشرين ألفَ رجلٍ.

الفصل السابع

الفلسفة السياسية

- عموميّات ، الماورديّ
- العالم الاجتماعي العربي الكبير : ابن خلدون
- الفيلسوف البعّاثّة : الجاحظ
- الوزيرُ الفارسيُّ : نظامُ الملوك
- وزير عاهل الهند أكبر : ابوالفضل ،
أيين أكبري



المفتدين

عموميات، الماوردي^{هـ}

تعدُّ الفلسفةُ السياسيةُ فصلاً بالغَ الرُّوعةِ في تاريخ الآداب بالشرق، فتجدُّ في اللغات الإسلامية الثلاث العربية والتركية والفارسية، كتباً عالية الثمن في هذا الموضوع، ويمتاز بعضُ هذه الكتب من بعضٍ كثيراً، فمنها ما هو ككتاب الفارابيِّ عن « المدينة الفاضلة » الذي سار به على غرار الفلسفة اليونانية، ومنها ما هو كرسالة الماورديِّ الذي سنتكلم عنها فترى أنها ضربٌ من نظرية فلسفية في الفقه القرآنيِّ، ومنها ما هو كـ « مقدمة ابن خلدون » المشهورة التي هي أثر فيلسوفٍ بعيد الغور شديد الملاحظة، ومنها ما هو لوزراء فلاسفة استنبطوا نظرياتهم من

الأعمال أو جدُّوا في إدخالها إلى حقلِ العمل كما هو حالُ كُتب نظام الملك وأبي الفضلٍ ومنها ما هو لشعراء صوفيين مثلِ سعديِّ، أو خلقيين شعبيين مثلِ « كليلة ودمنة » ومنها ما هو أثرُ مواطنين ألباءٍ طليقي الذهن أنعموا النظر في حكومتهم ومصير بلادهم ككتاب القاضي أبي يوسفَ الذي عاش في عهد هارون الرشيد، أو كتاب قوجي بك الذي ألفَ في القرنِ السابعِ عشرَ فسُمِّيَ

مُونْتِسْكِو التَرْكِي، ولذا فإن من السهل وضع مجلدٍ عن هذا الموضوع، وإنما نرى الاكتفاء لبضع مقالات في ذلك.

كان الماورديُّ فقيهاً في البصرة والكوفة، وقاضياً كبيراً في «أُسْتُوا» القريبة من نَيْسَابُور، ثم استقرَّ ببغداد، وتُوْفِيَ الماورديُّ سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) ابناً للسادسة والثمانين من سِنِيهِ تاركاً كتاب «الأحكام السلطانية» الذي لم يُنْشَرْ إلا بعده على ما يحتمل^(١)، وتُوجد في هذا الكتاب نظريةً ممتعة في الإمامة والوزارة، والعبارة الأولى التي يُعرِّف فيها الإمامة رائعة، وهي أن «الإمامة موضوعةٌ لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»، وهنا تُوضَعُ مسألة: هل الإمامة واجبةٌ لأسبابٍ عقليةٍ أو هي مبدأٌ مشتقٌّ من الشرع، فقالت طائفةٌ إنها واجبةٌ بالعقل، وقالت طائفةٌ أخرى إنها وَجَبَتْ بالشرع دون العقل، وذلك أن العقل طائفةٌ أن يَمْنَعَ كُلُّ عاقلٍ نفسه عن التظالم والتقاطع ويأخذ بمقتضى العدل في التناصف والتواصل «فيتدبر بعقله لا بعقل غيره»، وهذا نظامٌ خُلِقِيٌّ نفسانيٌّ جداً، وهذا هو النظام الطبيعي لدى أولئك الفلاسفة، وأن الشرع ذهب إلى غير هذا، فوَضَعَ سلطةً خارج النفس مُوجِباً إطاعتها.

(١) كتاب الأحكام السلطانية، طبعه إنجر، بون، ١٨٥٣، الأحكام السلطانية أو «رسالة في الفقه الإسلامي العام» للماوردي، وقد ترجمها بهذا العنوان ليون أوسترووروغ في جزأين، فالجزء الأول في كراستين، وجُمِلَ الجزء الثاني لنظرية الجهاد، الأحكام السلطانية، ترجمة فنيان، الجزائر، ١٩١٥، ويُمكن أن ينظر إلى ما كتبه ر. إنجر عن المؤلف DE VITA ET Scriptis Māwerdi ، بون، ١٨٥١.

وإذا حَلَلاً مَنْصِبُ الإمامة تَأَلَّفَ في الأمة فريقٌ من القادرين على اختيار واحدٍ لها، وفريقٌ ممن هم أهلٌ لِيختاروا لها، وأما الآخرون فليس عليهم في هذه الفِترَةِ غيرُ الانتظار، ويحاول الماورديُّ تعيينَ الشروط التي يتألف بها الفريقان، وهذه الشروط مماثلةٌ للتي تُطلَبُ في الفقه لصحة الشهادة، ويُمكن أن تَبْدُو هذه الشروط غامضةً بعضَ الغموض لمن ليس ممارساً لمسائل الفقه كثيراً، فأما أهلُ الاختيار فالشروطُ المعتبرة فيهم ثلاثة، وهي: العدالة والعلم والحكمة، وأما أهلُ الإمامة فالشروطُ المعتبرة فيهم ليست أقلُّ تحديداً عداً أمر النسب، وهو أن يَكُونَ الإمام من قریش لانعقاد الإجماع عليه، وبيَّعَ الإمام عند الماورديِّ «عقدٌ» حقيقيٌّ، ويتمُّ هذا العقد بأن يبايع أهلُ الاختيار على الطاعة، ومن العادة وإجماع الأمة إمكان وقوع العقد بتصرفٍ يَصُدُرُ عن الإمام السابق، ومن ثَمَّ أتت نظريةُ الخَلْفِ المَعِينِ.

ثم يَبْحَثُ المَوْلَفُ فيما يَخْرُجُ به الإمام عن الإمامة، فيقول: «والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيان: أحدهما جَرْحٌ في عدالته، والثاني نقصٌ في بدنه»، فأما الأمرُ الأولُ ففَضْفَاضٌ وتفسيرُهُ مَطَّاطٌ، وَيَعُودُ الماورديُّ فيقسمه إلى قسمين آخرين بعيدين من الاحكام في تحديده «فأما الجَرْحُ في عدالته، وهو الفسق فهو على ضربين: أحدهما ما تابَعَ فيه الشهوة، والثاني ما تَعَلَّقَ فيه بشبهة»، ثم يَعُودُ الماورديُّ فيقوم بتقسيماتٍ أخرى لهذين الحالين، وهذا تحليلٌ قائمٌ على ذوقِ سِكلَسي^(٢) بالغ.

(٢) مدرسي تعليمي تربوي.

وَتُوجَدُ نظريّةٌ من ذات النوع عن الوزراء، فيقول الماورديُّ إن الوزارة على ضربين: وزارة تفويض، وهي أن يستوزر الإمام من يُفَوِّضُ إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده، ووزارة تنفيذ، ولا تقوم هذه الوزارةُ بغير تحقيق مُقتَضِي أحكام الإمام وقراراته، ويحتاج حقُّ الإمام في تفويضه أمرَ سُلْطَاتِهِ إلى ما يُسَوِّغُهُ نظرياً، وتوجدُ فروق مهمة تُفَصِّلُ ما بين نوعي الوزراء، ومن ذلك إمكانُ اختيارِ وزيرٍ للتنفيذ من اليهود أو النصارى، لا وزير تفويضٍ، ولا يجوز لوزير التنفيذ مباشرة القضاء والنظر في المظالم، وتوجيه التهم الكبرى ولا أن يَسْتَبَدَّ بتقليد الولاية، ولا أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب، ولا أن يتصرف في أموال بيت المال، ولو وزير التفويض مباشرةً جميع ذلك، ولا يمكن أن يوجد غير وزير تفويض واحد في وقت واحد ويُمكنُ أن يوجد وزراء تنفيذ كثيرون.

وقد أتى مثلُ هذا التحليل حيال أمراء الأقاليم، ويوجدُ لإمارة هؤلاء نوعان: إمارة استكفاء بعقد عن اختيارٍ من الخليفة أو وزيره/ وإمارة استيلاء بعقدٍ عن اضطرار وقوة ومما يقوم به أمراء النوع الأول النظرُ في «تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي، وتقدير أرزاقهم، إلا أن يكون الخليفة قدَرها فيذرها عليهم، والنظرُ في الأحكام وتقليدُ القضاء والحكام، وجباية الخراج وقبضُ الصدقات وتقليدُ العمال فيها وتفريقُ ما استحقَّ منهما، وحماية الدين والذَّبُّ عن الحرم» ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل»، والإمامةُ في الجُمع وتسيير الحجيج، ثم إذا كان الإقليم

ثَفْرًا مَتَاحًا لِلْعَدُوِّ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ جِهَادٌ مِنْ يَلِيهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَقَسَمُ
غَنَائِمَهُمْ فِي الْمَقَاتِلَةِ وَأَخَذُ خُمْسَهَا لِأَهْلِ الْخُمْسِ.

وتكون نظريات الماوردي في بعض المرات مُنْسَقَةً دَقِيقَةً فِي
عَرْضِ الْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ وَلَكِنْ مَعَ كَوْنِهَا بِالْفَعْلِ الرَّوْعَةِ تَحْلِيلًا.



العالمُ الاجتماعيُّ العزيبُ الكبيرُ :

ابن خلدون

تزوّدنا إفريقيّةُ الإسلاميّةُ، في شخص ابن خلدون، بعالم اجتماع من الطراز الأول، ولا تجدُ ذهنًا تمثّل فلسفة التاريخ بجلاءٍ أكثر مما تمثّلها ذهنُ ابن خلدون، فروحُ الأمم، وعللُ تقلُّبها، وكيفيةُ قيام الدول وتطورها، وتنوعُ الحضارات وما تنمو به وما يعوقها، مسائل يطرحها بأكثر ما يكون علماً في مقدمته الشهيرة^(٣) وليس في غير القرن الثامن عشر ما نجدُ عندنا مؤلِّفين أنعموا النظر في التاريخ على ذلك النمط، ويُعدُّ ابنُ خلدون المَعِيّاً من فصيلة مونتسكيو والأب دو مابلي، وجدّاً لعلمائنا في الاجتماع مثل تارذ أو المستشرق غوبينو.

ولا نستطيع أن نتكلم عن حياته مُفصّلاً هنا جادّين في تحليل أفكاره، وقد كتَبَ سيرته بنفسه مطوّلاً، وتجدُ هذه السيرة

(٣) مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير، خلاصات ومقتطفات، الأجزاء: ١٦ -

١٨، ترجمة دولان، جزء ١٩ - ٢١، وقد ظهر الجزء ١٩ سنة ١٨٦٢ - وأما من ناحية قائمة الكتب فانظر إلى تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، جزء ٢، ص ٢٤٩.

المكتوبة من قبله على رأس مقدمته، ومنها يرى أنه وُلِدَ في تونس سنة ٧٣٢ (١٣٣٢ م)، وأنه قام بخدمة كثير من الأمراء كصاحب فاس، أبي عِنَان المَرِنِيِّ، الذي سَجَنَهُ.

وكذلك قام بخدمة سلطان بتلمسان من بني زِيَّان كان قد استردّها من بني مَرِين، وقد أَلَّفَ الأبُ بارجس كتباً مهمة عن بني زِيَّان الذين كانوا ملوك تِلْمَسَانَ، وتاريخُ هذه الكتب سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٨٧، ولهذه الكتب علاقةٌ بسيرة ابن خلدون، - وكان لهذا أخٌ أصغرُ منه يقوم بعمل كاتبٍ في بِلَاطِ ذاك السلطان، فكتب تاريخاً عن تلك البقاع أيضاً، وكان ذا قريحةٍ شعريةٍ أُعْجِبَ بها الأبُ بارجس كثيراً، وأَسَفَ ابنُ خلدون الكبيرُ، الذي كانت له مزايا أخرى، على أنه لم يُكَبِّ على الشعر كأخيه، وكذلك كان السلطان، وكُنِيَّتُهُ أبو حَمُو، شاعراً ممتازاً ذا طبع ودُودٍ جَدَّاب، وكان قد نُشِيَء في بِلَاطِ غَرْنَاطَةَ حيث كانت العلوم والفنون موضع تكريم، وقد أقام مباني رائعة، وليس الأبُ بارجس مُجَامِلاً لابن خلدون (عبد الرحمن)، وإذا عَدَوْتَ ما انتقد عليه عَطَلَهُ من الترتيب والنظام وجَدَّتَهُ يقول إن سلوكه وخلقه السياسيَّ كانا قائمين على ترك فريق والانضمام إلى فريقٍ آخرَ عندما تَقْضِي بذلك مصلحته وسلامته الشخصية، بيد أن من الواجب أن يُنظَر بعين التسامح إلى تلك الأدوار المضطربة؛ ويُدْعَى ابنُ خلدون «المُورَخُ الفيلسوف» كما يرى بارجس.

وكان مؤلفنا سفيراً لسلطان غَرْنَاطَةَ لدى الطاغية بِطْرُهُ الذي حاول اجتذابه إليه على غير جَدْوَى، ويأتي إلى القاهرة بعد زمنٍ

فيقومُ بمنصبي الأستاذ والقاضي تناوباً، ويعتزل بعضَ الوقت في ملكٍ اشتراه في الفيوم حيث كتبَ قسماً من أثره، وينتزعُه غزُوَ تيمورلنكَ للشامِ من دراساته، فقد اشترك في مقاتلة هذا الفاتح وبقيَ في دمشق بعد انكسار المماليك، فأرسله أهلُ هذه المدينة إلى معسكر المغول ليفاوضَ في موضوعِ التسليم، ويكلمه تيمورلنكُ طويلاً، ويطلب أن يصفَ له المغربَ، ويجيب ابنُ خلدون كما لو كانت تلك البلادُ أمام عينيه، وهو يُلبسُ بيانه لها شكلاً ملائماً لأفكار تيمورلنك، وهناك قصَّ عليه تيمورلنكُ خبرَ فتوحه، ثم أذن له في الرجوع إلى القاهرة حيث عاد بالحقيقة، ويُصبُ ابنُ خلدون قاضياً كبيراً فيها، ويتوفى فيها سنة ٨٠٨ (١٤٠٦ م) ابناً للرباع والسبعين من عُمره، وقد كان رجلاً وسيماً رشيقاً ودبليماً ماهراً وملازماً للسلطان اريباً.

وأثرُ هذا الكاتب العظيم هو تاريخُ للعالم، هو تأليفُ أتبع بتاريخٍ مهمٍّ للبربر نقله مسيو دو سلان (M. de slane) إلى الفرنسية، وصُدِّرَ بمقدمة يتكوّن منها وحدها كتابٌ ضخماً، وهذه المقدمة هي التي تشتمل على فلسفة ابن خلدون السياسية، وهي عبارة عن معلّمة واسعةٍ بحثٍ فيها عن جميع المسائل بشكلها الفلسفيّ، قال ابنُ خلدون:

«وفنُّ التاريخ في ظاهره لا يزيدُ على أخبارٍ عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تُنمى فيها الأقوال، وتُصرفُ فيها الأمثال، وتُطَرَفُ بها الأندية إذا غصّها الاحتفال،

وتؤدّي إلينا شأن الخليقة كيف تَقَلَّبَتْ بها الأحوال، واتَّسَع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحن منهم الزوال.

« وفي باطنه نظرٌ وتحقيقٌ، وتعليلٌ للكائنات ومبادئها دقيقٌ، وعلمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميقٌ، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمة عريقٌ، وجديرٌ بأن يُعَدَّ في علومها وخليقٌ. »

ومن ثمَّ يُرى أن التاريخ عند ابن خلدون نقدٌ للوقائع وبحثٌ عن الأسباب، ويُقضي هذا البحث بدراسة روح الأمم وروح عُمرانها، ويساورُ ابن خلدون شعورٌ قائلٌ بنقصان العُمران في زمنه، ولا غرْو، فكثيرٌ من الحضارات قد ظَهَرَ، ثم زال قسمٌ منه، « وما لم يَصِلْ إلينا من العلوم أكثرُ مما وَصَلَ، فأين علومُ الفُرس التي أمرَ عمرُ رضي الله عنه بِمَحْوِها عند الفتح؟ وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظَهَرَ عليهم من آثارها ونتائجها؟ وأين علوم القبط ومن قبلهم؟ وإنما وَصَلَ إلينا علومُ أمةٍ واحدة، وهم اليونانُ خاصةً، لِكَلْفِ المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذلِ الأموال فيها، ولم نَقِفْ على شيءٍ من علوم غيرهم. »

وينطوي هذا على شيءٍ من المبالغة على ما يحتمل، وذلك لأنه انتقل إلى المسلمين شيءٌ من علوم الفرس والهنود وبني إسرائيل وأفكارهم، وإنما تدلُّ تلك العبارة البليغة على ما كان يمازجُ مؤلفنا من فكرٍ واسعٍ عن الحضارة.

ثم يتناول بالتحليل تكوين المجتمعات، فالاجتماع أمرٌ عامٌّ ناشئٌ عن ضعف الإنسان منفرداً، «فقدرةُ الواحد من البشر قاصرةٌ عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غيرُ موفيةٍ له بمادة حياته منه... والواحدُ من البشر لا تقاومُ قدرةً واحدٍ من الحيوانات العُجمُ سيما المفترسةُ».

والمجتمع يفترضُ السيادة، والسيدُ «وازعٌ» عند ابن خلدون، «فلا بُدَّ من وازعٍ يذفعُ بعضَ البشر عن بعض... ويكُونُ للوازع عليهم الغلبةُ والسلطان واليدُ القاهرة حتى لا يصلَ أحدٌ إلى غيره، وهذا هو الملكُ»، ويقابلُ فيلسوفنا بين مجتمعات الإنسان وزمرِ الحيوان، ويقول: «وقد يُوجدُ الملكُ في بعض الحيوانات العُجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لِمَا استقرى فيها من الحُكم والانقياد والاتباع لرئيسٍ من أشخاصها متميزٍ عنهم في خلقه وجُسمانه، إلا أن ذلك موجودٌ لغير الإنسان بمقتضى الفطرة الغريزة، لا بمقتضى الفكرة والسياسة».

ويؤثرُ الإقليمُ في مزاج الأمم، ويُعنى ابن خلدون بدراسة هذا التأثير، فيشير ببعض البيانات التي أفاض في رَسْمِها إلى ما تقوم عليه أفضلية المنطقة المعتدلة، قال ابن خلدون: «وأما الأقاليمُ البعيدةُ من الاعتدالِ مثلَ الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعدُ من الاعتدالِ في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعُشب، وملابسهم من أوراق الشجر يَخْصِفُونها عليهم أو الجلودِ، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكهُ بلادهم وأدمها غريبةُ التكوين مائلةٌ إلى الانحراف».

ويختلف عن أولئك أهل الأقاليم المتوسطة، فهم «أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتدال لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والمُلك، فكانت فيهم النبوءاتُ والمُلك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصارُ والمباني والفِراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة، وأهل هذه الأقاليم التي وَقَفْنَا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارسَ وبني إسرائيل واليونان وأهل السُّند والهند والصين».

وأدّى البحث في أخلاق الأمم إلى ملاحظاتٍ مُمتعة، ومن ذلك أن ابن خلدون يسأل، مثلاً، عن السبب في أن الزنوجَ يَغْلِبُ عليهم الفَرَحُ والحِفْظَةُ، ويقول إن المسعوديَّ كان قد تَعَرَّضَ للبحث عن السبب، وإن مما يَرَى ابنُ خلدونَ صدورَ ذلك عن سهولة نيل أولئك لغذائهم، فالحفظة والغفلة خلُقا الأمم التي تعيش في الأقاليم التي تَكُونُ الزراعةُ فيها أمراً يسيراً، قال ابن خلدون: «ولما كانت فاسُ من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلُّول الباردة كيف تَرَى أهلها مُطْرِقِينَ إطراقَ الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم لِيَدْخِرُ قُوتَ سنتين من حبوب الحِنْطَةِ وَيَبَاكِرُ الأسواقَ لشراء قُوتِهِ ليومه مخافة أن يُرْزَأَ شيئاً من مُدْخِرِهِ»، ويضيفُ ابنُ خلدون إلى هذا قوله: «وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجذُّ في الأخلاق أثراً من كَيْفِيَّاتِ الهواء».

وكذلك يُرى للأغذية تأثيرٌ في مزاج الأمم، فمن السكان من هم في خِصْبِ العيش من الحبوب والفواكه «لزكاء المنابت واعتدال

الطَّيْنَةُ وَوُفُورُ الْعُمَرَانِ»، وَمِنَ السَّكَّانِ مِنْ تَعْوِزِهِمُ الْحُبُوبُ
وَالْأَدَمُ، وَإِنَّمَا أُغْذِيَتْهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ، وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ
أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَنْغَمِسِينَ فِي الْعَيْشِ،
«فَالْوَانُهُمْ أَصْفَى، وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقى، وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ، وَأَخْلَاقُهُمْ
أَبْعَدُ مِنَ الْإِنْخِرَافِ، وَأَذْهَانُهُمْ أَثَقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِدْرَاكَاتِ»، وَمَنْ
ثُمَّ يَسْتَنْتِجُ ابْنَ خَلْدُونَ فَوَائِدَ الزُّهْدِ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ.

وهذا الفيلسوف كثير الإعجاب ببساطة العيش، وهو، وإن كان بارعاً في كثير من العلوم، وأهلاً لتمييز ما يساعد على تقدم الفنون، يُشَنِّي على الحياة الرُّعائية وَيَعْطِف على الفطريين، فعنده أن الحياة البدوية والحياة الحضرية ملائمتين للطبيعة، ولكن الأولى هي الأقدم، والبادية مهد الحاضرة، والمدن مدينة لها بوجودها وسكانها، وأهل البدو أشجع من أهل المدن، وذلك لأنهم أكثر اعتماداً من هؤلاء على أنفسهم في سلامتهم، قال ابن خلدون: «إن أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكّلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى اليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستنموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحِرز الذي يحول دونهم، فلا تهجّبهم هينة، ولا يفقر لهم صيد، فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم منهم الأجيال... وأهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع وتوحّشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبأهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون

السلاح، وَيَتَلَقَّتُونِ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرْقِ وَيَتَجَافُونَ عَنِ الْمَجُوعِ إِلَّا غِرَاراً فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرَّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ، وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَاتِ وَالْمُهَيْعَاتِ... مُذَلِّينَ بِأَسْهُمِ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقاً وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ... وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ، لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ، فَالَّذِي أُلْفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقاً وَمَلَكََةً وَعَادَةً تَنْزَلَ مِنْزَلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْحَبِيلَةِ».

وَإِذْ قَامَ فَيَلْسُوفُنَا بِهَذَا التَّقْدِيرِ دَلَّ عَلَى شِدَّةِ مَيْلٍ فِيهِ إِلَى الْأَنْفَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ، وَقَدْ بَلَغَ فِي هَذَا مِنَ الْإِنْطِلَاقِ بِحَيْثُ يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْأُمَّةِ أَنْ تَخْضَعَ بِسَهُولَةٍ حَتَّى لِلسُّلْطَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَلَا يَجْدُرُ بِهَا أَنْ تُسَارِعَ إِلَى دَفْعِ الضَّرَائِبِ، وَمَا لَاحِظُ ابْنِ خَلْدُونَ أَنَّ الْقِبَائِلَ شَيْئَةَ الْمُتَوَحُّشَةِ أَقْدَرُ عَلَى الْقِيَامِ بِالْفَتْوحِ مِنَ الْأُمَّمِ الْأُخْرَى، «وَقَدْ عَاقَبَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّيِّهِ، وَهُوَ أَهْمُ تَاهُوا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً... وَحُكْمُهُ ذَلِكَ التَّيِّهِ مَقْصُودَةٌ، وَهِيَ فَنَاءُ الْجَيْلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصَبِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ التَّيِّهِ جَيْلٌ آخَرٌ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يَسْأَمُ بِالْمَذَلَّةِ، فَنَشَأَتْ لَهُمْ بِذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمَطَالِبَةِ وَالتَّغْلِبِ».

وَلَدَى ابْنِ خَلْدُونَ فِكْرَةٌ نَشِئَتْ مِنَ الدُّوَلِ وَتَطَوَّرَتْهَا، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْهَا كَأَنَّهَا ظَاهِرَةٌ بِيُولُوجِيَّةٍ، فَقَدْ قَالَ: «الْعُمُرُ لِلدُّوَلَةِ بِمِثَابَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التُّزْيُدِ إِلَى سَنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سَنِّ الرَّجُوعِ»، وَلَكِنَّهُ يُقَدِّرُ لَهَا دَوْرَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ، أَوْ ١٢٠ سَنَةً فَقَطْ، وَهَذَا عُمُرٌ قَصِيرٌ

إذا ما نظِرَ إلى ما قال عن الحسب فَذَكَرَ أن ذُرُوءَ حَسَبِ الآلِ تُبْلَغُ في أربعة أجيال، ولِذَا فإن الآلِ في نظره أكثرُ ثباتاً من الدولة.

ومتى قامت دولٌ جديدة قامت الحياة الحَضْرِيَّةُ فيها مقامَ الحياة البدوية مقداراً فمقداراً، وفي أشكال هذا الكِيان الجديد يَتَّخِذُ الفاتحون الشعبَ الذي قهره نَمُودَ جَآ يُجْتَذَى، وهذا ما حَدَثَ منذ الفتح العربيِّ، قال ابن خلدون: «وأهلُ الدولِ أبدأ يُقْلَدُونَ في طُورِ الحضارةِ وأحوالِها للدولة السابقة قَبْلَهُم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم، في الغالب، يأخذون، ومِثْلُ هذا وَقَعَ للعرب لَمَّا كان الفتحُ ومَلَكُوا فارسَ والرومَ واستخدموا بَنَاتِيَهُم وأبناءَهُم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيءٍ من الحضارة، فقد حُكِمَا أنه قُدِّمَ لهم المُرَقَّقُ فكانوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعاً، وَعَثَرُوا على الكافور في خزائنِ كِسْرَى فاستعملوه في عَجِينِهِم مِلْحاً، ومِثَالُ ذلك، كثير، فلما استعبدوا أهلَ الدولِ قَبْلَهُم واستعملوهم في مَهَنِهِم وحاجاتِ منازلهم واختاروا منهم المَهْرَةَ في أمثال ذلك والقدَمَةَ عليه أفادوهم علاجَ ذلك والقيامَ على عمله والتفننِ فيه».

ومع ذلك فإن هِمَّةَ فاتحي الأُمس تزول كلما زاد التَّرفُ، فمن شأن أحوال حياتهم الجديدة في المُدُن أن تُوهِنَ مزاجَهُم، «والحضارةُ إنما هي تَفَنُّنٌ في التَّرفِ وإحكامِ الصنائعِ في وُجُوهِه ومذاهبه من المَطَابِخِ والملابسِ والفُرشِ والأبْنِيَةِ وسائرِ عوائدِ المنزلِ وأحواله، فلكلِّ واحدٍ منها صنائعٌ في استجاداته والتأنقِ فيه تَخْتَصُّ به، وَيَتَلَوُّ بعضها بعضاً، وتَتَكَثَّرُ باختلاف ما تَنزَعُ إليه

النفوس من الشّهوات والملاذّ والتنعم بأحوال التّرف وما تتلّون به من العوائد .

ومتى نزل الهرم بالدولة تَكَوَّنَت دولٌ أُخْرُ، سواء بالتقسيم، عندما يتقلصُ ظلُّ السلطة المركزيّة عن المُلحقات وتعجزُ عن الوصول إليها، أم بالفتح عندما «يَخْرُجُ على الدولة خارج من مجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوةٍ يَحْمِلُ الناسَ عليها، أو يكون صاحبَ شوكةٍ وعصبيةٍ كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيَسْمُو بهم إلى الملك»

وفي الأصل يَسْبِقُ قيامُ الدول قيامَ المُدن، وذلك أن إنشاء المُدن يتطلب تعاونَ كثيرٍ من العمال فيقتضي نظاماً اجتماعياً قائماً مُقَدِّماً وَيُبيدِي ابنُ خلدون ملاحظاتٍ كثيرةً حَوْلَ المدن والمباني والصناعات والتجارة، وَيَتَّبَعُ تَقَدُّمُ الصناعات تَقَدُّمَ السُّكَّانِ: «فما يَسْتَدْعِي من الأعمال لضرورة المعاش فيوجدُ في كلِّ مصر كالحياط والحَدَّاد والنَّجَّار وأمثالها، وما يَسْتَدْعِي لعوائد التّرف وأحواله فإنما يُوْجَدُ في المُدن المُسْتَجِرَّة في العِمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة، مِثْلِ الزَّجَّاج والصائغ والدّهان والطَّبَّاح والصَّغَّار والفرَّاش والهَرَّاس والذباح وأمثال هذه، وهي متفاوتة، وبِقَدَر ما تَزِيدُ عوائد الحضارة وتَسْتَدْعِي أحوالُ الترف تَحْدُثُ صنائعٌ لذلك النوع فتُوْجَدُ بذلك المِصْرُ دون غيره، ومن هذا الباب الحَمَّاماتُ، لأنها إنما تُوْجَدُ في الأمصار المُسْتَحْضِرَة المُسْتَحْضِرَة العُمَران لِمَا يَدْعُو إليه الترف والغنى من التّنعيم».

ولا نستطيع تَتَّبَعُ ابن خلدون في كلِّ ما قال في مختلف العلوم

بعد ذلك، وهو لم يُقدِّم خلاصاتٍ لها ولا مبادئها ضبطاً، وإنما يقدم ملاحظاتٍ نفاذةً عن كلِّ منها، ويقول ما يجب أن يُفكر فيه حيالها، وما تنطوي عليه من فائدة وضمآن، وما تتقدم به من أحوال، إلخ، وذلك بما عُرِف به من روح فلسفيٍّ دائماً، ويؤيدُ ابنُ خلدون تأملاته هذه بأمثلةٍ أحسن اختيارها، ويذكر، في بعض الأحيان، أكثر مؤلّفي ذلك العصر، قدراً وأعظم كتبهم قيمةً، ويكون هذا إشارةً نافعة، وهكذا فإن «المقدمة» تشمل على فصول خاصة بالإدارة والزراعة والمعمارة والتجارة والحياكة والخياطة والولادة والطبِّ والغناء والوراقة والعلوم القرآنية والعلوم العددية والرياضية، من حسابٍ وجبرٍ وهندسةٍ وبصرياتٍ وفلكٍ، وبالكيمياء والسيماء والمنطق والنحو والآداب، وإنا، من بين هذه القائمة الزاخرة بالأفكار والوقائع، نختم قولنا عن ابن خلدون باقتطافنا شاهداً طريفاً واحداً من فصل الوراقة، قال ابن خلدون: «وكانت السجلاتُ أولاً لانتساح العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرّفه، وقلّة التآليف صور الملة كما نذكره، وقلّة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقترضوا على الكتاب في الرقّ تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان، ثم طمأ بحر التآليف والتدوين وكثُر ترسيلُ السلطانِ وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك، فأشار الفضل بن يحيى البرمكي (وزيرُ هارون الرشيد) بصناعة الكاغدِ وصنّعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذَه الناسُ من بعده صحُفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الإجابة في صناعته ما شاءت».

ومن مُقتَضَى هذا الاهتمام بالبحث التاريخي وبالبحث عن أسباب الاختراعات وتقدُّمها في كلِّ نوعٍ وكلِّ فنٍّ أن يُوضَعَ ابنُ خلدون، الذي هو كاتبُ القرنِ الرابعِ عشرِ الإفريقيِّ، في مصافِّ أفضلِ مَنْ أنجبتْ بهم أوربة من ذوي القرائح في الزمن الحديث.



الفيلسوف البَحَّاثَة :

الجَاحِظ

يُرى بين الفلاسفة القليلي الاكتراث للمسالك، والمتصفيين في الحقيقة بحرية الذهن، واحد امتدحه الشريقيون كثيراً وان كان معروفاً قليلاً لدينا، والجاحظ^(٤) هو الذي أقصدُ بذلك.

والجاحظ من مؤلفي الصدر الأول (القرن التاسع من الميلاد)، وكان من أهل البصرة، من أهل هذه المدينة الراسخة الثقافة في ذلك العصر، والتي كانت مركزاً للدراسات الدينية والفلسفية، وقد انضمَّ إلى حركة المعتزلة التي يترأسها أبي اسحق ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام الدينية، ثم صار رئيساً للمدرسة التي تحمِلُ اسمه^(٥)، والمعتزلة كلاميون عقليون، أو من أحرار الفكر، على الألف يُفهم بهذه الكلمة أنهم لا إيمان لهم، بل فلاسفة يعالجون معضلات الدين كما يشاءون، غير راديين الحلل إلى أيّ ثبت كان.

(٤) هو أبو عثمان عمرو بن بحر، انظر إلى بروكلمن، تاريخ الأدب العربي، ١ :

. ١٥٢

(٥) انظر إلى كارا دوفو، ابن سينا، ص ٣١ - ٣٢

وكان الجاحظ بَحَاثَةً إلى الغاية، وكان حُلُوَ الكلام قبيحَ المنظر، فلما قُدِّمَ إلى الخليفة المتوَكَّل كما يَكُونُ مؤدِّباً لولده كَرِهَ منظرَه، فصرفه معطياً إياه عشرة آلافِ درهم، وفضلاً عن ذلك فإن لقبه أتاه من جُحُوظِ عينيه، ويعيش بالبصرة إذَنْ، ويؤلِّفُ عِدَّةَ كتبٍ، وينال شهرةً واسعة، ويُرَوَى أن بَرَمَكِيّاً مرَّ من البصرة راجعاً من سفره إلى الهند، فأراد أن يزوره، وقد كان مُحْتَضِراً تقريباً، حتى يقول: «قد رأيتُ الجاحظ»، وأصيبَ بالفالج في آخرِ عُمُرِه، فكان يَطْلِي نصفَه الأيمن بالصَّنْدَل والكافور لِشِدَّةِ حرارته، والنصفُ الأيسرُ لو قُرِضَ بالمقاريض لما أَحَسَّ به من خَدَرِه وشِدَّةِ بَرَدِه، وقد تُوُفِّيَ الجاحظ سنة ٢٥٥ (٨٦٩ م) مجاوزاً حَدَّ التسعين.

ويَزُوي السعودي^(٦) بعضَ أقوالٍ لطيفةٍ للجاحظ تُذَكِّرُنَا بِرُوحِ قَرْنِنَا الثامنَ عشرَ، ومن ذلك أن بعضهم أتوا لزيارته في مَشِيبِه، فسألوه عن حاله، فقال لهم: «عليلٌ من مكانين: من الأَسْقَامِ والدَّيْنِ، ثم قال: أنا في هذه العلة المتناقضة التي يَتَخَوَّفُ من بعضها التَلْفُ، وأَعْظَمُهَا نَيْفٌ وسبعون سنة»، وذَكَرَ لابن أختٍ له أنه لام رجلاً على غُدُوِّهِ ورواحه في حوائجِ الناسِ قائلاً له: «قد أتعبتَ بذلك بدنك، وأخَلَقْتَ ثيابَكَ، وأعْجَفْتَ بِرِذَوْنِكَ، وقتلتَ غلامَكَ، فما لك راحةٌ ولا قرارٌ، فلو اقتصدتَ بعضَ الاقتصاد»، فقال هذا الرجل: «سَمِعْتُ تغريدَ الأطيارِ فما طَرِبْتُ طَرِبِي لِنِعْمَةِ شاكِرٍ

(٦) مروج الذهب للمسعودي، جزء ٨، ص ٣٥.

أَوْلَيْتَهُ مَعْرُوفاً أَوْ سَعَيْتُ لَهُ فِي حَاجَةٍ»، - وَلَكِنْ لَنْتَنَاوِلْ
مُؤَلَّفَاتِهِ:

لَا تَجِدُ مُؤَلِّفًا أَكْثَرَ مِنَ الْجَاحِظِ جُمُوحًا، وَيُلُوحُ أَنَّ الْمَوْضُوعَ
لَيْسَ عِنْدَهُ سِوَى ذَرِيعَةٍ لِلِاسْتِطْرَادِ، وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَنْتَقِلُ مِنْ فِكْرَةٍ
إِلَى أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ يَلْهُو وَلَا يُعِلُّ مَعَ بَقَائِهِ فَرِهًا^(٧) لَطِيفًا بَدِيعًا،
وَهُوَ وَافِرُ الْعَقْلِ حَتَّى فِي أَغَالِيطِهِ، فَيُرْفِقُ أَسْوَأَ فَلْتَاتِهِ بِبِرَاهِينٍ
لِادِّعَةِ يُبْدِيهَا كَمَا نَرَى ذَلِكَ فِي مَوْضُوعِ أَصْلِ الشَّعْرِ مَثَلًا.

وَعَنَاوِينُ كِتَابِهِ فَاتِنَةٌ، وَمِنْهَا: كِتَابُ الْحَاسِدِ وَالْمَحْسُودِ، وَكِتَابُ
فَضْلِ السُّودَانِ عَلَى الْبَيْضَانِ، وَكِتَابُ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ^(٨)، وَكِتَابُ
سَلْوَةِ الْحَرِيفِ فِي الْمَنَازِرَةِ بَيْنَ الرَّبِيعِ وَالْحَرِيفِ، وَكِتَابُ الطُّفَيْلِيِّينَ،
وَكِتَابُ الْبُخْلَاءِ^(٩)، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يُسْتَطَاعُ دَائِمًا اسْتِخْرَاجُ مَا فِي
الرِّسَالَةِ.

و «كِتَابُ الْحَيَوَانَ»^(١٠) هُوَ أَعْظَمُ كِتَابِهِ، وَقَدْ أُذْرَجَ فِي هَذَا
الْكِتَابِ كَثِيرٌ مِنَ الْفُصُولِ الَّتِي لَا صِلَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَيَوَانَ فَجَمَعَ
فِيهَا مَا يُمَكِّنُ الْحَيَوَانَ أَنْ يُوجِيَّ بِهِ مِنْ تَأْمَلَاتٍ وَخَوَاطِرَ أَدْبِيَّةٍ وَأَشْعَارٍ

(٧) الْفَرَسُ: النَّشِيطُ الْخَفِيفُ.

(٨) إِحْدَى عَشْرَةَ رِسَالَةً، جُمِعَتْ فِي «مَجْمُوعَةِ رِسَائِلِ»، وَنُشِرَتْ فِي الْقَاهِرَةِ سَنَةَ

١٣٢٤ هـ.

(٩) ثُمَّ نُشِرَ كِتَابُ الْبُخْلَاءِ مِنْ قِبَلِ فَانَ فِلوتِن، لِيدِن، ١٩٠٠

(١٠) كِتَابُ الْحَيَوَانَ، وَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ قَدْ نُشِرَ فِي الشَّرْقِ عَلَى نَفَقَةِ الْحَاجِّ مُحَمَّدِ

أَفَنْدِي، ١٣٢٥ هـ.

وحكايات، وإذا ما أُخِذَ في مطالعة هذا الكتاب رجاءً تَمَثَّلِ رسالةً علميةً في الحيوان خابَ الأمل، وبالعكس إذا ما قُرِيَء بلا ابتارٍ وسِيرَ مع هَوَى المؤلف من غير أن يُسأل عن تصميمه أَمْكَنَ أن يُرَى فيه كثير من الإمتاع.

ولا أعتقد أن من الممكن استنباطنا من الجاحظ فلسفةً أو مِنهاجاً، وإنما يُوجَدُ لديه أعلى ما يكون من روحِ فلسفيٍّ وذوقٍ قويٍّ عن الحياة الثَّقافية، وفي كثيرٍ من مطالبِ كتاب الحيوان الأولى يَتَكَلَّمُ، ولا أُذْرِي لِمَ، في مَدْحِ الكتب وتاريخِ الخط، وذلك إلى أن هذه المطالبِ الأولى مُلَهِيَةٌ بموضوعاتها وعدم تلاحُمِها، ولكن لِنَتَصَفَّحْ، فَقَطْ، شيئاً مما يَتَعَلَّقُ بالخطِّ والميلِ إلى الكتب.

تَجِدُ كثيراً من الأقوال في الآداب الشرقية عن المكتبات والوَلَعِ بالكتب، وقد سَبَقَ أن اقتطفنا قولاً عن ذلك للفخريِّ، ومن المُمْكِنِ أن نُبْصِرَ كلامه عن ذلك في ياقوت وفي الأفاصيص^(١١)، ويُمكنُ أن يكون الجاحظ، الذي هو أقدمُ من هؤلاء المؤلفين وأكثرُ إسهاباً في الموضوع، أَدْعَى إلى الاهتمام من هذه الناحية، وهو يستشهد، حَوْلَ الوَلَعِ في الكُتُبِ الضخمة (وكثيرٌ من ذوي الكلف بالكتب في أيامنا يُفَضِّلُونَ صغيرها)، بالكلمة الآتية التي تَدُلُّ على نشاط أدبيٍّ كبيرٍ على الأقلِّ، إذا كانت لا تَدُلُّ على تذوقٍ كامل، وهي: «قال ابنُ الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتهُ،

(١١) ومن ذلك وصفٌ لخطوط جميل في «ألف يوم ويوم» (٢) (باريس، ١٨٤٤،

ص ١٨٣)، وتاريخ حسن عبد الله، ومفاتيح الغيب.

وَرَجَوْتُ مِنْهُ الْفَائِدَةَ. وَرَأَيْتُ ذَلِكَ فِيهِ فَلَوْ تَرَانِي وَأَنَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ أَنْظُرُ كَمَا بَقِيَ مِنْ أَوْرَاقِهِ مَخَافَةَ اسْتِنْفَادِهِ وَانْقِطَاعِ الْمَادَّةِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُصْحَفُ عَظِيمَ الْحَجْمِ كَثِيرَ الْوَرَقِ كَثِيرَ الْعَدَدِ فَقَدْ تَمَّ عَيْشِي وَكَمَلَّ سُرُورِي... وَمَا قَرَأْتُ قَطُّ كِتَابًا كَبِيرًا فَأَخْلَانِي مِنْ فَائِدَةٍ، وَمَا أَحْصَيْتُ كَمَا قَرَأْتُ مِنْ صِغَارِ الْكُتُبِ فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ».

وبجانب هذه الكلمة تأتي الحكاية الآتية، وهي: «قال القبي ذات يوم لابن الجهم: أَلَا تَتَعَجَّبُ مِنْ فُلَانٍ نَظَرَ فِي كِتَابِ أَقْلِيدَسٍ مَعَ جَارِيَةٍ سَلْمَوِيَّةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَدْ فَرَعَتْ الْجَارِيَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ بَعْدُ لَمْ يُحْكِمْ مَقَالَةَ وَاحِدَةٍ عَلَى أَنَّهُ حُرٌّ مُخَيَّرٌ وَتِلْكَ أُمَّةٌ مَقْصُورَةٌ، وَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى قِرَاءَةِ الْكِتَابِ مِنْ سَلْمَوِيَّةٍ عَلَى تَعْلِيمِ جَارِيَتِهِ»؟.

ثم يأخذ الجاحظُ في الكلام عن كُتُبِ المذهب المَانَوِيِّ المعروف قليلاً، أي الزنادقة، ويبحث عن المصدر الذي أتاهم منه ميلهم إلى الكتب، ثم يُثِيرُ مَسَائِلَ دَقِيقَةً عَنِ الرُّوحِ الدِّينِيِّ وَيُقَدِّمُ تَفَاصِيلَ بِالْفَعْلِ الطَّرَافَةِ. «قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّنْدِيِّ مَرَّةً: وَدَدْتُ أَنْ الزَّنَادِقَةَ لَوْ يُكُونُونَ حِرْصِي عَلَى الْمَقَالَاتِ بِالْوَرَقِ النَّقِيِّ الْأَبْيَضِ وَعَلَى تَحْلِيلِ الْحَبْرِ الْأَسْوَدِ الْمُشْرِقِ الْبَرَّاقِ وَعَلَى اسْتِجَادَةِ الْخَطِّ وَالْإِرْغَابِ لِمَنْ يَخْطُ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ كَوْرَقَ كِتَابِهِمْ وَرَقًا وَلَا كَالْخَطُوطِ الَّتِي فِيهَا خَطٌّ، وَإِذَا غَرِمْتُ مَالًا عَظِيمًا، مَعَ حُبِّي لِلْمَالِ وَبُغْضِ الْغُرْمِ، كَانَ سَخَاءَ النَّفْسِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْكُتُبِ دَلِيلًا عَلَى تَعْظِيمِ الْعِلْمِ، وَتَعْظِيمِ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ النَّفْسِ وَعَلَى السَّلَامَةِ مِنْ سُكْرِ الْآفَاتِ، - قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ إِنْ إِنْفَاقَ الزَّنَادِقَةَ عَلَى تَحْصِيلِ الْكُتُبِ كَانْفَاقٍ

النصارى على البيع، ولو كانت كُتُبُ الزنادقة كتبَ حِكْمٍ وكتبَ فلسفةٍ وكتبَ مقاييسَ وسننَ نبينَ وتبيينَ، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرِّفُ الناسَ أبوابَ الصناعاتِ أو سُبُلَ التَّكسُّبِ والتجاراتِ أو كتبَ ارتفاعاتِ ورياضاتِ أو بعضِ ما يتعاطاه الناسُ من الفِطَنِ والآدابِ، وإن كان ذلك لا يُقَرِّبُ من غِنَى ولا يُبَعِدُ من مَأْتَمٍ، لكانوا ممن قد يَجُوزُ أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيانِ والرغبةُ في التبيينِ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانةِ على طريقةِ تعظيمِ المِلَّةِ، فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاقِ الجوس على بيتِ النارِ، وكإنفاقِ النصارى على صلبانِ الذهبِ، أو كإنفاقِ الهندِ على سَدَنَةِ البردةِ...

«ولو كان هذا المعنى مستحسناً عند المسلمين أو كانوا يرون أن ذلك داعيةً إلى العبادةِ وباعثةً على الخشوعِ لبلَّغُوا في ذلك بَعْفُوهم ما لا تَبْلُغُهُ النصارى بغايةِ الجُهدِ، وقد رأيتُ مسجدَ دمشقَ حين استجازَ هذا السبيلَ ملكٌ من ملوكها، ومن رآه فقد عَلِمَ أن أحداً لا يَرُومُه، وأن الرومَ لا تَسْخُوا أنفسهم به، فلما قام عمرُ بنُ عبد العزيزِ جَلَّه بالجلالِ، وغطَّاه بالكرابيسِ^(١٢)، وطَبَّخَ سلاسلَ القناديلِ حتى ذَهَبَ عنها ذلك التلألؤُ والبريقُ، وذَهَبَ إلى أن ذلك الصنيعُ مُجَانِبٌ لِسُنَّةِ الإسلامِ، وأن ذلك الحُسْنَ الرائعَ والمَحَاسِنَ الدَّقَاقَ مُذْهِلَةٌ للقلوبِ ومُشغِلَةٌ دون الخشوعِ، وأن البالَ لا يَكُونُ مجتمعاً وهناك شيءٌ يُفَرِّقُه وَيَعْتَرِضُ عليه، والذي يدلُّ على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مَثَلٌ سائرٌ، ولا خَبْرٌ ظريفٌ، ولا صنعةٌ أدبٍ:

(١٢) الكرابيس: جمع الكرباس، وهو الثوب الخشن.

ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريفُ صناعة، ولا استخراجُ آله، ولا تعليمُ فِلاحة، ولا تدبُّرُ حرب، ولا منازعةُ عن دين، ولا مناظلةُ عن نِحلة، وجلُّ ما فيها ذِكرُ النور والظلمة وتناكحُ الشياطين وتسافدُ العفاريتِ وذكرُ الصنديد والتهويلُ والإخبارُ عن شَقْلون وعن الهامة^(١٣) وهذَرٌ وعِيٌّ وخرافةٌ وَيَعْتَبُ ذلك بعضُ الشواهدِ والأشعارِ والمكالماتِ والحكاياتِ عن المولعين بالكتب حيث يُرى كثيرٌ من التفصيلاتِ أيضاً، ومن ذلك أن سُئِلَ أحدُ الهواةِ أن يُطلِعَ على نسخته من أشعارِ المُنشيءِ الفلانيِّ، وكانت هذه النسخة في جُلودِ كُوفِيَّةٍ ودَقَّتَيْنِ طائفتينِ بِحِطِّ عَجيب، فقِيلَ له إنه خَسِرَ ما أنفق في هذا السبيل، فقال: «لا جَرَم، والله إن العِلْمَ لِيُعْطِيكُمْ على حساب ما تُعْطُونَهُ، ولو استطعتُ أن أُودِعَهُ سُوَيْدَاءَ قَلْبِي أو أَجْعَلَهُ مَحْفُوظاً على ناظري لَفَعَلْتُ».

وينتقل الجاحظُ من الكُتُبِ إلى الخُطُوطِ، وهو يأتي بفلسفتها من بعض الوجوه، ويُعَدِّدُ بعضَ الخُطُوطِ المشهورة في زمنه، ويأتي بأكثر من ملاحظة ذاتِ قيمة، قال الجاحظ:

«وكان الأوائلُ يَجْعَلُونَ الكِتَابَ حَفْرًا في الصخورِ ونَقْشًا في الحجارةِ وحَلْقَةً مركبة في البُنْيَانِ، فَرُبَّمَا كان الكِتَابُ هو الناتئ، ورُبَّمَا كان الكِتَابُ هو الحفرُ إذا كان تاريخاً لأمرٍ جسيمٍ أو عهداً لأمرٍ عظيمٍ أو موعظةٌ يُرْتَجَى نفعها أو إحياءٌ شرفٍ يريدون تحليدها»

(١٣) الهامة: نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن الخربة، وتنظر من كلِّ مكان، أينما درت أدارت رأسها.

ذكره كما كَتَبُوا على قُبَّةِ غُمْدَانَ وعلى باب القَيْرَوَانَ وعلى باب سَمَرْقَنْدٍ وعلى عَمُودِ مَأْرَبٍ وعلى الركنِ المُشَقَّرِ وعلى الأَبْلَقِ الفَرْدِ وعلى باب الرُّهَاءِ يَنْعَمِدُونَ إلى الأَمَاكِنِ المشهورةِ والمواضعِ المذكورةِ فيَضْعُونَ الخَطَّ في أبعَدِ المواضعِ من الدُّثُورِ وأمنعها من الدُّرُوسِ وأجْدَرَ أن يراها من مَرَبِّها ولا تَنْسَى على وَجْهِ الدهرِ».

«وكانوا يَدْعُونَ في الجاهلية من يَكْتُبُ لهم ذِكْرَ الحِلْفِ والهدية تعظيماً للأمر وتبعيداً من النسيان»، وهذا أمرٌ شاملٌ لجميعِ الأممِ، «وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المُقَفَّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أن الشعر يُفِيدُ فضيلةَ البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلةَ المأثرة على السيد المرغوب إليه والمدوح به؛ وذهبت العجمُ على أن تُقَيِّدَ مآثرها بالبُنيانِ فَبَنَوْا مِثْلَ كَرْدِ بِيَدَادِ، وَبَنَى أَرْدِشِيرَ بَيْضَاءَ إِضْطَخَرَ وَبَيْضَاءَ المَدَائِنِ والحَضْرِ والمدن والحصون والقناطر والجُسُورِ والنواويسِ، ثم إن العربَ أَحَبَّتْ أن تشاركَ العجمَ في البناءِ وتنفردَ بالشعرِ، فَبَنَوْا غُمْدَانَ وكعبةَ نَجْرَانَ وقصرَ مارِدَ وقصرَ مَأْرَبَ وقصرَ شعوبِ والأَبْلَقِ الفَرْدِ... ولذلك لم تَكُنْ الفُرْسُ تُبِيحُ شَرِيفَ البُنيانِ كما لا تُبِيحُ شَرِيفَ الأَسْمَاءِ إلا لأهل البيوتات كصنيعهم في النواويسِ والحَمَّاماتِ والقِبابِ الحَضْرِ والشَّرْفِ على حيطانِ الدارِ وكالعَقْدِ على الدَّهْلِيْزِ وما أشبه ذلك...».

ولكن الجاحظ يُلَاحِظُ أن الكُتُبَ أُبْقِيَ على الدهرِ من الحجارة والحيطانِ، وذلك «لأن من شأن الملوك أن يَطْمِسُوا على آثارِ مَنْ قَبْلَهُمْ، وأن يُمَيِّتُوا ذِكْرَ أعدائِهِمْ، فقد هَدَمُوا بذلك السببِ

المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومضنع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان.

ثم تأتي فكرة يلوح أنها غريبة أول وهلة، فتدل على جهل مُستَهجنٍ بعد ذاك الفضل، وذلك أن المؤلف يقول لنا: «وأما الشعرُ فحديثُ الميلادِ صغيرُ السنِّ، وأولُ من نهجَ سبيله وسهَلَ الطريقَ إليه امرؤُ القيسِ بنِ حجرٍ والمُهلهلُ بنُ ربيعةَ»، فهذا الزعمُ الذي يجعلُ ميلادَ الشعرِ في الناسِ بالمعلقاتِ يُحدثُ في الذهنِ بلبلةَ ذاتِ ساعةٍ، والواقعُ أنه إذا ما أنعمَ النظرُ في ذلك ذُكرَ أن العربَ لم يَكُونوا على عِلْمٍ بالأشعارِ اليونانيةِ ولا بالأشعارِ الفارسيةِ القديمةِ، وأن خواطرَ فارسَ الغابرةِ لم تُحفظْ إلا نثرًا قبلَ دورِ الفِرْدَوْسي، ولمَ كان الأمرُ هكذا؟ هذا ما لا أستطيعُ بيانه، وهو من مسائلِ تاريخِ الأدبِ التي أدعُها إلى ذوي الفضولِ، وإنما أقولُ إن الجاحظَ الذي كان يَعْرِفُ عِلْمَ اليونانِ القديمِ بعضَ المعرفةِ لم يَدُرْ في خَلدهِ وجودُ شعرٍ لليونانِ، قال الجاحظُ مُواصِلًا: «وكتبُ أرسطو طاليسَ ومعلِّمِهِ أفلاطونَ ثم بطليموسَ وذي بقراطَ وفلانٍ وفلانٍ قبلَ بدءِ الشعرِ بالدهُور... فانظُرْ كَمَ كانَ عُمُرُ زُرارةَ، ومَ كانَ بينَ موتِ زُرارةَ ومولِدِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ، فإذا استظهرنا الشعرَ وجَدنا له إلى أن جاء اللهُ بالإسلامِ خمسينَ ومائةَ عامٍ، وإذا استظهرنا بغايةِ الاستظهارِ فماتتِ عامٍ».

ثم أصاب الجاحظَ في قوله، ولكن مع بعض العُجبِ: «وفضيلةُ الشعرِ مقصورةٌ على العربِ، وعلى من تكلمَ بلسانِ العربِ، والشعرُ

لا يُسْتَطَاعُ أَنْ يُتَرْجَمَ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ النُّقْلُ، وَمَتَى حُوِّلَ تَقَطَّعَ
نَظْمُهُ، وَبَطَلَ وَزْنُهُ، وَذَهَبَ حُسْنُهُ، وَسَقَطَ مَوْضِعُ التَّعْجِبِ، وَكَانَ
كَالْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ، وَالكَلَامُ الْمُنْثَوْرُ الْمَبْتَدَأُ عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنُ وَأَوْقَعُ مِنَ
الْمُنْثَوْرِ»، وَهُوَ، بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، يَأْتِي بِأَدَقِّ التَّأْمَلَاتِ وَأَحْصَفِهَا حِيَالَ
الْمُتَرْجِمِينَ وَوَأَجَابَاتِهِمْ وَصَعُوبَةِ التَّرْجَمَةِ، وَهُوَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِيغَالِ فِي
الْأَمْرِ بِحَيْثُ يَتِمَثَّلُ مَبْدَأُ كَثِيرِ الْوَضُوحِ عَمَّا يُمَكِّنُ وَقَوْعُهُ مِنَ
الْأَغَالِيطِ وَعَنْ نَقْدِ الْمُتُونِ.

وَجَمِيعُ الْأُمَمِ، وَأَسْوَدُهُمْ كَأَحْمَرِهِمْ (كَذَا)، يَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ
قَوَاعِدِ الدِّينِ وَالصَّنَاعَاتِ، وَإِلَى تَبَادُلِ مَا هَدَّتْهُمُ إِلَيْهِ التَّجْرِبَةُ قَدِيمُهَا
وَحَدِيثُهَا، وَلِذَا فَقَدْ نُقِلَتْ كُتُبُ الْهِنْدِ وَتُرْجِمَتْ حِكْمُ الْيُونَانِ
وَأَدَابُ الْفُرْسِ، فَبَعْضُهَا أَزْدَادُ حُسْنًا وَبَعْضُهَا مَا انْتَقَصَ شَيْئًا،
وَقَدْ نُقِلَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ، وَمِنْ قَرْنٍ إِلَى قَرْنٍ، وَمِنْ
لِسَانٍ إِلَى لِسَانٍ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ التَّرْجِمَانَ لَا
يُؤَدِّي أَبْدَأَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ عَلَى خِصَائِصِ مَعَانِيَةٍ وَحَقَائِقِ مَذَاهِبِهِ
وَدَقَائِقِ اخْتِصَارَاتِهِ وَخَفِيَّاتِ حُدُودِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُوفِيَهَا
حَقُوقَهَا وَيُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فِيهَا، وَيَقُومُ بِمَا يَلْزِمُ الْوَكِيلَ وَيَجِبُ عَلَى
الْجَرِيِّ^(١٤)، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَتَسْلِيمِ مَعَانِيهَا، وَالْإِخْبَارِ عَنْهَا عَلَى
حَقِّهَا وَصِدْقِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْعِلْمِ بِمَعَانِيهَا، وَاسْتِعْمَالِ تَصَارِيفِ
أَلْفَظِهَا وَتَأْوِيلَاتِ مَخَارِجِهَا مِثْلَ مُؤَلَّفِ الْكِتَابِ وَوَضَعِهِ؟ فَمَتَى

(١٤) الجري: الوكيل [عن: الجاحظ، مجموعة نوابغ الفكر العربي، طبعة دار
المعارف، القاهرة].

كان ابنُ البَطْرِيْقِ وابنُ نَاعِمَةٍ وأبو قُرَّةَ (ابن قرة) وابنُ فِهْرٍ وابنُ وَهَيْلِيٍّ وابنُ الْمُقَفَّعِ مِثْلَ أَرَسْطَا طَالِيْسَ؟ ومتى كان خالِدٌ مِثْلَ أَفْلَاطُونٍ؟ ولا بد للترجمان من أن يَكُونَ بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة.

وينبغي أن يكون المترجم أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يَكُونَ فيهما سواءً وغايةً، ومتى وجدناه أيضاً قد تَكَلَّمَ بلسانين علمنا أنه قد أَدْخَلَ الضَّمَّ عليها، لأن كلَّ واحدةٍ من اللغتين تَجَذِبُ الأخرى وتأخذُ منها وتعرض عليها، وكيف يَكُون تَمَكُّنُ اللسان منها مجتمعين فيه كَتَمَكُّنِهِ إذا انفرد بالواحدة؟ وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلفظةٍ واحدة استفرغت تلك القوة عليها، وكلما كان البابُ من العلم أَعْسَرَ وأضيقَ، والعلماءُ به أقلَّ، كان أشدَّ على المترجم، وأجدرَ أن يُخْطِئَ فيه، ولن تَجِدَ مترجماً يفي بواحدٍ من هؤلاء العلماء، وَيَحِيْقُ هذا المَهْذُورُ بكتبِ الهندسة والتنجيم والحساب واللحون (الموسيقى)^(١٥)، فكيف لو كانت هذه الكتبُ كَتَبَ دِينَ حَيْثُ تُطَلَّبُ الدَقَّةُ في المعنى... ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يَرْمِي إلى الحاذق بلسان العربية، ثم كان العربيُّ مُقَصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيِّ، لم يَجِدِ المعنى، ولم يَجِدِ اليونانيُّ بدأً من الاغتفار والتجاوز.

ثم لَنَرْجِعِ البَصَرَ إلى جميع الآفات التي تَصْدُرُ عن الناسخين، فَالْتَنُّ لا يَخْلُو من الخطأ مطلقاً، ثم يأتي ناسخٌ فَيَزِيدُ ما في الأصل

(١٥) كتاب الحيوان، الجزء الأول.

من خطأ، ولا يُمكنُ أن يُطلبَ من ناسخِ بأجرة أن يُصلحَ أغاليطَ
مَن ما دام المؤلفُ نفسه يَجِدُ مشقَّةَ كبيرةً في صيانةِ مَنه هذا من
الخطأ، وتقومُ النسخةُ المنقولةُ من المتنِ مقامَ هذا المتنِ لدى ناسخِ
فَتَرى في رسالةِ « التربيع والتدوير » ولا أدري كيف أتت إليها،
سلسلةً من المسائلِ حَوْلَ كُلِّ نوعٍ من الموضوعاتِ والعلومِ كالتاريخِ
والأساطيرِ وعلمِ الأرضِ، وهي مِنْهاجٌ حقيقيٌّ لموسوعةٍ في طرائفِ
القرنِ التاسعِ، وتَرى في رسالةِ الأسودِ والأبيضِ موجزاً تاريخياً
صغيراً عن الزنجِ، أي أهلِ « الزنجبار » وأبطالِهِم وفُتوحِهِم، وهو
مجموعةٌ وقائعَ معروفةٍ قليلاً، وجمَعُ مُتبعٌ عن روحِ الأممِ، ويُعني
الملاحظُ بهذا النوعِ من علمِ النفسِ كثيراً، فيعودُ إليه مرةً بعدَ مرةٍ،
وتَحْمِلُهُ روحه المبدِعةُ المخالفةُ للرأيِ السائدِ على دراسةِ الأممِ التي لم
تَكُنْ في زمانه قد نالتِ وَضَعَ المهيمنِ بَعْدُ، ويُعدُّ ثناؤه على
الأتراكِ في « رسالةِ في مناقبِ الترك » مفيداً من هذه الناحيةِ، ولم
يكِدْ هؤلاءُ القومُ يأخذونَ في الظهورِ حتى ذلكَ الحينِ، ونُرَجِّحُ أن
هذا كانَ أولَ كتابِ تَكَلَّمَ في ذلكَ بهذا التفصيلِ مع إعارتهِ هذه
الأهميةَ الكبيرةَ، وكذلكَ تَشغَلُ الصفاتُ المتبادلةُ للأممِ بآلهِ، فهو
يُعدُّها تَكَرَّراً، وذلكَ وفقَ ما أنعمتَ به عليها العنايةُ
الإلهيةُ، فلا تَبْلُغُ الأخرُ عَيْنَ الدرجةِ، كالصينيينِ في
الصناعاتِ، وقدماءِ اليونانِ في الفلسفةِ والآدابِ، والعربِ
فيما سَنَقُولُ، والفرسِ الساسانيينِ في تدبيرِ المُلكِ، والتركِ
في الحربِ، أَلَا نَرى أنَ اليونانِ، الذينَ بَحَثُوا في العِللِ، لم
يكونوا تُجَّاراً، ولا صنَّاعاً ولا زُرَّاعاً، بل كانوا من سِعةِ التأملِ، بما
لا مثيلَ له من ذهنِ ثاقبِ، ما اخترعوا معه آلاتِ وأدواتِ لفائدةِ

الناس أو لهوهم كالميزان والأسطرلاب والساعات الدقاقة والمزامير والأراغن، والطب والحساب والهندسة والموسيقا وآلات الحرب وما مائل ذلك، وكانت أمم الصين سبآكة صائغة نقآشة على الخشب لاحق، وهكذا فإن الكتاب تتداوله الأيدي التي تُفسده حتى يصير غلطاً صيرفاً وكذباً مطلقاً...

ومع ذلك فإن الجاحظ يُصير ما في هذا الرسم، الصحيح في جزئياته، من مبالغة في مجموعه، فيرفض نتيجته المنطقية، فقد لاحظ أنه لا ينبغي أن يُستنتج من هذا النقد أن الشعر أمتن من النثر شكلاً، وذلك خلافاً لما صنع بعض العرب المعاصرين له، وكما ذهب إليه الهنود في زمن البيروني الذين كانوا يضعون جميع علمهم نظماً، فالشعر ليس وسيلة المعارف العلمية، فكل ما هو خاص بعلم الآلات والصناعات موجود في كتب النثر، مثل كتاب أقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل كتاب المجسطي، وغير ذلك مما تولاّه الحجاج بالترجمة، فهذه الكتب، وإن كانت مختلفة ومنقوصة، ما بقي منها كافٍ شافٍ، والغائب منها كان تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة.

وهناك أخذ الجاحظ يتكلم مع الإعجاب عن الكتب التي يتداولها الناس عادةً جميع العلوم التي أفضت الكتابة إلى تداولها، وتجِدُ هناك قولاً صعباً جداً، بالغ الإمتاع فنياً، ثم تكلم الجاحظ عن مختلف الاختراعات التي هي مدينة للمصادفات.

ذاك فصلٌ من الجاحظ تقريباً، وقد يكون ذاك مجموعاً قليل الالتحام أحياناً، بيد أنه زاخرٌ بالوقائع والأفكار، ولا أجرؤ على

توكيد نفاسة الجميع على السواء، ولكن لنا حظّ العثور على شيء ما في المجموع، ولنلاحظ في رسائله الصغيرة، أيضاً، عباراتٍ جديرةً بأن يكثر لها الباحثون فتستحقّ تناولها بمباحث خاصة، خرّاطة نساجة طرّازة صانعة لزاهي الألوان، فبرعت في كل ما يتطلب مهارة يدوية مهما كانت المادة أو الثمن، وكان اليونان يوجهون ذهنهم إلى النظريات ولا يُعنون بالتطبيقات إلا قليلاً، وقد شغل الصينيون بالهم بالتطبيقات، ولم يعرفوا النظريات قط، فأولئك علماء، وهؤلاء عمال.

وأما العرب فليسوا تجاراً ولا صنّاعاً ولا أطباء ولا حسّاباً ولا زراعاً، ولم يكونوا منذ زمنٍ قليل غير أهل بؤادٍ ورُضعٍ سهلي بائر، وكانوا لا يعرفون عميق الأرض ولا الرطوبة ولا السحاب ولا التراب الحصيب، ولا العفونة ولا الحدود، ولكنهم إذا ما خرجوا من حدودهم، وطبّقوا أهليّاتهم في الشعر والمنطق والنحو وفنّ الاهتداء بالنجوم أو بأثر الأقدام، بلغوا أقصى البراعة في هذه الأمور المُنوّعة، وكذلك الترك إذا ما خرجوا من الأماكن الغامرة انتهوا إلى الحدّ في كل ما يصدر عن الفروسية والصيد وتربية المواشي وفنّ قيادة المغازي وتدويخ الأقطار.

الوزيرُ الفارسيُّ: نظامُ المُلْك

قام الوزيرُ نظامُ الملك، الذي نتكلم عنه الآن، بخدمة سلاجقة فارس، وسيطَر هؤلاء الآل الذين ارتَقُوا نتيجةً لضعف خلفاء محمود الغزنويِّ، على خلافة بغداد منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر (القرن الخامس من الهجرة)، فظهر منهم ملوكٌ ذوو مزايا عالية كطغرل بك وألب أرسلان وملکشاه، وجعل طغرل بك «الرَّيِّ» عاصمته، وفتح العراق وكُرْدستانَ وفارسَ، إلخ؛ وأمر الخليفة القائم في سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م.) بِذِكْرِ اسمه في خطبة الجمعة، وزَوَّجَه بابنته، وخلفه ابنُ أخيه ألب أرسلان، وقام بغزواتٍ في جورجية وأرمينية، وقهرَ قيصرَ الروم: أرمانوس الرابع، المعروف بدْيُوجانيس، وأخضع جميعَ فارس، وألب أرسلان هو الذي اتخذ نظامَ المُلْك وزيراً له، وخلفه ابنُه ملکشاه، قال المستوفي^(١٦): «كان عهدُ هذا الأمير ربيعَ آل سلجوق ودَوْرَ أعظم ما بَلَّغُوا من سلطة»، وانتزع ملكشاهُ أنطاكيةً من الروم، وكانت

(١٦) تاريخ كزیده، طبعة جول غانتن، وترجمته، ص ٢١٧ وما بعدها.

دولته تمتد من الشام إلى بلاد ما وراء النهر، ومن بحر قزوين إلى جوار اليمن، وكان قد قسّمها إلى نياباتٍ مُلكٍ بين أفراد أسرته والمقربين إليه، فأدى هذا إلى دُولٍ ثانوية، ودام عهدُ ملكشاه عشرين عاماً، ومات سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م)، وكانت أصبهانُ عاصمته.

وليست أخلاقُ نظام الملك مُجرّدةً من المكر إذا ما استُخلصت من بعض الوقائع والحكايات، ومن ذلك أن وجدَ حسن بن الصباح، الذي ظهرَ رئيساً قوياً للإسماعيلية فيما بعد، منافساً له في عهد ألب أرسلان، وكان السلطان قد ودّ لو يُوضَع له جدولٌ بدخل دولته ونفقاته، فطلب نظامُ الملك عامين لإتمام هذا العمل، فأخذ حسن الصباح على عاتقه إنجازَه في أربعين يوماً، فعهدَ السلطانُ إليه أن يقومَ بذلك، فلما أتمّه حصلَ نظامُ الملك عليه بواسطة أحدِ الكتّبة، وأفسدَ ما بين الورقاتِ بعضَ الشيء، ويظهرُ أن أوراق الوزراء لا تُرقمُ في ذلك الزمن كما هو الواقع الآن، ويمثُلُ حسن الصباح بين يدي السلطان كَيْما يُقدّمُ إليه نتيجةَ عمله، ويجدُ بعضَ الورقاتِ مختلطاً ببعض، ويضطرب، ويغادر البلاطَ، ويجهُرُ بالإلحاد، - ومن ذلك أن ملكشاه، لمّا جلسَ على العرش، ثار عليه أحدُ أعمامه، ويُقهرُ هذا العمُّ ويؤسّرُ، ولكن الجنودَ يتعجّلون في الاستفادة من الأحوال فيطلبون زيادةَ الراتب، ويهدّدون بالانضمام إلى المطالب بالعرش إذا لم ينالوا تلك الزيادة، ويرجو نظامُ الملك منهم أن ينتظروا حتى الغدِ كيما يكونُ لديه من الوقت ما يعرض طلبهم

فيه على السلطان، فلمَّا حَلَّ الغدُ جَمَعَ الكتائبَ وأخبرها بأن ذاك المطالب شَرِبَ سُمًّا في سجنه عن يأسٍ . وتَجِدُ سِمَاتٍ ماثلةً أخرى .
ولا مرآء في أن نظام الملك كان إدارياً كبيراً، وهو يُباهي بذلك، ومما حَدَثَ ذاتَ يومٍ أن جعلَ أجرَةَ رَبَّابنة جيحونَ من جزية أنطاكية التي هي من بلاد الشام، فقال: «وذلك حتى يُحدِّثَ، بعد زمنٍ طويل، عن اتساع المملكة وحُسنِ نظامها» .

وكان مَلِكشاهُ يُعنى في جَوْلَاتِهِ التي يقوم بها في ولاياته، ومعه وزيره، بالإصلاح الإداريِّ وإقامة المؤسسات، ومن ذلك أن أمر بإلغاء الرسوم التي تؤخذ من حُجَّاج مكة في نقاطٍ كثيرة من الطريق مستبدلاً بها مبلغاً من المال يُقْتطَعُ من دَخَلِ العراق، ومن ذلك أن أنشأ للججيج صهاريج خانات للقوافل وفنادق في الصحراء، وكان هذا السلطانُ صائداً ماهراً، فيُقيمُ في أثناء رحلاته أهراماً من حوافر الحُمُر الوحشية التي قتلها بنفسه .

وتزوَّج نظامُ الملك ابنةَ ملكِ أرمينية، وكان له من الولد اثنا عشر ورَّع بينهم أمورَ الدولة، فهذا الإجحافُ وما وَقَعَ بينه وبين الملكة من مشاكلٍ حيالَ اختيار وليِّ العهد أَدَّى إلى زوال حُظوته لدى السلطان وقد قام بالوزارة ثلاثين عاماً، ويُطعن، بعد زمنٍ بَخنجِرٍ من قبَلِ أحد رجال الإسماعلية (وهم المعروفون بالحشَّاشين) وكان قد أمرَ باستئصالهم، وهذا هو أولُ جُرْمٍ سياسيٍّ اقترفه هؤلاء المتعصبون (٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م) .

وبفضل هذا الوزير تمَّ إنشاءُ ثلاثِ جامعاتٍ في نيسابور وبغدادَ والبصرة، قال ميرخوند: «تمتاز المدرسة التي أنشأها

ببغداد، وسميت بالنظامية نسبةً إليه، بين جميع مآثره، وقد نالت هذه المؤسسة أعظم نجاح، فكان الطلاب الذين يقصدها لتلقي العلم يخرجون منها بارعين في فروع كثيرة؛ وقد قام بالتدريس فيها كثير من أساتذة العلم، كالإمام أبي إسحق الشيرازي، والإمام محمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام، ولم تكن مدرسة البصرة دون مدرسة بغداد اتساعاً واستعداداً، وكانت قد أقيمت خارج المصر في البداية، ثم نُقلت إلى داخلها مع جميع أدواتها.

وإليك بعض عبارات متقطعة من كتاب السياسة (سياسة نامه) الذي ألفه نظام الملك^(١٧)، فهو يتكلم عن المالية والميزانية في الفصل الخمسين كما يأتي:

«يَجِبُ أَنْ تُوضَعَ مِيزَانِيَةُ الدَّوْلَةِ خَطِيئًا، وَذَلِكَ لِكَيْ يُعْرَفَ بِوَضُوحٍ مَجْمُوعُ الْمَبَالِغِ الَّتِي سَتُحْصَلُ وَتُصْرَفُ، وَتُسَاعَدُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ عَلَى التَّأَمُّلِ، بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، حَوْلَ مَا يَكُونُ مِنَ النِّفَقَاتِ، فَيُطْرَحُ مِنْهَا مَا لَيْسَ ضَرُورِيًّا، وَتُرْفَضُ الْمَوَافِقَةُ عَلَيْهِ وَيُسْطَبُّ، وَإِذَا كَانَ لَدَى الْمُقَرَّرِ مَا يَعْرِضُ مِنْ مَلَاخِظَاتٍ حَوْلَ مَجْمُوعِ الْمَبَالِغِ، وَإِذَا مَا دَلَّ عَلَى زِيَادَةٍ فِي الدَّخْلِ أَوْ عَجْزٍ فِيهِ، وَجَبَ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى مَلَاخِظَاتِهِ بَعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ، وَهَكَذَا يَنْقَطِعُ كُلُّ صَرْفٍ زَائِفٍ، وَلَا يَبْقَى أَيُّ بَدَلٍ لِلْمَالِ أَمْرًا خَفِيًّا».

وكذلك قال الوزير، في الفصل الثامن والأربعين، إن للملوك

(١٧) كتاب السياسة (سياسة نامه)، ألفه الوزير نظام الملك للسلطان ملكشاه، طبعه وترجمه شارل شيفر، باريس، ١٨٩١ - ١٨٩٣، في ثلاثة مجلدات.

يَبْتِي مَالٍ دَائِماً، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَثَابِتٌ، أَوْ مَحْفُوظٌ لِلْأَحْوَالِ غَيْرِ
الاعتيادية، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلِلنَّفَقَاتِ الْجَارِيَةِ، «فَلَا يَجُوزُ اقْتِطَاعُ شَيْءٍ
مِنَ الْمَبَالِغِ الْمُدْخَرَةِ فِي الْأَوَّلِ مَا لَمْ تَقْضِ الضَّرُورَةُ الْمَطْلُوقَةَ بِذَلِكَ،
وَإِذَا مَا أَخَذَ مِنْهُ شَيْءٌ كَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْقَرْضِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا
يَجُوزُ إِنْفَاقُ الدَّخْلِ تَمَاماً».

وَمَا حَدَّثَ أَنَّ عَامِلَ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ فِي خَوَارِزْمٍ كَانَ قَدْ طَلَبَ
إِعْطَاءَ رَاتِبِهِ مِنْ دَخْلِ الْوَالِيَةِ الَّتِي يَقُومُ بِإِدَارَتِهَا، فَتَلَقَّى رَدَّ لَوْمٍ
مِنَ الْوَزِيرِ قَائِلٌ: «لَا يُمَكِّنُ، فِي أَيِّ حَالٍ، أَنْ يُتْرَكَ لِلْوَالِيِ أَيُّ
مَبْلَغٍ خَاصٍّ بِأَمْرِ مُعَيَّنٍ، فَادْفَعِ الدَّخْلَ إِلَى خِزَانَةِ السُّلْطَانِ وَاطْلُبْ
بِرَاءةً لِلذِّمَّةِ، ثُمَّ تَطَالِبْ بِرَوَاتِبِكَ»، وَأَخْصُ مَا يُدَقَّقُ فِيهِ نِظَامُ
الْمَلِكِ هُوَ قِسْمُ الْمِيزَانِيَةِ الْخَاصَّةِ بِرَوَاتِبِ الْجُنُودِ، فَيَجِبُ أَلَّا يُغْفَلَ عَنِ
هَذَا الْخَرْجِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَبْلَغُ مَوْجُوداً لِتَوْزِيْعِهِ فِي الْوَقْتِ
الْمُعَيَّنِ.

وَيَأْبَى كَاتِبُنَا بِشِدَّةٍ إِشْرَاكَ النِّسَاءِ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ يَعْزُو
عَيْنَ الشُّعُورِ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ، فَيُرْوَى أَنَّ هَذَا قَالَ: «أَهْنَاكَ مَلِكٌ
يَسْمَحُ لِلنِّسَاءِ بِأَنْ يَقْلَنَ كَلِمَتُهُنَّ فِي شُؤْنِ الدَّوْلَةِ وَأُمُورِ الْجَيْشِ
وَالْمَالِيَةِ فَيُشْعِرْنَ بِتَدْخُلِهِنَّ فِي ذَلِكَ، وَهِنَّ إِذَا مَا أَتَيْنَ لِلْحِمَايَةِ شَخْصٍ
وَطَرَدِ آخَرَ وَمَعَاقِبَتِهِ وَنَيْلَ عَمَلٍ لِذَلِكَ وَجَهَّنَ أَبْصَارَ جَمِيعِ النَّاسِ
إِلَيْهِنَّ، بِحَكْمِ الضَّرُورَةِ، وَبَادِرِهِنَّ النَّاسُ بِالْفَرَايِضِ وَالِاتِّمَاسَاتِ،
وَعِنْدَمَا يَرَى النِّسَاءُ هَذَا التَّهَافُتَ وَيَشَاهِدْنَ امْتِلَاءَ بِيُوتِهِنَّ بِجُمْهُورِ
مِنَ الْعَسْكَرِيِّينَ وَالْأَعْيَانِ خِيَلٍ إِلَيْهِنَّ إِمْكَانُ تَحْقِيقِ أَصْعَبِ الْأَمَالِ،
وَوَجَدَ الْأَشْرَارَ وَالْمَاكُرُونَ سَبِيلاً إِلَيْهِنَّ»، فَلَا يَلْبَثُ الْأَمِيرُ أَنْ يَرَى

تجرّده من كلّ نفوذ وعظمة. ويقول نظامُ الملك غيرَ التّقدميِّ إلّا قليلاً في هذا بتأخّر المرأة العقلي^(١٨) وفق المبدأ القرآنيّ. فلا يطالبها بغير « مواصلة أصالة النّسب. وهنّ كلّما كنّ من أصلٍ رفيعٍ وعشّن مزويات حُسنٍ أهلاً للثناء ».

ويشتمل الكتاب على ملاحظاتٍ مفيدةٍ عن الموالى، وعن واجبات الملك نحوهم فلا يُخاطَرُ بهم إلا لضرورة، وعن الجيش وكثرة السلاح، « فكلُّ طلبٍ صادرٍ عن الجُنْدِ يَجِبُ أن يُنْقَلَ بلسان رؤسائهم وضبّاطهم، فإذا ما لقيَ قبولاً حسناً كان الوصول إلى هذه النتيجة الحسنة بوساطتهم، فهذه الحال يَزِيدُ ما يجب من الاحترام حيّالهم»، ويجب على أرباب المقامات الكبيرة الذين يتمتعون برواتبٍ عظيمةٍ « أن يُظهِرُوا أهبه كبيرة في أسلحتهم وفي كلّ ما يَنْفَعُ في الحرب»، وهذا أوّلَى من زخرفة أثاثهم وتزيين منازلهم، ويجب أن يُرَقَّبَ حَرَسُ الليل وحُجَّابُ الأبواب ورصدُ القصور، ويَجِبُ أن يُعْرَفُوا جميعاً، وأن يُطَّلَعَ على سلوكهم العامّ والخاصّ، وذلك لأن هؤلاء الرجال ضِعَافُ الأخلاق، « فيُمْكِنُ أن يُغْوِيَهُم الذَّهَبُ»، ويَجِبُ أن يُبْحَثَ عن الغُرباء الذين يُروُنَ بينهم، وأن يستعرضهم رؤسائهم في جميع الليالي التي يتسلّمون فيها حِرَاسَتَهُمْ.

ويُلْقَى في أثناء هذه النصائح الحكيمه فكرة قلما لوحظت ولكنها تفسر، مع ذلك، تركيب الامبراطوريات الآسيوية القديمة،

(١٨) يقول المؤلف الفرنسي أن هذا « وفق مبدأ قرآنيّ ». ولكنه رأي بعض المفسرين. [الناشر].

البالغ الاختلاف عنصرياً، فقد قال نظامُ الملوك: «إن من الخطر الكبير أن يُملك جيشُ رجاله من أصلٍ واحدٍ فقط، فيجب على جميع عناصر الدولة أن تُقدّم جنوداً، وأليك ما يَقول في هذا المعرض مُضيفاً عن نظام السلطان محمود: فقد كان جيشه يشمل على جنودٍ من عناصرٍ كثيرةٍ مختلفة كالترك والخُرَّاسانية والعرب والهنود والدَّيْلَمِيَّة والغُورِيَّة، ومتى كان الجيش في حال غزو عَيَّنَتْ كُلُّ كتيبةِ رجالها الذين يسترجمون ليلاً، وما تَتَّخِذُ كُلُّ أمةٍ من مَوْضِعٍ يَقَعُ تحت النظر جيداً، فلا تستطيع أيةُ مُفرزةٍ أن تتحرَّك إلاَّ نهاراً خشيةً التي تَكُونُ مجوارها، ومتى دارتِ المعركةُ أقامت كُلُّ أمةٍ دليلاً على بسالتها وقاتلت بأقصى ما يُمكنُ من شِدَّةٍ» محافظةً بذلك على حُسن سمعتها فلا يقال: «إن الأمة الفلانية سارت مُتَوَانِيَةً في أثناء المعركة».

وبذات الروح يتناول المؤلف بالبحث مختلفَ الوظائف، فمن واجبات الولاية أن يَكُونوا حَسَنِي الاطلاع معتدلين منصفين خفيضي الوطأة على أممهم، والكتابُ زاخراً بالشواهد والوقائع المُبَيِّنَةَ لمختلف الأفكار والتي تُكوِّنُ رسالةً خُلُقِيَّةً في حَقْلِ العمل، وأخصُّ ما هو مُنتعٍ فيه اشتأله على معارفٍ عن حال الدولة السياسيِّ، ولا سيما نظامُ الإقطاعات، وهذا من التاريخ بما ليس أقلَّ من المذهب.

وزيرُ عاهل الهند أكبرُ: ابوالفضل، آيين أكبري

يَظْهَرُ علم الإدارة متقدماً جداً في زمن العاهل المغوليِّ: أكبر، أي في الهند في أواخر القرن السادس عشر، فقد تَرَكَ لنا صديقُ هذا العاهل ووزيرُهُ، أبو الفضل، حَوْلَ هذا الموضوع، كتاباً مهماً كنا قد ذكرناه، وهذا الكتابُ هو «آيين أكبري» أو نظامُ أكبر^(١٩)، فتنظيمُ البلاطِ والحِدمِ العسكرية والمدنية، والطَّرُقُ الصالحة التي تُتَّبَعُ في جباية الضرائب والميلُ إلى التقدم بجميع أنواعه، ومواصلةُ القيام بالإحصاء، واتساعُ البصائر الذي يؤدي إلى بقاء التثام دولة كبيرة مختلفة الأجناس، وروحُ الحِلْمِ والحرية الذي يَجْرِي في كلِّ عمل، أمورٌ تجعلُ هذا السِّفَرِ من أروع آثار العِلْمِ السياسيِّ بما فيه كل أدب، أجل، إن زمنه متأخرٌ عن زمن الآثار التي تكلمنا عنها حتى الآن، بيدَ أن الترقِي الذي حُقِّقَ به عظيمٌ، وإذا ما أُريدتِ مقابلةُ الأفكار التي يَنْطَوِي عليها هذا الكتابُ بما يُمكن أن

(١٩) آيين أكبري، لأبي الفضل العلامي، ترجمه من الأصل الفارسيّ هـ. بلوشمان، لكته، ١٨٧٣ جزء ١، وأتمه الكولونيل هـ. س. جارت، جزء ٢ و ٣، كلكته، ١٨٩١ و ١٨٩٤.

يَعْرِضُهُ الْغَرْبُ فِي هَذَا الْمَضَارِّ فَإِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ إِدَارَةِ «كَلْبِير» فِي
فِرْنَسَا وَمَذَاهِبِ «لَيْبِنْتِز» السِّيَاسِيَّةِ فِي أَلْمَانِيَا مَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ، وَقَدْ
ظَهَرَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ الْعَظِيمَانِ فِي عَصْرِ أَحَدَثَ مِنْ عَصْرِ أَكْبَرَ بِأَكْثَرِ
مِنْ قَرْنٍ.

وُلِدَ الشَّيْخُ أَبُو الْفَضْلِ فِي أَجْرَا (AGRA) سَنَةَ ٩٥٣ هـ
(١٥٥١ م)، وَذَلِكَ فِي عَهْدِ إِسْلَامِشَاهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُوهُ، الشَّيْخُ
مُبَارَكٌ، أَلْمَعِيًّا وَعِلْمًا مَوْسُوعِيًّا مَشْهُورًا، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ لِهَذَا الْأَبِ
آرَاءٌ تَوْفِيقِيَّةً فِي السِّيَاسَةِ وَالدِّينِ فَنَقَلَهَا إِلَى وَلَدِيهِ أَبِي الْفَيْضِ وَأَبِي
الْفَضْلِ وَأَوْجِبَ بِذَلِكَ اتِّهَامَهَا، مِنْ قَبْلِ سُنِّيَّةِ الْمُسْلِمِينَ، بِالزُّنْدَقَةِ أَوْ
بِالْهِنْدُوسِيَّةِ أَوْ بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ، وَكَانَ الزَّمَنُ الَّذِي مَضَى عَلَى ظُهُورِ
الْإِسْلَامِ حَتَّى ذَلِكَ الدَّوْرُ يَقْرَبُ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، وَكَانَتْ الْمُبَادِيَةُ
الْمَهْدِيَّةُ تَنْتَشِرُ، فَظَهَرَ فِي الْهِنْدِ مَهْدِيُّونَ كَثِيرُونَ، وَاشْتَرَكُ الشَّيْخُ
مُبَارَكٌ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَاقِبَ، لِهَذَا السَّبَبِ.
اضْطَهَادَاتٍ مِنْ قَبْلِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ الرَّسْمِيِّينَ فَسَاعَدَتْ هَذِهِ الْمَحَنُ عَلَى
نُشُوءِ شُعُورِ التَّسَامُحِ فِيهِ وَفِي وَوَلَدِهِ، وَكَانَ أَبُو الْفَضْلِ يَدْرُسُ
بِنَشَاطٍ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، وَكَانَ نَاضِجًا قَبْلَ الْأَوَانِ ككَثِيرٍ مِنْ شَبَابِ
الْشَّرْقِ، وَكَانَ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ، فَيَضِيُّ، أَوْلَ مِنْ دَعَاهِ أَكْبَرُ إِلَى الْبَلَاطِ،
ثُمَّ قُدِّمَ أَبُو الْفَضْلِ مِثْلَ أَخِي لَفَيْضِي (٩٨١)، وَلَمَّا دَخَلَ فِي خِدْمَةِ
أَكْبَرَ كَانَتْ الْحَالُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي عَلَيْهَا عَيْنُ الْحَالِ يَنْتَحِلُهَا هَذَا
الْعَاقِلُ، قَالَ أَبُو الْفَضْلِ: «قَضَيْتُ اللَّيَالِيَّ فِي أَمَاكِنِ الْعِزْلَةِ مَعَ
أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ بِإِخْلَاصٍ، وَنَعِمْتُ بِعِشْرَةِ أَوْلَئِكَ
الَّذِينَ هُمْ أَصْغَارُ الْأَيْدِي، وَلَكِنْ مَعَ غِنَى النَّفْسِ وَالْقَلْبِ، وَهَكَذَا
فُتِحَتْ عَيْنَايَ فَاطَّلَعْتُ عَلَى طَمَعِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ عُلَمَاءَ وَعُلَى

أَثَرَتَهُمْ... وعادت نَفْسِي لا تَعْرِفُ الرَّاحَةَ، وَشَعَرَ فَوَادِي بَمِيلٍ إِلَى حِكْمَةِ مَغُولِيَةِ كَالْمَيْلِ إِلَى نُسَّاكِ لُبْنَانَ، وَسَعَيْتُ بِحَرَارَةِ لَلْاجْتِمَاعِ بِلَامَا التَّبْتُ أَوْ بِدَرِيْسِ الْبُرْتغَالِ، وَكُنْتُ أَجْلِسُ، طَيِّبَ الْخَاطِرِ، مَعَ كَهْنَةِ الْمَجُوسِ وَشَرَّاحِ زِنْدِ أَوْ سَتَا، فَقَدْ كُنْتُ تَعَبًا مِنْ عُلَمَاءِ بَلَدِي».

وَيَسْتَقْبِلُهُ أَكْبَرُ عِنْدَ رَجُوعِهِ مِنْ فَتْحِ بَهَارِ وَبَنْغَالِ، وَتَبْدَأُ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ جَلْسَاتِ الْخَمِيْسِ فِي «فَتْحِ پُورِ سِيكْرِي» الَّتِي تَرَكَ لَنَا الْمُورُخُ بِيضَاوَنِي (BEDAONI) وَصَفًا حَيًّا عَنْهَا، وَصَارَ أَبُو الْفَضْلِ رَئِيسًا لِفِرْقَةِ أَكْبَرِ الدِّيْنِيَّةِ، وَأَقْنَعَ الْعَاهِلَ بِأَنْ يَعْذَّ نَفْسَهُ مَلِكًا فِي النِّظَامِ الرُّوحِيِّ كَمَا هُوَ مَلِكٌ زَمَنِيٌّ، أَيُّ أَنْ يَضَعَ الْمَمْلَكَةَ فَوْقَ السُّلْطَاتِ الدِّيْنِيَّةِ، فَلَمَّا أَبْدَى هَذِهِ الْفِكْرَةَ فِي اجْتِمَاعَاتِ الْخَمِيْسِ سَنَةِ ٩٨٦ أَثَارَ إِغْصَارًا، وَلَكِنْ مَعَ وُجُودِ مَنْ يَعْتمِدُ عَلَيْهِمْ فِي الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّنِّيَّةَ قَدْ جَنَحُوا، فَأَمْضَوْا وَثِيْقَةً أَعَدَّهَا الشَّيْخُ مَبَارِكٌ، وَهِيَ تَضَعُ «إِمَامَ الْعَدْلِ»، أَيُّ الْأَمِيرِ الشَّرْعِيِّ، فَوْقَ «الْمَجْتَهِدِ»، أَيُّ بِتَفْسِيرِ الْقَانُونِ وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: فَوْقَ الْأَثْمَةِ.

وَيَقُومُ فِي الدَّوْلَةِ مَبْدَأُ التَّسَامُحِ التَّامِّ نَتِيْجَةً لِنَشْرِ هَذَا الْبَلَاغِ. وَتَنْتَهِيِ الْجَمَاعَاتُ سَنَةَ ١٥٧٩ م، فَيُنْعَمُ عَلَى الْأَخْوَانِ بِمُخْتَلَفِ الْمَرَاتِبِ، وَيُعَيَّنُ فَيُضِيٌّ، فِي سَنَةِ ١٥٨٨، شَاعِرَ الدَّوْلَةِ الْمُفَضَّلَ، وَمَعَ أَنْ أَكْبَرَ قَلِيلٌ الْمَيْلَ إِلَى الشُّعْرِ فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الشُّعْرُ مِمثَلًا فِي بَلَاطِهِ رَسْمِيًّا، وَيُعَدُّ فَيُضِيٌّ شَاعِرَ الْهِنْدِ الْمُسْلِمِ الثَّانِي، وَأَمَّا الشَّاعِرُ الْمُسْلِمُ الْأَوَّلُ فَهُوَ الْأَمِيرُ خُسْرُو الدَّهْلَوِيُّ.

وَتَتَّبِعُ الْأَعْمَالُ الْأَدَبِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ الْأَعْمَالَ الدِّيْنِيَّةِ، فَيُرَى أَبُو

الفضل وأخوه والبيضاوي جاديين في ترجمة كتب من السنسكريتية أو الهندوسية إلى الفارسية، ويُترجمُ الشاعرُ المهندسُ، فيضيُّ كتابَ الرياضياتِ المعروفَ بـ «ليلواقي»، ويُترجمُ أبو الفضل كتابَ «كَليلة ودِمْنَة» من العربية إلى الفارسية، ويساعدُ، أيضاً، على ترجمة المَهَابَهَارَتَا وعلى تأليف «التاريخ الألفي» الذي هو كتابٌ ذو علاقةٍ بالحركة المهديّة.

ويتوفى الشيخ مبارك سنة ١٠٠١ في التسعين من عمره، ويتوفى فيضي بعد ذلك بعامين، وكان أبو الفضل يُحبُّ أخاه حُبَّ حَنَانٍ، فيَعِدُّهُ قُبَيْلَ موته بأن يَجْمَعُ أشعارَه المبعثرة، ويُنجِزُ وعدَه هذا بعد قليل زمنٍ على الرغم من أشاغله العظيمة.

وكان الفيلسوفُ العالمُ الإداريُّ أبو الفضل قد زاول سِلْكَاً عسكرياً أيضاً، فاشترك مثل قائدٍ في الحرب بدَقَهينَ حيث نال بعضَ الانتصارات، ولكن بما أنه كان يَصُعبُ على أكبرَ أن يَسْتغني عنه فقد استدعاه إلى البلاط، وبينما كان في الطريق أمرَ جهانكيرُ القادم، الأمير سليم، بقتله لِمَا يَغلي في صدره من حِقْدٍ عليه (١٠١١ هـ، ١٦٠٢ م).

ويُعتَبَرُ كتابُ أكبرَ (أكبرنامه)، الذي هو مؤلَّفُ الشيخ أبي الفضل العظيم، أهمَّ سِفْرِ في التاريخ الإسلامي بالهند، ويقعُ الكتابُ في ثلاثة أجزاء، فأما الجزءُ الأولُ فيشتمل على تاريخ آل تيمورلنك في صِلَاتهم بالهند، وعلى عهدِ بابر وعهد ملوك سُور وعهد هُمَايون، وأما الجزء الثاني فيشتمل على تاريخ مفصلٍ لنحو ٤٦ سنة من عهد أكبرَ «وأما الجزء الثالث فيتألفُ منه وحده كتابٌ ضخْمٌ يَحْمِلُ

عنوان «آيين أكبري» ويشتمل على معارف عن عهد أكبر ليست تاريخية حصراً، وإنما تنطوي على أمور الإدارة، وإن شئت فقل إنها تتناول الأمور الإدارية والإحصائية، ولدينا بها صورة عن حكومة أكبر حوالي سنة ١٥٩٠ من الميلاد.

ويُقسَّم هذا الجزء الثالث بدوره إلى خمسة أجزاء، فأما الجزء الأول فيتناول شخص العاهل بالبحث والفكرة التي يجب أن تُكوّن عنه وعن منزله وبلاطه، وأما الجزء الثاني فيتناول بالبحث عن الضباط المفوض إليهم أمر القيام بالحِدْم العسكرية والمدنية وعن الأشخاص الذين يجتذبهم البلاط «فينالون من العاهل ما يقتضيه نبوغهم الأدبي والموسيقى من تشجيع ويُلقون على عهده رونقاً وبهاء»، وأما الجزء الثالث من «آيين أكبري» فيشتمل على نظم للجهاز القضائي والتنفيذي وقيام عهد جديد «عملي أكثر من قبل»، ولمسح الأَرْضين وتقسيم الطبقات وجدول دخل الدولة، وأما الجزء الرابع فيتكلم عن حال الهندوس الاجتماعية وفلسفتهم وفقهم، وكذلك تجد فيه فصولاً عن غزاة الهند والرحالة المتأثرين الذين طافوا في البلاد، وعن بعض الأولياء المسلمين والطُرُق التي ينتسبون إليها، وأما الجزء الخامس، وهو الأخير، فيشتمل على حكم العاهل الخلقية ولوادعه وملاحظاته وأحكامه التي كان أبو الفضل يجمعها يوماً بعد يوم، «كما يجمع التلميذ أقوال أستاذه»، وإليك مختارات من هذا الكتاب الكبير:

قال المؤلف في بدء الفصل عن بيت المال: «إن أجل وجهي لحمد الله يقوم على تخفيف ضيق الزمن وإصلاح حال الإنسان كما

هو معلومٌ لدى جميع الناس، وتتوقفُ هذه النتيجةُ على تقدُّمِ الزراعة وبقاءِ الأمرِ لبيتِ المَلِكِ وإعدادِ ضباطِ الدولة وحُسْنِ نظامِ الجيش، ويقعُ جميعُ هذا بنسبةِ ما يُبْذِرُ المَلِكُ من اكتراثٍ شخصيٍّ، وما يَحْمِلُ من حُبِّ لشعبه، وما تَكُونُ عليه إدارةُ دَخْلِ الدولة وخرَجها من رشادٍ».

ولذلك فإن أبا الفضل يُعْنَى بالبحثِ عن دَخْلِ الأَرْضِينِ وفُقَ أنواعها وخاصيَّاتها وعن جُباةِ الضرائبِ وخزَنةِ بيتِ المالِ، وهو يُشْنِي ببلَاغِهِ على الذهبِ في مَعْرِضِ النقودِ، فيُعَدِّدُ خواصَّهُ ويقولُ إن هذا المَعْدِنِ دُعيَ بـ «الأصلِ الأكبرِ والحارسِ للعدلِ»، وليستِ الفِضَّةُ والنحاسُ سوى مساعِدَينِ، ويَبْدُو مؤلَّفُنا مِثْلَ كِماويٍّ ماهرٍ، فيَعْرِضُ طُرُقَ تَنْقِيَةِ الذهبِ وتَصْفِيَةِ الفِضَّةِ وفَصْلِ الفِضَّةِ عن الذهبِ، وهو يُعْطِي وصفاً للنقودِ الرَّائِجَةِ ووزنَها وقيمةَ النقودِ القَدِيمَةِ، وهو يتكلمُ عن «أصلِ المعادنِ» في مناقجها كما لو كان سيميائياً، ولكنه، في مقابلِ ذلك، يَضَعُ جدولاً للأوزانِ النوعيةِ للموادِّ الثمينةِ والذهبِ والمعادنِ والحجارةِ على طريقةِ علماءِ الزمنِ الحديثِ.

ثم ينتبه إلى دوائرِ الحريمِ المَلَكِيَةِ وما توجبه من نفقاتِ، ثم يتكلمُ عن الأسفارِ والمُعسَكَراتِ، وهذه مسألةٌ شَغَلَتْ بِأَلِ مَوْلَاهُ، فقد قال إن صاحبَ الجلالةِ تَصَوَّرَ مزرعةً كبيرةً مُغْلَقَةً بِأَبوابِ متينةٍ بالغَةِ من المساحةِ ما مقدارهُ مئةُ يردِ مُرَبَّعٍ، ولهذا المزرعةِ أقسامٌ منتظمةٌ، وتقومُ في أطرافها حُجَيْرَاتٌ للملكِ وأولياءِ الشَّانِ، وكذلك يَصِفُ أبو الفضلِ معسَكَراتِ الجيشِ وعاداتِ الإنارةِ، فلا

يَفُوتُ انتِبَاهَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ يُقَدِّمُ إِحْصَاءَ عَنِ أَثْمَانِ شَتَّى الْمَوَادِّ، وَمِنْ قَوْلِهِ مَلَا حِطًّا: «تَحْتَلِفُ هَذِهِ الْأَثْمَانُ فِي أَثْنَاءِ الْأَمْطَارِ أَوْ لِأَسْبَابٍ أُخْرَى كَمَا فِي الدَّرَجِ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقَدِّمَ عَنْهَا غَيْرَ رَقْمٍ مَتَوَسِّطٍ يُفِيدُ فِي التَّحْرِيَّاتِ الْقَادِمَةِ»، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ يَضَعُ، مَثَلًا جَدُولًا عَنِ أَثْمَانِ الْفَوَاكِهِ تَبَعًا لِمَصْدَرِهَا وَخَاصِّيَّاتِهَا، حَتَّى إِنَّكَ تَجِدُ جَدَاوِلَ كَثِيرَةً وَفَقَّ مَا تَكُونُ الْفَوَاكِهِ حُلْوَةً أَوْ سَالِمَةً أَوْ جَافَةً، وَمِنْ قَوْلِهِ مَلَا حِطًّا أَيْضًا: «يَعُدُّ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ الْفَوَاكِهَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ الْخَالِقِ، وَيُعْنَى بِزِرَاعَتِهَا كَثِيرًا، وَيَسْتَقَرُّ هُنَا بُسْتَانِيَّةٌ مِنْ إِيرَانَ وَتُورَانَ، وَتَظْهَرُ غِرَاسَةُ الْأَشْجَارِ فِي حَالِ إِزْدِهَارٍ، وَالشَّمَامُ وَالْعَنْبُ زَاخِرَانِ وَمِنْ النَّوْعِ الْجَيِّدِ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَجِدَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْوَاعَ الْبَطِّيخِ وَالْحَوْخِ وَاللُّوزِ وَالْفُسْتِقِ وَالرُّمَّانِ، وَقَدْ أُذْخِلْتَ أَحْمَالَ مِنْ الْفَوَاكِهِ مِنْذُ فَتْحِ كَابُلٍ وَقَنْدَهَارِ وَكَشْمِيرِ، وَتَمَلُّ بِهَا دَكَائِنُ الْبَائِعِينَ وَتَزُودُ بِهَا الْأَسْوَاقُ طَوَالَ السَّنَةِ».

وَتَتَّبِعُ الْفَوَاكِهَ بِالْعَطُورِ وَالزَّهْوَرِ الطَّيِّبَةِ الرَّائِحَةِ، وَهُوَ يُقَدِّمُ جَدُولَهَا وَأَثْمَانَهَا، وَهُوَ يُرَضِّحُ أَعْدَادَ كُلِّ عَطْرِ، وَيَصِفُ الزَّهْوَرَ الَّتِي يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا، فَيَتَأَلَّفُ مِنْ ذَلِكَ وَثِيْقَةً مُفِيدَةً لِتَارِيخِ الْكِيْمِيَاءِ .
ثُمَّ يَأْتِي دَوْرَ الْمَنْسُوجَاتِ وَالشَّلَّاتِ، وَلَيْسَ هَذَا بِالْفَصْلِ الضَّمِيلِ الْأَهْمِيَّةِ فِي الْهِنْدِ، قَالَ أَبُو الْفَضْلِ: «لَقَدْ أَصْلَحَ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ هَذَا الصَّنْفَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ، وَأَوَّلُ مَا يَبْدُو التَّقَدُّمَ فِي «جَمِيعِ الشَّلَّاتِ» الَّتِي نُسِجَتْ بِصُوفِ حَيَوَانَ يَحْمِلُ هَذَا الْاسْمَ، وَكَوْنُ هَذَا الصُّوفِ الطَّبِيعِيُّ أَسْوَدًا أَوْ أَيْضُ أَوْ أَحْمَرًا، وَهُوَ أَسْوَدٌ غَالِبًا، وَهُوَ نَاصِعُ الْبِيَاضِ أحيانًا، وَلَا مَثِيلَ لِنَوْعِ الشَّلَّاتِ هَذَا مِنْ حَيْثُ خَفَّتْهُ وَحَرَارَتُهُ وَلَطَافَتُهُ، وَيَلْبَسُهُ النَّاسُ عَلَى الْعَمُومِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُغَيِّرُوا

لونه الطبيعيّ، وقد أمر صاحبُ الجلالة بصنع نوعٍ من الشالات مصبوغٍ»، وأما النُسجُ الأخرى فقد أمر صاحبُ الجلالة أن تُنسجَ بأوسعٍ من ذلك كما يُمكنُ صنْعُ ثوبٍ كاملٍ من القطعة الواحدة، والحقُّ أن من موجبات العجب أن يُرى مثلُ هذا الاهتمام بأمرٍ جزئيٍّ عمليٍّ لدى أناسٍ أبصرنا منذ هنيهة شغلَ بهم بأعلى المباحث النظرية في ما بعد الطبيعة وفي الأديان، ويُذكرُ أبو الفضل بكُلبيير (Colbert) عندنا في هذا الاهتمام بمعرفة الصناعات وتنظيمها وإغنائها، وينتهي الفصلُ عن المنسوجات بمجدولٍ في مختلف أنواعها وأسعارها.

ولا تزال هذه الموسوعةُ بعيدةً عن فصلها الختاميّ، ففيها معارفٌ عن الخطِّ والتصوير، وقد نعرض للحديث مكتبة الملك وديوان الترجمة، وأطلعنا المؤلفُ على الكتب التي تُرجمت، وعلى الكتب المهمة التي يُحبُّ صاحبُ الجلالة أن يطالعها، أي على تفصيلٍ يُشيرُ العجب.

وتأتي صناعةُ الحرب بعد صناعات السِّمِّ، فلم تكن مسائلُ فنِّ التنظيم العسكريِّ والتسلُّحِ الكثيرةُ مما يُعرض عنه ذاك العاهلُ ولا وزيره، فعلى العكس يُلوح أن انتباههما ونبوغهما في التنظيم يتضاعفان، فيتجلّى حسُّ التقدم وتحريُّ الرقيِّ، ويخفِزهما نفعُ الموضوع، جَلَّين بالغبين من القوة بحيث نُبصرهما في أيامنا، « فقد أمعن صاحبُ الجلالة في اختبار العمل بدور الصناعة، وتمثَّل كلَّ نوعٍ من الأساليب الجديدة ودرَسَ إمكانَ تطبيقها عملياً، وهكذا فإنه أُتيَ أمام صاحب الجلالة بدروعِ مصفحةٍ واتَّخِذَتْ هدفاً فلم تستطع أيةُ قذيفة أن تؤثرَ فيها، فدروعٌ من هذا النوع صنِّعَ منها

عددٌ كافي لجميع الجيش»، ثم أحصيت أصناف الأسلحة الدارجة، فوجدت سبعة وسبعين، وهذا كثيرٌ، وذلك مع وصف بعضها، وفي ذلك يُقرأ تعريفٌ جميل للمدفعية، ومما جاء فيه: «أن للمدافع قفولاً عجيبةً لحماية صرح الدولة الجليل، كما أن لها مفاتيحَ لفتح باب الفتح، فإذا استثنيت تركية لم تجذ بلداً، على ما يحتمل، له بمدافعه ما لبلدنا من ضمان كيان الدولة»، وقد أعمل العاهلُ خياله الخصب حيال هذا الفصل أيضاً: «فالآن يوجد من المدافع ما يقذف قنابل تزن الواحدة منها اثني عشر مناً... وأتى صاحب الجلالة باختراعات كثيرة أثارت حيرة العالم، فقد أنشأ مدفعاً سهلاً فكهُ وتركيبه كما تقضي به الضرورة في أثناء السير، وقد وفق لاختراع آخر وصل به بين سبعة عشر مدفعاً يمكن إطلاقها بفتيلة واحدة، وقد صنع من المدافع ما يمكن حملهُ على فيل واحد... ويوجد من المدافع ما هو خاصٌ بالحصار وما هو خاصٌ بالبحرية».

والخلاصة أن هذا الكتاب العجيب المملوء حياةً وأفكاراً وعلماً، حيث بحث في جميع نواحي الحياة وسجل ورتب، وحيث يسطع التقدم في كل ثانية، هو وثيقةٌ يمكن الحضارة الشرقية أن تباهي بها حقاً، وقد سار الرجال، الذين يبين هذا الكتاب نبوغهم، بزمهم قدماً في فن الحكم العملي كما يحتمل أن يكونوا قد ساروا به قدماً في مباحث الفلسفة الدينية، ويعرف هؤلاء الشعراء، هؤلاء المتأملون، أن يتصرفوا في العيني فيلاحظون ويصنفون ويمدّون ويجربون، وإذا ما عنت لهم أفكارٌ وضعوها على محك التجارب العملية، أجل، إنهم يُعربون عنها ببلاغة، ولكنهم

يؤيدونها بالإحصاءات، وترانا في الغرب تُسني على لِينْتز لها أْبَصَرَ
 من فائدة الإحصاء ومن الخِدم التي يُمكنُ الإحصاء أن يُقدِّم (٢٠)،
 فنَعُدُّه عِلْماً حديثاً، مع أن حكومة أكبر طبَّقته على الإدارة، منذ
 أكثر من ثلاثة قرون، تطبيقاً اصولياً وذلك بجانب مبادئ
 التسامح والإنصاف والإنسانية.



(٢٠) راجع كارادو فو، لِينْتز، الأوصاف الخاصة عند بلود باريس، ص ٥٥.

الفصل الثامن

الأمثال والقصص فائدتها في الفلسفة السياسية والأخلاق

- كلمات عن الشعر العربي ، عنتر ، قطعة من النابغة .
- مجموعات الأمثال : الزمخشري ، والميداني ،
أمثال حديثة بأفريقيا الشمالية حكم المجدوب .
- القصص : لقمان ، اسطورة بزرجمهر وكليلة .
- ألف ليلة وليلة ، مسائل عن الاصل ، أستير
وشهرزاد .

كلمات عن الشعراء العزني

عنتره، قطعة من النابغة

لا نرى وجوبَ أفرادِ فصلٍ خاصٍ لشعراء العرب، فعلى ما كان من إعجاب بني قومهم الشديد بهم فإنه لا يُلوح لنا وجودُ صفاتٍ ذاتِ نفعٍ عامٍّ في آثارهم، فعندهم لا يُرى الشعرُ الغنائيُّ الواسعُ المدى ولا اضطرارُ الهَيَامِ ولا ما عند أكابر شعراء الفُرس من نقشٍ عجيب، وهم، وإن كانوا من اللطافة بما فيه الكفاية، ليس لديهم رِقَّةُ المُحدثين من شعراء الترك المُجيدين، وفضلاً عن ذلك فإن أكثرهم محللاً للتقدير، حتى من قِبَل العرب، ليسوا مسلمين.

والواقعُ أن أشهرَ هؤلاء الشعراء هم الشعراءُ السبعة الذين ظهروا قِبَل الإسلام والذين وضعوا القصائدَ المُسمَّاةَ بالمعلقات.

ومن هؤلاء نذكرُ عنتره الذي كان خِلاسيّاً ابناً لأمة حبشية وكان ذا نصيبٍ كبيرٍ في قِتالات القبائل التي تَسْتَنفد نشاطَ أهل البدو في تلك الأدوار الابتدائية، فانتهى أمره بأن قُتِلَ في معركةٍ اشترك فيها ضِدَّ طيِّ، وغدًا عنترهُ بطلاً لحماسية تُعرَفُ في مجموعها بـ « قصةِ عنتر » التي وُسِّعتْ وأذيعتْ من قِبَل المُغنين الشَّعبيين في مُدُن الشرق بعد ظهور الإسلام بَعْدَةَ قرون.

وازدهر الشعرُ كثيراً في عصر الدولة الإسلامية الأولى، أي في زمن الأمويين، وقد سَطَعَ نجم ثلاثة من الشعراء في ذلك الزمن، وهم: الأخطلُ وجريُّ والفرزدقُ، وكان الأخطلُ عربياً من قبيلة تغلب، من هذه القبيلة التي كانت أكثريتها نصرانية، وكان الأخطلُ نفسه نصرانياً، وكان يحملُ إشارات النصرانية علناً، ولا يخاف الظهورَ في سِلاط الخليفة مُعلّقاً صليباً برقبته، وكان الأخطلُ شاعرَ بني أمية ويتمتع بحظوة كبيرة لدى هؤلاء الأمراء، ولا سيما يزيدُ وعبدُ الملك، وكان جريُّ والفرزدقُ مُسلمين، فأما الأولُ فشاعرُ قائدِ بني أمية المهوَّبِ ووالي الشام: الحجاج، وأما الفرزدقُ فأعرابيٌّ كثيرُ الحبِّ لآلِ عليّ، فوضعَ أهاجبيَّ ضدَّ الحجاجِ وبني أمية، فحمله هؤلاء على الفرار إلى جزيرة العرب.

وكان هؤلاء الشعراءُ الثلاثة هجّائين كثيري القذع على الخصوص، وكانوا يتصاولون أو يواثبون أعداء حماهم الأمراء، ويكُون سبَابُهم من الغِلظة أحياناً ما يتناولون به حتى النساء، ولمّا أفرط جريُّ في هذا المضمارِ جُلِدَ، ذاتَ يومٍ، بأمر الخليفة وشُهرَ في ميدانِ المدينة، ونُشِرَت دواوينُ هؤلاء الشعراء، وأفرَدَ مسيوه. لامنسُ (M. H. Lamens) للأخطلِ وبنافسنيه دراسةً دقيقةً ووضعتْ وَفَّقَ «كتاب الأغانى» على الخصوص (المجلة الآسيوية، ١٨٩٤، جزء ٢).

ونلقَى المتنبي في القرن الرابع من الهجرة، وقد اعترف معاصروه ونقّاد العرب بأنه آخرُ من ظهر من أعظم الشعراء، ولا

نَرَى، لا رَيْبَ، ما هو أحسن من الاعتماد على حُكْمِهِمْ، وكان قد لاح للمتنبي في شبابه أن يُنْشِئَ ديناً فسَجِنَ لهذا السبب، ثم صار شاعراً السلطان الحمداي، سيف الدولة (في سنة ٣٣٧)، وقضى بجانب هذا الأمير حياة سعادة مدة عشر سنين، ويحدث ما يَفْقِدُ به هذا السَّنَدَ فيسعى في أن يلقى بقیةَ عُمره رعاية عاد لا يجدها، وبينا كان عائداً إلى بغداد أغار عليه بعض الأعراب وقتلوه سنة

٣٥٤.

وتلك الأسماء أشهر ما في الشعر العربي، ولا تُبْصِرُ فيهم ما يؤثر فينا، فآثارهم قصيرة دائماً، وهذا ما يقتضيه الوزن العروضي، فلا كبير صَوْلَةٍ ولا بُعْدَ غُورٍ، وإنما شِدَّةُ هَجْوٍ، ولكن مع الإفراط في التلميح الذي يعوزنا معناه، وإنما غنى بالغ في الكلمات يُشِيرُ فضول العالم باللغات، ولكن مع صعوبة فهمها بلا رجوع إلى الشروح وتَعَدُّرِ تَرْجَمَتِهَا تقريباً لهذه العلة، وهذا مع القول بلباقتها ودقتها في الوصف، ويظهر لي أن مزية هؤلاء الشعراء الأساسية في إتقانهم فنِّ المناظر، وكذلك يظهر هذا الفن لديهم محدود المدى، فهم يَصِفُونَ عدداً قليلاً من مناظر حياة البدو أي القافلة التي ترتحل، والمُخِيْمِ الذي يُتْرَكُ، والرمل المنقَطُ بالمطر أو المَخْطَطُ بالرياح، والسحاب، والإبل، والخيل، وهم مُلَاَحِظُونَ أكثر من أن يكونوا مصورين ماهرين في التلوين.

مجموعات الامثال : الزمخشري والميداني

امثال حديثة بافريقيا الشمالية حِكْمُ المَجْدُوبِ

اشتهر أهل الشرق، منذ زمن طويل، بِحُبِّهِمُ لِلْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ، ومنها ما اشتملت عليه التوراة، وعند العرب منها الشيءُ الكثير، وذاك فصلٌ في الأدب يُفَاخِرُ به العربُ وهذه الأمثالُ جُمْلٌ قصيرةٌ، أو أبيات شعرٍ، مَدْرَجَةٌ في قصائد أو نواذر أو أقاصيصَ، وَنَجِدُ في أوائل الأدب العربيِّ كثيراً من الأمثالِ الشَّعْرِيَّةِ المَذْحِيَّةِ أو الهَجُويَّةِ التي تُحَدِّدُ بها أخلاقُ مختلفِ القبائل، فتتبادلها، ويكون للبيت اللاذع الواحد الذي يُلقِيه أحدُ شعرائها من الوقَعِ أحياناً ما يكون للسُّمْرِ^(١) والسَّهَامِ، ومع ذلك فإن هذا النوع من الأمثال غيرُ ذي نفعٍ عامٍّ، فنكتفي بالكلام عن الأمثال الخُلُقِيَّةِ التي تؤثر فينا أكثرَ من سواها، وتَمِّمُ الأمثال الخُلُقِيَّةِ المُجَمَّعَةَ أو المترابطةً على فلسفةٍ خُلُقِيَّةِ حسنةِ الالتحامِ مشابهةٍ كلِّ الشَّبهِ لفلسفة القصص ومعظم الروايات فلا يُلَوِّحُ أنها بنتُ المصادفة، وهي ما تُسَمَّى حِكْمَةَ الأُمَمِ أحياناً، وتَبْدُو هذه الفلسفةُ شعبيةً؛ فعلى أي وجهٍ

(١) الرماح أو الحراب.

يَكُونُ هَذَا لَا مِرَاءَ فِي أَنَّهَا تَرُوقُ الشَّعْبَ وَأَنَّهُ يُسَيِّفُهَا، وَأَمَّا كَوْنُهَا
مِنْ نَتَاجِ الشَّعْبِ وَحَاصِلًا تَلْقَائِيًّا لِتَجْرِبَتِهِ وَغَرِيزَتِهِ فَأَمْرٌ أَقْلٌ
وَضَوْحًا، فَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهَا فِلْسَافِيًّا عِلْمِيًّا فَجُعِلَتْ فِي
مَتَنَاوِلِ الْجُمُوعِ عَلَى نَمَطِ أَصُولِيٍّ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْكَمَ فِي وَضْعِ هَذِهِ
الْمَسْئَلَةِ بِأَفْضَلِ مَنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا نَتَكَلَّمُ فِي الْأَمْثَالِ وَالرَّوَايَاتِ
الْحُلُقِيَّةِ.

أَجَلٌ، وَجِدَتْ مَجْمُوعَاتُ أَمْثَالٍ مِنْذَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهَجْرَةِ،
وَلَكِنَّ أَمْثَالَ الزَّمْخَرِيِّ وَالْمِيدَانِيِّ أَشْهَرُهَا، وَقَدْ تَرَكَ اللَّغَوِيُّ
الْكَبِيرُ وَالْعَالِمُ النَّحْوِيُّ وَالْحُلُقِيُّ وَمَفْسِّرُ الْقُرْآنِ الزَّمْخَرِيُّ
(٤٦٧ - ٥٣٨) كَثِيرًا مِنْ مَجْمُوعَاتِ الْأَمْثَالِ دَرَسَ الْمَشْرِقُونَ
اِثْنَتَيْنِ مِنْهَا، وَهَمَا: «أَطْوَاقُ الذَّهَبِ»، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ تُرْجِمَتْ إِلَى
الْأَلْمَانِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ^(٢)، وَ«نَوَابِغُ الْكَلِمِ»، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ شُرِحَتْ
بِالْعَرَبِيَّةِ وَدُرِسَتْ فِي الْغَرْبِ مِنْ قَبْلِ مَسِيو بَارْبِيه وَمَسِيو دُوغُوِيه^(٣)

وَقَضَى الْمِيدَانِيُّ مُعْظَمَ حَيَاتِهِ بَحْيَ الْمِيدَانِ مِنْ نَيْسَابُورٍ، وَتُوفِّيَ
سَنَةَ ٥١٨، وَأَعْجَبَ الْمَشْرِقُونَ وَبَعْضُ فَضَلَاءِ الْغَرْبِ، وَلَا سِيَّمَا
كَاتِرْمِيرُ^(٤)، بِهَذَا الْمَوْلَفِ كَثِيرًا، وَكَانَ «بُوكُوكُ» قَدْ قَامَ بِتَرْجِمَةِ

(٢) أَطْوَاقُ الذَّهَبِ، تَرْجَمَةُ أَلْمَانِيَّةٍ، ج. فُون هَامِر، فَيْيِنَا، ١٨٣٥، وَتَرْجَمَةُ فَرَنْسِيَّةٍ،
بَارْبِيه دَوْمِينَار، بَارِيْس، ١٨٧٦.

(٣) بَارْبِيه دَوْمِينَار، فِي الْمَجَلَّةِ الْأَسْيُويَّةِ، السَّلْسَلَةُ السَّابِعَةُ، جِزْءٌ ٦، تَأَلِيفُ دُوغُوِيه
فِي Zeitschr. d. Deutschen Morgenland Gesellschaft, t. xxx جزء ٣٠.

(٤) مَذْكُورَةٌ عَنِ حَيَاةِ الْمِيدَانِيِّ وَكُتِبَتْ، بِقَلَمِ كَاتِرْمِيرٍ، الْمَجَلَّةُ الْأَسْيُويَّةِ، ١٨٢٨.

لاتينية لكتابه في القرن السابع عشر، مع تعليقات، فلم تُطبع هذه الترجمة قط، ويقول الميداني إنه قرأ ما يزيد على خمسين كتاباً لتأليف مجموعته، وكان يقرأ وهو يستخلص فضلاً بعد فصل مما يُلوح له أنه أصلح من سواه، ثم كان يشرح كل مثل مع إيضاحه نحوياً ولفوياً مشيراً إلى أصله ومضيفاً إليه قصصاً خاصة بالمذهب الخُلقي المُعبّر عنه في المبدأ، والواقع أن أمثاله ليست سهلة عادةً، ولكن النوادر التي يشرحها بها كثيرة الخصوصية، وهذا الأثر، كما هو مُجمل القول، ذو نفع لتاريخ الفلسفة أقل مما للبحث الفني في اللغة العربيّة.

وقد ألف فريتاغ، عن الميداني، مجموعة كبيرة من الأمثال العربيّة^(٥)، واستخلص منها عدداً كبيراً من المصادر الأخرى، وهذه الأخيرة هي، في الغالب، أفكارٌ خُلقيّة حادة حامية، منها ما يُعبّرُ تعبيراً عنيفاً عن الحذر من الناس والارتباب من المشاعر الحسنّة: والاخلاق التي تُعبّرُ عنها الامثال على شيء من الثبات كما نقول، والامثال نفسها قابلة للتغير والتجدد، كما انها تستطيع أن تدوم وتبقى مستعملةً زمناً طويلاً، ومما حدث أن جمع كاتبٌ في «الخزن التصويري» أمثالاً يستعملها مسلمو إفريقية في محادثاتهم^(٦) اليوم، ومن الممكن أن يُوجدَ بينها ما هو حديثٌ

(٥) الأمثال العربيّة، ثلاثة مجلدات، بون، ١٨٣٨ - ١٨٤٣، ويتألف المجلد الأول والثاني من الأمثال المقتطفة من الميداني.

(٦) مجموعة أمثال مسلمي إفريقية، الخزن التصويري (Magasin Dittoresque)

١٨٨٢، ص ١١٨.

الْوَضْعُ، ولكن مع كَوْنِ الشعور الخَلْقِيِّ فِيهَا عَيْنَ ما كان لدى القدماء، وما تُعَبِّرُ عنه من فلسفة يُوحِي بالاعتدال في الرغائب، كما يوحِي بالحدز في الأقوال، وهو يوصي بالحدز الذي يبلغ درجة عدم الثقة، وكثير من هذه الامثال خاصٌ بالصدقة واختيار الاصدقاء، وهذا ايضاً موضوع مفضلٌ لدى واضعي الامثال الخَلْقِيَّةِ، والامثال الخاصة بالنساء في هذه المجموعة قليلة العدد نسبياً، يبدو التعبير فيه بالغ الشعرية بالغ القوة وينطوي كثيرٌ من الأفكار على الأزدراء والتهمك، وفي جمل قليلة عُبرَ عن مشاعر الكسل والمجربة الكثيرة الأنتشار بين الشرقيين.

وَعَرَضَ الكُونْتُ هنري دُو كَسْتَرِي مجموعة أمثالٍ منظومة من وَضْعِ الخَلْقِيِّ الشعبيِّ سيدي عبد الرحمن المجدوب^(٧)، والمجدوبُ هو نصفُ المجنون « الذي يَهْزُ رأسه كما يَفْعَلُ الدرويش، وجميعُ الشرق يَعْرِفُ هؤلاء الغريبِ الأطوار الذين هم من أنصاف الجانين وأنصاف العقلاء فَيُسْرِهُمُ إلقاء الحيرة فيمن يحاولون تحليلهم، مُفَالِينِ في جنونهم إذا ما سُمِّيَ في عدِّهم من العقلاء » كما قال الناشر، وهم يَعُودُونَ إلى حَقْلِ العقل إذا ما اسْتَهْزِئَ بِعَتَهُمُ، وهم أخلياءُ سُفْهَاءٍ وَقُحِ حِيَالِ العالَمِ الخارجيِّ في الظاهر، وكان ذلك المجدوبُ يَذْهَبُ إلى المَدُنِ والمُخَيَّماتِ لابساً أَسْمالاً فيكون محلَّ سخريَّةٍ وتكريمٍ وخَوْفٍ منه في وقت واحد، فكأن الإسلامَ تَعَبَّدُ

(٧) حكم سيدي عبد الرحمن المجدوب، نشر وترجمة الكونت هنري دو كستري، باريس، ١٨٩٦.

لضعفاء العقل، والمجذوبُ نفسه ضَيَّفُ مُرْسَلٌ من الله! فلا يُمنَعُ منه طعامٌ ولا مأوى، حتى إن له حقَّ الدخولِ على النساء، وهو يُحِبُّ صحبتهن وإن كان لا يُدَارِيهن بِهَجْوِه إياهن، ومما كان يَحْدُثُ أحياناً أن يَقْصِدَ المجذوبُ أدياراً أو أن يَسْتَلْقِيَ عند باب المساجد، فيبقى هناك أسابيعَ ظاهرَ البَلَه مقتصرأً على العويل طلباً للصدقات من المارِّين، وقد تُوفِّي سنة ١٠٨٥ من الهجرة بِمَكْنَسَة حيث يُزَارُ ضريحُه.



القِصَصُ : ثَقَمَات

أَسْطُورَةٌ بِزُجْمِهِرٍ وَكَلِيلَةٍ

انتشرت لدى العرب مجموعتان في الأمثال الخلقية مشهورتان جداً، وهما: أمثال لقمان وكليلة ودمنة أو أمثال بَيْدَبَا.

وليست أمثال لقمان غير أمثال إينروب ووضعت هذه الأمثال تحت اسم شيخ حكيم معروف في زمن محمد ومذكور في القرآن حيث نصح ابنه بالألّا يعبد غير الله: « وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » (القرآن الكريم: سورة / ٣١ / : آية / ١٣ /).

ويختلف المفسرون في أمر هذا الرجل، فبعضهم يقول إنه كان نجاراً، ويقول بعض آخر إنه كان خياطاً، ويقول آخرون إنه كان سكاّفاً أو راعياً، ووُجِدَ مَنْ جَعَلَ مِنْهُ عَبْدًا أَسْوَدَ، ووُجِدَ مَنْ قَصَّ أَنَّهُ عَاشَ مِنَ الزَّمَنِ مَقْدَارَ حَيَاةِ سَبْعَةِ شَوَاهِينِ، أَي مَا يَعْدِلُ ٥٦٠ سَنَةً، حَتَّى إِنْ أَنَا سَأَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ عَاشَ أَلْفَ عَامٍ، وَعَلَى الْعُمُومِ يُطَبَّقُ عَلَيْهِ مَا يَدُورُ حَوْلَ إِيزُوبَ مِنْ عَنَعَنَاتٍ .

وأما تاريخ نقل هذه الأمثال إلى العربية فقد حدث في تاريخ متأخر، أي أن أمثال إيزوب تُرجمت من السريانية إلى العربية في

النصف الثاني من القرن السابع من الهجرة، ثم تناولت يدَ التحويل والتبديل ذلك النقل، ولما صار دارجاً نُقِلَ بدوِّره إلى مختلف لغات المسلمين^(٨).

وتاريخُ مجموعة الأمثال السماة كليلة^(٩) ترتبط في أسطورة الوزير الحكيم بُزْرَجْمَهُر التي نرى عَرَضَ بعض الملاحظات حولها.

كان بُزْرَجْمَهُرُ وزيراً للملك الفُرسِ الساساني: أنو شروان العادل لم يتكلم الطبريُّ عنه، وَيَشْغَلُ مقاماً عظيماً في أثر الفِرْدَوْسي، وَتَجَدُّ بعض الأهمية له في أثر السعودي^(١٠) - وَيُقَدَّمُ إلى الملك، وَيُفَسِّرُ له أحد المنامات^(١١)، وكان منجماً وفلكياً وطبيباً وبليغاً وخبيراً، وكان وسيماً بالإضافة إلى ذلك، فجعله الملك مستشاره المُفْضَل،

(٨) راجع، قائمة الكتب العربية أو الكتب الخاصة بالعرب لفكتور شوفان، لياج، ١٨٩٢، وذلك عما صار تأليفه في موضوع أمثال لقمان وترجمتها إلى مختلف اللغات.

(٩) انظر إلى قائمة الكتب العربية، الخ. لفكتور شوفان، الكراسة الثانية، وذلك عما صار تأليفه في موضوع كليلة، ولنذكر طبقات سلفتر دوساسي، طبعة عربية، باريس ١٨١٦، وقد صدرت بمذكرة عن أصل الكتاب، ولنذكر كيث فلكونير، كليلة ودمنة أو أمثال بيدبا، كمبردج ١٨٨٥، مع مقدمة مهمة حيث بحث عن جميع المسائل الخاصة بأصل الكتاب ومختلف ترجماته، ولنذكر الترجمة الإنكليزية لريف. وي. ويندام كئاتشبول، وقد أعيد طبعتها في القاهرة من قبل فان ديك، ١٩٠٥، وفق أقدم المخطوطات العربية لهذا المتن، وذلك مع مقدمة.

(١٠) كتاب الملوك، ترجمة مول، فصل ٤١، جزء ٦ - مروج الذهب جزء ٢، انظر إلى الفهرست.

(١١) ليست قصته غير ذات صلة بقصة يوسف التوراني، انظر إلى القسم الآتي (الف ليلة وليلة) حيث ترى تقارباً بين الأقايص العربية والعنعنات التوراتية..

وَرَوَى الْمَسْعُودِيُّ وَالْفَرْدَوْسِيُّ عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْحِكْمِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ لَعِبَةُ الشُّطْرَنْجِ قَدْ اخْتَرَعَتْ فِي الْهِنْدِ وَعُرِضَتْ عَلَى أَنْوَ شَرَوَانَ فَكَشَفَ بَزْرَجْمِهْرَ مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ قَوَاعِدُهَا لَدَى فَخْصِهِ رُقْعَةَ الشُّطْرَنْجِ، ثُمَّ اخْتَرَعَ لَعِبَةَ النَّزْدِ وَأَرْسَلَهَا إِلَى الْهِنْدِ، وَيَقَعُ حَادِثٌ نَحِيسٌ يَفْقِدُ بِهِ ثِقَةَ الْمَلِكِ فَيَلْقَى فِي السِّجْنِ حَيْثُ يُؤَدَّى كَثِيرًا، فَيَجِدُ الْقَصَّاصُونَ بِهَذَا نَهْزَةً يَعْزُونَ فِيهَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ الْجَمِيلَةِ إِلَيْهِ، وَيُخْرَجُ مِنَ السِّجْنِ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِ كَمَا يَحُلُّ لُغْزًا، أَيْ مَعْرِفَةً مَا كَانَ يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ مُغْلَقٌ، وَيُقَدِّمُ جَوَابًا صَحِيحًا، وَتَعُودُ إِلَيْهِ مَنْزِلَتُهُ، وَيَرْوِي الْمَسْعُودِيُّ أَنَّهُ ذَهَبَ ضَحِيَّةَ نَوْبَةٍ غَضَبٍ ثَارَتْ فِي نَفْسِ كِسْرَى پَرُويزِ الَّذِي هُوَ ثَانِي خُلَفَاءِ أَنْوَشَرَوَانَ.

وَيُفْرِدُ الْفَرْدَوْسِيُّ لِهَذَا الْحَكِيمِ نَحْوَ عَشْرَةِ فُصُولٍ، وَيُقِيمُ أَنْوَشَرَوَانَ لَهُ سَبْعَ حَفَلَاتٍ تَكْرِيمٍ حَيْثُ يَحْمَلُهُ عَلَى الْكَلَامِ أَمَامَ الْمَوَائِدَةِ وَجَمِيعِ رِجَالِ بَلَّاطِهِ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ الْحَفَلَاتِ فُصُولٌ لِنَوْعٍ مِنَ رِسَائِلِ الْأَخْلَاقِ، فَتَارَةٌ يَتَكَلَّمُ بِزْرَجْمِهْرِ فِيهَا كَلَامًا مُتَّصِلًا، وَتَارَةٌ يَلْقَى الْمَلِكُ أَوْ غَيْرُهُ أَسْئَلَةً فَيَجِيبُ عَنْهَا عَلَى شَكْلِ حِكْمٍ مُوجِزَةٍ، وَإِلَيْكَ بَعْضُ الْأَمْثَلَةِ:

سَأَلَهُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ: «بِمَاذَا يَطِيبُ عَيْشُ الْإِنْسَانِ وَيَقِلُّ تَعَبُهُ؟»، فَقَالَ: «بَأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْحِلْمِ، وَيَعْدِلَ فِي الْإِعْطَاءِ وَالْأَخْذِ، وَلَا يَكُونَ عِنْدَهُ نَقِيسَةٌ وَلَا زَيْغٌ، وَيَعْفُو عِنْدَ الْإِقْتِدَارِ وَلَا يَكُونَ حَدِيدًا خَفِيفَ الرَّأْسِ».

وَسَأَلَهُ آخَرُ: «أَخْبِرْنِي بِمُخَصِّلَةٍ مُرْضِيَةٍ عِنْدَ الْعَقْلَاءِ»، فَقَالَ: «الْأُ

يَحْزَنُ الرَّجُلُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ، وَيَقْطَعُ الرَّجَاءَ عَمَّا يَبْنَعُدُ تَكْوِينُهُ،
وَيَنْزَعُنْ مِنْ قَلْبِهِ الْأَمَلَ فِي الْمُسْتَحِيلِ كَمَا تَنْزَعُ الرِّيحُ أَوْرَاقَ
الصَّنْفَافِ.»

وسأله آخر: «من النافع من بين الملوك؟»، فقال: «ملك لا
يُرْعِبُ قُلُوبَ أَهْلِ الْعَفَافِ، وَتَرْتَعُدُ مِنْ بَأْسِهِ فَرَائِصُ أَهْلِ الْحَيْفِ
وَالْإِجْحَافِ، وَيَسْتَرِيحُ بِحُكْمِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي ظِلَالِ الْعَدْلِ
وَالْإِنصَافِ.»

وَيَتَعَلَّقُ قَسْمٌ كَبِيرٌ مِنْ حِكْمِهِ بِأَخْلَاقِ الْمُلُوكِ وَالْفَلَسَفَةِ
السِّيَاسِيَةِ، وَتَقُومُ فِكْرَتُهُ السَّائِدَةُ عَلَى تَوَاضِعِ الْمَلِكِ أَمَامَ الْحَكِيمِ
وَاسْتِشَارَتِهِ، «فَالتَّاجُ يَكُونُ قَوِيًّا مَا أَكْرَمَ الْمَلِكُ الْحُكَمَاءَ، وَيَكُونُ
الْمَلِكُ الْجَلِيلُ فِي أَمَانٍ مَا رَضِيَ سَيِّدُ النَّاسِ هَذَا بِرَأْيِ كُلِّ ذِي
عِلْمٍ»، وَإِذَا عَدَوَتْ هَذَا الْمَيْلَ الذَّهْنِيَّ الْأَوَّلِيَّ وَجَدَتْ بُرْزُجِمَهُرَ
يُوصِي الْمَلِكَ بِالْإِنصَافِ وَالصَّدْقِ وَالْإِقْدَامِ، وَهُوَ يُوصِي جَمِيعَ النَّاسِ
بِالْحَذَرِ أَيَّ الْحَذَرِ فِي اخْتِيَارِ الْأَصْدِقَاءِ، وَالْحَذَرِ فِي الْبَلَّاطَاتِ،
وَالْحَذَرِ فِي الْقِتَالِ، «فَاخْتَرِ فِي الْقِتَالِ رَفَقَاءَ حَذِرِينَ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ تَحَارِبَ عَدُوًّا فَلَا تَخْتَبِرْهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ
الْحِكْمَةِ أَنْ يَعُودَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْقِتَالِ سَلَامًا»، وَكَذَلِكَ الْخُضُوعُ لِلْقَدَرِ
مِنْ قَوَاعِدِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ، «فَأَقْوَمُ الصِّفَاتِ هُوَ أَنْ يَرْضَى الْإِنْسَانُ
بِمَا قَسِمَ لَهُ، وَأَحْلَى الْخِصَالِ مَا يَقُومُ عَلَى الْعَمَلِ وَأَطْيَبُ الْأَفْعَالِ مَا
يَسْتَنْدُ إِلَى الْأَمَلِ»، وَيَجِدُ بُرْزُجِمَهُرَ الصِّيغَةَ الرَّائِعَةَ الْآتِيَةَ، وَهِيَ
أَنَّ الْمَلِكَ سَأَلَهُ: «أَيَكُونُ الْإِنْسَانُ قَادِرًا بِقُوَاهِ الْخَاصَّةِ أَمْ بِفِعْلِ
الطَّالِعِ؟»، فَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: «الطَّالِعُ وَالنَّبُوءُ زَوْجَانِ، وَهُمَا كَالرُّوحِ

والبَدَن، والبدن أداة السعي، ولكن السعي لا يؤدي إلى القوة إذا لم يساعده الطالع.»

وليس بزرجمهر وخذَه هو الذي ينطق بهذه الأمثال الكريمة كما يمكن أن يُظنَّ، أجل، إنه أكثر من يوضع على لسانه، ولكنه ليس الوحيد الذي يتكلم، فتارة موبدان، وتارة فلك أو حكيم آخر، يعلن أو يكتب حكماً مماثلة، ومنها ما عُزي إلى أردشير، ومنها ما عُزي إلى أسلافه، ولننظر إلى سلسلة الملوك السَّاسانية في المسعودي، فلا نجد واحداً منهم لم ينطق بكلام مماثل أو لم يسمع به، ومن ذلك أن مؤسس مُلكهم، أردشير، كتَبَ بلاغاً يزوي لنا المسعودي خبر بقائه، «... ألا وأنا ساعون في إقامة منازل العدل، وإدراة الفضل، وتشيد المآثر، وعمارة البلاد، والرفقة بالعباد، ورم أقطار المملكة، ورد ما انخرم في سائر الأيام منها، فليسنك طائرکم، أئها الناس، فإني أعم بالعدل القوي والضعيف، والدين والشريف، وأجعل العدل سنة محودة، وشريعة مقصودة، وستردون في سيرتنا إلى ما تحمدوننا عليه، وتصدق أفعالنا أقوالنا»، وفضلاً عن هذا البلاغ فإن لدينا من أردشير حكماً ونصائح موجهة إلى ضباطه وعماله، وكتب الملك سابور إلى نائبه رسالة من ذات الأسلوب وأسدى إلى ابنه هرمز بنصائح مماثلة، وكذلك أسدى هرمز إلى عامل كبير من عماله، وتلقى حفيد ذلك بهرام، نصائح من موبدان، وهنا ترى قصة الفيلسوف المعروفة القائلة إنه يذرك منطلق الطير، وقد قال هذا الموبدان لبهرام، الذي تشوب حكومته نقائص، إنه يفهم حديث الأنوام ويريد أحد هذه الطير أن يتزوج، فطلبت خطيبته أن يجعل صداقها عشرين

قرية متداعية بين أزوع البقاع التي خربت في عهد الملك العتيد، فاجاب البوم الخاطب بأنه إذا ما طال عهد هذا الملك السعيد فإنه لا يلبث أن يُقدّم اليها ألف قرية خربة لا عشرين، ويكون لهذه القصة بالغ الأثر في الملك فيقوم بإصلاح إدارته، وبعد زمن يستشير يزدجرد أحد الحكماء، فيطابق رأيه ما تقدم، ثم نعود إلى أنوشروان.

والواقع أنك لا تجد لجميع هذه الرسائل وجميع هذه الأقوال أي طابع تاريخي جدّي، وإنما تجد هنالك أساساً لأدب خلقي تُقتطف منه قطع متشابهة فتدمج في عهد تارة وفي عهد آخر تارة أخرى^(١٢)، ولهذا الأدب طابع شعبي، وهو تعليم فلسفي يتداوله الجمهور، ومن المحتمل انتقاله شفهيّاً كما أن من المحتمل انتقاله خطياً، وقد ألع الفردوسي إلى كتاب ألف على هذا النمط بالفهلوية باسم بُرُزجِهر، وما يشار إليه «حكمة أنوشروان» بالأرمنية.

وما المدرسة الفلسفية التي ترد إليها هذه الخلقية؟ يجب ربطها بالمدرسة الأفلاطونية الجديدة، وذلك لما يظهر من مفادها ومن بعض العلامات، وسنقول، بعد هنيهة، شيئاً زيادة على ذلك، وأما الآن فنلاحظ أن المسعودي يزوي «أنه كان لأزدشير بن بابك أخبار في بدء ملكه مع زاهد من زهادهم وأبناء ملوكهم يقال له

(١٢) وكذلك يجب ان يُعدّ من القصص التي وُضعت للتعليم الخلقي كتاب «تاريخ الوزراء العشرة» (بختيار نامه)، ترجمة رينه باسيه وتعليقه، باريس، ١٨٨٣.

تيس، وكان أفلاطونيّ المذهب على رأي سقراط وأفلاطون»،
ويتكلمُ المسعوديُّ في موضعٍ آخرَ عن هذه الفلسفة السياسية لدى
قدماء الفُرس فيقابلها بفلسفة أفلاطون، ويروي الفردوسيُّ أسئلةً

وجهها حكيم روميّ إلى مؤبذان فارسي في عهد بهرام كور، فاجاب
عنها هذا المؤبذان بما رضي به الروميّ، وذلك بأمثال دائمة المشابهة
لما أوردناه أنفاً، وقد صرّح الشاعر (الفردوسي) بأن الروميّ كان
على مذهب أفلاطون ومن أتباع مدرسته الفلسفية.

ولنتكلم الآن عن كليلة.

كانت مجموعة أمثال بيدبا، وإن شئت فقل «كليلة ودمنة»،
وهما اسمان لاثنين من بنات آوى مثلاً دوراً مهماً فيها، قد تُرجمت
إلى العربية في القرن الثاني من الهجرة من قبل ابن المقفع^(١٣)، وقد
تمت هذه الترجمة وفق نصّ فهلويّ، فغدّت أساساً لعددٍ من
الترجمات إلى جميع اللغات، والرأي السائد أن هذه المجموعة من
أصل هنديّ، وهي وثيقة الصّلات بالأثر السنسكريتيّ المعروف بِنَجْ
تَنَتْرَا Pantchatantra، ويذهب إلى صدورها عنه بواسطة
الفهلوية، ومع ذلك فإنني أعترف بأنني عَجِبْتُ من كَوْنِ هذا الرأى
لم يُثِرْ ريباً، ومن أن الطابع الهنديّ وُجِدَ على كتابٍ يظهر ارتواؤه

(١٣) كان عبد الله بن المقفع فارسيّ الأصل، وكان اسمه روزبه، وأسلم ظاهراً مع
بقاء قلبه مرتبطاً في دين آبائه، وعاش في البصرة، وأمر الخليفة المنصور بقتله سنة
١٤٠ (٧٥٧) لتبليغه إلى العلويين، وألف كتباً في الأدب السياسيّ فضلاً عن ترجمته
لكتاب كليلة، انظر إلى تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، ١: ١٥١.

من الروح اليونانيّ، ومن الاستناد إلى قصة المترجم الفارسيّ التي كُتِبَتْ على نَمَطٍ روائيٍّ تماماً.

والواقع أن أمثال بَيْدبا صُدِّرت بأربعة أبواب يتألف من مجموعها مقدمةٌ طويلة، فأما البابُ الأولُ فرُوِيَ فيه أن الإسكندرَ الأكبرَ مرَّ من الهند، وهَزَمَ فُورَ، Porus، وألقى الشعبُ عن كاهله نَيْرَ الرجل الذي ولّاه الإسكندرُ عليهم، ونَصَبُوا في مكانه دَبْشَلِيمَ الذي كان من ذرية ملوك الهند السابقين، وظهرَ دَبْشَلِيمُ هذا أميراً باغياً طاغياً، وحاولَ الفيلسوفُ بَيْدبا، وكان من البراهمة، أن يَرُدَّهُ إلى دائرة الواجب، وَيَفُوزَ من الملك بعد أحاديث متناسقة معه كادت تؤدي إلى قتله يأمره أن يَضَعَ كتاباً عن فن الحُكْمِ وعن الأدب على العموم، وهذا القِسْمُ من القصة أدبيٌّ فلسفيٌّ مَحْضاً خالٍ من كلِّ شعور تاريخيٍّ وكلِّ لَوْنٍ محليٍّ، فلا يَنِمُّ على أي عِرْفانٍ بالنُّظْمِ الفلسفية ولا بالأديان الهندية.

وفي الباب الثاني بيانٌ عن وصول خيرٍ إلى أنوشروان حَوْلَ ذلك الكتابِ الموجود في الهند، وطلبه من وزيره بُزُرْجِمِهَرُ أن يُرْسِلَ عالماً يَنْسَخُه له، وَيُرْسِلُ الوزيرُ بَرَزَوِيَه الطيب، ومن المستبعد تماماً أن يَبْعَثَ ملكٌ وَفِداً يَهْدِفُ إلى الحصول على مجموعة أساطير، وذلك إلى أن تلك البعثة كَلَّفَتْ غالياً، وذلك لأنه رُوِيَ أن بَرَزَوِيَه حَمَلَ معه من المال عشرين ألف جِراب، وأن كلَّ جِرابٍ فيه عشرة آلاف دينار، ويَرُوِي المؤرِّخُ الثعالبيُّ^(١٤)، كما يَرُوِي

(١٤) أخبار ملوك الفرس للثعالبي، ترجمة زوتنبرغ، باريس، ١٩٠٠، ص ٦٢٩

الفردوسي، أن هذا الطبيب لم يذهب إلى الهند قاصداً البحث عن الكتاب، بل للكشف عن نبات عجيب قادر على أن يرد الحياة إلى الموتى، ولم يجد النبات، وإنما لقي في آخر الأمر شيخاً أخبره بأن هذا الدواء ليس سوى كتاب كليلة ودمنة، ومن الواضح جيداً أنه لا يوجد في ذلك غير طريقة للإعلان^(١٥) من قبل المؤلف أو الناقل.

وأما الباب الثالث الذي يشمل على عين الأفكار وعين الأسلوب فقد عزي إلى ابن المقفع على غير ظاهر من الحق، وأما الباب الرابع من تلك المقدمة فيقوم على حياة، على ترجمة ذاتية لبرزويه بخط يده، ولا يتكلم هذا المبشر الزعوم مثل سائح، بل يكتبي بعرض قواعد وأقيسة يذكر ببدع فيثاغورس وإن شئت فقل إنه يذكر بالأفلاطونية الجديدة مع خلطه أياها ببعض الأمثال.

ومما يلاحظ في جميع هذا المدخل استعمال الأعداد في الأخلاق، وهذا من مميزات مدرسة فيثاغورس الفلسفية، والمكان الكبير الذي افرد في عداد الفضائل للصمت والحذر، ومن ذلك أن ملوك الصين والهند وفارس واليونان الأربعة اجتمعوا، فاقترحوا أن يأتي كل منهم بمثل، فأجمعوا على امتداح الصمت، واجتمع أربعة حكماء، فألزم كل منهم أن يأتي بحكمة، فأثنى الأول على الصمت، ونطق الثاني بالحكمة اليونانية القائلة: «اعرف نفسك بنفسك»،

(١٥) وانظر كذلك إلى تعليق نلدكه الموجز المفيد عن بزرجهر الذي يدعوه هذا العالم بـ «الشخص الذي لا يبدو في القصص التاريخية الصرفة، بل في الآداب البيانية والخلقية»، فيلخص اثني عشر مثلاً بارزا عن الحكومة كما جاء في السعودي.

وأوصى الثاني بأن يُبْحَثَ عن راحة النفس في الانقياد للقَدَرِ. ويمتاز الإنسان من الحيوان بأربع صفات: الحكمة والاعتدال والعدل والقوة، وهذه هي الفضائل الأصلية، وَيَنْقَسِمُ كُلُّ منها إلى ثلاث، ويمتاز الإنسان العاقل حقاً بثلاثي صفات، ومن هذه الصفات الثمانية نذكرُ الحَذَرَ والسَّرَّ والاعتدال والاحتياط واللفظ.

وَيَقْصُ بُرْزَوِيَّةُ تطوّرَ حياته الأدبية، فقد قال: كان أوَّلَ ما ابتدأتُ به وحرّضتُ عليه علمَ الطبِّ، فلما همت نفسي ب مداواة المرضى خيّرتهما بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناسُ، وهي: المالُ والذكرُ واللذات والآخرة وقد أقبلتُ على مداواة المرضى ابتغاءَ أجر الآخرة، وإذا حدّث أن تمتعتُ أحياناً بما زهدتُ فيه من متاع وجاهٍ اعتراني خجلٌ من إقبالي على ما هو فانٍ، وعلى تدوّقي ما سوف أُخرمه عاجلاً من اللذات، وإذا عَلِمْتُ أن البدنَ عُرضَةٌ للفساد بَدَلْتُ وَسَمِعِي للارتقاء في تأملِ الحياة الآخرة، وأنعمتُ النظر في جميع الأديان كما أختارُ منها أكثرها شفاءً، ولكنني لم أجدُ بينها ما يُرضيني فعزّمتُ على الاستمسك بدين آباي، ولم ألبث أن عاد إليّ اضطرابي، فقد ساورتني رغبتني في استبصار غور المذاهب، وكنتُ أعرف، من ناحيةٍ أخرى، أن العُمَرَ قصيرٌ فأخشى أن أضيعه في البحث والتردّد، واستمعُ، إذن، إلى ذلك النداء الذي لا يُعوّزه إسماعُ نفسه في باطن كلِّ منا، وذلك بحيث أرسُمُ لنفسي مسلكاً لا يعارض أيّاً من الأديان كثيراً، - وهذا الوضْعُ النفسانيُّ بالغُ الإمتاع، وهو يشابه وَضْعَ مذهبِ الذرائع الحديثِ بما يثير العجب، - ويرتبط بِرْزَوِيَّةُ، بعد تردّدٍ وقضاءِ أوقاتٍ شكِّ وَضْعِي، في الدين بالتدريج، والدينُ في نظره مزاولَةٌ حياةٍ تأملي

وَحِلْمٍ وَصَلَحٍ، قَانِعاً بِأَنَّهُ وَحْدَهُ قَادِرٌ، بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ حَنَانِ
الْأَبِّ مَحْوِ ابْنِهِ، عَلَى تَسْهِيلِ السَّبِيلِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى،
وَعَلَى فَتْحِ بَابِ السَّعَادَةِ الْآبَدِيَةِ.

وَحَيَاةَ بَرَزَوِيهِ وَالْمَذْهَبُ الَّذِي أُعْرِبَ عَنْهُ فِيهِ ذَوَاتَا طَابِعِ
صُوفِيٍّ أُبْرَزَ مِنْ بَقِيَةِ الْكِتَابِ، فَيُذَكَّرُ بِفَلَسَفَةِ ابْنِ طُفَيْلٍ، وَأَمَّا مِنْ
حَيْثُ الْبَقِيَّةُ، أَيِ أَبْوَابِ الْمَقْدَمَةِ الْآخَرَى، وَالْأَمْثَالُ نَفْسُهَا،
فَالْأَخْلَاقُ مُشَابِهَةٌ كُلِّ الْمَشَابِهَةِ لِلْأَخْلَاقِ الَّتِي لَاقَيْنَاهَا فِي أُسْطُورَةِ
بُرْزُجِمِهْرٍ، وَهَذَا هُوَ الشَّكْلُ الشَّعْبِيُّ لِلْأَخْلَاقِيَّاتِ الْإِفْلَاطُونِيَّةِ
الْجَدِيدَةِ، وَلِذَا فَإِنَّا نَرَى وَجُوبَ بَصْرِنَا فِي هَذِهِ الْحِكْمِ أَوْ الْأَمْثَالِ
حَوَاصِلِ الْعَصْرِ الْإِسْكَندَرَانِيِّ، الَّتِي نُقِلَتْ عَلَى إِنْفِرَادٍ فِي أَدْوَارٍ
مُخْتَلِفَةٍ، مِنْ فَارَسَ إِلَى الْعَرَبِ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَإِلَى الْهِنْدِ مِنْ نَاحِيَّةٍ
أُخْرَى.



ألف ليلة وليلة ، مسائل عن الأصل ، استير وشهرزاد

لم يَفِقِ الأدبَ العربيَّ أيُّ أدبٍ كان في الحكايات، ومما يقلب الخيالَ ما يشتمل عليه من كميَّة الحكايات ومن إمتاع الأحاديث والبراعة فيها وطلاوة المكالمات ورؤنق الزُخْرُفِ، وما انفكَّتْ «الف ليلة وليلة» - التي ليست مجموعةً فريدةً مطلقاً - تُقرأ وينتفع بها من كلِّ وجهٍ منذ كَشَفَهَا للغرب غِلَانُ GALLAND، ولم تَقَلَّ حُظُوتُهَا لدى الشعبِ قَطُّ، ولم تَعْمَلْ يدُ الزمانِ في نضارتها، فترجمتْ إلى لغات العالم تكراراً^(١٦).

ومن ذا الذي ترانا مدينين له بهذا الكُدُسِ من العجائب؟ ذلك ما نَجْهَلُ، وذلك أن هذا الأثر العظيم، الذي أنتجه كثير من المؤلفين لا ريب، خال من أيِّ توقيعٍ كان، ولا تجدُ فيه اسماً، ولا طيفاً،

(١٦) يتألف من قائمة الكتب عن ألف ليلة وليلة مجلد مهم، راجع فكتور شوفان، قائمة الكتب العربية أو الخاصة بالعرب، الكراسة الرابعة والكراسة الخامسة، لبيج - لبيسك ١٩٠٠ - ١٩٠١، وأعظم الترجمات هي ما قام به غِلَانُ ومردروس بالفرنسية، وهابخت بالألمانية، ولين وبورتن بالإنكليزية، وإلى سنة ١٧٠٤ ترجع الطبعة الأولى لترجمة غلان التي أطلعت الغرب على هذه المجموعة العجيبة.

يُمْكِنُ القراءَ السحورين ببيانه أن يُقدِّموا إليه ثناءهم ويَحْمِلُوا إليه ضريبة شكرانهم، وأول ما نَسأل: هل هذه الحكايات «العربية» عربية حقاً؟ إنها موافقات، ولكن إلى أيِّ حدٍّ؟ وما الدور الذي مثَّله المقتبسُ العربيُّ فيها؟ وما نصيبه فيها مثل مؤلف؟ ليس الجوابُ عن هذا سهلاً، وانما يُمكنُ أن يقال مع التوكيد إن هذا الدورَ كبيرٌ بعض الشيء، حتى إن من النادر أن كان أساسُ هذه الحكاياتِ عربيًّا، إلّا أن قرحة القاصِّ أمرٌ خاصٌّ بالمقتبسِ المُسلم، وما يجب أن يُسلَّم به في الأحوال التي تكون فيه الطَّباعُ المشتقة من الإسلام جزءاً مُتمماً للكيد كَوْنُ الحكاية من اختراع المؤلف المُسلم إلى أوسع مدى، وفضلاً عن ذلك فإن القرحة الكاملة التي أثبت العربُ وجودها في قصصهم القصيرة لا تدع للجِدالِ مجالاً في إحرازهم فرص السَّبْقِ في إبداع الحكايات التي هي على شيءٍ من الاتساع.

وأول مرة ذُكِرَتْ فيها «ألف ليلة وليلة» كان في القرن الرابع من الهجرة من قِبَلِ المسعوديِّ، وذلك بعُنوانها العربيِّ، وبالاسم الفارسيِّ «هزارِ أفسانه»، أي ألفَ حكاية^(١٧).

وإذا ما نُظِرَ إلى النقد الذي وُضِعَتْ تلك الحكاياتُ على مِحْكِهِ أمكن أن يُردَّ إلى عصر المسعوديِّ، أي إلى القرن العاشر من الميلاد، وأن يُعدَّ من أصل فارسيِّ، ما يأتي، الاطارُ (وهو ما تُسمَّى به قصة شهرزاد) وصيَّاد السمك والعفريت، وحسن البصريِّ والسيد

(١٧) مروج الذهب، جزء ٤، ص ٨٩.

بدر والسيدة جوهرة السمندلية، وأردشير وحيأة النفوس، وقمر الزمان والسيدة بُدُور، وعند كثير من الباحثين أن هذه الفصيلة من الحكايات من أصلٍ هنديّ.

وأعترف بأنني لم أجد في الحكايات المذكورة هنا أيُّ قسمات تنمُّ على كونها من أصلٍ هنديّ، وبالعكس تري فيها كثيراً من الخرافات اليهودية الممزوجة ببعض الجزئيات الإسلامية، وحتى النصرانية، ومن ذلك حال صياد السمك الذي ضَجِرَ من عَدَمِ نَيْلِهِ شيئاً فاتَّجَهَ إلى الله وتَوَجَّعَ، كما جاء في الإنجيل، من إلقاءه شَبَاكَهُ ثلاثَ مراتٍ على غير جدوى، وأخيراً يَرَى العفريتَ الذي اجتذبَ محبوساً في قُمْمِ محتومٍ بخاتمِ سليمان، وقد عبرَ عن الفِكرَةِ المسيحية بقول صياد السمك الذي ذَهَبَ إلى أن سليمان تُوُفِّيَ منذ ١٨٠٠ سنة وأنا في آخر القرون، وَيَعْرِفُ القاصُّ الاسطورةَ التلمودية التي تَعْرِضُ سليمانَ مِثْلَ قاهرٍ للجنِّ، وَيَعُدُّ حَلْفُ العفريتِ باسمِ الله الأَعْظَمِ فِكرَةً يهودية وقرآنية، وهو يُحَدِّثُ عن الأرواح والشياطين وَفَقَ المأثور اليهوديَّ والنصرانيَّ، وهما اثنان وَفَقَ عبارة غَلَانَ Galland رفضا الخضوع لسليمان، واسمُ أحدهما سَقَرُ وهو اسمِ عبريِّ، وسَقَرُ، في المَتنِ العربيِّ لسنة ١٣١١هـ؛ هو اسمُ الجِنِّيِّ الذي يخاطبُ صياد السمك؛ وَيُولَدُ الجِنِّيُّ من الدُّخانِ وَيَعُودُ إلى دخانِ، وَيُعْزَى دَوْرُ مهمِّ إلى الدُّخانِ في رسائلِ السحرِ العربيِّ. وأخيراً يُعيدُ صياد السمك العفريتَ، من جديدٍ، محبوساً في البحرِ كَيْمَا يبقَى فيه إلى آخر الأزمان، وهذه هي فِكرَةُ الحشرِ والنشرِ المُلْحَقَةُ بالفِكرَةِ المسيحية، فلا شيءَ من الهندية في جميع هذا ولا في بقية الحكاية.

وَقُلْ مِثْلَ هَذَا عَنْ حِكَايَةِ قَمَرِ الزَّمَانِ، وَتُسَمَّى الْجِنِّيَّةُ مِيمُونَةَ
 بِنْتُ دَمْرِيَاطٍ، بِهَذَا الْاسْمِ الْأَقْرَبِ بِجِنْسَانِهِ إِلَى الْعَبْرِيَّةِ (١٨)، وَهِيَ
 تَخْرُجُ مِنْ صِهْرِيحِ رُومَانِيٍّ، وَيَنَامُ قَمَرُ الزَّمَانِ مَسْتَوْرًا الرَّأْسَ بِغِطَاءٍ
 مَرْوَزِيٍّ، وَيَكُونُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَنُوسٌ مُشَعَّلٌ، وَكَلِمَةُ «فَنُوسٌ»
 يُونَانِيَّةٌ، وَمَنْظَرُ مِيمُونَةَ الْحُلُوءِ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَائِمًا، مِنَ الْفَنِّ
 الْيُونَانِيِّ الصَّرْفِ كَمَا يَلُوحُ، فَهُوَ يُذَكَّرُ بِمَنْظَرِ پَسِيشِه Psyché الشَّهِيرِ
 وَهِيَ تُشِيرُ لَوَاعِجِ الْهَوَى؛ وَتُلَاقِي الْجِنِّيَّةَ عَفْرِيَّتًا مَتَمَرِدًا اسْمُهُ دَهْنَاخُ
 وَجِنِّيًّا آخَرَ اسْمُهُ كَشْ كَشْ، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ كَالَّتِي تُوجَدُ فِي
 التَّلْمُودِيَّاتِ، وَهِيَ تَطْرُدُ الْأَوَّلَ بِالْأَسْمِ الْإِلَهِيِّ الْأَعْظَمِ وَبَطْلَاسِمِ
 مَنْقُوشَةٍ عَلَى خَاتَمِ سَلِيْمَانَ؛ وَفِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَيْضًا تَرَى مُنْجَمًا يُرِيدُ
 حَبْسَ فَرِيْقٍ مِنَ الْجِنِّ فِي قَمَاقِمَ؛ وَلَأَمِيرَةَ الصِّينِ أُخٌ مِنَ الرِّضَاعَةِ
 يُعَدُّ مِثَالِ الْعَالَمِ الْمُنْجَمِ السَّاحِرِ السَّائِحِ الْبَالِغِ الْإِنْتِقَاءِ فِي الْفَلَسَفَةِ،
 وَيَنْطَوِي الْقِسْمَ الْأَخِيرَ مِنَ الْحِكَايَةِ عَلَى مَغَامِرَاتٍ فِي الرِّحَلَاتِ
 حَيْثُ لَا يُقَيَّدُ أَيُّ رَسْمٍ صَرِيحٍ عَنْ عَادَاتِ الْهِنْدِ وَالصِّينِ
 وَمَعْتَقِدَاهُمَا وَأَثَارَهُمَا وَمَنْظَرَهُمَا، وَأَخْصُ مَا قِيلَ هُنَاكَ يَتَعَلَّقُ
 بِالْمَجُوسِ الَّذِينَ هُمْ فُرْسٌ، وَتُبْصِرُ دَقَائِقَ الْأَزْيَاءِ فَارْسِيَّةً عَلَى
 الْعَمُومِ.

وَتُوجَدُ حِكَايَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ النَّوْعِ الْقَصْصِيِّ عَنِ الْجِنِّ الْمَجْبُوسِينَ فِي
 قَمَاقِمِ (١٩)، وَبِتَكَلُّمِ بَعْضِ النَّاسِ عَنْ هَذِهِ الْقَمَاقِمِ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ

(١٨) ودمرياط (في المتن العربي طبعة المطبعة العامرة العثمانية، ١٣١١ هـ. جزء ٣،

ص ٤١) هو وزير مسرة سليمان، وأصف بن برخيا هو وزير ميمنته.

(١٩) طبعة سنة ١٣١١، جزء ٣، ص ٣٥.

عبد الملك بن مروان، وَيُشْغَلُ بِالْهُدَا الخليفةِ بالقِصَّةِ التي تُرَوَى له عن صَيَّادٍ للسمكِ زنجيٍّ اسْتَخْرَجَ واحداً منها في شِبَاكِهِ، فيأمر موسى بن نُصَيْرٍ بالبحثِ عنه في المغرب، وَيَقْصِدُ موسى خَرِبَ الحصونِ حيثُ قبورُ الرومِ وكتاباتُهُم، وَلِذَا فَإِنَّ هذه الأَقاصيصَ ترتبطُ فيها موضوعه مصرُ القديمة^(٢٠).

وَتُعَدُّ السيدةُ جوهرةُ السَّمَنْدَلِيَّةِ من أطفِ قِصَصِ عفاريتِ الماءِ، فالشعائرُ السحريةُ من ذاتِ النوعِ دائماً، ولا يوجدُ أيُّ وصفٍ عن أحوالِ الهندِ فيها، وفي آخرِ الرحلةِ تُوجَدُ حكايةٌ عن ساحرةٍ تُذَكَّرُ بحكايةِ سِرْسِه.

وَتَبْدَأُ «أَرْدَشِيرُ وحياةِ النفوسِ» بقِصَّةِ مَلِكٍ يَتَوَجَّعُ من عدمِ إنجابهِ بولدٍ، وَيَظْهَرُ هذا النوعُ من البُداءاتِ في القِصَصِ غيرِ مرةٍ، وهذه هي أسطورةُ سَلَامَانَ وَأَبْسَالَ الإسكندرانيةِ^(٢١).

وحاصلُ القولِ أن هذه الحكاياتِ عُرِضَتْ مثلَ فارسيةٍ، وأنها ذاتُ رَوْتِقِي فارسيٍّ، وهي لا تَنِمُّ على أيِّ عرفانٍ بالهندِ،

(٢٠) راجع «ابن سينا» تأليف كارادوفو صفحة ٢٩١.

(٢١) انظر إلى «ابن سينا» للبارون كارا دوفو، ص ٢٩١.

(٢٢) نذكر كذلك قصة دلالا النصابة كذات علاقة بالعنفات اليهودية، ولا تجد موضوع دلالا هذه في «ألف ليلة وليلة»، بل في «ألف يوم ويوم». (ترجمة، باريس، ١٨٤٤، ص ٣٦٠ وما بعدها). وقد عرفها المعودي أيضاً (مروج الذهب، ٨: ١٧٥)، ولا ريب في انه ممكن تشبيهاً بدليله التوراتية، انظر الى هذه المقارنة التي قام بها باريه دومينار في تعليقه على ذلك في «مروج الذهب»

والخيال فيها فاتنٌ يوحى بحسٍّ من الأدب اليوناني، والعجيبُ فيها مركبٌ يهوديٌّ على الخصوص كما هو عند القبَّالين ، وذلك مع خواصَّ يُمكنُ أن تُردَّ إلى المصريين، والتناسخاتُ يونانية، ولذا فالذي يظهر وجوبُ تبييننا في هذه الحكايات عينَ المدرسة التي كنا قد أبصرنا إحداثها لكليلة، أي المدرسة اليونانية الشرقية المُشبعة من اليهودية مع توحيد ما بين الآراء، والتي نُقلتْ عنعناتها ومؤلفاتها إلى فارسَ حيث تناولها العربُ.

وأضيفت حكاياتٌ أُخرُ إلى هذه الحكايات التي تتألف المجموعة القديمة منها، فأولُ ما وَقَعَ جمعُ من الأَقاصيص التي كُتبت ببغداد، ثم كُتبت جمعٌ آخر منها بالقاهرة، فأما أقاصيصُ بغداد فهي حكاياتُ الغرام التي اشترك فيها الخليفةُ هارونُ الرشيد، غالباً كقصةِ شمس النهار ذاتِ الهيام وقصةِ القلندريةِ الثلاثة، فهذه الحكاياتُ تشتمل على ملامح لطباعِ إسلامية^(٢٣)، وتمتاز القصصُ المصرية بَدوراتٍ ساخرة، وبذاك النوعِ الأعجوبي الذي يقتضي استعمالَ الطلاسم أكثرَ من تَدخُل الأرواح، ومن ذلك القصصُ التي جُمعتْ حَوْلَ أحمدِ الدَّنْف، وأما ما يَخْتلف عن الأعجوبيِّ فلا يلوح لي باديَ الوضوح، وتسيرُ الأرواحُ والطلاسمُ معاً ما دامت هذه

(٢٣) وكذلك هل يجب الاحتراز حَوْلَ امكان تغير الاشخاص والأماكن مع بقاء الحكاية على ما كانت عليه؟ انظر، مثلاً الى قصة « خاله خيري » في « ألف نهار ونهار »، وفي ألف ليلة وليلة، (قصة عطا الملك والسيدة زليخا)، نجد ان اسماء الامراء ليست واحدة.

تَطْرُدُ تلك، وإلى المجموعة المصرية تُرَدُّ قصةُ علاء الدين المشهورة، ويُرَى أن قصة علي بابا واللصوص الأربعة، التي هي طُرْفَةُ الأدب الشعبيِّ الأخرى، ذاتُ صلة بقصةٍ مصرية قديمة^(٢٤)، وهل هذه الحكايةُ القديمة غيرُ ذات مصدرٍ في اليونان؟ هذا أمرٌ ممكن، وذلك أن أخلاق الجارية الجريئة الروحانية، مُرْجِيَان، وذكاءها ورونتها وهيئتها أمورٌ منسجمةٌ مع طباع اليونان وعبقريتهم الادبية.

ولا نتكلم هنا، مطلقاً، عن حكاية فُروسيَّة عمرَ النعمان التي أضيفت إلى «ألف ليلة وليلة»، وعن السندباد الذي نرى تناوله في فصل الجغرافية، وعن كثيرٍ من الحكايات التي هي تاريخيةٌ تقريباً.

وأراد بعضُ الباحثين أن يَرَوْا حاصلًا من الهند في القصة المشهورة التي يتألفُ منها ما يُسمَّى الإطار^(٢٥)، وهي قصةُ شهرزاد التي أُجِّلَتْ في ألف ليلة قسوة الملك شهریار مُثيرةً فضوله بحكاياتٍ مقطوعةٍ في الوقت المناسب، والواقعُ أنه يُوجَدُ في الهند قسمٌ من هذا الإطار التمهيديِّ، كما أن العارفين باللغة الصينية وَجَدُوا في الصين قطعةً منه كانت قد تُرجمت من السنسكريتية إلى الصينية سنة ٢٥١ من الميلاد، ومع ذلك فإن هذه القطعة ليست قسمَ الحكاية الجوهريِّ، هذا القسم الذي يدل على شهرزاد وهي تتجنَّبُ القتلَ بحكايات.

(٢٤) مسيرو القصص الشعبية في مصر القديمة، باريس، ١٨٨٩، ص ١٥٠.

(٢٥) انظر إلى النقاش المتع لإمانويل كوسكان: إطار ألف ليلة وليلة التمهيدي، الأساطير الفارسية وسفر أستير، مقتطف من المجلة التوراتية الدولية، باريس ١٩٠٩.

ومع ذلك فإن الرأي الذي يَرَى في التمهيد « ألف ليلة وليلة » حكاية من أصل هندي، ليس سائداً وليس رأينا مطلقاً، ووُجِدَ علماء آخرون يقولون إن هذه التُحفة من أصل فارسي، ويذهب علماء كثيرون إلى أن شهرزادَ متحدةً هي وأستير التوراة ذاتاً ومعنى، والمستشرقُ الحاذق « دُوغويه » هو الذي اقترح هذا التماثل، والحقُّ أنه يُوجَدُ حَوْلَ هذه النقطة بعضُ المطابقات وبعضُ الالتباسات في الأسطورات، وذلك أن أحشويروش التورائي كان له مثلُ مبدأ شهريارِ ألف ليلة وليلة في عدم معاشرته نساءه غيرَ مرة واحدة، فكلُّ عذراء تُعدُّ مُقدِّماً في زمنٍ طويلٍ « كانت تدخلُ على الملك في المساء وترجعُ في الصباح إلى دار النساء الثانية »، على أنها لم تُخنق كما في « التمهيد » المعروف، وذلك أن أستيرَ نالت رِضا الملكِ بدَهاثها، كما صنعت شهرزاد، وظلَّت بجانبه، وهي بنتُ الوزير كما كانت شهرزاد، وتُخلِّص قومها من السَّبْيِ والأسْرِ (٢٦)؛ كما تُخلِّصُ قاصَّةُ ألف ليلة وليلة العذارى المُهدَّدات بطابع سَوالفهن الفاجع، ويَرَى الطبريُّ أن أستيرَ التورائية هي أمُّ الملكِ بَهْمَن بن إسفنديار، ويجعلُ المسعوديُّ من أستيرَ زوجاً لبختنصر، ويسمِّيها دِينَازاد التي جاء في الأَقاصيص أنها أختُ شهرزاد، ومع ذلك فإنه يلاحظُ أن جميع هذه الوقائع قُصَّ على وجوه مختلفة، ويُطلقُ هذا المؤلِّفُ اسمَ شهرزاد على أمِّ « حُمَاي » بنتِ بَهْمَن بن إسفنديار، أي زوجِ بَهْمَن التي جعلَ الطبريُّ منها أستير، وعند المسعوديِّ، أيضاً،

(٢٦) السبي للنساء والأسر للرجال.

أن أمَّ حُمَاي كانت يهودية، ثم يُطَلَقُ الفردوسيُّ والطبريُّ والمسهوديُّ في موضعٍ آخرَ اسمَ شهرزادَ على حُمَايَ نفسها، أي على بنت الملك بَهْمَنَ وزوجه (على عادة قدماء الفرس)، ويطابق هذا الملكُ، ذا اليَدِ الطويلةِ أرتاكزيرسيسَ، وهو أبو داراَ القديم، وفي الحقيقة لا يُمكنُ أن يُنكَرَ عدمُ التصدِّيِّ هنا لِمَا بين العنعنات اليهودية والعنعنات الفارسية من أساسٍ مشترك، فليس من السهل تحديدُ الوجه الذي به تشتقُّ بعضُ الأَقاصيصِ من بعضٍ أو يمتزج بعضها ببعض، ومن الأَقاصيصِ ما تَجَمَّعَ حَوْلَ اسمِ حُمَايَ، فجُعِلَتْ هذه الأميرةُ وارثةً لشيءٍ من اسمِ سَميرَاميسَ (شميران) وشهرتها مثل ولُوعٍ بالبناء، ولِذا فإنه يَكُونُ قد صُهِرَ فيها أربعٌ من مِلَكَاتِ فارسِ العظيَماتِ، سواءً أكنَّ حَقِيقاتٍ أم خيالياتٍ.

ومن المعلوم أن مذهب توحيد ما بين بعض المذاهب الشرقية قَرَّبَ بعضَ أبطال اليهود والفرس واليونان والمصريين، إلخ؛ من بعض، أو مَثَّلَ بعضهم ببعض، فقد وُحِّدَ بين إدريسَ وهَرَمِسَ وتُوتِ المصريِّ، وبين النبيِّ الحِضْرِ وإيليا والقديسِ جورجَ، إلخ؛ وَيَظْهَرُ أن هذا العملَ مَدِينٌ لمذاهبِ الأفلاطونية الجديدة.

ومن الإمتاعِ دراسةُ أدبِ «ألف ليلة وليلة»، فهي من فصيلة الأساطير، وهي مستقلةٌ عن المذاهب الدينية بعضَ الاستقلالِ على العموم، وهذا أدبٌ بُرْجوازيٌّ يعارض بطابعه المتوسط العاطل من الحماسة بهاءَ الرونقِ ونَسَقِ الرواية، وهي تُوصي بالاعتدال في اللذات وبشيءٍ من الأثرةِ وعدمِ الثقة والإذعان للقدَرِ، وهي تُؤمِنُ بالمشاعر الكريمة على مَضَضٍ، وهي لا تَمُتُّ القسوةَ مطلقاً، ولكن

مع تقديرها الدَّهَاءَ والنُّبُوغَ، ومن سِمَاتِهَا الخاصة أن يَفْجَبَ بِالْمَهْرَةِ
 مِنَ السَّرْفَةِ، وَيُرَى هَذَا الطَّابِعُ فِي هِرْدُوتِسَ الَّذِي عُرِضَ فِي قِصَّةِ
 مَعْرُوفَةٍ جَيِّدًا، وَحَاصِلُ الْقَوْلِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَسَابَقُ هُنَا لِيَرْتَقِيَ بِنَا
 إِلَى مَا وَرَاءَ فَارَسَ، إِلَى الْيُونَانِ الَّتِي يَظْهَرُ مَزَاجُهَا وَفَنُّهَا وَفِكْرُهَا
 مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْأَقَاصِيصِ، إِلَى الْيُونَانِ الَّتِي أُنتَجَتْ أَلُوفًا مِنْ
 الرِّوَايَاتِ الَّتِي ضَاعَتْ، فَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْحِكَايَاتُ مِنْ
 بَقَايَاهَا، فَمَا ثَوْرُهَا الْأَدْبِيُّ هُوَ مِنَ الْغِنَى وَالطَّلَاوَةِ بِحَيْثُ يُفَسَّرُ مِثْلَ
 ذَلِكَ الْإِزْدَهَارِ فِي الْعَجَائِبِ.



فهرست الاعلام

آ

- آدم ٢٠٥
- آزوف ٢٤٤
- آصف بن برخيا هامش ٢٥
- آق شمس الدين ٢١٨
- آي جيجاق ٢٠١

أ

- ابراهيم (سلطان) تان ٦٩ ، ٧٠
- ابراهيم باشا (الصدر الاعظم) ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٢
- ابراهيم بصره جي هامش ٢٢٧
- ابراهيم التستري ١٠٤
- ابراهيم الخليل ١٣٨
- ابراهيم البطريق ٢٧٧
- ابراهيم بن السندي ٢٧٢
- ابراهيم بن سيار = النظام

ابراهيم الماروني ٨٧
ابسال ٣٢٤
ابن ابي الطانا ١٠٣
ابن ابي عصرون ٣٠
ابن الأثير (المؤرخ) ١٩ ، ٨٨ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٩٢ ، ١٢٦
ابن تغري بردي ٨٨ ، ١٤٢ ، ١٥٠
ابن جبير ١٥١
ابن الجهم = علي بن الجهم
ابن جوسلين ١٢٧ ، ١٢٨
ابن حزم ١٥٥ ، ١٥٦
ابن حوقل ١٧١
ابن خلكان ١٥٥
ابن سعيد ١٥٥ ، ١٥٦
ابن سفر ١٥٦
ابن سلامة ١٤٤
ابن سينا ١٢٩ ، هامش ٣٢٤
ابن الشقندي ١٥٥ ، ١٥٦
ابن طفيل ٣١٩
ابن الطقطقي ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢
ابن عامر ٢٧٦
ابن العبري ٨٧
ابن عدي (ابو زكريا) ١٠٤

- ابن عذارى المراكشي ١٥١
ابن عربشاه ٦٤
ابن العلقمي (الوزير) ١١٢
ابن الفرات (الوزير) ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠
ابن فهد ٢٧٧
ابن فهيلي ٢٧٧
ابن قتيبة ٢٤
ابن قرّة ٢٧٧
ابن مسكويه ٨٨، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧
ابن المعتز ١٠٧
ابن المقفع ٩٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٣١٥، ٣١٧
ابن ناعمه ١٦٨
ابن نور الدين ٣٠
ابو اسحاق الشيرازي ٢٨٥
ابو جعفر البرمكي ٢٠
ابو حمو (السلطان) ٢٥٧
ابو حنيفة ١٣
ابو زكريا دنقا ١٠٣
ابو سعيد ١٩١
ابو شام هامش ٣٢
ابو صالح منصور ١٦٦
ابو طالب الحسيني ٥٦
ابو عنان المريني ٢٥٧

ابو عمر الكندي ١٤٤
 ابو الفرغ بن العبيري ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١
 ابو الفداء ٨٧ ، هامش ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ١٤٢
 ابو الفضل العلامي (وزير اكبر) ٧٣ ، ٧٥ ، ٢٥١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦
 ابو الفيض ٢٩٠
 ابو كثير ١٠٣
 ابو المحاسن = ابن تغري بردي
 ابو مخفف ٩١
 ابو منصور ١٦٦ ، ١٦٧
 ابو نواس هامش ١٦
 ابو الهذيل ٢٦
 ابو يوسف (القاضي) ٢٥١
 أتيل ٣٩
 احشويروش التورائي ٣٢٧
 احمد بن يحيى ٢١٣
 احمد الثالث ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٢
 احمد جواد بك ٢٤٥ ، ٢٤٦
 احمد جودت ٢١٤
 احمد الدنف ٣٢٥
 احمد السيرافي ٩٨
 احمد قوراني ٢١٨

- أحد المنصور ١٥٢
أحد واصف ٢١٤
الأخطل ٣٠٢
ادريس ٣٢٨
ادريس البتليسي ٢١٣ ، هامش ٢١٥ ، ٢١٦
ادمون فازي ٢٢٧
ارتا كزيرسيس ٣٨
اردشير ٩٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٠
أرسطو ١٠٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
أرمانوس الرابع = ديو جانيس
أرناط الشاتيونى ٣٠ ، ٣١
أرنبيوس ٨٧
أسامة بن منقذ ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٨٤ ، هامش ٢٦٨
استير ٣٢٧ ، ٣٢٨
اسحاق بن علي ١٢٣ ، ١٢٤
اسعد افندي ٢٤٦
اسفنديار ١٦٩ ، ٢٠٦
اسكس (الكونت) ٨٠
الاسكندر ١٧١ ، ١٨٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦
اسكندر سيفير ٧٣
اسلامشاه ٢٩٠
الأصمعي ٢٠

اغناديوس ٢١٦
افرا سياب ١٧٣
افريدون ١٧٢
افريدون ١٧٢
افلاطون ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ ، ١٨٤
اقتاي خان ٢٠٥ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٨٩
اقليدس ٢٧٩ ، ٢٧٢
أكبر ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢
٢٩٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢
ألب أرسلان ٢٨٣ ، ٢٨٢
الفنستون (اللورد ج.) هامش ١٨٢
النبورو (اللورد) ٦٧
أليزابث (ملكة انكلترا) ٢١٤ ، ٨٧
ام الرشيد = الخيزران
ام المأمون ١١٥
ام المستضيء ١١٥
ام المستعين بالله ١١٥
ام المقتدر ١١٥
ام المنتصر ١١٥
ام المنصور ١١٥
ام المهدي ١١٥
اماري ١٢٢
امرؤ القيس ٢٧٦

اموري (ملك القدس) ٢٩
انجر هامش ٢٥٢
أنوري ٢٠٥
امير البحر الرومي ١٧
الامين (محمد) ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥
أنطوني (شيرلي) ٨١، هامش ٨٢
اهلورد هامش ١١٠
اوداس (.أ) هامش ٢٠٠، ٢٠٤
اورخان بن عثمان ٤٥، ٢١٥
اوستروروغ (ليون) ٢٥٢
اولغاتيو ١٩١، ١٩٢، ١٩٣
أوليا افندي ٢٢٩
أياز ٦٨، ١٦٩، ١٧٠
ايقراط ٢٧٦
ايزوب ٣٠٩
ايليا ٣٢٨
اينهارد ١٩
ايوب (والد صلاح الدين) ٢٨

ب

بابر (السلطان المغولي) ٦٩، ٧٠، ٧١، ٢٠٥، ٢٩٢
بارباروس خير الدين ٥٣، ٢٢٤، ٢٢٥
باربيه دومينار هامش ١٣، هامش ٦٧، ١٠٠، هامش ١٨٠،
٣٠٥، هامش ٣٢٤

بارجس (الأب) ٢٥٧
 باسيه (رينه) ٣١٤
 پاڤه دوکورتی هامش ١٣ ، ١٠٠
 بايزيد (السلطان) ٦١ ، ٦٢ ، ٢١٢
 بختنصر ٣٢٧
 بدر ٣٢١
 بدر الدين ٤٦
 بدّه ٧٣
 بدور ٣٢٢
 براون (ادوارد ج. ١٧٧)
 پرتوكي ٢٤٠
 برزويه ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩
 بروكلمن هامش ٩١ ، هامش ١٤٦ ، هامش ١٥٠ ، هامش ١٥٩ ،
 هامش ٢٢٦ ، هامش ٢٥٦ ، هامش ٢٦٨ ، ٢٧٦
 بزرجهر ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، هامش ٣١٧ ، ٣١٨
 بشاوي ٢١٣
 بطرس (القيصر) ٢٤٢
 بطرس بن الراهب ٨٧
 بطره ٢٥٧
 بطليموس ٩٩ ، هامش ٣١٥
 البلعمي ٩٦ ، هامش ٩٧
 بلو شان هامش ٢٨٩
 بلوشيه ١٩٠

پنیاتفسکی ۲۴۰

بہاء الدین ہامش ۲۸

بہادر خان ہامش ۱۸۲، ۱۸۳، ۱۹۰، ۲۰۵، ۲۰۶، ۲۰۷، ۲۰۹

بہرام ۳۱۵، ۳۱۵

بہمن بن اسفندیار ۳۲۷، ۳۲۸

بورتن ہامش ۳۲۰

بوریان ہامش ۱۴۷

پوکوک ۸۷، ۳۰۵

بوهیمند ۱۲۶

پیالہ الکرواتی ۵۳

پیبرس (الملك الظاهر) ۱۴۶، ۱۴۸، ۱۴۹

پیتیس دولا کروا ہامش ۵۴

پیدبا ۳۰۹، ۳۱۶

البیرونی ۶۷، ۸۹، ۹۷، ۱۶۸، ۲۷۹

البیضاوی ۲۹۱، ۲۹۲

بیلکجی پرتو آفندی ۲۴۶

بیموند (البرنس صاحب انطاکیة) ۱۲۷، ۱۲۸

البیہقی ۶۹، ۱۲۹

ت

تارد ۲۵۶

تنکرید ۱۳۰، ۱۳۱

توت المصري ۳۲۸

تودار مال ۷۴

تور نبرغ ١٢٢ ، ٨٨

توفيل (قيصر الروم) ٢٥

توكل بهادر ٥٩

توماس شرلي هامش ٨٢

تيس ٣١٤

تيمورلنك ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ،

هامش ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٥٨

ث

ثابت بن قرة ١٠١

الثعالي ٣١٦

ج

الجاحظ ١٠٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٧٦ ، ٢٧٩

جارلت (ه. س.) هامش ٢٨٩

جارية سلموية ٢٧٢

جالينوس ٢٧٩

جب هامش ٩١ ، ٩٢ ، ١٤٤

جرجس بن العميد = المكين

جرجي زيدان هامش ٢٣ ، ١١٤ ، ١١٥

جرير ٣٠٢

جسا هامش ١٨٨

جست (روفن) هامش ٩١

جستيان ٤٧ ، ٢١٦

جعفر البرمكي ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥

جعفر السيرافي ٩٨

جفطاي ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٥

جلال الدين منكرتي ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

جم (ابن السلطان محمد الثاني) ٥٠ ، ٥٥

جمالي ٤٥ ، ٤٦

جنتيل بليني ٤٧

جنكيز خان ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢٠٨ ، ٢١٧

جهانكير (سلطان المغول) ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٢٩٢

جورج (القديس) ٣٢٨

جوشي ١٨٨ ، ٢٠٥

جول مول هامش ١٦٥

جونبول ٨٨ ، هامش ١٥٠

جوهرة ٣٢٣ ، ٣٢٦

الجويني ١٩٢

جيمس الثاني الأرموني ١٤٠

جيو مرت ١٦٦

ح

حاجي خليفة ١٩٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧

- الحافظ (الخليفة الفاطمي) ١٣٦
 حبش سلطان ٢٠٦
 الحجاج ٢٧٩ ، ٣٠٢
 حسن باشا ٢٢٢
 حسن بك ٢٤٢
 حسن بن سهل ٢٦
 حسن بن الصباح ٢٨٣
 حسن عبد الله ٢٧١
 الحسين (بن علي بن ابي طالب) ٨٣
 حسين (الامير) ٥٩ ، ٦٠
 حماني ٣٢٨
 حياة النفوس ٣٢٢

خ

- خدا بنده ٤١ ، ٧٨ ، ١٧٦
 خسرو برويز ١٦٦
 خسرو الدهلوي ٢٩١
 الخضر ٣٢٨
 خضر يوزوري ٥٩
 خطلخ (مملوك منقذ والد أسامة) ١٣٢
 خوارزم شاه = شاه خوارزم
 الخوارزمي ١٠٦
 خوجه أفندي (سعد الدين) ٢٢٢
 خوندمير ١٨٢

الخيزران (أم الرشيد) ١١٥ ، ١٥

د

دانشور ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨

دبشليم ٣١٦

درنبرغ (هرتيوغ) ١١٠ ، ١٢٩

دفرمري ١٨٥

دفيد براييس (الميجر) ٧٥

دقيقي ١٦١ ، ١٦٨

دل شاد آغا ٦٠

دمرياط ٣٢٥

دهناخ ٣٢٥

دوپنليون ٥٢

دوبو ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٦

دوتسون هامش ٤٠

دوريا (اندريه) ٥٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

دوزي ٨٨ ، ١٥١

دوساسي (سلفستر) ١٤٣ ، ١٨٣ ، هامش ٣١٠

دوسلان هامش ١٢١ ، هامش ٢٥٦ ، ٢٥٨

دوغويه ٩٣ ، ١٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٩

الدوك (مقدم الروم) ١٢٧ ، ١٢٨

دوكستري (الكونت هنري) ٣٠٧

دوما بلي (الأب) ٢٥٦

دوميزون هامش ٢٠٥

دینازاد ۳۲۹

دیو جانیس ۲۸۲

ر

الرازي ۱۰۴

رايت (وليم) ۱۵۰، ۱۵۱

رستم ۱۶۵ ۱۶۹ ۱۷۱ ۱۷۳، ۱۷۴ ۱۷۵

رسك ۱۳۵

رشيد افندي ۲۱۵، ۲۱۶

رشيد الدين الهمزاني هامش ۳۶، ۱۹۰، ۱۹۱ ۱۹۲، ۱۹۳،

۱۹۴، ۲۱۱

رکردس (قلب الأسد) ۳۲، ۳۳

رملس ۱۱۶

رهاتسك ۱۸۴

روبرت شرلي ۸۱، هامش ۸۲

روجر الانطاكي ۱۳۱

روملس ۱۱۶

رينولدز هامش ۶۹

ريني (ملكة الروم) ۱۵

ز

زابليه (فرانسوا) ۱۹۶

زبيده (زوج هارون الرشيد) ۱۸، ۲۱، ۲۳، ۱۸۰

زرارة ۲۷۶

زغتوس باشا ٢١٨
الزبخشري ٣٠٥
زوتنبرغ ٩٧ ، هامش ٣١٦
زياد ٢٧٦
زينب (الشاعرة البورسية) ٥٠

س

سابور ٣١٣
سيرنفر ١٠٠
سبكتكين ٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦
سخاو هامش ٨٩
سعد بن ابي وقاص ١٦٦
سعد الدين (المؤرخ) ٦٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩
٢٢٠ ، ٢٢١
سعدي (الشاعر) هامش ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٥١
سفر ٣٢٢
سقر ٣٢٠
سقراط ٣١٥
سلامان ٣٢٤
السلانيكي ٢١٣
سلدوز ٥٩
سلمويه ٢٧٢
سليم الاول ٥٢ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٩٢
سليم الثاني ٥٢ ، ٢٢٧

سليم (الثالث) ٢١٤ ، ٢٣٩ س

سليمان (الشاه) ٧٩

سليمان (القانوني) ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٢٧

سليمان (النبي) ١٧٨ ، ٣٢٢

سليمان خان ٢٢٤

السمعاني ٩٢ ، ٩٣

سمير اميس ٣٣٠

سنان ٢٢٠

سنان باشا ٢٢٢ ، ٢٢٣

سنان شيخي ٤٥

سنجر (السلطان) ٢٠٣

السندباد ٣٢٦

سنيكا ٨٩

سهل بن هارون ٢٤

سهيل بن الحاج ١٢٤

سيجسمند ٢٢٠

سيدي عبد الرحمن المجدوب ٣٠٧ ، ٣٠٨

سيف الدولة الحمداني ٣٠٥

سيف الدين (الامير) ١٣٨

السيوطي (جلال الدين) . ١٥

ش

شائبيك (خان التتر) ٦٩

شارلكن ٥١

شاه خوارزم = محمد الثاني

شاوور (الوزير) ٢٩

سبر شاه ٧٣

شرلمان ١٨

شمس الدين بن ايوب ١٢٥

شميران ٣٢٨

شهرزاد ٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦، ٣٢١

شهريار ٣٢٧، ٣٢٦

شوفان (فكتور) هامش ٣١٠، هامش ٣٢٠

شيباني غمان ٢٠٦، ٢٠٥

الشيرازي (ابو طاهر) ١٨٠

شيركوه ٢٩

شيفر (شارل) هامش ١٩٥، ١٩٩، هامش ٢٨٥

ص

صبحي ٢١٤

صفي الدين (الموسيقي) ١١١

صلاح الدين الأيوبي ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ١٢٤، ١٣٤،

١٤٨، ١٤٧، ١٣٦

صوفولي (الوزير) ٥٢، ٢٢١

الصولي ١١١

ط

طارق (بن زياد) ١٥٣

طاشكين زاده ۲۲۶

طاهر (قائد جيش | المأمون) ۲۲، ۲۳، ۲۵

الطبري (المؤرخ) ۲۱، ۸۸، ۹۱، ۹۲، ۹۳، ۹۶، ۹۷، ۱۲۱،

۱۲۲، ۱۷۱، ۲۹۴، ۳۱۰، ۳۲۷، ۳۲۸

طغرل بك ۱۹۷، ۲۸۲

طلوخان (بن جنكيز خان) ۳۶، ۱۸۸، ۲۰۵

طمشوار ۴۸

طهاسب قلي خان = نادر شاه

طور غور (القرصان) ۵۳

ظ

الظافر (الخليفة الفاطمي) ۱۳۴

ع

العادل (اخو صلاح الدين) ۳۰

عاصم چلبي زاده ۳۱۴

عاهل الصين ۱۸

عباس (الشاه) ۷۸، ۷۹، ۸۰، ۸۱، ۸۲، ۸۳، ۸۴

العباسة (اخت الرشيد) ۱۹، ۲۰

عبد الباقي ۲۲۷

عبدوس ۲۵

عبد الحلیم ممدوح هامش ۲۲۷

عبد الرحمن ۱۵۳، ۲۱۷

عبد الرحيم السيرافي ۹۸

عبد الصمد السيرافي ۹۸

- عبد الله بن أبي بكر ١٢٣
عبد الله بن فضل الله ١٩١
عبد الله البيضاوي ١٩٢
عبد الملك (بن مروان) ١٥٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢٤
عبد المؤمن ١٢٣ ، ١٢٤
عبد الواحد المراكشي ١٥٤
العتبي ٦٨
عثمان (الخليفة) ٢٧٥
عثمان (مؤسس الدولة العثمانية) ٤٥
عثمان الثالث ٢١٤
عريب القرطبي ١٥٤
عزي (المؤرخ) ٢١٤ ، ٢٣٩
عضد الدولة (السلطان البويهى) ١٠٥ ، ١١٨ ، ١٨١
عطاء الله بن يحيى ٢٢٦
علاء الدين ٣٢٦
علاء الدين بن عثمان ٤٥
علي (زين الدين) ١٢٧
علي بابا ٣٢٦
علي باشا ٢٢٢
علي البلخي ١٦٦ ، ١٦٧
علي (بن ابي طالب) ٨٣ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٣٠٤
علي بن الجهم ٢٧١ ، ٢٧٢
علي بن عيسى ١٠٨ ، ١١٠

علي الرضا ٨٣

علي شير ١٨٢

علي وردى خان ٧٩ ، ٨٢

العلقمي (الوزير) ٣٨ ، ١١٢ ، ١١٣

العقاد ٣٢

عمر بن الخطاب (الخليفة) ١٦٦ ، ٢٥٩

عمر بن عبد العزيز ١٢٥ ، ٢٧٣

عمر (تقي الدين) ١٣٦

عمر النعمان ٣٢٦

عمرو بن العاص ١٧

عنبرة ٣٠١

عيسى = السيد المسيح

غ

غازان خان ٤١ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ١٩١ ، ١٩٣

غاتن (جول) ٢٨٢

غانيه (ج.) هامش ١٣٥

الغزالي (الامام محمد) ٢٨٥

الغزنوي ١٦٨

غست (روثن) هامش ١٤٤

غلان ٣٢٠ ، ٣٢٢

غنشان ١٨١ ، هامش ٢٠٠

غوبينو ٢٥٦

غوستاف دوغا ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٩

ف

قائه هامش ٦٤

الفارابي ١٠٤، ٢٥١

فان ديك هامش ٣١٠

فان فلوطن هامش ١٠٦، هامش ٢٧٠

فتح غيرائي ٢٢٥

فخر الدين (صاحب حصن كيفا) ١٢٦

فخر الدين عيسى ١١١

الفخري ٢٧١

فرانسوا الاول ٥١، ٥٣

فريتاغ ٣٠٦

الفردوسي ٦٧، ٦٨، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،

١٧٢، ١٧٣، ١٨٥، ٢٧٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦،

٣٣٠

الفرزدق ٣٠٢

الفضل بن سهل ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥

الفضل بن يحيى ٢٦٦

فضولي ٢٢٧

الفقيه (مؤسس المذهب الشافعي) ٢٦

فلّروا (الريشال) ٢٣٦

فلكونير هامش ٣١٠

فلوغل ٢٢٦

فنيان ١٢٢، هامش ٢٥٢

فور ۳۱۵

فولتير ۸۹، هامش ۲۴۴

فولرز (ج. أ.) هامش ۱۹۱

فون هامر (ج) هامش ۲۲۹، هامش ۳۰۵

فيثا غورس ۳۱۷

فيروز ۵۱

فيضي ۲۹۰، ۲۹۱، ۲۹۲

ق

القائم (الخليفة العباسي) ۲۸۲

قابوس (امير جرجان) ۱۷۰، ۱۸۵، ۱۸۶، ۱۸۷

قبل خان ۱۸۸

قپوران ۲۴۲

القي ۲۷۲

قتلمش ۱۱۷

قرچار نويان ۱۸۹، ۱۹۰

قرغان (الامير) ۵۹

قره چلي زياده ۲۱۳

القضاعي ۱۴۴

قليج ايسلان ۱۷۸

قمر الزمان ۳۲۲

القمص (صاحب طرابلس) ۱۲۷، ۱۲۸

القهيوي (ركن الدين) ۱۸۰

قوجي بك ۲۵۱

ك

کاتب چلي = حاجي خلیفه

کاترمير هاش ۳۶ ، ۸۸ ، هاش ۱۴۸ ، ۱۹۰ ، ۱۹۱ ، ۱۹۲ ،

هاش ۲۵۶ ، ۳۰۵

کارادوڦو هاش ۲۶۸ ، هاش ۲۹۸ ، هاش ۳۲۴

کاوه ۱۷۲

کرتاسب هاش ۸۸

کسری انوشروان ۹۴ ، ۹۶ ، ۱۶۵ ، ۱۶۸ ، ۲۶۴ ، ۳۱۰ ، ۳۱۱ ،

۳۱۶ ، ۳۱۴

کسری پرویز ۳۱۱

کش کش ۳۲۳

کشولي بهادر ۱۸۹

کلیر ۲۸۹ ، ۲۹۶

کلیان الروماني ۱۰۳

کمال باشازاده ۲۱۳

الکندی ۲۶

کوسان دوپر سقال ۲۳۹ ، هاش ۲۴۶

کوسکان (امانویل) هاش ۳۲۶

کیخسرو (غیاث الدین) ۱۷۱ ، ۱۷۳ ، ۱۷۸

کیقباد (علاء الدین) ۱۷۸

ل

لسان الدین بن الخطیب ۱۵۸

لطفی ۲۱۶

لقمان ٣٠٩ ، هامش ٣١٠

لنفليس هامش ٥٦

لودلف كرهل ١٥١

لويس الخامس عشر ٢٣٢ ، ٢٣٣

ليبتنز ٢٨٩ ، ٢٩٨

لين هامش ٣٢٠

ليون العاشر ٥١

ليون كاتياني هامش ١٠٥

م

المأمون ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٥٩

ماتس هامش ١٥٢

مالك بن انس ١٣ ، ١٥٤

الماوردي ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

مبارك (الشيخ) ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

المتني ٣٠٤ ، ٣٠٥

المتوكل (الخليفة العباسي) ١١٦ ، ١٨٠ ، ٢٦٩

مقياس كروين ٤٨

مجدي (المؤرخ) ١٧٦

محمد (النبي صلى الله عليه وسلم) ١٠٦ ، ١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٧٦ ،

٣٠٩

محمد افندي ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، هامش ٢٧٠

محمد الأول ٤٥ ، هامش ٦٤

محمد بن تيمورلنك ٦١

محمد بن خاوند = ميرخوند

محمد بن زكريا = الرازي

محمد الثالث ٢١٤ ، ٢٢٠

محمد الثاني ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦١ ، ١٧٩ ، ٢١٧

محمد حسين القاشاني هامش ١٨٢

محمد مجدي ١٧٦

المجسطي ٢٧٩

محمود الثاني ٢٣٩ ، ٢٤٦

محمود بن سبكتكين ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠

محمود الغزنوي ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٨ ، ٢٨٦

مراجل (ام المأمون) ٢٠

مراد الأول ٤٥ ، ٢٢٧

مراد باشا ٢٢٢

مراد الثالث ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤

مراد الثاني ٤٥ ، ٤٦

مراد الرابع هامش ٥٤ ، ٢١٣

المراكشي ٨٨

مردروس هامش ٣٢٠

مرغليوث هامش ٢٣ ، هامش ٩٢ ، هامش ١١٤

مرقص جوزيف مولر ١٥٩

مروان بن ابي حفصة ١٨

المستعصم (الخليفة العباسي) ١١٢

المستنصر ١٤٤

المستوفي (حمد الله) ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

هامش ٢٠٠ ، ٢٨٢

مسرور (جلاد الرشيد) ١٩

مسعود (بن محمود الغزنوي) ٦٨ ، ٦٩ ، ١٩٧

المسعودي هامش ١٣ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ،

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، هامش ٣١٧ ، ٣٢١ ، هامش ٣٢٤ ،

٣٣٠ ، ٣٢٥

المسيح ٧٣ ، ٢١٦

مصطفى (بن سليمان القانوني) ٥٥

مصطفى الثالث ٢١٤ ، ٢٤٠

مصطفى نجيب ٢١٤

المظفر (الملك) ١٣٨

المعتمد بن عباد ١٥٧

مفول خان ٢٠٩

مغيث (فاتح قرطبة) ١٥٣

المقتدر (الخليفة العباسي) ١٠٧ ، ١١٥

المقري ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠

المقريزي ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ،

١٥٠

المكتفي (الخليفة العباسي) ١١٥

مكريديس (ج.) هامش ٢٤٦

مكسيمليان (الأرشيدوك) ٢٢٢

المكي (الشاعر) ١٦

المكين ٨٧

ملكشاه ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، هامش ٢٨٥

المناعي ٢٤٤

المنصور (ابو جعفر) ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣١٥

منصور بن نوح ٩٦

منغو خان ٣٦ ، ٣٧

المهدي ٢٠

المهلل بن ربيعة ٢٧٦

مودور (قطب الدين) ١٢٨

موراي هامش ٧٨

موسى بن نصير ٣٢٤

مول ١٧١ ، هامش ١٧٢ ، هامش ٣٢٠

موفق الله الحمداني ١٩٤

مونتسكيو ٢٥٢ ، ٢٥٦

مون سنغ (الراجا) ٧٥

مويز هامش ١٣

ميتشل (جيمس) هامش ٢٢٤

الميداني ٣٠٥ ، ٣٠٦

ميران شاه ١٩٢

ميرخوند ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ،

٢٨٤ ، ١٩١

ميشل (امير الفلاق) ٢٢٠ ، ٢٢١

ميمونه ٣٢٥

ن

نابليون ٥٢

نادر شاه ٨٢ ، ٨٣

الناصر ١١٥

الناصر بن قلاوون ١٤٦ ، ١٤٨

ناصر خسرو ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩

النسوي (محمد) هامش ١٢٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

نصير الدين الطوسي ٤١ ، ١١٣ ، ١٨٤ ، ١٩٠

النظام ٢٦ ، ٢٦٨

نظام الملك ٢٥١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

نعيمًا (نعمًا) ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣

نقفور (ملك الروم) ١٥ ، ١٦

نلدكه ٩٣ ، هامش ٩٤ ، ١٧٨ ، هامش ٣١٧

نوائى ٢٠٩

نوح بن منصور ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨

نور الدين (أتابك) بن زنكي ٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧

هـ

الهادي (اخو الرشيد) ١٥ ، ٢٠ ، ١١٥

هارون الرشيد ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ١١٥ ،

١٨٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٤ ، ٣٢٥

هايخت هامش ٣٢٠
هرثمة (قائد جيش المأمون) ٢٥
هردوتس ٣٢٩
هرمز (هرمس) ٣٢٨ ، ٣١٣
هشام بن عبد الملك ١٣
هلاكو ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣
همايون ٢٩٢

و

واصف افندي ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
وايت هامش ٥٦
وستنفلد هامش ١٦ ، ١٤٣ ، ١٥٩ -
الوليد (بن عبد الملك) ١٥٦
وليم ديثي (الميجور) ٥٦
ويلز (شارل) ٢١٧ ، هامش ٢٢١
ويندام ٣١٠

لا

لاجين (السلطان) ١٣٦ ، ١٣٧
لامارتين ٢٢٠
لامنس ٣٠٢

ي

ياقوت (الحموي) هامش ١٦ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، هامش ١٠٨ ، ٢٧١
يحيى (المجبر) ١٣٢

يحيى بن خالد (الوزير) ١٧
يزد جرد ١٦٦ ، ١٧١ ، ٣١٤
يزيد (بن معاوية) ٣٠٢
يسوع = المسيح
يعقوب بن زكريا ١٠٣
اليعقوبي ١٧١
يوتيوخوس ٨٧ ، ١٠٣
يوسف بن ابي الغريب ١٣٢
يوسف بن تاشفين ١٢٣ ، ١٢٤



فهرسُ الموضوعات

رقم الصفحة

٧..... مقدمة المؤلف

١١ الفصل الاول العاهلون

- الخلفاء العباسيون العظام: المنصور والرشيد والمأمون، الحركة

العلمية في عهد المأمون..... ١٣

~~١٨~~..... صلاح الدين

٣٦..... هادم الخلافة العباسية: هلاكو

٤٣ الفصل الثاني العاهلون (تكملة)

- السلطانان العثمانيان العظيمان: محمد الثاني، فتح القسطنطينية،

الإشتراع، سليمان..... ٤٥

- تيمورلنك، مذكراته..... ٥٦

- ملوك الهند: محمود الغزنوي، بابرٌ ومذكراته، فتح الهند، العاهل
الفيلسوف: أكبر، آراؤه في الدين وإدارته، مذكرات
جهانكيز..... ٦٦
- شاه الفرس: عباس الكبير، الشاه نادر..... ٧٨

٨٥ الفصل الثالث مؤرخو العرب

[مؤرخو الخلفاء الامويين والخلفاء العباسيين]

- عموميات حَوْلَ مؤرخي العرب، ما وَجَّه اليهم من نقد ٨٧
- الطبري وتاريخه، المسعودي ومروج الذهب..... ٩١
- ابن مسكويه، تاريخه، كتاب مفاتيح العلوم، مسلك وزير،
الفخري صفحات عن آخر الخلفاء العباسيين..... ١٠٥
- مؤرخ شرقيٌّ معاصر: زيدان..... ١١٤

١١٩ الفصل الرابع مؤرخو العرب (تكملة)

[مؤرخو الحروب الصليبية، - مؤرخو الشام ومصر والاندلس]

- ابن الاثير، تاريخه، استيلاء الموحدين على مراكش، ثناء على
الأتابك نور الدين..... ١٢١
- الشام: الأمير اسامة، مذكراته، أبو الفداء، حولياته،
سيرته..... ١٢٩
- مصر: المقرئزي، وصفه للقاهرة، تاريخه عن الماليك، صفحة

عن السلطان بيبرس ١٤٢
- الاندلس: المَقْرِيّ، مختاراته، قطعة عن أشبيلية، قطعة عن
حصار غرناطة وتسليمها ١٥١

١٦٣ الفصل الخامس

مؤرخو الفُرس

ومؤرّخو المِغول

- شاعر فارسيّ مؤرّخ: الفردوس، الشاهنامه، راية كاوه، موت
البطل رستم ١٦٥
- المستوفي، ميرخوندا، قطعة عن مون جنكيز خان، رشيد
الدين ١٧٦
- شاعر رحالة: ناصر خسرو ١٩٥
- مؤلف مذكرات بالعربية عن عصر جنكيز خان: النَّسَوِيّ، امير
مؤرخ من آل جنكيز خان: أبو الغازي ٢٠٠

٢١١ الفصل السادس

مؤرّخو التُّرك

- تُركٌ حَوْلِيُّون، مؤرخون سابقون، سعد الدين، قطعة عن فتح
القسطنطينية. نعيما، مؤرّخٌ للبحرية التركية، حاجي خليفة
ومذكرات بارباروس ٢١٣
- مترجمو احوال من التُّرك، كلماتٌ عن الشعر التُّركيّ، ثناء على عبد
الباقي ٢٢٦

- كُتِبَ رِحَالَةَ عَنِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَالْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ:
أُولِيَا أَفندي، محمد أفندي، رحلته إلى فرنسا في عهد لويس
الخامس عشر..... ٢٢٩
- مؤرخون مُحدثون: واصف أفندي، الحربُ التركية الروسية سنة
١٧٦٩، مناقبها السُّلمية، المؤرخ العسكري الميرآلای: أحمد جواد
بك، قصة الانكشارية..... ٢٣٨

٢٤٩

الفصل السابع الفلسفة السياسية

- عموميات، الماوردي..... ٢٥١
- العالمُ الاجتماعيُّ العربيُّ الكبير: ابن خلدون..... ٢٥٦
- الفيلسوفُ البَحَّاثُ: الجاحظ..... ٢٦٨
- الوزيرُ الفارسيُّ: نظامُ الملك..... ٢٨٢
- وزيرُ عاهل الهند أكبر: أبو الفضل، آيينُ أكبري..... ٢٨٩

٢٩٩

الفصل الثامن الأمثالُ والقصصُ

فائدتها من الفلسفة السياسية والأخلاق

- كلماتٌ عن الشعر العربي، عنتره، قطعةٌ من النابغة..... ٣٠١
- مجموعاتُ الأمثال: الزمخشريُّ والميداني، أمثالٌ حديثةٌ بأفريقيا
الشمالية، حكَمُ المجدوب..... ٣٠٤
- القصص: لُقمان، أسطورة بزُرْجَمِهَر وكنيلة..... ٣٠٩

- الف ليلة ليلة ، مسائل عن الأصل ، أستير وشهرزاد ٣٢٠
- فهرست الاعلام ٣٣١

